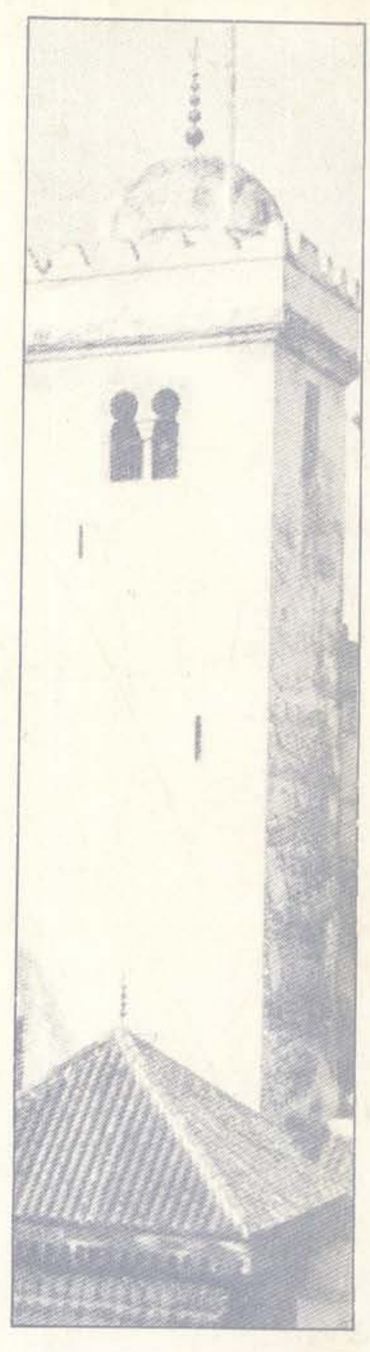


تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى

الجزء الأول

عرب المغرب القدماء ودولة الأشراف الأدارسة
وعصر أمراء زناتة

تأليف
دكتور عثمان عثمان اسماعيل
أستاذ الآثار والفنون
رئيس مشرف على الأبحاث بالتعليم العالي بالمملكة المغربية



ردمك 9981 - 9507 - 0 - × (المجموعة)

ردمك 9981 - 9507 - 1 - 8 (الجزء الأول)

سلسلة حضارة الغرب الإسلامي

تاريخ
العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية
بالمغرب الأقصى

الجزء الأول
عرب المغرب القدماء ودولة الأشراف الأدارسة
وعصر أمراء زناتة
الطراز المغربي العربي القديم والطراز الإسلامي المبكر

تأليف
دكتور عثمان عثمان اسماعيل

أستاذ رئيس مشرف على الأبحاث التاريخية والآثرية
بالتعليم العالي للمملكة المغربية
أستاذ الحضارة والفن الإسلامي بجامعة وهران
وخبير بإدارة الفنون الجميلة والآثار بالرباط سابقا
وعضو اتحاد المؤرخين العرب

الطبعة الأولى

1992

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ النمل آية 75

صدق الله العظيم

الغرب الإسلامي

الغرب أحسن أرض ولى دليل عليه

البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

رقم الإيداع القانوني

1992/893

تصميم الغلاف من وضع المؤلف

الأهداء

إلى روح والداي

والدي الذي علمني أعظم درس في الحياة.. وهو الثقة في الذات والإعتماد على النفس لمغالبة الخطوب وتخطي الصعاب، وأن أعظم شيء في الكون رجل شريف يصارع الحظ العاثر.

ووالدتي الحسيبة النسيبة الصالحة الطاهرة الصوامة القوامة، التي زرعت في قلبي شجرة الإيمان المطلق بالله وغرست في نفسي بذرة التعلق بآل بيت رسول الله.

إلى روحهما الزكية أهدي هذا الكتاب.

ولدكم

دكتور عثمان عثمان اسماعيل

تقريظ بقلم

معالي الأستاذ الرئيس الوزير محمد الفاسي

أول وزير للتعليم ورئيس أول جامعة عصرية
وزير الدولة في الثقافة
عضو الأكاديمية المغربية ومجمع اللغة العربية بالقاهرة
والمجامع العربية
ورئيس إدارة التنسيق بين اللجان العربية لليونسكو

يسعدني أن أقدم اليوم إلى الباحثين المتخصصين وجمهور المثقفين من قراء العربية والمتحمسين لاستعادة الوعي بالذات... عملا كبيرا يعتبر حصيلة سخية لاجتهاد وتمرس ومثابرة عكف عليها المؤرخ الأثري الدكتور عثمان عثمان إسماعيل سنوات طويلة.

إن موسوعة تارخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية التي اشتملت على خمسة مجلدات كبيرة كانت نتيجة مرجوة من باحث له تكوين علمي متخصص يقوم بدراسات جادة في نطاق الفكر العربي المتحرر من ضغوط المدرسة القديمة ومن ضغوط علماء الإستشراق الذين صحبوا حركة الزحف الإستعماري على العالمين العربي والإسلامي وقد استقر معظمها في أذهان الكثير من علماء العروبة والإسلام أنفسهم.

وأن الدكتور عثمان الذي تبنيت جميع أبحاثه العلمية التاريخية وكشوفه الأثرية منذ أكثر من ثلث قرن مضى لم يخيب الرجاء فيه وها هو بعد أن زود المكتبة العربية والفكر الإسلامي بموسوعته التاريخية والأثرية والفنية حول حضارة شالة الإسلامية التي جاءت نتيجة أبحاث تاريخية معمقة وكشوف أثرية موفقة صححت كثيرا من الأخطاء والمفاهيم السابقة عليها، وها هو اليوم يسد نقصا جوهريا في المؤلفات المتعلقة بالدراسات العربية والإسلامية العربية منها والأجنبية بتقديم موسوعة جديدة تتناول تاريخ العمارة الإسلامية بأنواعها الدينية والمدنية والحربية مع تخصص دقيق في جميع أنواع الصناعات الإسلامية والفنون الثابت منها والمنقول على مختلف المواد من حجر وجص ورخام ومعادن وعملة وخشب وخزف وفخار وغيرها بالإضافة إلى فنون الكتاب الإسلامي مما يجعل من هذه الموسوعة دائرة معارف شاملة وقاموسا جامعا لشوارد العمارة والفنون ووارادها.

لقد سبق لي أن أوضحت بالبحث المسهب الذي صدرت به موسوعته العلمية عن حضارة شالة الإسلامية منهجية المؤلف التي تقوم أساسا على البحث الميداني والعمل التطبيقي والدراسة المقارنة بعد استيعاب آراء القدامى والمحدثين شرقا وغربا عرباً وأجانب، وتقصي الأصول والمصادر في مظانها المبعثرة وآثارها المندثرة الأمر الذي أوصله إلى نتائج جديدة أصبحت تفرض نفسها في مجال الكشف عن الذات بالنسبة للمجالات الحيوية للعبقرية المغربية في إطار الفكر العربي الإسلامي الشمولي لجناحي الإسلام في المشرق والمغرب.

وسوف يلمس الباحثون من خلال هذا العمل الكبير مبدأ المؤلف المعتمد على النظرة الموضوعية والبحث الميداني والتحليل المقارن في نطاق الوعي بالذات للوصول إلى الحقيقة بعد تقصي الأصول ومتابعة الفروع لرد الفرع إلى الأصل وجمع النظير إلى النظير وتبويب الإنتاج وتحديد المعالم واستخلاص المميزات وتمييز الطرز وتحديد الأساليب.

لقد وفق المؤلف في الدفاع بموضوعية علمية منصفة عن معالم الحضارة المعمارية والفنية التي خلدتها عبقريات المبدعين من بنائيّ وفناني المغرب الأقصى مع التأكيد على ربط الصلات الحضارية بين مراكز الحضارة العمرانية بالمغرب الإسلامي ووحدتها مع مؤثرات وتأثيرات الحضارة الإسلامية المشرقية نتيجة الوحدة التاريخية الحتمية لحضارة الإسلام شرقا وغربا المدعمة ببحث الأصول والمصادر للعناصر المعمارية والفنية ومتابعة مسيرة العنصر الواحد من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه أو العكس واستجابة العوامل النفسية والإجتماعية والاقتصادية في ربوع الوطن العربي لانسجام واحد طوال أربعة عشر قرناً.

كما لا يعفينا الإيجاز هنا من الإشارة إلى نجاح المؤلف في الوصول إلى وضع فهرسة تاريخية وتبويب علمي للطرز والأساليب لم يُسبَق إليه فأقر لأول مرة تسلسلا حضاريا لتاريخ العمارة والفن كان البحث العلمي يفتقر إليه إذ جعل من ميراث العمارة والفنون المغربية قبيل الإسلام طرازا أسماه الطراز المغربي العربي القديم مؤكدا بذلك المصطلح العلمي عروبة المغرب القديم في دورة حضارية سابقة على حضارة الإسلام كان المستشرقون من مروجي سياسة الإستعمار الحديث يخفونها بكل افتراءاتهم المعروفة.

كما يبتكر المؤلف مصطلح الفن المغربي الإسلامي المبكر لفنون عصر الأشراف الأدارسة والزناتيين ثم يصحح مفهوم الطراز الاسلامي الذي ظهر بالعدوتين المغرب والأندلس ابتداء من ضم المرابطين للأندلس وإنقاذ الرجل المريض، فيما وراء البوغاز بفعل ملوك الطوائف إلى نهاية عصر المرينيين، وأبان عن دور المغرب الحضاري بالنسبة للأندلس سياسيا وحربيا وعمرانياً. لقد أطلق المؤلف اصطلاح الفن المغربي الأندلسي بدل اصطلاح الفن الأندلسي المغربي الذي يتمسك به المستشرقون مجافاة للحقيقة، وقد أيدتُ فكرة الدكتور عثمان ببراهين

أخرى جديدة أشرتُ إليها في تصديري لموسوعته حضارة شالة الإسلامية.

ويكمل المؤلف تبويبه للطرز الفنية بعد الفن المغربي الأندلسي بطراز الأشراف السعديين والعلويين بعد أن ظهر طراز جديد متميز بذاته في إطار التطور السياسي والحربي الذي أصاب المغرب والعالم المحيط به وما استجد من آلات عصرية ومنتجات آلية ومواد حديثة صناعية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف لم يترك مشكلة تاريخية معمارية أو فنية دون تشخيصها وفحصها والوصول إلى رأي (ما وسعه الجهد) بفكر متخصص ونظرة موضوعية مما جعل من هذه الموسوعة دليلا تاريخيا لحضارة المغرب العربي المسلم وتطور مراحلها الذاتية اقتصاديا واجتماعيا وعمرانيا في إطار الوحدة الجهوية والعلاقات العرقية والفكرية للعالمين العربي والإسلامي شرقا وغربا.

الجمعة 5 رجب 1404

6 أبريل 1984

محمد الفاسي

تقريظ بقلم

الأستاذ الهاشمي الفلالي أمين
وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية

ليس بخاف ما لتاريخ الأمم والشعوب من أثر بالغ الأهمية في زرع روح التفوق والنبوغ والاستمرار الذاتي في الأفراد والجماعات والشعوب. وكلما علا شأن هذا التاريخ وعظم حظه من المجد والسؤدد وسما بمآثره وصفحاته الخالدة كلما كان ذلك أدعى إلى الاعتبار والاتعاظ وأقوى مفعولا في التربية القومية والتكوين العام وأشد إثارة للهمم والارادات.

ولقد كان من دأب السياسة الاستعمارية في العالم العربي والاسلامي خاصة والسياسة الفرنسية في أفريقيا والمغرب بصفة أخص العمل على محو تاريخ الأمم الاسلامية والعربية بطرق متطورة وأساليب متنوعة وأفانين من الخداع والتضليل والمغالطة ليس أقلها إحياء تاريخها الجاهلي والبدائي والوثني أو صرف العناية والاهتمام للتاريخ الأوربي بمختلف الأساليب المغريه المثيرة للإعجاب.

ولعل في مقدمة ما ساعد الاستعمار الأوربي على هذا المنهج أن معظم التاريخ الاسلامي والعربي تاريخ حكام وحكومات وحروب وانتصارات أو انهزامات، من غير إعطاء الاهتمام بالجوانب الحضارية من تاريخ الشعوب، أو أقل عناية بالنواحي الأخلاقية والاجتماعية، والتطورات الفكرية والأدبية ومظاهر الحضارة العمرانية. وعدم الاهتمام بهذه الجوانب كتاريخ للشعوب وحضارتها متسلسل المعالم مما جعل عامة المتعلمين والطلبة وجمهور الدارسين من غير الباحثين والمتخصصين ينصرفون عن التاريخ انصرافا كليا أو يعتبرونه أقرب إلى الحكايات منه إلى العلم.

ولعله من نافلة القول إن هذه العوامل بالذات هي التي جعلت الطلائع الأولى من رجالات الوطنية في المغرب تنصرف لهذا المجال الحيوي الهام. حفاظا على هوية المغرب العربي المسلم ودفاعا عن حضارته وذاتيته ومحاربة لعمليات الاندماج والاستلاب الفرنسي الذي كان الاستعمار يمهد له بالمدرسة والكتاب والصحيفة والقوانين الوضعية. ومن ذلك منع دراسة تاريخ المغرب في المدرسة الاسلامية الأمر الذي دفعنا نحن الثلة الأولى علال الفاسي وعبد العزيز ابن ادريس رحمهما الله وكاتب هذه السطور لأن نشتغل بإحياء، تاريخ المغرب عن طريق

تحقيق وتحرير وطبع ونشر أمهات الكتب التاريخية كابن خلدون والقرطاس، في أول محاولة منذ ما يقرب من خمسين سنة لمقاومة المخطط الفرنسي الصليبي الاستعماري في هذا المجال. وهذا ما دفعني شخصيا، وبصفة أخص لأن أألف للمدرسة الاسلامية (دروس تاريخ المغرب) متحديا بذلك قرار الاقامة العامة بمنع تدريس هذه المادة على نحو يشكل أزهى وأنصع صفحات الجهاد الوطني الذي خضناه على مدى نصف القرن الأخير.

ولهذه الأسباب جميعها، واعتبارا للمعطيات السالفة الذكر، كان سروري عظيما وتقديري كبيرا لفضيلة الأستاذ الباحث المحقق الدكتور عثمان عثمان إسماعيل الذي طلب مني أن أكتب مقدمة لهذا الكتاب الجامع والسفر القيم الذي يحوي فُصولا شيقة عن العمارة المغربية والإبداع الحضاري الذي ساهم به شعبنا العربي المسلم في الفنون المعمارية الشاهدة على مدى الزمن على تفوقنا ونبوغنا وعلو كعبنا في الحضارة والذوق والفن والعلم.

وأود أن أغتنم هذه المناسبة لأشيد بجهود المؤلف العالم المتمكن الذي وفق إلى أبعد الحدود في إبراز دور المغاربة في تطوير أعرق الفنون الحضارية لدى أمتنا العربية الاسلامية والمحافظة عليها عبر الأحقاب والأزمان.

ومن الحق أن نقول، وقد وقفت على محتويات الكتاب، وأحطت بمدلولاته وأبعاده والأهداف الفكرية والتاريخية والحضارية التي يخدمها، إن عمل المؤلف في هذا المجال يعتبر خدمة للعالم العربي والاسلامي باعتبار أن حضارة المغرب المعمارية والعمرانية حضارة إسلامية عربية إستطاع المؤلف أن يبرزها في أشكال رسومها وصورها وكل مظاهر الجمال فيها المرتبطة بالحرف العربي والآية القرآنية والحكمة البيانية.

ولا شك عندي، أن هذا العمل الجليل خير ما ينير السبيل لأجيالنا الناشئة ويربط حاضرها بماضيها المجيد ويرسم لها طريق المستقبل الذي يحفظ على هذه الأمة دينها وحضارتها ومميزاتها وقيمها ومقوماتها وهذا ما يجعل المؤلف الفاضل الدكتور عثمان عثمان إسماعيل حقيقا بكل تقدير وجديرا بكل تنويه.

وفق الله العاملين لازدهار حضارة العروبة والاسلام، وكل في حقل عمله، والله المسؤول أن يجزي كل من أحسن عملا.

الرباط 27 جمادى الثانية 1403
موافق 11 أبريل 1983

الهاشمي الفلالي أمين
وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية

تقريظ بقلم

معالي الأستاذ محمد العربي الخطابي

وزير الاعلام الأسبق الباحث والمفكر والأديب
مدير الخزانة الملكية وعضو أكاديمية المملكة المغربية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

لايصبح تاريخ الدول والرجال ذا معنى إلا حينما يكشف عن معالم الحضارة ويبرز مقومات الفكر والثقافة، وهو بدون ذلك يبقى تاريخا جافا خاليا من الروح مجردا من الدلالات الإنسانية التي تتجلى في المعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصنائع.

وقد دأب الأستاذ المؤرخ الدكتور عثمان عثمان إسماعيل على البحث والتنقيب عن معالم حضارة الغرب الإسلامي مستهينا بالصعاب التي يلقاها الدارس عادة في هذا الميدان لأسباب عدة منها تبعثر المعلومات في بطون المؤلفات القديمة، وضرورة غربلة ما هو موجود في المراجع الأجنبية المتخصصة التي قد لا تخلو من لمزات أو أخطاء في الفهم والحكم، فضلاً عن المشاق التي يتطلبها التنقيب الفعلي عن تلك المعالم ودراستها في عين المكان ومقارنتها بغيرها والكشف عن خصائصها ومميزاتها بكيفية تحترم منهج البحث العلمي وتفسح للنظر الفاحص والاستنتاج القويم مجالاً واسعاً. وكلُّ هذا لا يتاح لغير الباحث المتخصِّص الذي تجتمع لديه المعرفة والمراس والقدرة على الملاحظة والمقارنة والاستنباط، فضلاً عن الولع بمادة البحث والانسجام معها جملةً وتفصيلاً.

لذلك فإنني قدرت المجهود الذي بذله الدكتور عثمان عثمان إسماعيل في تأليف كتابه الجديد «تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى»، فهو لم يقف عند حدِّ جمع مادة الكتاب وترتيب أجزائها ولمّ أطرافها ــ وهذا في حد ذاته عمل شاق محاط بالصعاب ــ بل إنه استخدم فكره، فحصاً وتحليلاً واستنتاجاً ــ مستعيناً بما وهبه الله من علم في مسائل الآثار والتاريخ، وما منحه من عزيمة في سبيل الإبانة عن إسهام المغرب في بناء الحضارة الإسلامية الشامخة.

ولقد أحاط الدكتور عثمان بالموضوع إحاطة شاملة فتوسع في إبراز خصائص العمارة والصنائع الفنية المتصلة بها، وأفرد للخطّ والمسكوكات والصناعات المعدنية والرخامية والخشبية مكاناً رحيباً، وربط الفروع بالأصول، وفحص الأشباه والنظائر، وميَّز بين الأساليب والمدارس، ومهَّد لكل ذلك بمدخل ومقدمات لا بدّ منها، وحَلَّى كتابه بالصور والخرائط وما إليها، وأفرغ هذا الجهد كلَّه في قالب قوامه النظرة الإسلامية الشاملة التي تفسح لأجيال الإسلام وشعوبه مجالاً رخيباً للنبوغ والمهارة والإبداع، على اختلاف الناس والأزمنة والأمكنة.

ولا شكّ أن هذا الكتاب الحفيل سيملأ فراغاً كبيرا في الخزائن الإسلامية العربية، وسيجد فيه الطلاب والأساتذة وعموم القراء الفائدة المرجوّة والمتاع الفكري الذي تتيحه مطالعة الكتب الجادة.

والله تعالى يوفِّق كلَّ من يخدم أمة الإسلام بالعلم والعمل وابتغاء مرضاة الله في السرِّ والعلن.

الرباط 8 ربيع الأول 1402
4 يناير 1982

محمد العربي الخطابي

تصدير العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور

مؤرخ المملكة المغربية وعضو الأكاديمية الملكية
بكتابنا حفائر شالة الإسلامية

بقيت دراسة الآثار المغربية ـــ إسلامية وغير إسلامية ـــ قاصرة على العلماء الأوربيين والأمريكيين إلى سنوات متأخرة والكتابة عنها مما تنفرد به لغاتهم، فكان الباحثون عن ماضي المغرب والدارسون له من العرب يحسون بنقص كبير، بل ويشعرون بخجل عظيم، لأن دراسة الآثار واستنطاقها واستنتاجات الأركيولوجيين مصدر قيّم من مصادر المؤرخ، لا غنى له عن الاستعانة به للوصول إلى حقائق ملموسة كانت لولاها مجرد طلاسم وألغاز تحوم حولها الأفكار وتتضارب بشأنها الآراء لسكوت الصحف المكتوبة عنها وإغفال المؤرخين إياها.

وقد بدت بعض البوادر التي تبعث على التفاؤل بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بما ألف بعض علماء المغرب من مؤلفات تاريخية ضمنوها أوصافاً لما تحتوي عليه مدن المغرب وقراه من مساجد ومدارس وقصور وحصون وحمايات وبروج، أو بما نقلوه إلى العربية بما كتبه عنها العلماء الغربيون، ولكن دراسة موضوعية متخصصة للآثار المغربية باللغة العربية لم تظهر لأول مرة إلا على يد الأستاذ الجليل العالم المقتدر الدكتور عثمان عثمان إسماعيل الذي ملكت آثارنا لبه وسلبت عقله فعاش إلى جانبها ومعها يوليها من عمله مثل الذي أولاها من حبه. ويرفع عنها الغبار ويجلو منها الصدأ لتبدو كالمرآة صقيلة تحدث رائيها وهي صامتة بأفصح لسان عما تقلبت فيه بلادنا المغربية من حضارة وعرفته طوال تاريخها من عمران.

عرفت الأستاذ عثمان عثمان إسماعيل منذ اختيار المغرب وطناً ثانياً له، ووصل بهجرته إليه وإقامته فيه ما لم ينقطع من هجرة العرب والمسلمين إليه وإقامتهم فيه على الرحب والسعة، فعرفت فيه الرجل المتواضع والعالم المقتدر، والمحب الصادق الذي أقام على حبه للمغرب وإخلاصه لملكه ألف دليل معرضاً نفسه أحياناً في سبيل الحب لأخطار الأنظمة الديكتاتورية المتربصة المتآمرة قريبها والبعيد، وأعجبت به وهو يقود الطلبة إلى خرائب شالة يكشف لهم

عن أسرارها ويشرح لهم ما يعمر به باطنها وظاهرها مثلما أعجبت به وهو يسير جندياً مجهولاً وسط مئات آلاف المتطوعين في المسيرة الخضراء، وطالعت بعض مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة فراعتني دقته في البحث وبداهته في الاستنتاج وإحاطته بالموضوع من جميع جوانبه وإلمامه بكل ما كتب عنه مثلما راعني أسلوبه الإنشائي وطريقته في الحجاج والمناقشة التي تدل على حيوية وروح نقادة وإذا كنت أراه يحمل التاريخ أحياناً مالا يتحمل ويفترض فروضاً تقوم قرائن كثيرة على ضعفها فما أراه إلا متأثراً بفكر العالم الأركيولوجي وطبيعته : يرى أثرًا قائماً ينطق بأنه راجع إلى عصر من العصور فيتشكك ويقول لابد من سبر للأغوار وبحث في الأعماق لعلنا نكتشف أنه قائم على أنقاض آثار أخرى ترجع إلى عصور سبقته، وعلى أي حال فإن فضيلة الرجل أن بصره وقاد وعقله نقاد، لا يسلم القول تسليماً لمجرد أنه صادر عن فلان أو وارد في كتاب.

نرجو أن يواصل الدكتور عثمان عثمان إسماعيل دراساته وأبحاثه عن الآثار المغربية، فكم في المغرب غير شالة من مدائن خربت، وربط درست، وقلاع طمست، وقصور ومدارس دثرت، انه ان فعل ذلك سيملأ فراغاً يحس به الباحثون والدارسون بمنتهى المرارة، ويفجر ينبوعاً غزيراً يرتوي منه كل متعطش لمعرفة ماضي المغرب الأقصى قريبه والبعيد.

وبما أن الخالق البارىء زاده بسطة في العلم والجسم فما أظنه إلا سيفعل اعترافاً بنعمه وشكراً لآلائه.

الرباط في يوم الأربعاء 21 شوال 1397
5 أكتوبر 1977

عبد الوهاب بن منصور

مؤرخ المملكة

المملكة المغربية
القصر الملكي

ضريح محمد الخامس

رقم 35

الرباط في 3 ربيع الثاني 1402
موافق 1982/1/29

من محافظ ضريح محمد الخامس
إلى جناب الدكتور عثمان عثمان اسماعيل
الرباط

الموضوع : كتاب عن ضريح محمد الخامس

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد، فإن مديرية ضريح الملك المرحوم محمد الخامس ترغب تأليف كتاب عن ضريح محمد الخامس يبين بكيفية علمية فنونه وروائعه ويشرح طرافته وبدائعه.

ولما هو معروف في جنابكم من كفاية واقتدار وفهم واسع للفنون الاسلامية والمغربية ارتأت ان تقترح على جنابكم تأليف هذا الكتاب.

فالمرجو إذا صادف منكم هذا الاقتراح استجابة ان تتصلوا بمحافظة الضريح لدراسة طرق انجاز هذا الكتاب والسلام.

توقيع محافظ الضريح

عبد الوهاب بنمنصور

تقريظ بقلم

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

مدير التعليم العالي ومدير مكتب تنسيق التعريب بالوطن العربي أستاذ الحضارة بالجامعات المغربية وعضو الأكاديمية الملكية بالرباط

يثري الدكتور عثمان عثمان المكتبة العربية وخاصة المغربية بفيض من الدراسات الميدانية في موضوع يكاد يكون بكرا هو (العمارة الإسلامية) وقد سبق للأستاذ أن أصدر الجزء الثالث من كتابه (حضارة شالة الإسلامية) ضمن سلسلة (حضارة المغرب العربي والأندلسي)، وهو يحتوي على سبعة فصول تنطوي على قسمين أولهما حول (الفنون الإسلامية بالمغرب الأقصى) والثاني بخصوص (النقوش العربية).

وهذا الجزء امتداد لجزئين سابقين (تاريخ شالة الإسلامية وحفائر شالة الإسلامية) قدم الدكتور خلالهما دراسة مقارنة رصينة كمحاولة لتأصيل جانب هام من معطيات الحضارة المغربية وإبراز الدور الطلائعي الذي قامت به مدينة شالة الإسلامية كمدينة رائدة في فترة حسبها الكثير من المؤرخين حقبة جمود وخمود.

ويصدر الأستاذ الفاضل اليوم سلسلة جديد في خمسة أجزاء من بحوثه الشيقة استكمالا للمسار العام لهذا المقوم الحضاري الحيوي مبرزا إسهام المغرب في بلورة كيان الأمة العربية من خلال الأضواء الملقاة على مظهر خلاب من مظاهر أصالتها وهو (العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية).

وقد وفق الأستاذ فيما أدلى به من خجج تاريخية وأثرية حيث استخلص مظاهر الروعة في بادرات الأدارسة والزناتيين في الفترة التي سماها Gautier بالعصور الغامضة في تاريخ

المغرب وقد تجلت هذه البادرات خاصة في مجالات أخاذة من المعمار العربي متبلورة في فنون الزخرفة والنقش التي يستشف الباحث من دقة تعاريجها ورقة مقرنصاتها وعمق خطوطها وتناسق أجزائها مشاعر الفنان المغربي الذي أشرف على إبداعها.

كما وفق الأستاذ عندما قسم «طرز هذه العمارة» إلى أربعة مظاهر مبرزا معالم هذا الطراز خلال أربع فترات وهي عهود الطراز المغربي العربي القديم (طراز البربر) والطراز المغربي الاسلامي المبكر (من نشأة الاسلام إلى بداية عصر المرابطين) وهو ما سماه كوتيي بالعصور الغامضة ثم الطراز الأندلسي المغربي الممتد من عهد المرابطين إلى آخر الوطاسيين (أفرد له ثلاثة أجزاء) وأخيرا طراز الأشراف السعديين والعلويين الذي ضمنه الجزء الخامس والأخير من بحثه الشيق.

وهو يعرف (الطراز الأندلسي) بأنه هو الفن الذي أنتجه المسلمون بالأندلس منذ بداية فتح الأندلس عام 93 هـ حتى تاريخ (وقعة الزلاقة) وهو فن عربي إسلامي جمع بين المؤثرات القوطية المحلية الضعيفة والتقاليد البربرية منذ الفتح ثم التقاليد الشرقية الأموية بعد نجاح الإمارة ثم الخلافة الأموية مع الطابع الاسلامي للفن الاسلامي المشترك (ج 2).

تلك سمات بادرة خلاقة تستهدف الأصالة والتجديد في حيوية مبدعة تتجلى في ثناياها تطلعات الفنان نحو التطور الموصول لتجلية أفضل وتحلية أمثل. وهو تطور استجلاه الأستاذ الدكتور من هيكل التخطيط المعماري في المساجد والمدارس ومختلف مجالات العمران منذ عهد الأدارسة للكشف عن خصائصها ومميزاتها وأبعادها الفكرية والدينية والاجتماعية مع التركيز على مواد بعينها مثل الفخار والخزف والزليج بمختلف أنواعه في صور ناصعة لمختلف تركيباتها الزخرفية.

وقد حاول الأستاذ الدكتور تحقيق تاريخ بناء مدينة الرباط بالجزء الثالث فلاحظ ورود اسم (مدينة رباط الفتح) في فترة حكم الخليفة عبد المؤمن بن علي سبع مرات في نصوص من كتاب (المن بالامامة) لابن صاحب الصلاة تغطي فترة تبتدىء من عام 553 هـ إلى 558 هـ وهو تاريخ وفاة الخليفة في حين لم يستعمل ابن صاحب الصلاة هذا الاسم قبل ذلك أثناء عرضه لأحداث المنطقة وقد أورد أمر عبد المومن ببناء الدور والأسواق بموقع رباط الفتح حول قضية المهدية منذ 545 هـ مع تكرار اسم (رباط الفتح).

وقد فرضت استنتاجات الدكتور عثمان الرصينة نفسها حيث برزت حقائق تاريخية جديدة قومت أود ما تداوله بعض المؤرخين من أخطاء.

وقد وضع الدكتور بيبلوغرافية عن شتى فروع الحضارة الاسلامية حول العمارة

والنقوش والعملة فاكتمل بذلك نسق هذه الدراسة الشيقة التي أسهمت في بلورة حقائق كان بعضها مجهولا في سلم ومقاييس الحضارة المغربية.

فهنيئا للأستاذ الدكتور بهذا التوفيق الذي نرجو أن يعقبه بحث جديد للكشف عن جوانب أخرى من حضارتنا المغربية.

وحرر بالرباط

عبد العزيز بن عبد الله

دلائل الكتاب

دليل الموضوعات

الصفحة

دليل الصور والأشكال

دليل الخرائط الملحقة

1 ـــ بيان أفقي ورأسي لدول وإمارات الغرب الاسلامي

2 ـــ خريطة الغرب الاسلامي الافريقي

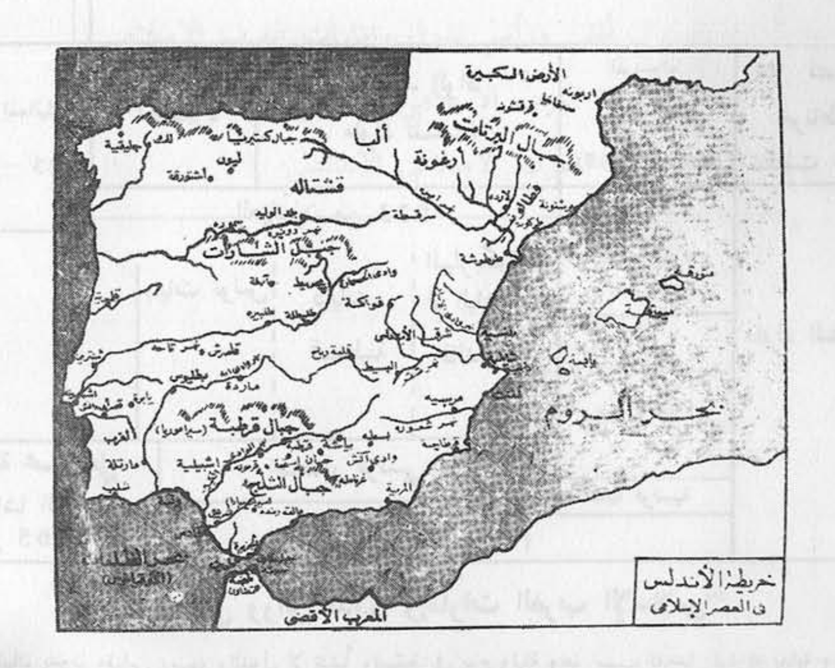
3 ـــ خريطة الغرب الاسلامي الأندلسي

مصر	(إفريقية) تونس	المغرب الأوسط الشرقي	المغرب الأوسط الغربي	المغرب الأقصى	إسبانيا المسلمة
الدولة الأموية (40 - 132 هـ)					
الدولة العباسية من 132 هـ					الأمويون بقرطبة والدولة العامرية (422/138)
الدولة الطولونية (292/254)	الأغالبة (296 - 184)	الدولة الرستمية (292/144)	بنو مدرار 140 - 354	الأشراف الأدارسة (343/172)	
الأخشيدية 358/323	الدولة الفاطمية	بنو زيري 361 - 405	بنو حماد 405 - 547	الزناتيون 462/313	ملوك الطوائف بنو هود بنو عباد.. (484/422)
العبيديون (567 - 296)			المرابطون (539/462)		
الأيوبيون (648/564)	امبراطورية الموحدية (674/527)				
دولة المماليك (923 - 648)	الحفصيون	بنو عبد الواد ملوك تلمسان		المرينيون والوطاسيون (961 - 668)	بنو نصر بغرناطة سقطت 898
	العثمانيون من 923: بايات تونس	دايات قسنطينة	البيلربكوات ثم الباشوات فالدايات	الأشراف السعديون 956/916 1069	ملوك النصارى
				الأشراف العلويون من 1069	
دولة محمد علي باشا الكبير من 1805 م	استعمار فرنسي			حماية فرنسية	
	استقلال تام				

بيان أفقي ورأس لدول وإمارات الغرب الإسلامي(*)

(*) – البيان بدون مقياس رسم، والدول لا تنشأ وتسقط في يوم وليلة وهو سبب تداخل تواريخ بداية ونهاية الدول.
– قصر المستشرقون اصطلاح شمال إفرقيا على تونس والجزائر ومراكش لعزلها عن مصر (وهي دولة شمال إفريقية جغرافياً) مركز ومحور اتصال المغرب العربي مع حضارة المشرق مهبط الوحي والموطن الأول للجنس العربي.

خريطة الغرب الاسلامي الافريقي



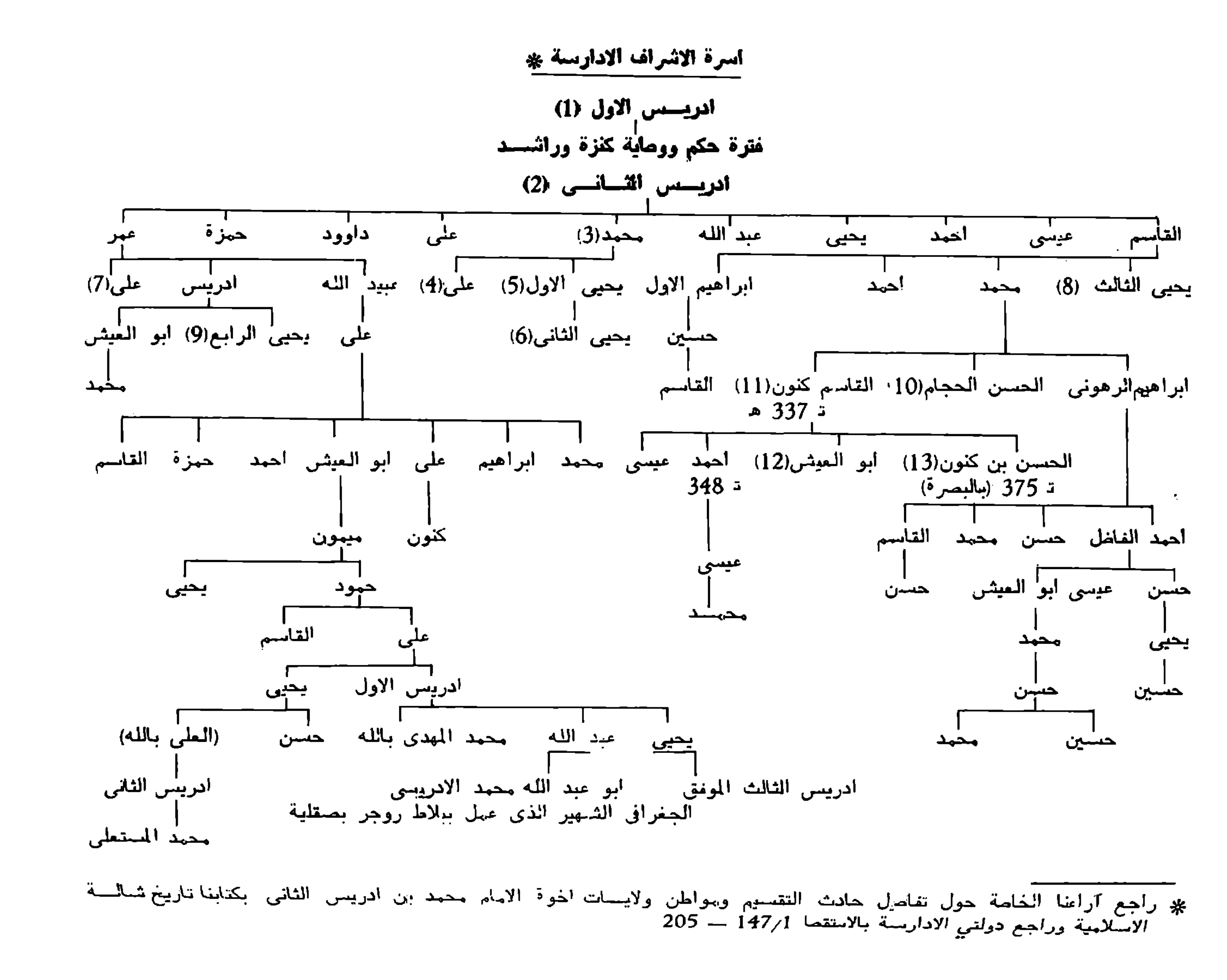
خريطة الغرب الاسلامي الأندلسي

دليل الأسر والدول الحاكمة

1 ـــ أسرة الأشراف الأدارسة
2 ـــ بنو يفرن الزناتيون
3 ـــ مغراوة الزناتيون
4 ـــ بنو أبي العافية المكناسيون
5 ـــ برغواطة المصامدة

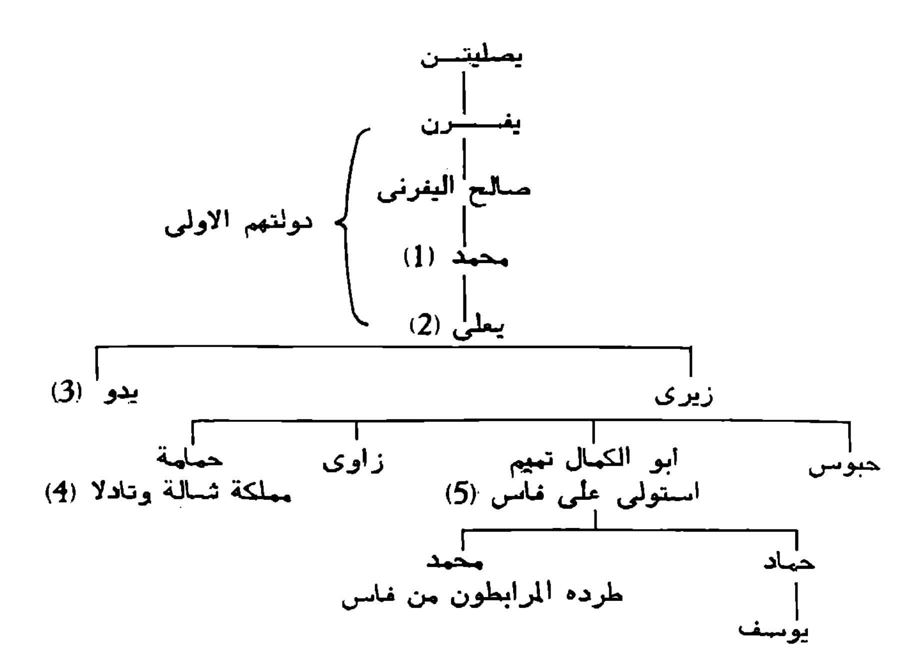
(1) نقلا عن بريت مع التنبيه إلى خطأ التواريخ والأرقام التي وضعها بجانب أسماء الملوك والرؤساء ويمكن تصحيحها بالرجوع إلى روض القرطاس وتاريخ عبد الرحمان بن خلدون والاستقصا وكتابنا تاريخ شالة وغيرها، كما يمكن إضافة أسماء أخرى غير واردة بكتاب بريت

أسرة الأشراف الادارسة *



* راجع آراءنا الخاصة حول تفاصيل حادث التقسيم ومواطن ولايـات اخوة الامام محمد بن ادريس الثانى بكتابنا تاريخ شمالـة الاسلامية وراجع دولتي الادارسة بالاستقصا 1/147 — 205

بنــو يفــرن الزنـــاتيــون



(1) كان رئيس بني يفرن مطلع القرن الرابع 332

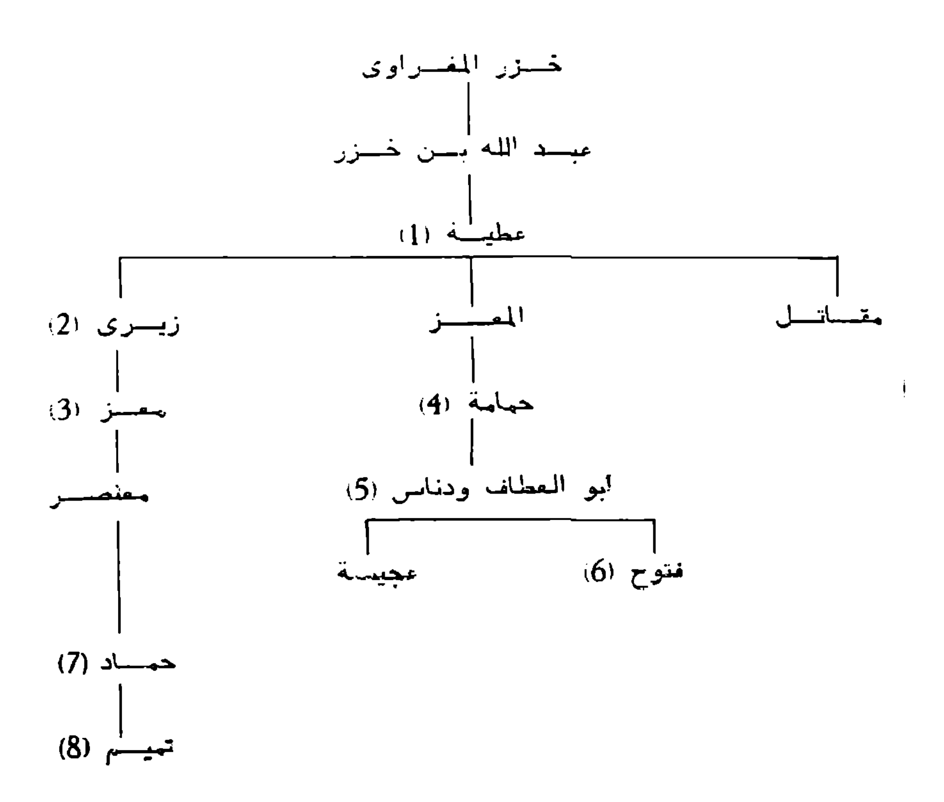
(2) قتله جوهر قائد الشيعة 347، الاستقصا 212/1 وهو مؤسس مدينة افكان

(3) دخل فاس 382 في غيبة منافسه زيري بن عطية بالأندلس ثم عاد زيري ابن عطية ودخل فاس وقتله 383 الاستقصا 212/1

(4) تصحيح ذلك بكتابنا تاريخ شالة الاسلامية

(5) استولى على فاس والمغرب 424 هـ وعندما هزمه حمامة المغراوي عاد إلى شالة حيث مات 446 ودفن بها ولحقه ابنه فقد اكتشفنا قبرهما بحفائرنا سنة 1958، التفاصيل بكتابنا تاريخ شالة الاسلامية

بنو زيرى بن عطية المغراويون الزناتيون



(1) ملك على زناتة 368 ودخل فاس 377

(2) قتل منافسه يدو اليفرني واسترجع فاس وبنى مدينة وجدة واستوطنها 384 ومات 391. الاستقصا 1/ 209 – 217

(3) أقره على فاس والمغرب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر 393 وتوفي 422 هـ

(4) وهو حمامة بن المعز بن عطية وليس ابن المعز بن زيري بن عطية الاستقصا 222/1

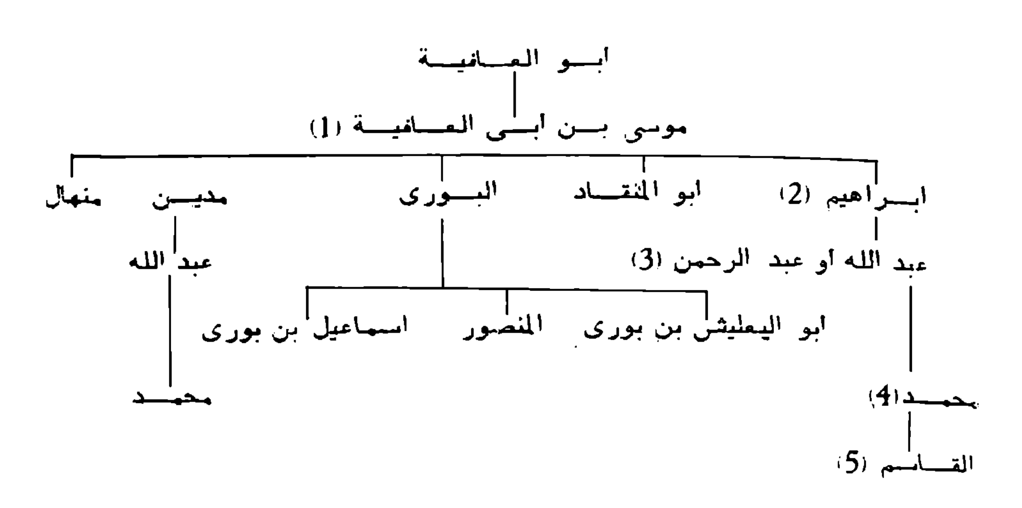
(5) توفي 452

(6) بنى باب فتوح الشهير إلى اليوم بفاس وبنى أخوه الباب الذي تحرف اسمه فيما بعد إلى الجيسة

(7) بايعته قبائل مغراوة بفاس 455 وتوفي 460 الاستقصا 1/ 223 + 224

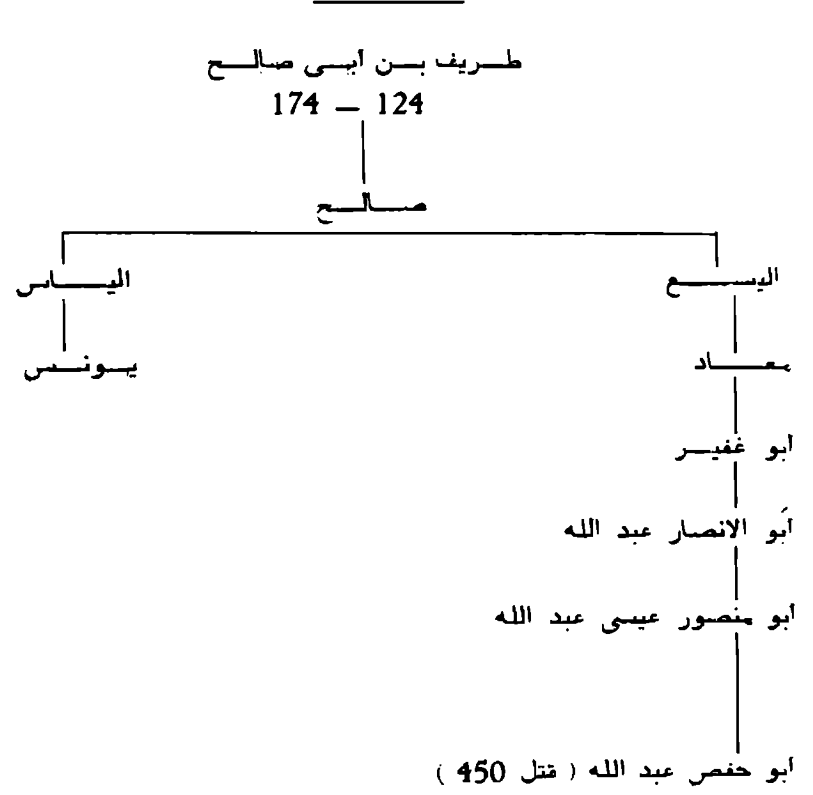
(8) قتله المرابطون 462 هـ ودخلوا فاس، الاستقصا 224/1

بنــو أبــي العــافيــة المكنــاسيــون *



* تصحيح التواريخ والأرقام التي أوردها بريت بالاستقصا ج 1 ص 191/190
(1) قتل 341 أو 328
(2) توفي 350
(3) توفي 360
(4) انقرضت الدولة على عهده 363
(5) قتل في حرب يوسف بن تاشفين 463

برغواطة



طريف بن ابي صالح
174 — 124
صالح
اليسع
الياس
يونس
معاد
ابو غفير
أبو الانصار عبد الله
أبو منصور عيسى عبد الله
أبو حفص عبد الله (قتل 450)

المقدمة

الحمد لله وحده

﴿.. وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾
سورة يس آية 12

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾
صدق الله العظيم.

وبعد، فهذا كتاب قد شغلت به منذ أمد بعيد وشغفت بموضوعه على نحو استغرق حياتي الفكرية والعلمية. وما كانت الآثار التي اكتشفتها والنظريات التي توصلت إليها والأبحاث والموضوعات التي سبق أن نشرتها، والكتب والمؤلفات التي ظهرت لي إلا عناصر عن مختلف مراحل العمارة والفن في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية بربوع المغرب السعيد.

والكتاب الذي نضعه اليوم في خمسة أجزاء بين يدي القراء والباحثين يعتبر أولا وأخيرا كتابا في تاريخ الأمة العربية. وهو بهذه الصفة يدفعنا إلى التساؤل عن مدى الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخ الأمة العربية من جديد، وعن مدى أهمية دراسة العمارة الأثرية والفنون التطبيقية عبر تاريخ الاسلام بالمملكة المغربية.

وهنا تبرز أمامنا عدة عوامل تتقدمها فكرة الوعي القومي الذي يقوم أساسا على شعور الأمة بماضيها الحضاري ثم تزايد الوعي التاريخي الملح لكتابة تاريخ الأمة العربية كتابة جديدة مستندة إلى الآثار المكتشفة وتطور أساليب البحث والاستقصاء برؤية وطنية من وجهة النظر القومية مع الالتزام بالصدق والمنهجية العلمية.

لقد لعب المغرب أدوارا حاسمة في مجالات الجهاد السياسي والحرب المقدسة، واجتمعت لديه مآثر عدة في مختلف ألوان الحضارة والعمران خلال مسيرته التاريخية المترابطة الحلقات وأصبح له القدح المعلى في فنون الفكر والثقافة والتشييد والبناء. وبهذا أصبح متميزا بين البلدان التي تصنع التاريخ حتى عرف بأنه البلد الذي يصنع المؤرخين.

وإذا كانت الدراسات التاريخية في اللغة العربية قد تناولت دور المغرب في نشر الحضارة بحوض البحر الأبيض المتوسط ودوره في العلاقات الدولية والديبلوماسية وأفسحت المجال

لدراسة أعلام الفكر والدين، فإن ميادين الحضارة المادية المتمثلة في الآثار والفنون والصناعات، تلك التي تعكس الجانب الفكري والثقافي والعقائدي وتشرح المستوى الاجتماعي والاقتصادي، لم تتح لها دراسة خاصة تلم شعثها وتجمع شتات تلك المفاخر ابتداء من أول ظهور الاسلام إلى القرن الرابع عشر من هجرة الرسول عليه السلام.

وإذا كانت الحضارة في عبارة موجزة تعني مجموع إبداعات الانسان وإنجازاته في الفكر والعمل، فإن التعرف على حالة العمران من حيث المساكن والمدارس والمساجد والقلاع والحصون والأسوار ومختلف الصناعات يساعد على معرفة الحياة الفكرية والثقافية والعقائدية لأن تلك المراكز العمرانية مازالت المهد الحقيقي الذي درجت فيه الحياة، كما أنها تشكل البيئة التي نبتت وترعرعت في جنباتها تلك الاتجاهات الفكرية والعقلية بحيث يمكن القول بأن أنواع العمائر التي ندرسها وفنون الصناعات المتصلة بها إنما كانت هي الوعاء الذي شهد انصهار العوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي انتجت نوع التفكير والابداع والانجاز الفكري والثقافي وأدت إلى أوضاع سياسية وعسكرية بعينها.

وبالاضافة إلى هذا وذاك، فإن حياتنا اليوم على الرغم من تطورها ليست كلها صواريخ وأقماراً صناعية وتفجيرات في البر والبحر. إنها على الرغم من تطورها السريع المهتز ليست مادية خالصة متجردة من ماضيها الانساني، كما أنها ليست حفارات بترول وعقولاً إلكترونية فحسب. إن الحياة مازالت على الرغم من ذلك كله آداباً وفنوناً وفلسفة وهندسة وصناعة.

لقد نشأت العمارة أولا كصناعة بسيطة للبناء، ثم تطورت في الحضارة الاسلامية على أرض المغرب وخلفت أعمالا من صنع بنائين وحجارين حققوا ابتكارات علمية طوال العصور الاسلامية مازالت تدهشنا إلى اليوم. فعلى الرغم من ظهور تخصصات عديدة في أنواع المهندسين المعماريين، مازال من الصعب الكشف عن كنه الروائع العلمية التي أنجزها بناؤون مغاربة في قصر البديع، وتفسير المنجزات المعمارية التي حققها المسلمون في مسجد حسان الجامع، والكشف عن أسرار وطبائع تلك الأعمال المتمثلة في تخطيط المدرسة البوعنانية بفاس وحلية مدرسة العطارين بعاصمة العلم والفن.

وحسبنا الآن محاولة الوصول إلى حصر وتقييم ذلك الطراز الجم الذي خلفته حضارة المغرب الاسلامية بما اشتملت عليه عمائره من تجارب ومبتكرات ومنجزات كانت صدى صادقا للمستوى الفكري والاتجاهات النفسية والعقائدية والارتباط بالأحوال والظروف الطبيعية، تلك العوامل التي لايمكن أن تنفصل عن الحالة المادية للبناء الذي يعبر عن رغائب الأمة ويفسر إرادتها.

إن الخط العربي الذي واكب تلك المباني قد تخطى جانبه الموضوعي إلى فكرة الحسن والجمال وشاعرية الحياة، كما أن الآيات القرآنية والأدعية الدينية التي لا يخلو منها بناء أو تحفة فنية، كانت تأكيدا وإصرارا على الايمان الأبدي.

إن المساحة البارزة التي تحتلها العمارة الدينية في سجل المنشآت المغربية لدليل على أن هذه الأمة ارتبطت خلال مراحل تاريخها بالدين منذ قيام أول مملكة عربية إسلامية على يد الأشراف الأدارسة أسباط رسول الله، ومنذ أن قام نظام الحكم أساسا على اتجاهات الاسلام كنظام للدين والدولة. إن مجرد الكشف عن تلك الحقيقة لكفيل بإزاحة الستائر عن محور الايديولوجية الثابتة في حياة الأمة المغربية وهي عقيدة الاسلام قولا وعملا، تلك الشريعة التي تجبُّ أبدا ما عداها من ايديولوجيات أخرى مستوردة.

وعلى هذا الأساس خصصت هذه الكتب الخمسة لتاريخ العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية في المغرب، ذلك القطر النائي عن قلب مملكة الاسلام، وطن جامع القرويين الذي ظل يرد السهام عن الاسلام ويحفظ نقاء جوهره ويدافع عن الجانب العقلي فيه، ووطن جامع الكتبية الذي يمثل تخطيطه منتهى التوازن الهندسي ويشرح الجانب الفكري الذي تمخض عن الاتزان الداخلي والقدرة على اتباع الحق ومؤازرته منذ فتح الاسلام للأندلس إلى واقعة الزلاقة ومعارك رمضان الأبرك بسيناء والجولان ثم إعادة الوحدة بين زائير وإقليم شابا.

وعلى هذا الأساس مرة أخرى، أردت أن أضع أمام الأجيال المغربية والعربية المعاصرة نموذجا متجددا للجهود الحضارية المتعاقبة القائمة على الشعور الذاتي العميق بالمثل والمبادىء والقيم، وأفتح أمامها نوافذ حياتها المستقبلة بتوثيق علاقاتها بماضيها، وأمنحها فرصة — وسط غمار المشاكل العصرية — تخلو فيها لاسترجاع نفسها ولم شتاتها وتجميع ذاتها.

ولا شك أن دراسة المحاولات الثقافية والفكرية التي تمثلها الآثار لا تعدو أن تكون جزءا من الوعي بالذات لأن العمارة والفن كانا ولا يزالان جزءا من الفكر، فلا بأس إذن إذا حاولنا جاهدين الدخول في عملية لاعادة تقييم الوجود، ففي حضرة الفن والعمارة عرفت أمم كثيرة ذاتها وتحسست مواهبها وسمت بنفسها.

ومن جهة أخرى، فقد وجدتني حريصا كمؤرخ وأثري على أن ألقي في النفوس محبة الحياة العربية الاسلامية التي وهبتنا تلك المفاخر الحضارية والعمرانية والفكرية والعقائدية.

كما أن دور المغرب البارز بالنسبة لافريقيا وتأصيله التأثيرات العربية الاسلامية بها، يعتبر مجالا لا يمكن أن تغفله تلك الدراسات. لقد كان المغرب نموذجا لحضارة الاسلام يقرب شعوب افريقيا إلى هذه العقيدة وأخلاقها ولغتها كمنهاج أوفق للعقل الافريقي وظروفه الاجتماعية والطبيعية.

وفضلا عن ذلك فقد وجب تنوير الأوربيين بمفاخر المغرب التاريخية وصفحته الحضارية نقية دون شوائب تحجب الرؤية الصحيحة، فالمغرب أقرب إلى معظم الأوربيين من كثير من البلدان الأوربية، ولهذا وجب تقدم الدراسات العلمية في مجالات الحضارة المغربية بما اشتملت عليه من ثمرات الفكر والفن والتأثير في مجريات الأمور على المحور الطولي الذي يمر بالجزر البريطانية وفرنسا وإسبانيا ليخترق آلاف الأميال إلى قلب إفريقيا.

وسوف أعتمد في تلك الأبحاث على منهج الفكر والمنطق والمناقشة والتحليل، والاعتماد على مظاهر العمران الثابتة التي تشرح مختلف الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، دون أن أخضع لضغط فكري لعديد من الأسماء المشهورة في عالم الاستشراق التي تخصصت في دراسة العمارة والفنون المغربية، ودون أن أخضع لضغط جمهرة المؤرخين القدامى الذين اعتمدوا على مجرد النقل، وإنما يممت شطر تحكيم العقل، والاعتماد على المشاهدة، واستخلاص النتائج للوصول إلى قواعد عامة وابتكار آراء حرة، وتقرير نظريات بريئة من الهوى مؤيدة بالحجة والبرهان من زاوية الرؤية العربية الاسلامية.

وإنني لآمل أن يكون من عوامل إنجاح تلك المحاولة اعتمادي على مصادر مغربية محلية قديمة مطبوعة ومخطوطة قد لا يتوفر عليها بعض الباحثين المشارقة، وإصراري على إبراز قيمة الفكر المغربي المعاصر بالاعتماد على كتابات النخبة الممتازة من الباحثين المغاربة الذين لايحصرهم عد أمثال الأستاذ الرئيس محمد الفاسي والأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة والأستاذ عبد العزيز بنعبد الله والعلامة سيدي عبد الله كنون والدكتور عبد الهادي التازي والبحاثة الأستاذ محمد المنوني وغيرهم.

وقد آثرت أن أقف بعض الأحيان لابراز العمل الفني النموذجي لعدد من العصور المغربية كما هو الشأن بالنسبة لجامع القرويين الذي نعتبره العمل الفني النموذجي لمختلف دول الاسلام بالمغرب، وأبواب رباط الفتح من عصر الموحدين، ومدارس فاس بالنسبة للمرينيين، وقصر البديع العمل الفني النموذجي لعصر السعديين، وقصور مكناسة بالنسبة لعصر المولى إسماعيل العلوي، وضريح محمد الخامس العمل الفني النموذجي لعصر الطفرة الحسنية المعاصرة.

وإذا كنا قد حاولنا تقسيم تاريخ العمارة والفنون المغربية إلى طرز ومدارس ذات حدود زمنية وجغرافية معينة على أساس أمثلة من العمارة والفنون ذات اتجاهات متقاربة، فإن أسلافنا الذين نفذوا تلك الروائع المعمارية والفنية لم يكونوا شاعرين بأن طرازا انتهى وطرازا بدأ، إذ ليس في حياة التجمع البشري المستمر مراحل فاصلة إلا ما قد يعتريه من خمول أو نشاط مما يجعل تسمياتنا للطرز والأساليب متمشية مع نوعية وسمات عصر من العصور.

وغاية ما يتمخض عنه جهدنا، هو البحث التاريخي والنقد الفني لتقييم مسيرة الحضارة وإلقاء أضواء مفيدة لجلاء ذلك التراث، فنواصل المسيرة من حيث انتهى السابقون المؤسسون فيرتفع البناء الحضاري.

وقد خصصت للخط العربي مكانا مناسبا في كل عصر من العصور ولا شك في أن فن الكتابة كان من أعظم الأعمال الحضارية في تاريخ الجنس البشري، كما كانت الكتابة ظاهرة إنسانية صادقة التعبير تحمل طابع العصر وتتأثر بما يتتابه من أحداث. ويرتبط فن الكتابة إرتباطا وثيقا بتاريخ فن الكتاب العربي وهو فن فريد من فنون العالم بما اشتمل عليه من خط وزخرفة وتصوير وتجليد ودراية بأنواع الورق وتركيب المداد والأصباغ. فكما تنوعت الخطوط العربية على مختلف أنواع العمائر والتحف الاسلامية وجد الخط العربي مجالا رئيسيا في فن استنساخ الكتب.

كما اختتمت كل بحث تاريخي بنماذج من الشعر العربي في وصف المدن والآثار والفنون والصناعات باعتبار الشعر مرآة صادقة للعصر الذي عاشه الشاعر.

وقد قسمت طرز العمارة والفنون الاسلامية بالمغرب إلى أربعة طُرز أسميت الأولى منها بالطراز المغربي القديم (طراز البربر)، وليس بخاف ما لهذه التسمية القومية من قيمة بالنسبة لتصحيح محاولات المستعمرين، وأطلقت على الطراز الثاني إسم الطراز المغربي الاسلامي المبكر الذي يمتد منذ نشأة الاسلام إلى بداية عصر المرابطين وهما موضوع الجزء الأول، وبعد ذلك يبدأ الطراز المغربي الأندلسي الذي نختلف مع المستشرقين ومن نحا نحوهم من العرب في تسميته بالطراز الأندلسي المغربي (L'ART HISPANO-MAURESQUE) إنصافا للحقيقة التاريخية، وهو الطراز الذي يمتد بطول تاريخ المرابطين والموحدين وبني مرين وأتباعهم الوطاسيين وهو موضوع الأجزاء الثاني والثالث والرابع ويأتي أخيرا الطراز الرابع طراز الأشراف السعديين والعلويين وهو موضوع الجزء الخامس بحول الله.

على أنني رأيت أن أخص الجزء الأول بمدخل لدراسة الحضارة الاسلامية بالمغرب العربي والأندلسي لحتمية العلاقات التاريخية حضاريا بين العدوتين مع مقدمة لجغرافية المغرب حيث لا يمكن الفصل في دراسة حضارة أمة من الأمم بين ما تنتجه عبقرية أهلها وبين نوعية الموقع الجغرافي وخصائص البيئة الطبيعية والمناخ ومميزات النبات وخصائص الثروات الطبيعية.

وفي الفصل الأول من هذا الكتاب يجد القارىء مبررا لضرورة وضع الأسس العلمية لدراسة الآثار العربية الاسلامية لتقوم المدرسة المغربية الحديثة على أسس ثابتة وثيقة الصلة بأصولها الفكرية.

وتتضح أهمية الفصل الثاني عن ينابيع وروافد الفن العربي الاسلامي من استكمال النقص الخطير الذي تعرضت له جميع دراسات الباحثين المشارقة غالبا، تلك التي بحثت عن الأصول التاريخية للفن الاسلامي في الجناح المشرقي فحسب، وفاتها أن الفن الاسلامي كان مدرسة كبيرة وساحة فسيحة لتبادل التأثيرات بين الجناحين الكبيرين بالمشرق والمغرب، ومن ثمة وجب

معرفة الأصول التاريخية المحلية للفن المغربي قبل الاسلام، تلك التي استوعبت فيما بعد توجيهات الدين الحنيف وأعادت إلى المشرق كثيرا من العناصر المعمارية والزخرفية حاملة معها تأثيرات شتى من ملامح الفنون المغربية القديمة أدخلتها في الكيان الحضاري بالجناح الشرقي إبان عصر ازدهار حضارة الاسلام.

وقد كان لزاما علينا تخصيص الفصل الثالث لدور الاسلام العظيم وتأثيره على الفن الاسلامي منذ مولده.

وإذا كان الفن المغربي يمثل مدرسة مستقلة بسمات خاصة متميزة بذاتها، فإنه أولا وأخيرا فرع من فروع الفن الاسلامي العام ولا يعدو أن يكون طرازا من طرزه المتنوعة ومدرسة من مدارسه المترعة. ولهذا درسنا بالفصل الرابع نشأة وتطور الفن العربي الاسلامي وظهور الطرز والمدارس وكشفنا عن خصائص الطرازين الأموي والعباسي التي كانت سائدة في جميع أنحاء الوطن الاسلامي بما فيه المغرب طوال فترة الخلافة المركزية بدمشق ثم بغداد قبل حركة الاستقلال السياسي والفني عن جسم الدولة العباسية.

وقد أبنت في الفصل الخامس المتعلق بالفن العربي القديم بالمغرب (الفن البربري) مدى تحضر المغرب كدولة عربية منذ ما قبل الاسلام نتيجة احتكاكه بدول وحضارات العالم القديم، ثم طابع الحضارة المغربية في دورة حضارية جديدة مع عرب المشرق الوافدين بالاسلام، وشرحت في هذا الفصل بقدر ما أسعفتني المصادر عناصر ومقومات الفن العربي القديم بالوطن المغربي.

ودرست في الفصل السادس العمارة الاسلامية في الطراز المغربي الاسلامي المبكر مبينا أصالة ذلك الطراز ومميزات عمارة الأدارسة والزناتيين إلى بداية ظهور دولة المرابطين حيث يتسم الفن المعماري بميسم جديد في العدوتين على السواء المغرب والأندلس نتيجة ضم يوسف ابن تاشفين أرض العدوة الأندلسية إلى حوزة المملكة المغربية.

أما الفصل السابع والأخير من هذا الجزء الأول فيعني بدراسة الفنون التطبيقية في عصر الأشراف الأدارسة ومن بعدهم الزناتيين ممثلة في منتجات الخشب والعملة والصناعات المعدنية والرخام والنقوش العربية القديمة، وقد اختتمناه بنماذج من الشعر العربي تتغنى بمآثر العمارة الاسلامية وفنون ذلك العصر.

ومهما يكن من أمر تلك الجهود، فليس من المتوقع أن يعيد مفكر متواضع في كتاب واحد سيرة الحياة البشرية بحضارتها ونتاج فكرها كما كانت في مسيرة أمة عظمى كالأمة المغربية ونظام أمثل كالنظام المغربي. ولعل عذري أنني حاولت أن أنتزع العبرة الحية من حتميات

التاريخ المتلاحقة وواقع سلسلة الآثار المتلاحمة عن طريق الدرس والبحث والتنقيب والكشف ثم التطبيق والاستنتاج، لأصل إلى الخصائص الثابتة في العبقرية المغربية.

وإذا كانت العبقرية قدرة ذاتية تخلق في ضمير الأمة قبل أن تبرزها الأعمال، فمما لا شك فيه، أن تقييم عبقرية الأمة بميزان العمل يكون أقوى في الحجة وأفصح في الدلالة. ولعل دراسة الآثار المغربية القائمة والمكتشفة على طول تاريخ ممالك الاسلام بالمغرب خير دليل على شرح تلك العبقرية، إذ هي تقربها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما.

والله تبارك وتعالى أسأل السداد، إنه نعم المولى ونعم النصير، وفق الله عبدا بلغ الجهد ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ صدق الله العظيم.

الرباط
المملكة المغربية

دكتور عثمان عثمان اسماعيل

مدخل إلى دراسة
الحضارة المعمارية والفنون الاسلامية
بالمغرب العربي والأ ندلس

مدخل إلى دراسة
الحضارة المعمارية والفنون الاسلامية
بالمغرب العربي والأندلس

جاء الاسلام دينا ودولة. دولة متحضرة بمعنى التكامل الحضاري بمفهومنا الحديث المشتمل على حصيلة التقدم الاجتماعي والعمراني والاقتصادي والثقافي والعلمي في جميع الميادين منذ نبذ الاسلام الرهبنة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[1].

وبذلك وضع الاسلام أساس الدولة العربية الاسلامية الكبرى التي خلقتها ثورته الفريدة وجددت في مراحل ازدهارها كل تلك العناصر الحضارية.

لقد كان اهتمام القرآن الكريم بالعلم والفن اهتماما بالغا يفوق الوصف فجر طاقات العرب والمسلمين على السواء، وجعل من هذا المنبع العظيم منطلقا لإشعاعات الثورة العلمية الأولى في ميادين السياسة والفلك والهندسة والطب والعمارة والفنون، تلك الثورة التي خلفت قوائم مجيدة من العباقرة وسلسلة ذهبية من المنجزات الحضارية تدل عليها وتشرحها تلك الآثار المعمارية والفنية التي تبقت لنا شاهدة على عظمة حضارة الاسلام التي استقت منها أوربا أسس نهضتها الحديثة (أشكال 1 – 5).

وقد تضمن القرآن الكريم دستور الاسلام العظيم، نصوصا صريحة تناولت كافة نواحي العناصر الحضارية المؤدية إلى التكامل الحضاري. فكان من تلك النصوص ما يمجد العلم والعلماء كقوله تعالى : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ...﴾[2] وقوله : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾[4] وقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[5] وقوله الكريم : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[6]

---

(1) سورة الحديد الآية 27.

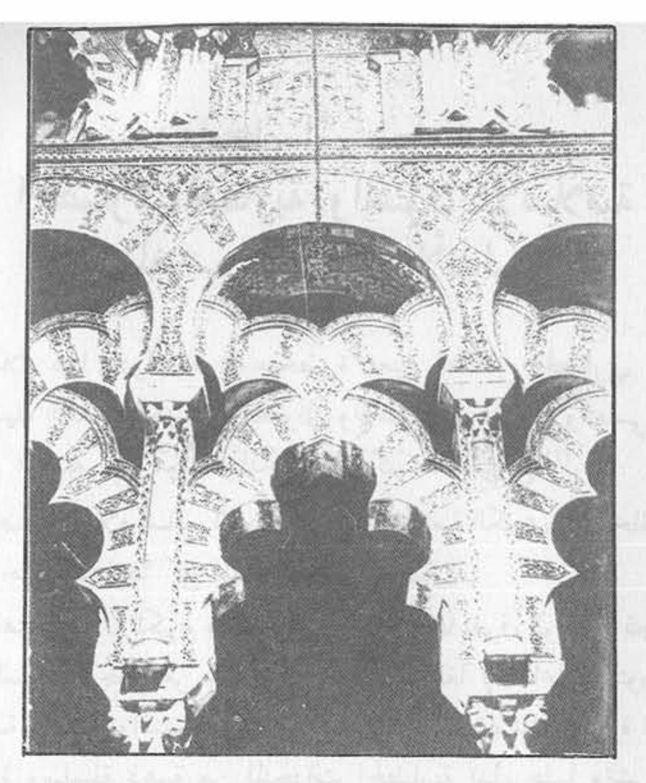
(2) سورة النمل الآية 40.

(3) سورة فاطر الآية 14.

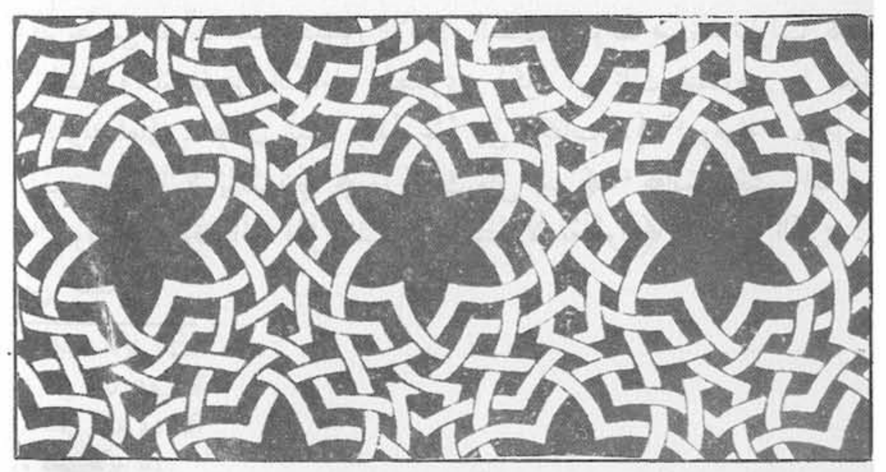
(4) سورة فاطر الآية 28.

(5) سورة النحل الآية 43.

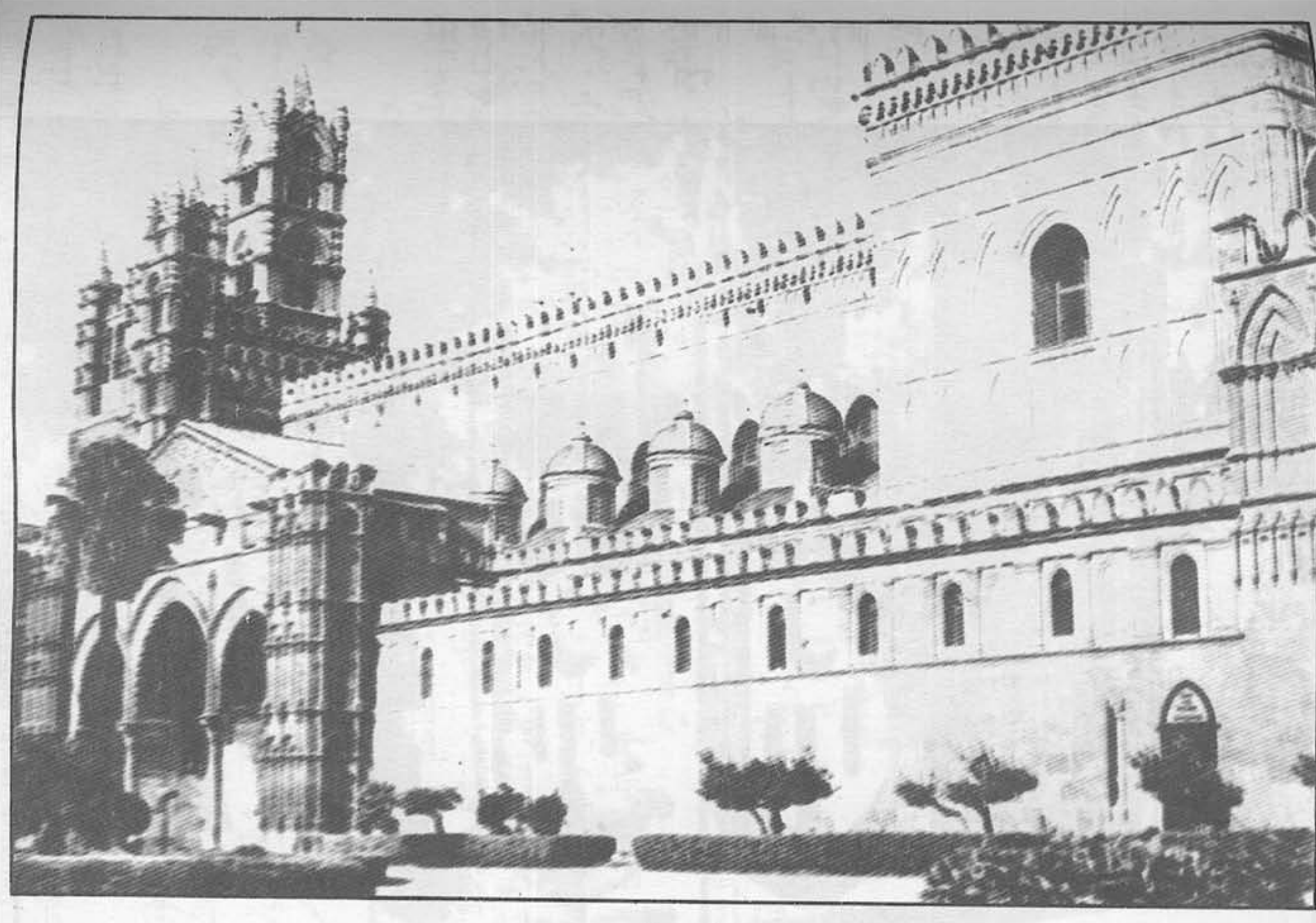
(6) سورة طه الآية 114.



شكل رقم 1
العقود المركبة والأعمدة المتصاعدة بجامع قرطبة

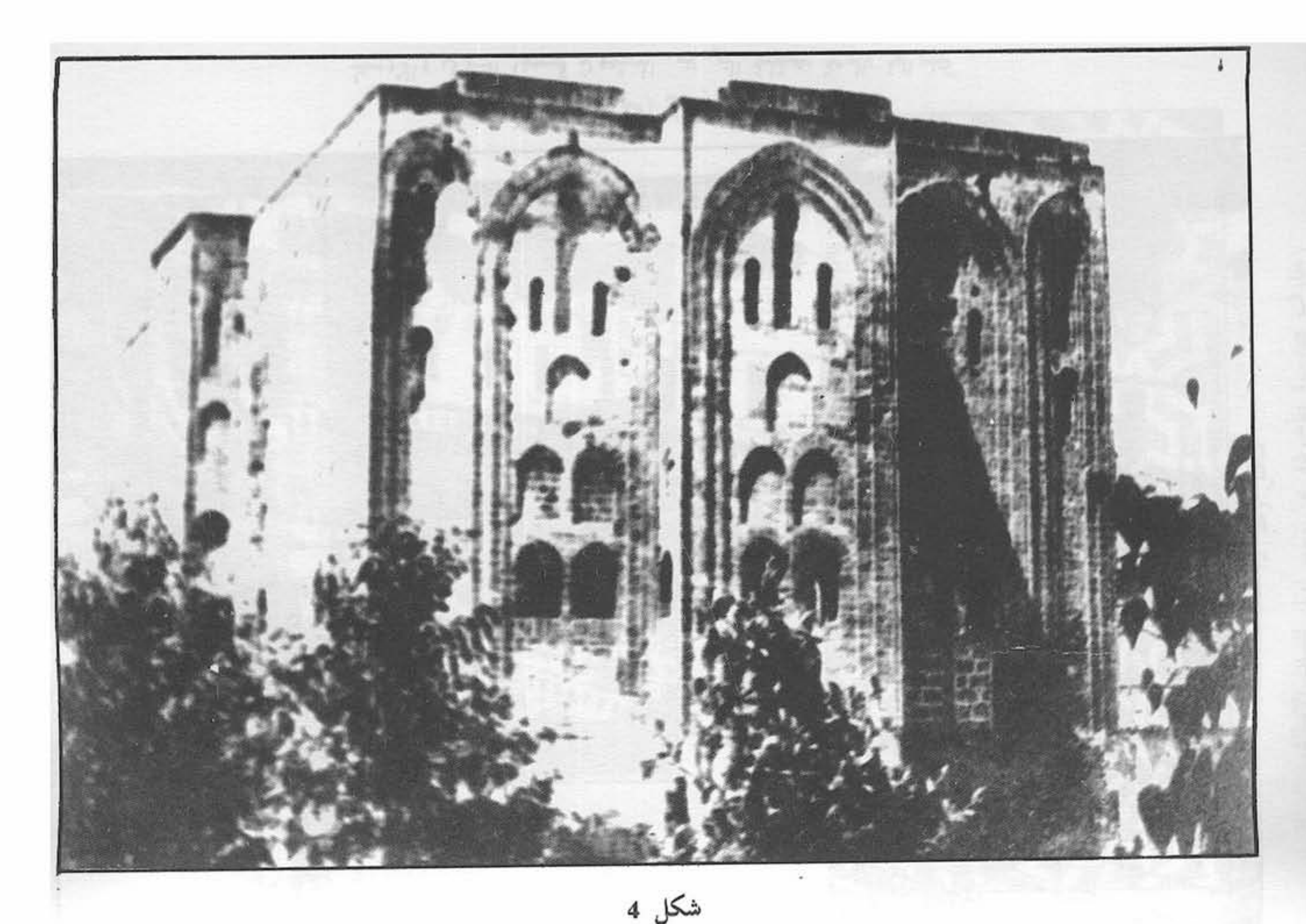


شكل رقم 2
زخارف هندسية مأخوذة عن رسم اولى للفنان الايطالي



شكل رقم 3

كتدرائية بالرمة بصقلية التي بنى المسلمون قسمها الشرقي والأوسط



شكل 4

قصر القبة من آثار المسلمين بضواحي بالرمة بصقلية

ولما كانت الكتابة والخط سبيل العلم والمعرفة قال سبحانه : ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ﴾[1]، كما أقسم بحروف الكتابة وأدواتها بل والكتابة نفسها بقوله تعالى : ﴿نُونْ وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونْ﴾[2] و ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٌ كِرَامٌ بَرَرَةٌ﴾[3] والسفرة هم الكُتَّاب ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[4] ﴿وَكِتَابٌ مَسْطُوْرٍ فِي رِقٍّ مَنْشُورٍ﴾[5].

كذلك أوضح لنا معالم الطريق وأمرنا بالبحث والنظر وترقب العلامات ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[6] كما جاء في سورة الغاشية ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

وعلمنا السياسة وأمرنا بالجهاد وأوضح لنا الخطط والتصرف بالغنائم والأسرى في قوله : ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[7] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾[8] ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾[9] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[10] ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[11] ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ... حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[12].

كذلك قرب إلى أذهاننا وصف النعيم المقيم بما تشتهيه نفوسنا من ألوان الرفاهية والاستمتاع الحلال بقوله ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[13].

---

(1) سورة العلق الآيات 3 و4
(2) سورة القلم الآية 1.
(3) سورة عبس الآيات 15 و16.
(4) سورة الانفطار الآيات 10 و11.
(5) سورة الطور الآيات2 و3.
(6) سورة النحل الآيات 15 و16.
(7) سورة التوبة الآية 41.
(8) سورة الأنفال الآية 60.
(9) سورة الأنفال الآية 16.
(10) سورة الأنفال الآية 41.
(11) سورة الأنفال الآية 67.
(12) سورة التوبة الآية 29.
(13) سورة الغاشية الآيات 13 ــ 16.

كما حثنا على العمران والانشاء بإشارات تناولت أنواع العمائر الدينية والمدنية والحربية كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾[1]، وعرفنا بناء السدود بقوله : ﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[2] كما أقسم بقوله تعالى : ﴿وَالبَيْتِ المَعْمُورِ وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ﴾[3] وقال تعالى : ﴿.. لِبُيُوتِهِمْ سَقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَأَنَّ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[4].

كما قال سبحانه : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾[5]، وكقوله في سورة الشعراء : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾.

وإذا كانت عناية القرآن الكريم بالنقش والكتابة على هذا النحو الذي سلف، فإن عنايته كذلك بمختلف أنواع الحرف والصناعات التطبيقية والفنون الزخرفية لأمر يدعو إلى الإكبار نجح في تهذيب الشعور وترقية الحس والوجدان وخلق روح الابداع والإبتكار. تأمل أيها المسلم قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾[6] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ...﴾[7] ﴿وَلِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[8] ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[9] ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[10].

كما يذكر الله في كتابه العزيز منتجات الصناعات من ذهب وفضة ونسيج وغيرها كقوله تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[11]

---

(1) سورة التوبة الآية 18.
(2) سورة الكهف الآية 96.
(3) سورة الطور الآيات 4 و5
(4) سورة الزخرف الآيات 33 — 35.
(5) سورة النحل الآية 80.
(6) سورة النور الآية 35.
(7) سورة النحل الآية 6.
(8) سورة النحل الآية 8.
(9) سورة النحل الآية 80.
(10) سورة النحل الآية 14.
(11) سورة الكهف الآية 31.

و ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1]. وعن صناعة الصحاف والقوارير نجد قوله تعالى : ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَاب كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾[2] ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[3] كذلك يذكر الأثاث كقوله ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[4]. بل إن صناعة الزجاج تأتي في تشبيهه المعجز ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[5]. كما أشار إلى الصناعات المعدنية من حديد وغيره بقوله عن داود عليه السلام ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، كما يقول في سورة الأنبياء ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾[6].

وكما علم الله أنبياءه صناعة الحديد علمهم كذلك صناعة الخشب وبناء السفن فلننظر إلى قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[7]، وحتى صناعة التماثيل فقد سخرها لنبيه سليمان في قوله : ﴿يعملون لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[8].



شكل 5

خزف إسباني بكتابات قوطية تقليداً لزخرفة الخزف الإسلامي

(1) سورة الحج الآية 23.
(2) سورة الانسان الآية 15.
(3) سورة الزخرف الآية 71.
(4) سورة الكهف الآية 31
(5) سورة النور الآية 35.
(6) سورة الأنبياء الآية 80.
(7) سورة المؤمنين الآية 27 وهود الآية 37.
(8) سورة سبأ الآية 13.

وبعد، فهذه هي العمارة والصناعات الزخرفية أو الفنون التطبيقية والنقوش العربية والخطوط التي أنزلها الله منزلة التشريف. وقد قامت جميعها حول المحاور الرئيسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، ونقصد بتلك المحاور : المهندس والبناء والحداد والنجار والمزخرف والفخار والجباص والمزلج والخطاط وغيرهم من أصحاب الحرف وأرباب الصناعات من المنتجين والمبتكرين وأصحاب المدارس والطرز.

ولكننا اليوم لا نستطيع التحدث إليهم ومناقشتهم فيما ابتدعوه من فنون الصناعات وقدموه لتراث الحضارة البشرية. ولهذا نلجأ إلى دراسة تلك المآثر التي خلفوها بعدهم على الحجر والجص والرخام والمعادن والخشب والعاج والزجاج والنسيج والورق والرق والجلد وغيرها بقصد التعرف على مشاعرهم الحقيقية وحتى نستشف روح العصر الذي عاشوا فيه دون أن يتوقف تأثيره فينا كتراث حملته الأجيال إلينا أحيانا وعجزت عن حمله القرون سليما أحيانا أخرى.

وعلى هذا الأساس كان لزاما علينا عند دراسة تاريخ الفن الاسلامي في عصوره الزاهرة أن نتبين تبعية التعبير الفني لنظرة الانسان إلى العالم المحيط به، واعتماد الفن على نوع انفعاله العاطفي بهذا العالم في الحدود التي رسمها الدين.

فالخزف ذو البريق المعدني يمثل تأثير الاسلام السلبي بالنسبة لاستعمال الذهب ونوعية الصراع النفسي للفنان الذي يتوق إلى التمتع بمباهج الحياة مع البعد عن مخالفة الخالق، وكيف ينجح أخيرا في تحقيق الغرضين الدنيوي والديني معا بابتداع ذلك النوع من الصحاف والقوارير الخزفية التي لها بريق الذهب والفضة دون أن تدخل في نطاق التحريم.

كذلك يلزمنا معرفة العمل الفني من جميع جوانبه المتعددة حتى نتمكن من تقديره والاستفادة منه كسجل لحضارة شعوب الاسلام التي خلدته ليحمل صفات تلك الحضارة ويعكس عناصرها جميعا إذا ما اتصفت بالكمال. ولا نعني بالكمال هنا الاعجاز في الصنعة فقد تلهي الصياغة عن رسالة الفنان الأساسية. ذلك أن الكمال الفني يكمن في تعبير الفنان الصادق عن نفسه وفلسفته وعن روح عصره ورغائبه. ويكفي أن يتصف العمل الفني بالمهارة والصنعة مع ضعف المعنى والتعبير لكي يسقط هذا العمل من عداد الفنون سواء كان ذلك شعرا أو موسيقى أو نحتا، كتلك الأشعار مسبوكة الصياغة والوزن خالية المعنى، إذ ليس الجمال في الصنعة نفسها، وإنما فيما تحمله من رسائل نحسها ونقرؤها وما توحي إلينا به من دوافع، وهو ما نريد أن نلمسه من خلال دراستنا لتاريخ الفنون الاسلامية.

إن التمثال الذي نحت في العصر الاسلامي يعكس ثقافة المسلمين الدينية والخوف من التشبيه بالخالق وخوالج النفس البشرية في جميع مظاهرها سجلت في الرخام، شأنها في ذلك

شأن المكتوب تماما في القدرة على التعبير. والأراسبك[1] العربية تمثل قصيدة الشاعر بما فيها من التزام القوافي والتقابل، وتحكي طبيعة الصحراء بما فيها من تكرار لوضع أقدام الخيل والجمال، ثم إخضاع العناصر النباتية للفكرة الهندسية التي تسيطر على تنسيق القصيدة والتي هي وليدة البيئة البدوية أو الصحراوية الأولى.

والعملة الاسلامية بوزنها وعيارها الذهبي تعكس صورة الاقتصاد المنتعش. والتحفة العاجية الأندلسية تسجل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية في قصور الأمراء، ومناظر الرقص والطرب والصيد ووثاق الاعداء على السواء. كما يلعب الخط العربي دورا بارزا على العمائر الاسلامية وكعامل مشترك بين جميع التحف المعدنية والخشبية والزجاجية، وحتى النسيج والسجاد، تعبيرا عن الوحدة العربية على جميع المنتجات الاسلامية.

وسوف تتجلى دراسة الفن الاسلامي عن كشف خاصية هامة تميزه، وهي وفاؤه للتطور كثمرة حتمية للتماسك الاجتماعي الذي جاء به الاسلام. ففي الفن الاسلامي لا يتلاشى عنصر مطلقا بل يتطور بشكل يمنحه صيغة إنشائية فيتحول عنصر زخرفي عرضي إلى عنصر معماري جوهري. وقد يتحول عنصر معماري أصلا إلى عنصر معماري زخرفي كما هو الشأن في المقرنصات والدلايات، أو إلى عنصر زخرفي بحت. وعندما يولد عنصر جديد، فإنه ينسجم مع المجموع المركب من العناصر الذاتية وتنشأ بذلك وحدة جديدة مناسبة للتطور، على عكس فنون أوربا مثلا التي تقفز من أسلوب إلى آخر متنكرة لأصولها على مر العصور.

فدراسة الفنون الاسلامية بهذا المعنى، تمكننا من تمثل البيئة الاسلامية الوضاءة وتطورها التاريخي، بما حوته من مدنية وعمران، وأثاث ورياش وتحف زينتها مختلف ألوان الصناعات والفنون التطبيقية، جاءت تعبيرا عن الجانب المادي للحضارة الاسلامية وهو نفس الجانب الذي يحكي قصة الجانب الروحي والفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي في نفس الوقت.

على أن البحث في تاريخ الفنون الاسلامية له قواعد كما أن له أدوات فمن اللازم الإلمام بالمراجع التاريخية أولا لمعرفة العصور ونشأة الدول وتعاقبها أو تداخلها ثم معرفة عامة بالمراجع التي تتناول موضوعات الحضارة الانسانية على العموم ثم الحضارة الاسلامية على الخصوص، فمراجع الأدب الاسلامي العام، ثم مراجع الفنون الاسلامية ومصادر دراسة العملة والنقوش العربية. وتتناول مراجع الفنون الاسلامية فرعين كبيرين بالذات وهما فن العمارة ثم الفنون التطبيقية. ولا غنى لباحث في الفنون التطبيقية عن دراسة العمارة الاسلامية إذ أنها تحمل فوقها قسما كبيرا من الفنون الزخرفية الملتصقة أصلا أو فرعا بالعمارة كالنقوش العربية والزخارف والعناصر المعمارية الزخرفية كالتيجان والأعمدة والأعتاب والمقرنصات وغيرها. كما يلزم الباحث في فنون الاسلام الزخرفية دراسة المتاحف وما تصدره من كتالوجات ومنشورات

(1) يسميها ابن جبير في رحلته تشجير.

ومعرفة نظم المتاحف محتوياتها وطرائق عرضها حتى يتيسر له دراسة ما فيها من تحف ونفائس عن طريق الدراسة المباشرة وعن طريق اللوحات والصور والرسوم والشرائح.

مصادر ومراجع دراسة الفنون الاسلامية بالمغرب والأندلس :

أولا ــ المصادر :

1 ــ الآثار الثابتة : وهي العمائر الأثرية التاريخية، فمن الضروري دراسة طرز تلك العمائر وأساليبها الفنية المشتركة بين جناحي العالم الاسلامي بالمشرق والمغرب والوقوف على أصول العناصر المعمارية وتطورها وانتقال تأثيراتها من منطقة لأخرى بالعالم الاسلامي الفسيح، وتعبيرات تلك العناصر والسمات المشتركة في العمائر الأثرية بين المغرب العربي والمشرق وبينه وبين الأندلس، وما تدل عليه هذه السمات من العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعلى الخصوص دلالات الأساليب الفنية المشتركة بين العدوتين المغرب والأندلس منذ فجر الاسلام حتى وقت ازدهارها بين العدوتين في عصر المرابطين والموحدين، للتعرف على مدى سيطرة المغرب على الأندلس في ذلك العصر. ومن المهم العناية بدراسة شخصية الطابع الغرناطي الذي ساد المغرب الأقصى في القرن الثامن الهجري لاستثماره في فهم حقيقة العلاقة السياسية بين بني مرين وبني الأحمر حتى نتعرف على موطن هجرة ذلك الفن واستقراره بالمغرب فيما بعد، ليستقر في حرز أمين في آثار فاس ومكناس وسلا وشالة والرباط وتطوان وغيرها.

ولما كانت تلك الآثار ما زالت تعتبر السجل التاريخي الحي والممثل الحقيقي لحضارة الاسلام في جناحه الغربي بالمغرب والأندلس، فمن اللازم إذن الرجوع إلى آثار تونس وسوسة والقيروان، وسدراتة، وقلعة بني حماد وتلمسان، وفاس وشالة والرباط، وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، للتعرف على الدور الكبير الذي لعبته تلك المراكز بالنسبة لحضارة الغرب الاسلامي وفنونه وعمرانه وأهمية ذلك بالنسبة للاقتصاد والاجتماع، وهو الهدف من دراسة تاريخ الاجتماع البشري، كما كان دور دمشق وبغداد والقاهرة بالمشرق الاسلامي.

2 ــ الآثار المنقولة : وهي التحف الممثلة لمختلف منتجات الفنون التطبيقية والعملة والنقوش العربية، وتدرس التحف بقصد التعرف على أساليب الصناعات ومواد تلك المنتجات للوقوف على مدى التطور الذي أصاب الصناعة والفن ومصادر المواد وقيمة الانتاج المعنوية التي تشرح لنا الحالة العقلية والفكرية لمجتمع بعينه في ذلك العصر. والعناية في دراسة النقوش تبدأ أولا بتحقيق الدراسات السابقة لامكان تصحيح أخطاء كثيرمن المؤرخين والكشف عن حقائق جديدة وأسرار لم تكن معروفة وتطور أساليب الخط العربي نفسه ومميزاته وخصائصه في كل منطقة وعصر بالمغرب والأندلس. وتهدف دراسة العملة الاسلامية إلى تحقيق التواريخ

التي تحملها وأسماء المدن التي سكت بها والأمراء الذين قاموا بضربها، وذلك لتصحيح الأخطاء التاريخية من جهة، (اعتمادا على مصدر موثوق به كالعملة) وتحقيق أخبار الملوك والأمراء، ومن جهة أخرى لتحديد صورة المعالم الاقتصادية للعالم الاسلامي الغربي بشقيه الافريقي والأندلسي.

ثانيا ــ المراجع :

وينبغي تصنيف هذه المراجع على نحو خاص يتناول تاريخ الفتح الاسلامي للمغرب والأندلس بروايتيه المشرقية والمغربية، ثم مراجع خاصة بكل منطقة من مناطق الغرب الاسلامي. وتأتي بعدها المراجع الشاملة لتاريخ وآداب الاسلام بالمغرب والأندلس فكتب الحضارة العامة فمراجع الآثار العامة عن المنطقة. وأخيرا تأتي الدراسات المتخصصة في الفنون الاسلامية على المستوى المحلي ومستوى الغرب الاسلامي بصفة عامة.

التاريخ :

من كتب المغازي تتمثل الرواية المشرقية وحدها في كتاب فتوح افريقية للواقدي (توفي 207 هـ).

وكتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم (توفي بالفسطاط 257 هـ).

وكتاب فتوح البلدان للبلاذري (توفي 279 هـ).

أما عن فتح الأندلس فلدينا رواية مغربية في (أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم) لمؤلف مجهول من القرن الرابع وكذلك كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (توفي 367 هـ).

ومن مصادر العلاقة بين المغرب الاسلامي وحلقة اتصاله بالمشرق في مصر نجد كتاب ولاة مصر وقضاتها للكندي (توفي 350) هـ).

ثم كتاب الخطط وكتاب اتعاظ الحنفا للمقريزي (توفي 845 هـ) ثم النجوم الزاهرة لابن ثغري بردي وحسن المحاضرة للسيوطي.

ونعود إلى المصادر المغربية المبكرة فنجد على سبيل المثال كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيرواني، والمغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب للبكري وكلاهما من القرن 5 هـ.

ومن المصادر المغربية الشاملة كتاب المعجب في أخبار المغرب الذي فرغ منه عبد الواحد المراكشي 621 هـ.

ثم كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي الذي ألفه حوالي 712 هـ.

ثم الأنيس روض القرطاس لابن أبي زرع الذي انتهى في حوادثه إلى عام 726 هـ.

ثم أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب المتوفى 776 هـ وعلى الخصوص القسمين الثاني والثالث منه.

فالمقدمة وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى 808 هـ.

ومن مصادر التاريخ الاسلامي العام المفيدة في الموضوع كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير المتوفي 630 هـ، ونهاية الارب في فنون العرب خاصة الجزء الثاني والعشرين الخاص بالمغرب والأندلس للنويري المتوفى 733 هـ.

ومن المصادر المغربية المحلية، وقد ذكرنا منها سابقا كتاب الرقيق القيرواني عن افريقية (تونس)، نضيف كتاب الأئمة الرستميين لابن الصغير المالكي.

ثم كتاب بغية الرواد ليحيى بن خلدون مؤرخ دولة ملوك بني زيان بتلمسان وكتاب البيدق المسمى أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين.

فروض القرطاس والزخيرة السنية وروضة النسرين عن الدولة المرينية ثم جمهرة الأنساب لابن حزم والزخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام المتوفى 541 هـ، وتاريخ المن بالامامة لابن صاحب الصلاة تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، ومؤلفات لسان الدين بن الخطيب العديدة ورسائله حول تاريخ الأندلس الاسلامية بوجه عام ثم تاريخ بني نصر بغرناطة على الخصوص ومنها كتاب صبح الأعشى للقلقشندي المتوفى 821 هـ لدراسة الخطوط العربية وأنواعها وأدوات الكتابة والحبر والورق وأنواعه، ثم كتاب نفح الطيب للمقري.

هذا ولا تبعد كتب الرحلات أيضا عن الموضوع، فرحلة ابن جبير الأندلسي إلى المشرق عامرة بوصف الزخارف والعناصر المعمارية والنقوش وأسمائها العربية الأصلية.

وبعدها تأتي رحلة ابن بطوطة فرحلة العبدري ثم رحلة التجاني ورحلة العياشي.

وتفيد كتب الرحلات في الوقوف على وصف الآثار والتحف والهدايا والمصنوعات التي كان يستعملها الرحالة أو يشاهدونها، بالاضافة إلى رسم صورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية أيضا للمجتمعات الاسلامية التي خلفت تلك التحف والعملات والصناعات التطبيقية.

مراجع في الحضارة الاسلامية العامة :

يعتبر كتاب الأغاني لابن الفرج الأصبهاني مصدرا هاما للمشتغلين بالتاريخ الاجتماعي بصفة عامة والفنون بصفة خاصة لما يشتمل عليه من وصف للحلي والملابس والأثاث وآلات

الطرب وأدوات الشراب وما تضمنه من أشعار تشتمل على وصف دقيق حفظ كثيرا مما ضاع من روائع التحف النفيسة.

وكذلك كتاب الظرف والظرفاء للوشاء الذي عنى بقواعد اللياقة من حيث الملابس والموائد والهدايا والعادات. ومطلع البدور في منازل السرور لمؤلفه الغزول الذي يصف المنازل وما ينبغي أن يكون عليه بناؤها، كما يصف الفرش والمساندة والأرائك وخلافها.

ومن الكتب الحديثة أو المعاصرة في الحضارة الاسلامية العامة :

تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان.

وكتاب الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي، وتاريخ الحضارة الاسلامية الذي نقله إلى العربية حمزة طاهر، والحضارة الاسلامية في القرن الرابع تعريب محمد عبد الهادي، وحضارة العرب، تعريب عادل زعيتر.

مراجع مباشرة في الفنون الاسلامية والنقوش العربية :

المراجع العربية :

ويأتي في مقدمتها كتاب فنون الاسلام للمرحوم زكي محمد حسن وهو مرجع عام شامل لفنون الاسلام من عمارة وفنون زخرفية بمختلف مناطق العالم الاسلامي.

ثم كتاب الفنون الاسلامية الذي وضعه ديماند وعربه أحمد عيسى، الفن الاسلامي في مصر والتصوير في الاسلام عند الفرس وكتاب الفنون الايرانية لزكي محمد حسن.

ثم المسجد الجامع بالقيروان ومساجد القاهرة ومدارسها في ثلاثة أجزاء وخاصة المدخل للدكتور أحمد فكري الذي عني بمناقشة المستشرقين ووضع أسس ومبادىء دراسة الفن الاسلامي، وكذلك كتاب ترات الاسلام الذي عربه زكي محمد حسن، ورائد التراث العربي الذي اقتبسه صلاح الدين المنجد والفهرست لابن النديم، والصاحبي لاحمد بن فارس، والعقد الفريد لابن عبد ربه.

وكتاب المرحوم حسن حسني عبد الوهاب باسم ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية وقد اشتمل على أبواب في الفنون والنقوش والكتابات العربية والعملة، وبحث محمد المنوني حول مجموعات المصادر التاريخية المغربية في مجلة البحث العلمي الصادرة بالرباط يونيو 1975. ثم مظاهر الحضارة المغربية للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله.

والمقالات التي نشرناها عن نشأة الفن الاسلامي وأصوله وتأثيره على فنون الغرب وطرز الفن الاسلامي ببلاد المغرب والأندلس بمجلة دعوة الحق بالرباط : فبراير ومارس، ومايو، ويونيه، ويوليوز عام 1960 م، وبحثا عن شالة في كتاب الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية عن المؤتمر الثالث للآثار المنعقدة بالمملكة المغربية 1959 م.

وبحثنا عن حيوية فنون شالة في الكتاب التذكاري لجامعة محمد الخامس بالرباط 1967 م، الذي أصدرته الجامعة تحت اسم متنوعات محمد الفاسي.

ثم بحثنا عن الخزف الاسلامي المغربي بكتاب الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية عن المؤتمر الخامس للآثار المنعقد بالقاهرة 1969 م.

وكتبنا : الآثار الاسلامية بالمغرب العربي وحرب المستشرقين، ومظاهر الحضارة المعمارية والفنون في شعر ابن زيدون، ودراسات في تاريخ العمارة المغربية على عصر الأشراف السعديين والعلويين وكتابنا دفاعا عن حضارة الاسلام في المغرب.

وأخيرا كتبنا الثلاثة، تاريخ شالة الاسلامية، وحفائر شالة الاسلامية، ثم الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى التي صدرت عن دار الثقافة ببيروت.

وللتعرف على موقف الاسلام من الفنون يراجع كتاب (جامع الأصول من أحاديث الرسول) لابن الأثير وخاصة الباب السابع في الصور والنقوش والستور والمصورين.

ومن الضروري كذلك الرجوع إلى جميع الأبحاث المتعلقة بالموضوع والتي نشرت بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ومجلة كلية الآداب بالرباط، وكتالوجات ومنشورات المتاحف الاسلامية وإدارات الآثار بالبلاد العربية، وأخيرا المصادر المباشرة كالوثائق بما فيها مجموعات الرسائل التاريخية والحوالات الوقفية والسجلات المتنوعة ثم العملة والنقوش العربية الواردة تفصيلا في دراسة العلامة المحقق محمد المتوفى عن مصادر البحث المغربية.

المراجع الأجنبية :

1 - مراجع الحضارة الاسلامية الأندلسية :

R. Altamera : تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية صدر في برشلونة 1911 في أربع مجلدات، ولنفس المؤلف : تاريخ الحضارة الاسبانية، مختصر صدر بمدريد 1928.

L. Provençal : حضارة العرب في الأندلس (تعريب زوقان قرقوط) ولنفس المؤلف : إسبانيا المسلمة في القرن العاشر (نظم وحياة اجتماعية) باريس 1932.

وله كذلك : معلومات من أجل تاريخ اجتماعي واقتصادي للغرب الاسلامي، وذلك لارتباط حضارة الأندلس بحضارة المغرب الأم.

2 – مراجع الفنون والنقوش والعملة :

P. Ricard : Pour comprendre l'Art Musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne. Paris, 1924

G. Marçais : L'Art de l'Islam. Paris, 1946.L'Architecture Musulmane d'Occident, Paris, 1954.

Bernard Roy et Paule Poinssot : Inscriptions de Kairouan, Publ. de l'Institut des H.E. de Tunis, 1950 et 1958.

Général L. de Beylie : La Kalaa des Béni-Hammades, Paris, 1909.

L. Golvin : Le Maghreb Central à l'époque des Zirides, Paris, 1957.

G. Marçais : Tlemcen, Paris, 1950.

Commandant Demaeght : Catalogue Raisonné du Musée de la ville d'Oran, 1932.

وترجع أهميته إلى وجود عملة عربية من مختلف عصور المغرب العربي والأندلس.

G. Deverdin : Les Inscriptions Arabes de Marrakech, Rabat, 1956.

H. Terrasse et Jean Hainaut : Les Arts décoratifs au Maroc, Paris, 1925.

H. Terrasse : L'Art Hispano-Mauresque, Paris, 1932.

E. Kuhnel : Maurische kunst.

L. Provençal : Les Inscriptions Arabes de l'Espagne.

Danieul Eustach : Corpus des dirhams idrissites et contemporains, Rabat, 1970-1971.

كما توجد دراسة عن النقود الموحدية والمرينية نشرها بريطوبيبيس ضمن مجموعة دراسات ونصوص عربية في مدريد 1915، ثم تاريخ المغرب من خلال البحوث النقدية الذي نشره بريت بالدارالبيضاء 1939، وكتاب دانييل أوسطاش الذي نشره بنك المغرب تحت عنوان : الجامع في الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها وسبقت الاشارة إليه.

3 – الحوليات والمجلات العلمية والأبحاث التي نشرتها مؤتمرات المستشرقين :

أعطينا تفصيلا كاملا عن ذلك في البيبليوجرافية بكتابنا (دراسات جديدة في الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى) ونشير الآن بالتخصيص إلى :

مجلة Hesperis التي كان يصدرها معهد الدروس العليا المراكشية بالرباط بالفرنسية، ودائرة المعارف الاسلامية، والجريدة الأسيوية، ومجلة Ars Islamica التي تصدر بالولايات

المتحدة باللغة الانجليزية وخاصة أبحاث G. Miles والباحثة N. Abbott

ففي تلك المجلات مئات الأبحاث المتخصصة في الفنون الاسلامية والنقوش العربية والعملة تغطي معظم مناطق الغرب الاسلامي بالمغرب العربي والأندلسي لا سبيل إلى حصرها ولا غنى لباحث عنها لمعرفة مدى ما وصل إليه المستشرقون من جهة، ولتصحيح بعض الاتجاهات أو الأخطاء من جهة أخرى، وهو واجب قومي تقتضيه الدراسة الواعية.

مقدمة
في جغرافية المغرب الأقصى

مقدمة في جغرافية المغرب الأقصى

لاشك أن عناصر العمارة والفنون والصناعات التطبيقية إنما هي عصب التجمع البشري والعمران الانساني. ولا شك أن تلك الآثار التي خلفها الانسان العربي على أرض المغرب إنما كانت نتيجة احتكاكه المادي والذهني بظروف البيئة الطبيعية بما فيها من موقع وتضاريس ومناخ وغلات، كما كان نتيجة ظروف أخرى سياسية داخلية وخارجية.

وهكذا فإن الإلمام بجغرافية البلاد ومناخها يساعد كثيرا على تفسير المظاهر المعمارية بل والظواهر السياسية والحربية ذاتها، فلم يكن طارق بن زياد ليعبر المضيق بأسطوله وحشوده قبل أن يعرف طبيعة ذلك المضيق المائي وظروف البيئة الطبيعية بالعدوة الأندلسية وتخير الوقت المناسب لذلك، إن المنصور السعدي ما كان ليدفع بقوات المغرب جنوبي الصحراء إلى قلب إفريقيا في الفيافي والقفار قبل معرفة طبيعة تلك الأراضي وتحديد أساليب مواجهتها.

وما زالت الحاجة إلى معرفة الظروف الطبيعية والمناخية متصلة عبر التاريخ قبل الاقدام على تنفيذ الحركات الكبرى فقد تخير حكيم العرب الحسن الثاني ملك المغرب توقيتا معينا قبل أن يدفع آلاف المواطنين لتحرير الصحراء بالمسيرة الخضراء.

الموقع

يعتبر المغرب الأقصى ضمن بلدان المغرب العربي التي تشرف على البحر المتوسط وتتصل عن قرب بجنوب أوربا (اسبانيا وايطاليا) حيث لا يفصل المغرب عن أوربا غير مضيق جبل طارق الذي لا يتجاوز اتساعه 13 كيلومترا. ولكن المغرب الأقصى يتميز عن الجزائر وتونس بوجود المنخفضات التي تشغلها المياه شمالا وغربا ممثلة في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي كما يتميز عن جارتيه بزيادة ارتفاع جباله وكثرة اتساع هضابه وسهوله بينما يتفق مع الجزائر في امتداده الصحراوي جنوبا.

ويقع المغرب بين خطي عرض 21 درجة 20 ثانية و36 شمال خط الاستواء،[1] وتبلغ

(1) بعد استرجاع الساقية الحمراء ووادي الذهب، الأول بالمسيرة الخضراء نوفمبر 1975 والثاني بعد تخلي موريطانيا عنه 14 أغسطس 1979، عن إقليم الساقية الحمراء أنظر عثمان عثمان قضية الصحراء المغربية ومصطلح البيعة نشر وزارة الاعلام الرباط نوفمبر 1975، وعن وادي الذهب وتاريخه المفصل منذ الفتح الاسلامي أنظر الساقية الحمراء ووادي الذهب لمحمد الغربي.

وكان المغرب هو الدولة الوحيدة التي قامت بالمسيرة الخضراء لاستعادة أراضيها المغتصبة كما كانت الدولة الوحيدة التي كان لها حق تعيين قاض يمثلها بمحكمة العدل الدولية بلاهاي، ولهذا فعندما تخلت جمهورية موريطانيا الاسلامية عن إقليم وادي الذهب الذي سلم لها بعد اتفاقية مدريد الثلاثية التي تمخضت عنها المسيرة الخضراء، وبسبب مبادرة سكان الاقليم لمبايعة ملكهم الشرعي ملك المغرب، استجاب المغرب لاستعادة الحق التاريخي فألحق اقليم وادي الذهب بالوطن الأم 14 أغسطس 1979.

مساحته في حدوده التاريخية ثلاثة ملايين كيلو مترا مربعا وقد تنوعت وتعددت تضاريس المغرب نظرا للموقع والبنية والتاريخ الجيولوجي والعوامل المناخية.

التضاريس

أ – الأقاليم الشمالية :

تبدأ شمالا بجبال الريف وهي قليلة الاتفاع نسبيا وتشكل رسم هلال يفتح تجاه الشمال ويقل ارتفاعه ناحية مضيق جبل طارق شمالا وناحية سهول ملوية شرقا وتتجه أنهارها نحو البحر الأبيض المتوسط. وبسبب وقوع تلك المنطقة في حدود مناخ البحر الأبيض فإنها تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط وتظهر بها حاصلاته الفلاحية وزراعة الأشجار والكروم وبقية غلاته.

ويشكل إقليم الأطلس المتوسط والكبير والهضبة الوسطى جزءا كبيرا من البلاد ويعطيها مميزات أساسية بالنسبة لخطوط العرض التي يشغلها وطبيعة سطحه وارتفاعه الذي يبلغ أكثر من أربعة آلاف مترا حيث يصل ارتفاع جبل طوبقال **4165** مترا. وتشكل كتلتا الأطلس المتوسط والكبير الملتصقتان شخصية المغرب المحيطي حيث المناخ القاري شديد البرودة وقمم الجبال المغطاة بالثلوج عدة شهور من السنة ووفرة الغابات واعتبار الاقليم مخزنا رئيسيا لمياه المغرب بما ينحدر منه من أنهار.

ويتكون الأطلس المتوسط المسطح والأطلس الملتوي الذي يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حتى ممر تازة شمالا، ويشرف الأطلس المتوسط فجأة من الناحية الشرقية على منخفض وادي ملوية وتسود الهضاب الكلسية المنبسطة جهاته الغربية، وتحتل هذه السلسلة مكانا وسطا بين جبال الريف شمالا والأطلس الكبير جنوبا.

وتعتبر الفلاحة هنا موردا تكميليا بالنسبة إلى الرعي ولكنها ساعدت على إحداث التوازن الاقتصادي للسكان ودفعتهم نحو الاستقرار وهو أساس الحضارة العمرانية.

ويمتد الأطلس الكبير من الجنوب الغربي إلى الشرق والشمال الشرقي، ويشتمل الأطلس الكبير الغربي على قمم عالية تطل على أودية عميقة ويمتد غربا ليطل على المحيط بهضاب مرتفعة حيث تنتشر الحقول المتدرجة على طول السفوح الجبلية، وتعمل السواقي على رفع المياه واستقرار الحياة الفلاحية من قديم الزمان مما يفسر جهود الانسان ومنجزاته وارتباطه بالبيئة.

ويتكون الأطلس الكبير الشرقي من قسمين، الأول الأطلس الكبير الأوسط والثاني الأطلس الكبير الشرقي الذي يبعد عن تأثير المحيط ليكون أكثر جفافا وأكثر قارية الأمر الذي يفسر غلبة الحياة الرعوية به على الفلاحة.

ويتكون الأطلس الصغير من كتلة جبلية بالنهاية الجنوبية الغربية للمغرب الشمالي تشتهر بنشاط سكانها الفلاحي ومناظرها الطبيعية بسبب سقوط المطر الشتوي وتأثير المحيط.

وتتقدم الهضبة الوسطى نحو أحواض سبو وأم الربيع وتتألف من الأطلس المتوسط الهضبي بارتفاع أكثر من ألفي مترا وهضبة زايان بارتفاع 1600 مترا حيث تتدفق الأنهار في أودية عميقة تتصل بسهول سبو وأبي الرقراق وأم الربيع.

وتشتمل السهول والهضاب المغربية على سهول وهضاب المغرب المحيطي المعروفة بنشاطها الحيوي والعمراني المنفتح على العلاقات الخارجية في سهول تازة وفاس ،مكناس والغرب كما تنفتح السهول الأطلسية الوسطى على المحيط من الرباط حتى الصويرة ممتدة إلى الداخل أما سهول المغرب الشرقي والجنوبي فيتكون جزؤها الشمالي من تلال قليلة الارتفاع تزداد ارتفاعا في الداخل في مرتفعات بني يزناسن وتتجه من الشرق إلى الغرب ثم الهضاب العليا حيث المنخفضات المغلقة، وأخيرا حوض نهر ملوية أكبر أنهار المغرب الشرقي (شكل 6).

كما تشتمل تضاريس المغرب على الأقاليم الصحراوية وشبه الصحراوية، فالصحراء الغربية الأطلسية تمتد على طول المحيط حتى حدود موريطانيا وتختلف بسبب وجودها على المحيط عن بقية الصحراء المغربية الشرقية.

ب – الأقاليم الجنوبية (الساقية الحمراء ووادي الذهب)[1]

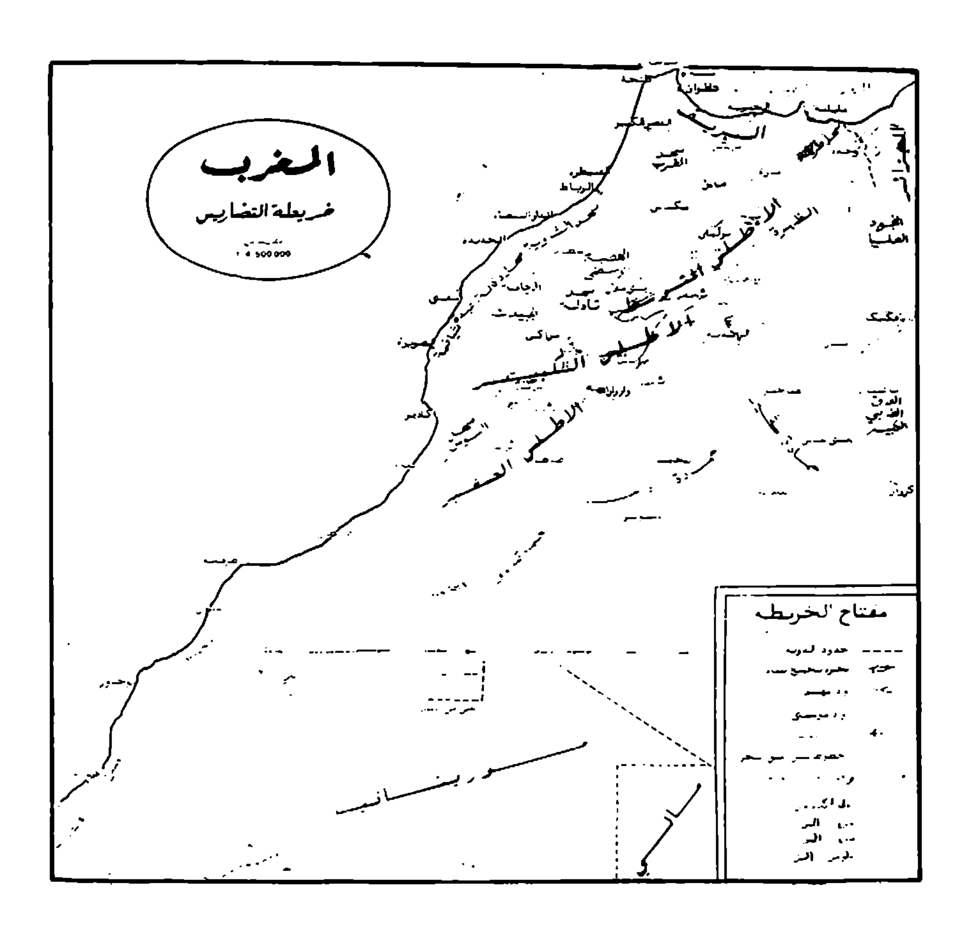
وتنسب تلك الأراضي من الوجهة الطبيعية والجيولوجية والبشرية إلى ما وراء الأطلس الصحراوي والمنبسطات الصحراوية الوسطى ما بين خط عرض 27 وخط عرض 21 درجة 20 ثانية شمال خط الاستواء دون أن يفصلها عن الأراضي المغربية التاريخية حدود طبيعية وتشتمل تلك الأراضي على وحدتين بارزتين.

---

(1) عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب 1 / 64، وقد أعيد للتراب المغربي إقليما الساقية الحمراء ووادي الذهب بينما (أطلق الفرنسيون على إقليم شنكيط الذي احتلوه أوائل هذا القرن اسم موريطانيا ثم اصطنعوا له كيانا دوليا سنة 1961 وسموه الجمهورية الاسلامية الموريطانية) قبائل المغرب ج 1 ص 87.

ففي الشمال يقع إقليم الساقية الحمراء محصورا بين إقليم طرفاية وإقليم الداخلة ابتداء من خط عرض 27 درجة شمالا متجها جنوبا على مساحة 82 ألف كيلو متر مربع وعاصمته العيون[1].

أما ما يعرف اليوم بوادي الذهب Rio de Oro فاسمه العربي (الداخلة) وهو يمتد جنوبي



شكل رقم 6
الأقاليم الشمالية (التضاريس)

(1) الساقية الحمراء ووادي الذهب : أنظر الفصل الأول من الباب الأول عن الوسط الطبيعي.

المنطقة السابقة مسافة 690 كيلو مترا على المحيط الأطلسي وتزيد مساحته عن 185 ألف كيلو مترا مربعاً[1] وعاصمته مدينة (الداخلة) ويحده شرقا خط طول 12 درجة غربا ذلك الخط الذي يتراجع عند مدار السرطان إلى خط 13 غربا على شكل قوس يترك لموريتانيا السبخة المالحة المسماة (ايجيل)[2].

ويبدو أن المظهر الصحراوي الحالي والتشكيلات الصخرية المشاهدة اليوم كانت نتيجة حركات عظيمة عرفتها القشرة الأرضية خلال الأزمنة الجيولوجية الثالثة في نفس الوقت الذي تحولت فيه مناطق المغرب الوسطى من بحار إلى جبال تبعا لنظرية فيجر الألماني[3]

ويشتمل هذا الجزء من الصحراء على هضبات كلسية تسمى (الحمادة) تتخللها وديان وانخفاضات ملحية مغطاة بطبقة رسوبية مكونة من الرمال بالاضافة إلى (الرق) وهي سهول جافة حصوية ثم (العرق) وهي مناطق من كثبان الرمل (والسبخات) وهي اخفاضات كبيرة ذوات قيعان من الصلصال ثم القلب (Guelb) وهي التواءات غير منتظمة تتخللها تضاريس ترسبية وأخيرا عدة جزر صلصالية وخزفية واقعة بين السهول الجافة الحصوية يظهر فيها النبات بعد موسم الأمطار فيزرعها السكان.

ويبلغ طول وادي الساقية الحمراء من مرتفعات زمور حتى المحيط 450 كيلو مترا وهو يختلف عن وادي الذهب بكون الطبيعة حول هذا الأخير ليست سوى صحراء رملية تقوم بها تلال هائلة من الكثبان بعد كل عاصفة[4]، ورأس بوجدور رملي جاف ينتهي برؤوس صخرية مسننة خلفها تلال كلسية عظيمة (أشكال 7 — 8).

ويبدو الشاطىء جنوب بوجدور وحتى الداخلة متموجا محفوفا بتلال رملية قليلة الارتفاع تتخللها شرفات مرتفعة أحيانا تعرف (بالجرف). ثم ترتفع الأراضي في اتجاه الجنوب الشرقي مكونة هضبة ذات حجارة صوانية مختلطة بالرمال ونواشز ضخمة ذات أشكال غريبة وتظهر آثار مجاري شتوية ووديان قليلة العمق في الداخل.

وكلما اتجهنا نحو الشرق والجنوب الشرقي تبدأ السهوب وخلفها منبسطات صحراوية شاسعة عديمة النبات تعرف باسم (تيريس)، وفي أقصى الجنوب تبدأ بقايا القارة الصحراوية القديمة متمثلة في كتلة جبلية بازلتية تسمى (أدرار سطف)[5] ؟

(1) عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب ج 1 ص 86.
(2) الساقية الحمراء ووادي الذهب ص 20.
(3) نفس المصدر ص 21/20 وحاشية 2 ص 391.
(4) نفس المصدر ص 22.
(5) نفس المصدر ص 26/20 وانظر المصور الطبيعي ص 25/24.

مصادر الماء :

أ – الأقاليم الشمالية :

يتميز المغرب بمناخ البحر الأبيض المتوسط لكن أمطاره تكون أكثر عزارة من نظيرتها بالجزائر وتونس، وتكثر في الغرب المغربي الأنهار الدائمة والمتقطعة، وأنهار الشمال أكثر عددا وأغزر مياها، كما يعتبر الأطلس الكبير والمتوسط خزانا هائلا للمياه حيث تذوب كميات الثلوج الكبيرة وتزود الأنهار بالمياه حتى فصل الصيف.

هذا وأهم الأنهار الأطلسية وادي لوكوس الذي يصب في المحيط عند العرائش ثم وادي سبو الذي يقوم بتصريف مياه السهول والهضاب والتلال المحصورة بين الريف شمالا وهضاب الأطلس جنوبا ويمر عبر ممر تازة ليصب في المحيط قرب المهدية ويبلغ طوله 458 كيلومترا. أما وادي أم الربيع فينبع من عدة ينابيع بالأطلس المتوسط ليصب قرب أزمور ويبلغ طوله 556 كيلو مترا، كما ينبع من الأطلس المتوسط وادي أبي رقراق ويصب في المحيط قرب الرباط ويبلغ طوله 250 كيلو مترا. وينبع نهر تنسيفت من الأطلس الأعلى ويصب بالقرب من آسفي، ونهر سوس الذي ينبع من الأطلس الأعلى كذلك ويصب قرب أجادير وطوله 180 كيلومترا وفي الشمال ينبع نهر ملوية من الأطلس المتوسط ويتجه شمالا ليصب قرب مليلية في البحر المتوسط وطوله 450 كيلو مترا.

ب – مصادر الماء بالأقاليم الجنوبية (الساقية الحمراء ووادي الذهب)

لقد كانت الصحراء الحالية المعروفة بالساقية الحمراء ووادي الذهب منطقة خضراء فيما مضى تكسوها الغابات ومختلف النباتات ثم جفت عيونها وانحبست عنها الأمطار فشكلت مجاري المياه أخاديد عميقة مهددة باكتساح الكثبان الرملية وهي وديان الشبيكة والخط ومرموشا والصاك بل ان وادي الساقية الحمراء نفسه وهو أهم تلك الوديان قد يجف لعدة سنوات حتى تسعفه بعض الأمطار الهاطلة على الحمادة والزمور[1].

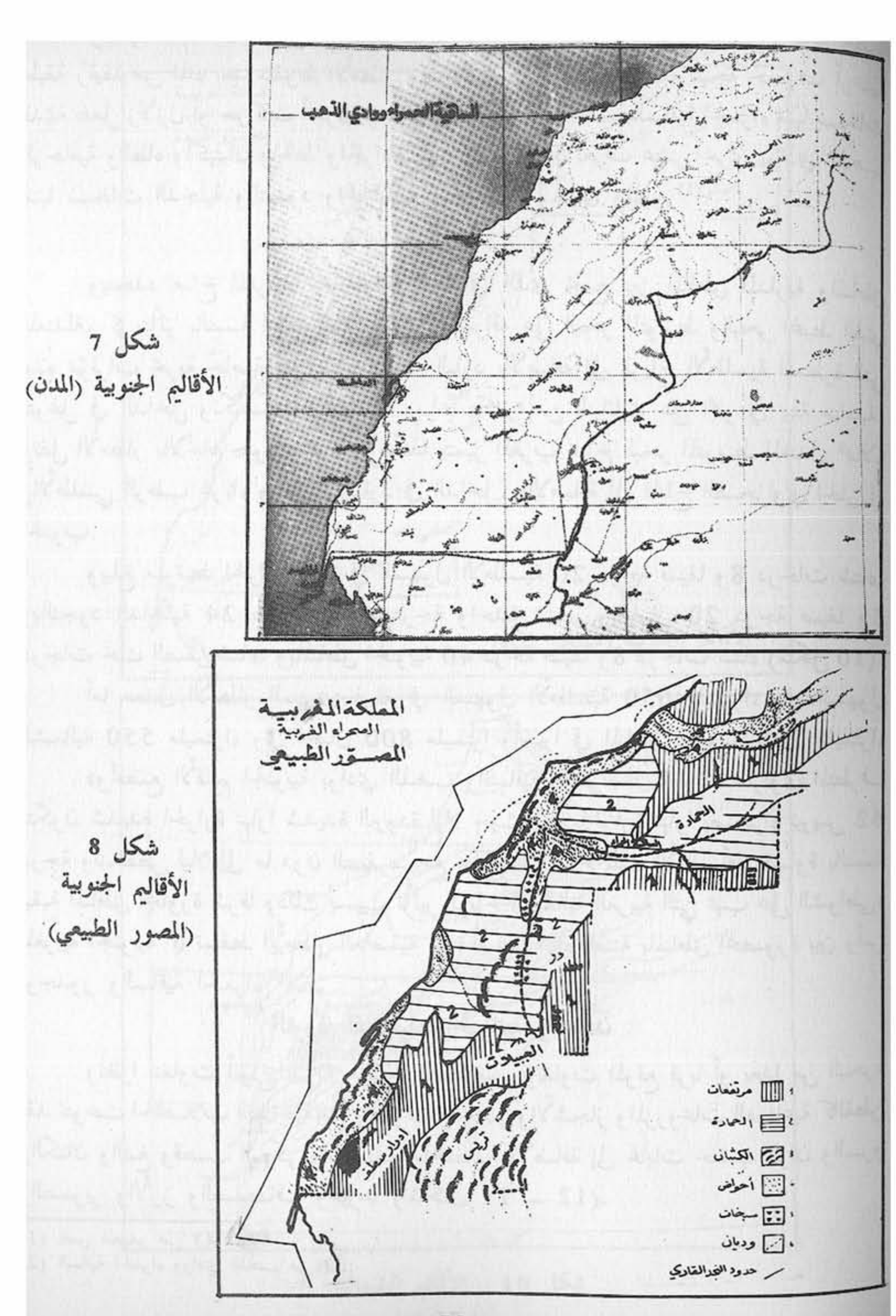
أما آبار الساقية الحمراء فأشهرها حاسي القليلة ومسيد ومجيبير وحمادو وتافودارت غربا ثم آبار الرقيقة[2] والبئر الحلو وتيفاريتي شرقا بالاضافة إلى آبار العيافة والدشيرة وامسيكير وغيرها شمالا، أماوادي الذهب فتعرف به 19 بئرا أشهرها الزوك وتيشلا والكندوز[3] (شكل 9).

---

(1) الساقية الحمراء ووادي الذهب ص 33 ــ 34.

(2) نفس المصدر ص 36 ــ 43 دراسة مفصلة لوديان الساقية الحمراء ووادي الذهب.

(3) نفس المصدر ص 48 ــ 50.



شكل 7
الأقاليم الجنوبية (المدن)

شكل 8
الأقاليم الجنوبية
(المصور الطبيعي)

وتبدو السبخات طوال أيام السنة تقريبا على شكل سهول مستوية السطح وجافة تغطيها طبقة رقيقة من الماء بعد سقوط الأمطار وقد تشكلت تلك السبخات نتيجة خسوف أرضية قديمة بفعل زلازل أو حركات أخرى وتعرف اليوم تسع سبخات بالساقية الحمراء منها سبخات الرجامية والطاه وأكيتيان والخط والجرانات وأولاد سالم كما تعرف عشر أخرى بوادي الذهب منها سبخات الدجلية والتنمود والمحاريات والفويدس ولمطال والمهور[1].

المناخ :

ويتحدد مناخ المغرب تبعا لموقعه الجغرافي الذي يجمع بين المناطق المدارية والمناطق المعتدلة، كما يتأثر بالنسبة لتضاريسه المرتفعة واشرافه على البحر المتوسط والبحر المحيط الذي يمده بمؤثرات بحرية خاصة مثل تيار كنارى البارد بالاضافة إلى الرياح الأطلسية الممطرة التي تتوغل في الداخل وتكسب الجو ضبابا يساعد كثيرا من النباتات على النمو في بيئة مناسبة، وتقل الأمطار بالاتجاه جنوبا وشرقا. وهكذا يتميز المغرب بمناخ البحر المتوسط المعتدل شمالا، والأطلسي الرطب غربا، والقاري البارد في الداخل، بالاضافة إلى المناخ الصحراوي الحار في الجنوب.

ويبلغ متوسط الحرارة عادة في السهول الأطلسية 20 درجة صيفا و8 درجات شتاء، وبالنجود الداخلية 24 درجة صيفا ودرجة واحدة شتاء، وبالجبال 20 درجة صيفا و5 درجات تحت الصفر شتاء، وبالمناطق الجنوبية 40 درجة صيفا و8 درجات شتاء (شكل 10).

أما معدل الأمطار السنوي فيبلغ في السهول الأطلسية 650 مليمترا، وفي السهول الشمالية 550 مليمترا، وفي الجبال 800 مليمترا وأخيرا في المناطق الجنوبية 200 مليمترا.

«وتخضع الأقاليم الجنوبية بوادي الذهب والساقية الحمراء للمناخ الصحراوي المتطرف فتكون شديدة الحرارة نهارا شديدة البرودة ليلا حيث تبلغ الحرارة نهارا بصحراء تيريس 62 درجة وتنخفض ليلا إلى ما دون الصفر، ومع هذا يعتبر مناخ تلك الأقاليم أقل قساوة بالنسبة لبقية المناطق المجاورة شرقا وذلك بسبب تأثير الرياح الشمالية الغربية التي تهب على الشواطىء المغربية الجنوبية كما تسقط الأمطار العاصفية عدة مرات أثناء السنة بالمناطق المحصورة بين رأس بوجدور والساقية الحمراء[2]».

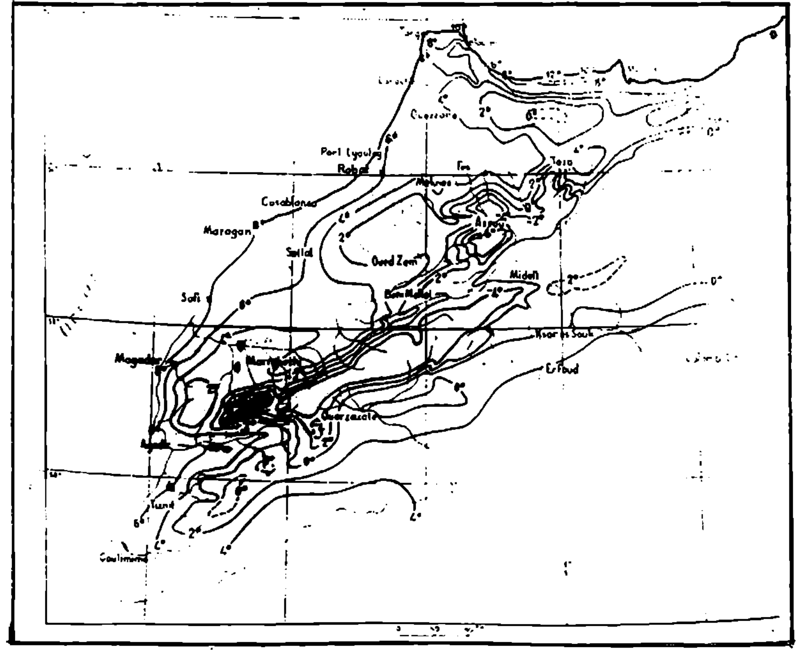
الثروة الفلاحية والحيوانية والمعادن :

ونظرا لتفاوت أنواع التربة وطبيعة التضاريس وتفاوت الموقع قربا أو بعدا من البحر، فقد تنوعت الحاصلات الفلاحية مثل الحبوب والخضر والأشجار والمزروعات الصناعية كالقطن والكتان والتبغ وقصب السكر والشمندر والحلفاء، بالاضافة إلى غابات خشب الزان والسرو والصنوبر والأرز والصفصاف وغيرها (أشكال 11 ــ 12).

(1) نفس المصدر ص 43 ــ 47.
(2) الساقية الحمراء ووادي الذهب ص 33.

المملكة المغربية
الصحراء الغربية
مصادر المياه

شكل 9
الأقاليم الجنوبية (مصادر المياه)



شكل 10 الأقاليم الشمالية

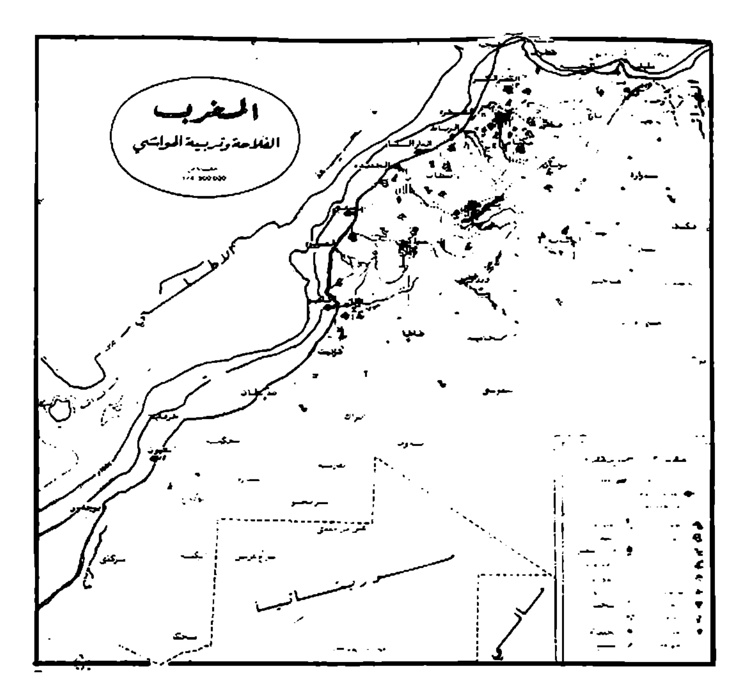
وإلى جانب تلك الثروة الفلاحية الهائلة يتوفر المغرب على المراعي الشاسعة التي تمده بالثروة الحيوانية ومستخرجات الألبان بالاضافة إلى ما تنتجه شواطئه الطويلة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط من لحوم الأسماك ومشتقاتها الصناعية المتنوعة.

ويتوفر المغرب فوق هذا وذاك على ثروة معدنية كبيرة مثل الحديد والكوبالت والمنجنيز والرصاص والزنك والفحم الحجري والبترول، أما بالنسبة إلى الفوسفات فإن المغرب يعتبر أغنى مستودع لتلك المادة في العالم (شكل 13).

وبالاقاليم الجنوبية تشتمل السبخات الداخلية على عدة مناجم للبوتاس كما عثر على معدن النحاس بجبل أنيال ومنطقتي جبل تلمادنت وأهل عينة، أما الفوسفات فقد اكتشف ضمن منطقة الأيوسين الممتدة من مدينة العيون إلى منتصف سرير الساقية الحمراء[1] (شكل 14).

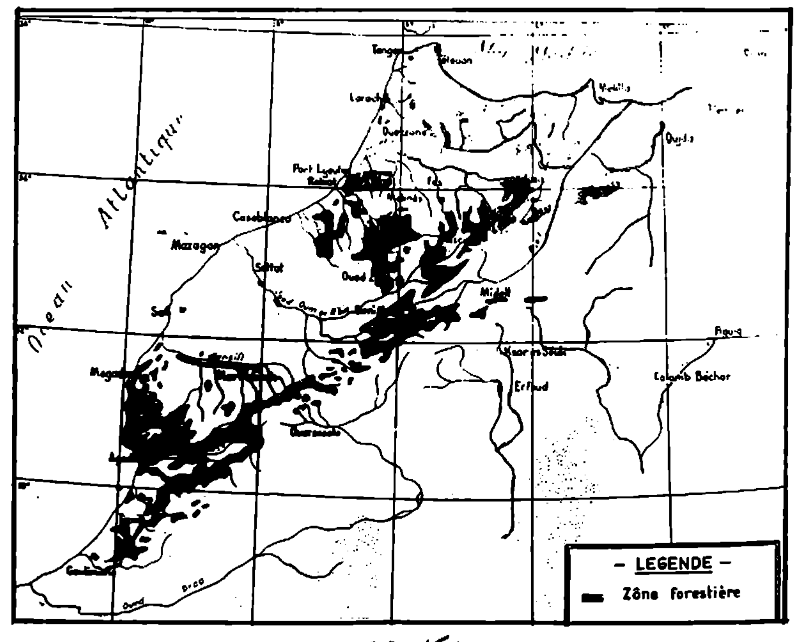
ولا تظهر الفلاحة بطبيعة الحال إلا حيث مجاري المياه أو العيون والآبار حيث تنشأ الواحات ويشتغل السكان بزراعة بعض أنواع الخضر والحبوب، غير أنهم يهتمون في المقام الأول بالرعي وتربية الابل والماعز والأغنام، هذا وتزخر شواطىء الصحراء المغربية الجنوبية بثروة سمكية هائلة استقطبت اهتمام الاسبان فأسسوا عدة شركات لاستغلالها بأسطول بحري يتوفر على معامل خاصة لمعالجة الأسماك وتصنيعها كما أنشأوا عدة مصانع بالكويرة وفيلا سيسنيروس لحفظ وتصنيع تلك الثروة البحرية[2] آلت جميعها للمغرب بعد ضم صحرائه الجنوبية.

(1) الساقية الحمراء ووادي الذهب ص 76 ـــ 83.
(2) نفس المصدر ص 88 ـــ 92.



شكل 11

خريطة المغرب الفلاحية (الأقاليم الشمالية)

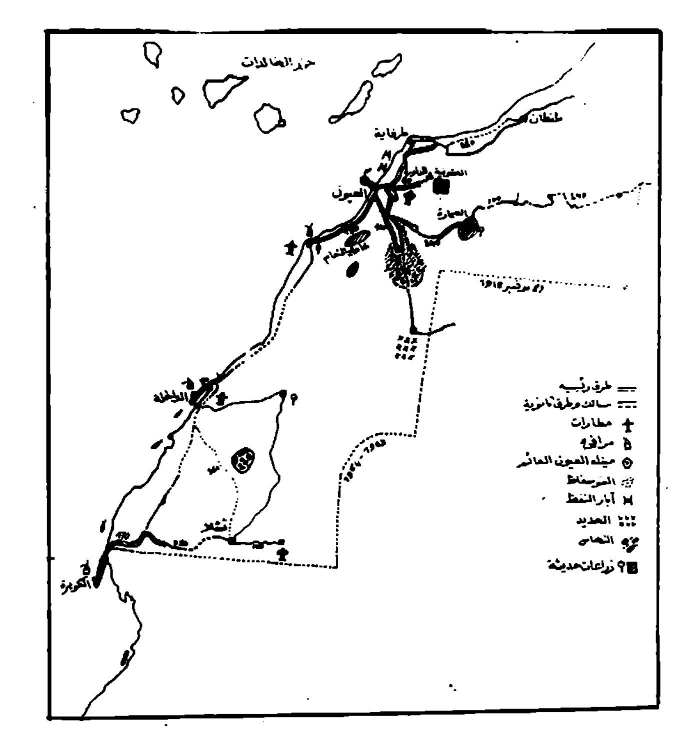


شكل 12

خريطة توزيع الغابات (الأقاليم الشمالية)

شكل 13

خريطة المغرب للثروة المعدنية



شكل 14

المصور الاقتصادي (الأقاليم الجنوبية)

الفصل الأول

النظريات العامة لدراسة الآثار العربية الاسلامية

* * *

أبحاث هذا الفصل :

نظرية الأصول والمصادر.
نظرية الاستنباط.
نظرية التطور.
نظرية الوحدة العربية الاسلامية.

الفصل الأول

النظريات العامة لدراسة الآثار العربية الاسلامية

ناقشنا في كتابنا الآثار الاسلامية بالمغرب العربي وحرب المستشرقين بعض النماذج الناطقة بإدانة فريق من المستشرقين المتعصبين الذين سخروا كفايتهم وإمكانياتهم للتهجم على حضارة العروبة والاسلام بالبعد عن المنهجية العلمية النقدية النزيهة وإرساء قواعد دراستهم في الآثار العربية الاسلامية على بقايا نتف من الفن المسيحي الشرقي والفن الساساني بإيران والعراق والفن القبطي بمصر متجاوزين حدود بلاد العرب الأصيلة زاعمين أن العرب كانوا بدواً غير متحضرين وأن الاسلام قام بدور الرابطة الروحية فقط في صهر تلك الفنون السابقة وأن العرب إذن لم يأتوا بجديد بقدر ما كانوا مجرد مقلدين استخدموا أبناء الشعوب المغلوبة. وقد مرت بنا بعض الأمثلة، وسوف تقابلنا أمثلة أخرى بالفصول القادمة توضح جميعها تضارب الآراء ووجهات النظر لدى فريق آخر من المستشرقين في تحديد مصادر النظم المعمارية والفنية للآثار العربية الاسلامية.

وابتداء من ظهور كتاب المسجد الجامع بالقيروان سنة 1936 م بدأ الرائد العربي الدكتور أحمد فكري في تصحيح تلك الاتجاهات بمقدرة علمية لتحقيق قومية الدراسة متعرضا لعنت واضطهاد الأجانب المسيطرين على الدراسات الأثرية الاسلامية بمصر على الخصوص إلى أن أمكنته الفرصة سنة 1962 م في ظل الاستقلال الفكري والتحرر الثقافي الجديد من صوغ آرائه بصدر كتابه المدخل[1].

ونظرا للقيمة العلمية الكبيرة التي تمخضت عنها عبقرية العالم الجليل رأينا من واجبنا إضافة هذا الفصل كموجز يصلح أن يكون أساسا منهجيا نزيها لدراسة الآثار العربية الاسلامية وكنتيجة للفصل الذي قدمه الدكتور فكري في المدخل على طول خمس وعشرين صفحة. ومع هذا فسوف نختلف معه في التسمية التي أطلقها على مجموع آرائه الواردة تحت عنوان (المبادىء الرئيسية لدراسات الآثار العربية الاسلامية)، وذلك — في اعتقادنا — لاختلاف المبدأ عن النظرية، ثم لكونه هو نفسه قد قدم حقيقة علمية توصل إليها تحت عنوان (نظرية).

(1) أحمد فكري : المدخل، الفصل الثاني.

فإذا ما اعتبرنا أن تلك الحالات كانت في مبدأ عرضها افتراضات، فإنها تحولت مع الوقت بالبرهان بعد التجربة والتطبيق إلى نظريات. ولما كانت تلك النظريات لا تنصب على مشكلة خاصة بعينها من مشكلات البحث الأثري ولا تقتصر على دراسة عنصر معماري أو زخرفي بذاته، فقد ارتأينا تسميتها بالنظريات العامة لدراسة الآثار العربية الاسلامية ونعرض الآن مضامينها مبسطة ميسرة مع التصرف وتطويعها وتطعيمها بأفكارنا الخاصة.

أولا : نظرية الأصول والمصادر[1]، وفيها ثلاثة أوجه :

أ – لم تكن العمارة والفنون مجهولة عند العرب قبل الاسلام، وقد أشرنا سابقا[2] إلى الكشوف الأثرية بأنحاء الجزيرة العربية التي تعتبر المصدر الأول لعناصر العمارة والفنون العربية خلافا لما يردده بعض المستشرقين حول فكرة الفراغ العربي.

ب – أهمية الصلة التاريخية في دراسة المصادر، فليس من الضروري أن يكون الأسبق هو المصدر إذا فقدت الصلة التاريخية بينه وبين أمثلة متأخرة وإذا لم يحقق ثبوته وذيوعه وانتشاره وتأثيره الخارجي. وليس من الجائز اعتبار عنصر أجنبي واحد من تاريخ سابق مصدرا لاشتقاق العناصر العربية، ذلك أن آثاراً عربية سابقة على الاسلام لا تحصى في بطون الكتب المقدسة والمصادر التاريخية ثبت اندثارها، كما أن البعض الآخر ليس ثابت التاريخ حتى الآن وقد يكون سابقا على الاسلام ويظنونه اسلاميا فيسقط النظر إلى تأثيره على الفنون العربية الاسلامية، فالعقد المنفوخ الذي انتشر بصورة واسعة في الفن العربي وخاصة في المغرب والأندلس على نحو يؤكد الصلة التاريخية بين مواقع وتواريخ ظهوره وذيوعه وانتشاره يختلف عن الأمثلة النادرة التي حاولوا العثور عليها بإيران وآسيا الصغرى وغيرها دون صلة تاريخية بينها أو ثبوتا وذيوعا فنيا..

ج – الجوهر والوظيفة هي الأصل في دراسة المصدر وخاصة بالنسبة للعنصر المعماري فقد يتفق عنصران مظهرا ويختلفان جوهرا فتنعدم الصلة التاريخية بينهما، وهكذا تسقط فكرة اشتقاق المحراب من الهيكل وهي الفكرة القائمة على اتفاق في الرسم فقط دون مراعاة نسبة كل منهما إلى طول الجدار ومجموع البناء والحجم، الأمر الذي يقرر وظيفتين مختلفتين تماما لكل من الحالتين.

---

(1) أحمد فكري : المدخل ص 30/25.

(2) عثمان عثمان : الآثار الاسلامية بالمغرب العربي وحرب المستشرقين دراسات نشرت تباعا بمجلة دعوة الحق الرباط ابتداء من عدد مايو 1974.
ثم الهجرة النبوية الكبرى بيننا وبين فيلسوف الغرب المعاصر توينبي. دراسات نشرت تباعا بجريدة الأنباء المغربية الرباط 21 و22 و23 و24 و27 يناير 1976. وانظر مقال خزيم على الخزيم بجريدة الأنباء الكويتية 86/7/10 ص 10 الاسلام كدين وحضارة لم يصدر عن فراغ أو دون تمهيد منطقي تاريخي وجغرافي فما خلت حياة العرب قبل الاسلام من كافة مظاهر الحضارة... ولم يكن العرب قبل الاسلام جهالاً وأغلاظاً و لم يكونوا في عزلة سياسية واقتصادية وقد عرض القرآن الكريم للحياة العربية من جوانبها المختلفة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ثانيا : نظرية الاستنباط :[1]

يعتبر الاستنباط من دلائل الفكر الانساني وهو أساس الحضارة، وترتبط العمارة والفنون بأسباب الحياة وأغراضها وظروفها الدينية والاقتصادية والاجتماعية وتخضع لحاجات الانسان المتغيرة، ومن هنا ظهرت أهمية الاستنباط. وليس بخاف أن عملية الاستنباط لا تقتصر على الملكات الفكرية وحدها قدر ما تحتاج إلى ملكات الحس والشعور والخيال المبدع الخلاق. ولا يستطيع أحد أن ينكر على العرب تلك الملكات التي بذوا فيها شعوبا أخرى فقد سخروا ملكاتهم الحسية والخيالية في العلم والفن وتشكيل العناصر المعمارية والتعبيرات الفنية وجعلوها في خدمة الاسلام ومظاهر حضارته. لقد ظهر أثر الاستنباط في تشييد أسوار القاهرة على الرغم من الاستعانة ببنائين غير مسلمين لأن مجموعة تلك المنشآت لا زالت فريدة في عمارة العصور الوسطى الحربية بتكوينها الاجمالي وفنها المميز. وتذكر المصادر وتنطق نقوش الآثار بأن كثيرا من ملوك الاسلام تدخلوا بأنفسهم في شؤون التخطيط وتوجيه المهندسين ورجال الفن وفق تصوراتهم وأخيلتهم كما حدث في بناء بغداد ودمشق والقيروان وفاس.

ومن الجدير بالملاحظة أن الاستنباط لا يقتصر على الابتكار وإنما يشتمل كذلك على الاشتقاق والاقتباس بتناول العنصر السابق والتنويع فيه وتعديله إلى الشكل الذي يلائم الخيال الخاص والحاجات الجديدة (شكل 15 أ–15 ب). وهكذا اشتق المسلمون عدة أنواع مختلفة من العقد نصف الدائري الذي كان معروفا عند الرومان كما أوجدوا أنواعا وطرزا جديدة رائعة اقتبسوها من العقد ذي الصنج المعشقة وهو نادر الوجود قبل الاسلام.

ثالثا : نظرية التطور :[2]

التطور مظهر من مظاهر الاستنباط والاشتقاق، وهو المظهر الدال على النمو بعد توسع العمران وتنوع أساليب الترف التي أصابها العرب الفاتحون، وهو الدال كذلك على قدرتهم الفائقة في اكتساب التجارب وتطويعها. فعندما وجد العرب فيما فتحوه بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس وغيرها تخطيطات معمارية وعناصر فنية بالمباني السابقة مثل المثمن والدائرة والبوائك والأعمدة والتيجان والعقود والقباب والمقرنصات، وصناعات تطبيقية من الخزف والخشب والعاج والمنسوجات وغيرها، اشتقوا من تلك العناصر عناصر جديدة ابتكروها (أشكال 16 – 19)، وأوجدوا مجموعات من العناصر المعمارية بتركيب لم يكن معروفا من قبل على الرغم من معرفة دقائقها كل على انفراد، وقد أصبحت تلك الدقائق ذات معنى جديد بالمركب المحدث. كما قدموا للبشرية أساليب تقنية في الصناعات التطبيقية وطرزا زخرفية لم يسبقهم إليها غيرهم ثم أخضعوا ذلك كله لعامل التطور ابتغاء النمو.

(1) أحمد فكري : المدخل ص 37/30.
(2) أحمد فكري : المدخل ص 42/38.

لقد كانت ورقة العنب مثلا بعد أن استوحاها الفن القبطي من الفنون القديمة تحاول محاكاة الطبيعة، بينما تنوعت أشكالها تنوعا شديدا في الفن العربي وظهرت متفتحة أو منكمشة أو منبسطة أو مثقوبة كما نراها أحيانا خيوطا متصلة أو ثقوبا ملتصقة بعد أن كانت ورقة ممتلئة (شكل 20). وهكذا تطورت في مساجد عمرو والقيروان وقرطبة ومسجد الحاكم بالقاهرة. وقد نتج عن حيوية التطور في العناصر المعمارية والفنية أن أصبح لكل فنان أسلوبه المميز كما تميزت الفنون العربية بتنوع شديد لم يصل إليه فن آخر. وسوف تتضح أصالة هذا التطور بعد اتساع الأبحاث في آثار العرب المبكرة حيث أن ضياع قسم كبير مما خلفه القرن الأول الهجري يدفع المستشرقين إلى البحث عن الأصول في الآثار الأجنبية القديمة السابقة على الاسلام.

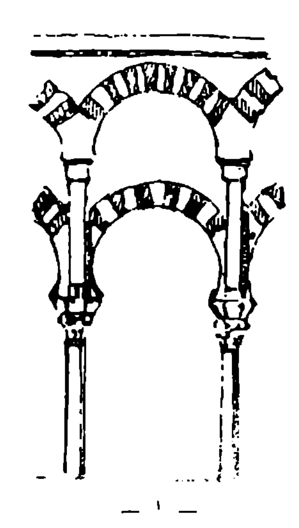
رابعا : نظرية الوحدة العربية الاسلامية[1] :

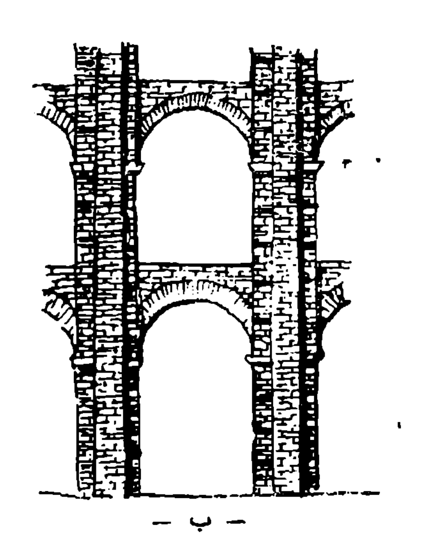
على عكس ادعاء بعض المستشرقين المتمسكين بنظرية الفراغ العربي، خرج العرب من بلادهم حاملين اتجاهات شتى في الحضارة والعمارة والفن منبثقة من بيئتهم الأصيلة وتراثهم القديم يتميز بعضها بالتفوق والآخر بالانكماش في حدود التأثيرات الطبيعية والاجتماعية السالفة. ولكن تلك الاتجاهات العربية الأولى وصلت إلى الشعوب واحتكت بالحضارات الأخرى بعد أن تُوج هامها بتوجيهات إسلامية جديدة صاغتها صياغة إنسانية راقية ودفعتها للسيطرة والانتشار بما توفر لها من الأصالة والفكر والحس والتطور والابتكار فسادت جميع البلاد والمناطق التي غطاها الاسلام بحيث أصبح الفن العربي الاسلامي متميزا بالوحدة التعبيرية أينما كبر المؤذن للصلاة، كما تميزت الفنون العربية بأية منطقة من مناطق الامبراطورية عن بقية الفنون العالمية غير العربية.

فالزخارف الهندسية التي كانت معروفة عند الرومان باستعمال محدود يدل على فقر الخيال، تناولها خصب الخيال العربي وحللها وشكل منها تركيبات وأشكالاً هندسية نجمية وأنواعا جديدة مبسطة أو مركبة أو متداخلة أو متشابكة تتكرر وتتنوع خلال تعاقبها في إيقاع أدهش فنون الغرب التي قلدته تحت اسم الأرابسك (شكل 21 –22)، وقد طبعت تلك الزخارف بالطابع العربي في جميع المناطق التي فتحها العرب. وليس هناك من شك في أن الاسلام قد طبع كذلك المباني والمنشآت الاجتماعية والدينية كالمساجد وغيرها بطابعه الخاص حيثما وجدت تلك المنشآت لتبدو تلك الوحدة العربية الاسلامية خالدة فيما خلفه الفن العربي الاسلامي.

---

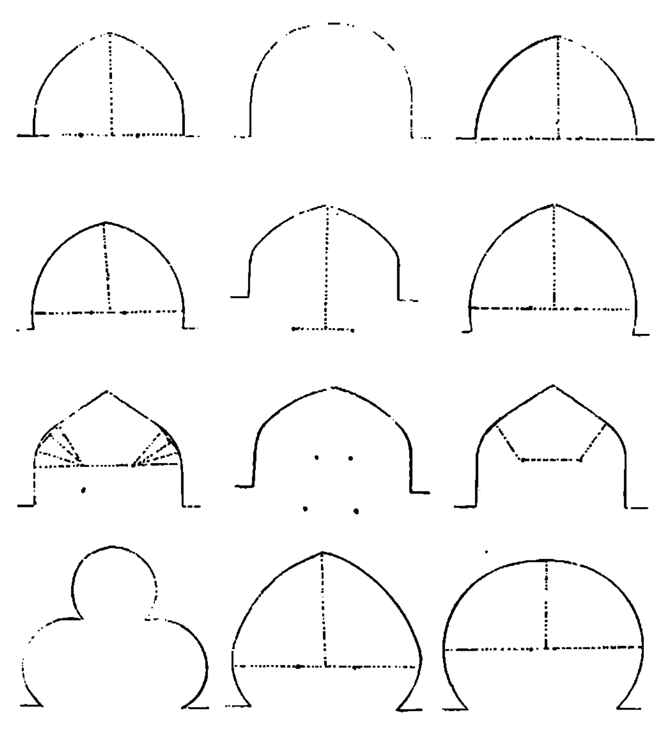
(1) أحمد فكري : المدخل ص 49/43 ومن الملاحظ أن الدكتور فكري أسماها نظرية الوحدة العربية بينما أسميناها نظرية الوحدة العربية الاسلامية مع يقيننا أن تسميتها هي نفس ما يعنيه هو حقيقة.





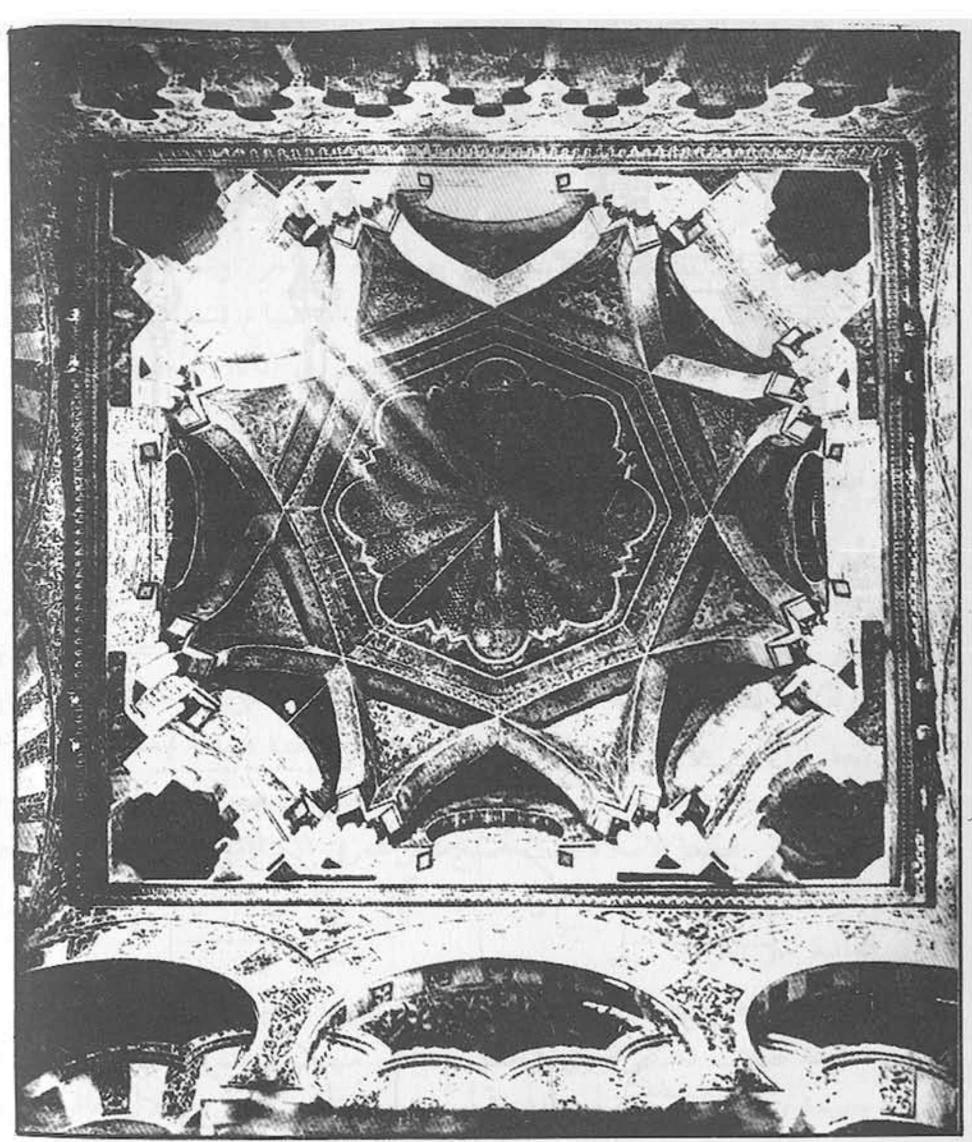
شكل 15 (أ)

مقارنة عقود مسجد قرطبة (أ) بعقود قنطرة مريدا باسبانيا



شكل 15 (ب)

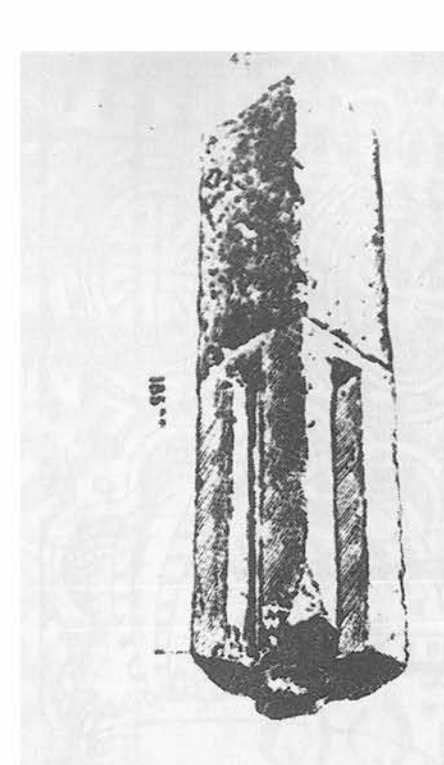
أشكال من العقود المبتكرة في العمارة الاسلامية



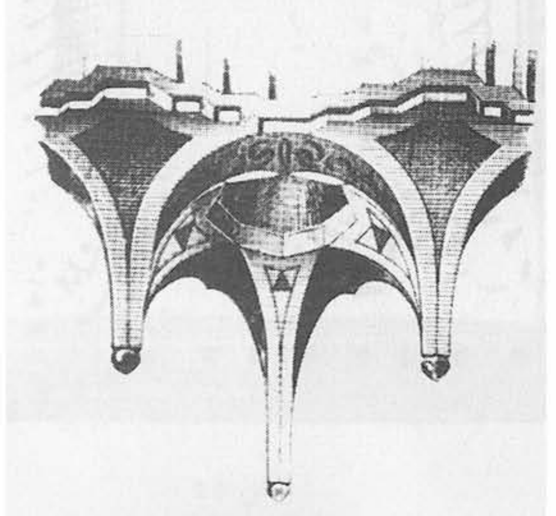
Cl. H. Terrasse

شكل 16

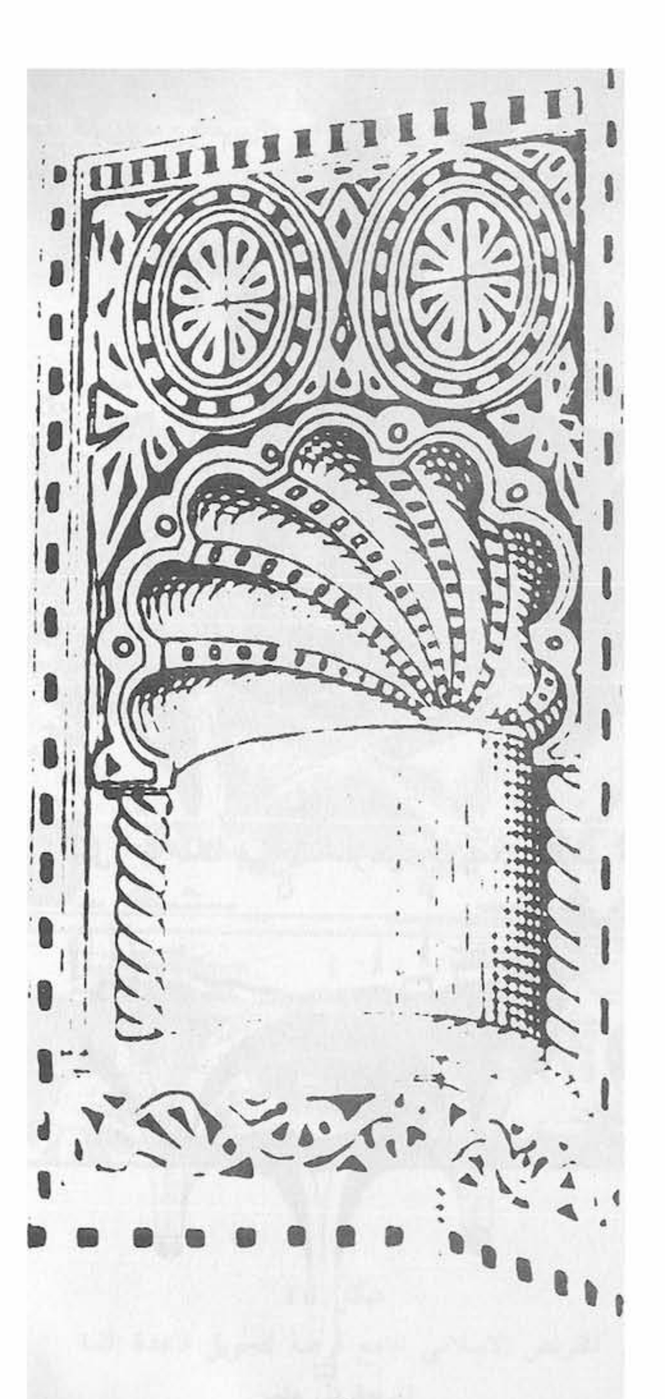
المقرنص الاسلامي بجامع قرطبة لتحويل قاعدة القبة المربعة إلى مثمن



شكل 17
شكل آخر بقلعة بني حماد لمقرنص ودلاية من الخزف

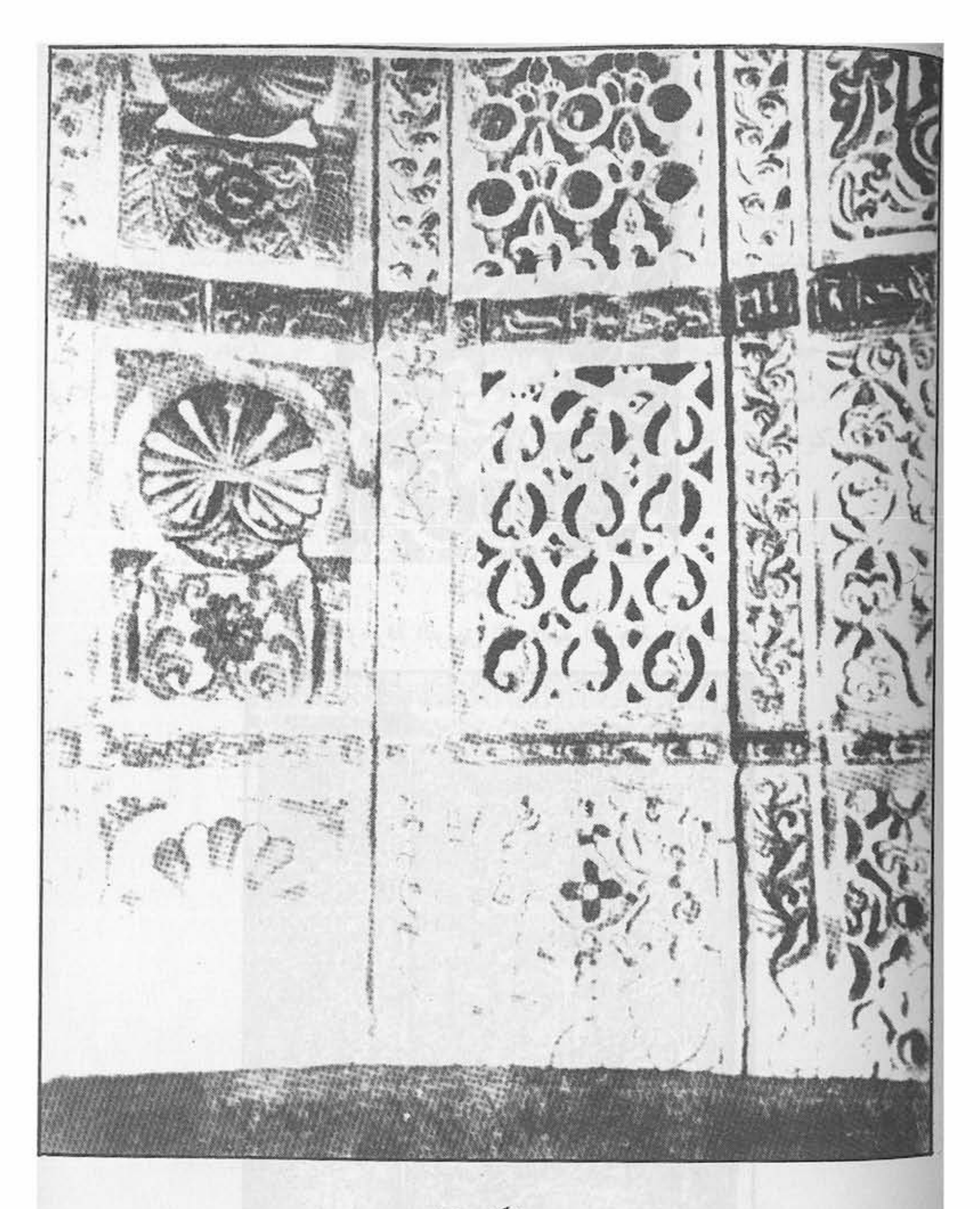


شكل 18
شكل آخر بالقاهرة لمقرنص ودلاية خشبية



شكل 19

بسدراته مقرنص وغطاء على هيئة القوقعة



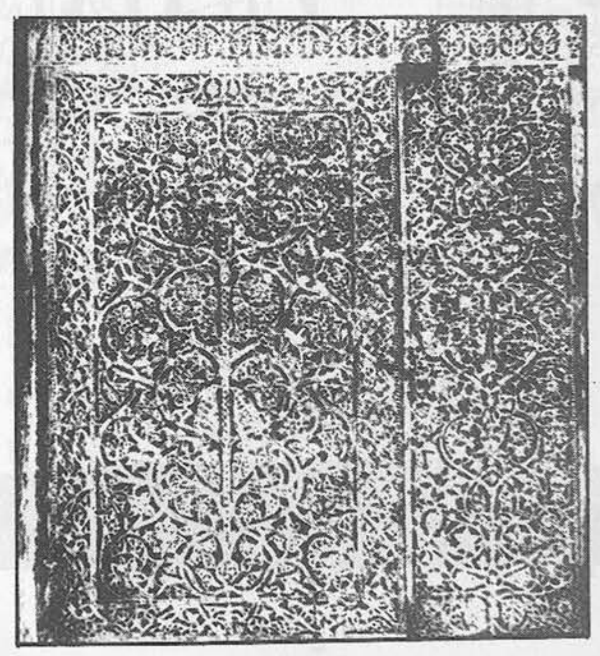
شكل 20

تنوع أشكال ورقة العنب برخام جوفة محراب سيدي عقبة بن نافع بجامع القيروان



شكل 21

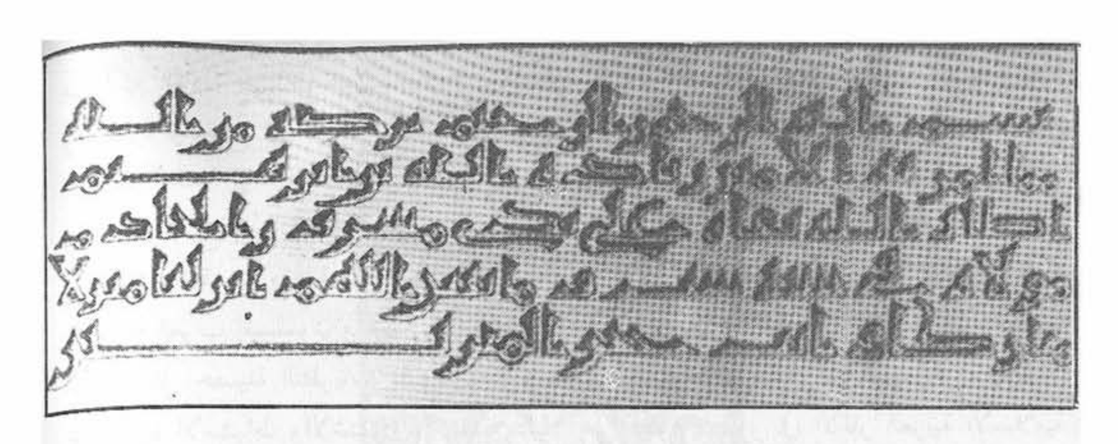
أحد أنواع زخرفة التوريق الاسلامية المعروفة بالارابسك



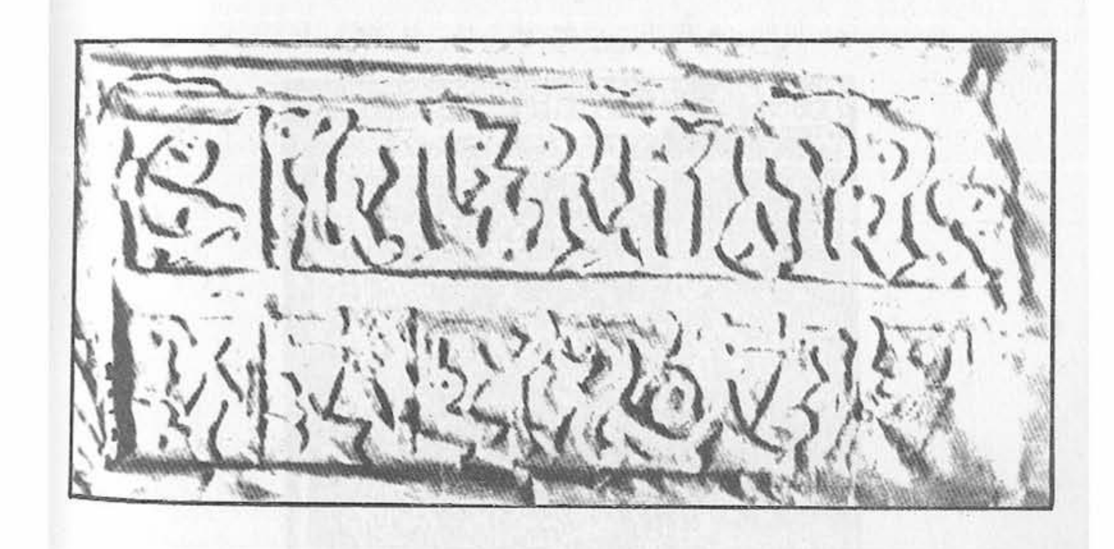
شكل 22

(جامع قرطبة) ارابسك نباتية محفورة في الرخام بجدار القبلة لصق المحراب

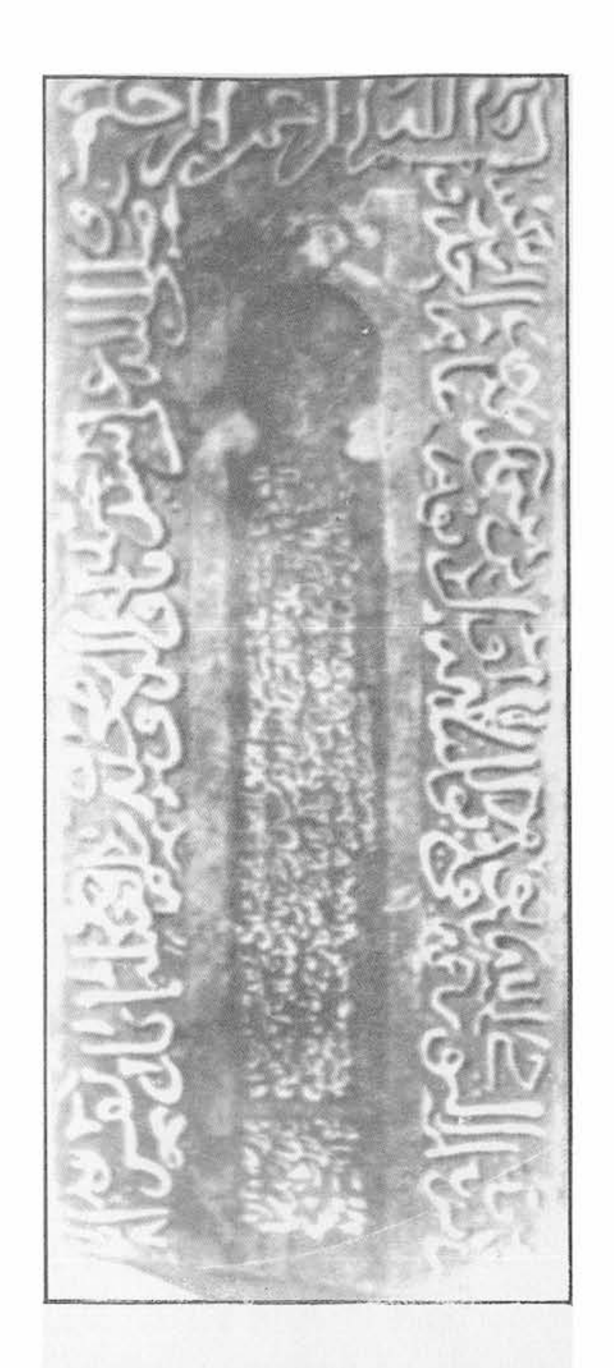
ويعتبر الخط العربي الذي خرج من الجزيرة بسيطا في أول أمره (أشكال 23 -25)، من أكبر الأدلة على الوحدة المذكورة، فقد استغل الفنان ما به من خطوط رأسية وأفقية واستدارة وانبعاج في تنويع أشكاله وتطويل هامات حروفه أو حشوها أو تبسيطها ووضع القواعد العلمية لزخرفته، فكتب له الانتشار والتفوق على جدران المباني وما أنتجه من أثاث وخزف ونسيج ومعادن. وقد اتصلت الكتابة بالأزهار والنباتات وتفرعت منها العروق وتدلت الزهيرات وتعقدت وتعانقت ودخلها التضفير واكتسبت سرها في جذب الأنظار إليها في جميع ما أبدعه العرب المسلمون وأصبحت عاملا مشتركا بين جميع انتاجهم. ولا غرو في أن الخطوط العربية تمثل حصيلة النظريات الأربع مجتمعة إذ أنها تقدم الدليل على الأصول العربية ثم تعبر عن فكرة الاستنباط والاشتقاق كما تقدم دليلا على فكرة التطور في الآثار العربية الاسلامية فضلا عن كونها تمثل بحق فكرة الوحدة في جميع منتجات الفن العربي الاسلامي.



شكل 23
أحد أنواع الخط الكوفي البسيط



شكل 24
تطور الخط العربي بشاهد قبر من مدينة بوجي بقلعة بني حماد
من عام 533 هجرية



شكل 25
شاهد قبر بمتحف بوجي من القرن السابع الهجري
بقلعة بني حماد

الفصل الثاني

ينابيع وروافد الفن العربي الاسلامي

أبحاث هذا الفصل :

الفن الساساني والفن الهلنستي

الفنون المسيحية الشرقية :

- الفن المسيحي الأول
- الفن البيزنطي
- الفن القبطي

الفنون الغربية بإسبانيا وشمال إفريقيا :

- الفن الرومانيسكي والفن القوطي.
- الفن البربري بالمغرب القديم.

ينابيع وروافد الفن العربي الاسلامي

مر بنا في بحث سابق[1] أن جزيرة العرب كانت الينبوع الأول والمصدر الأساسي لمختلف مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي يمثل جانبها المادي ويفسر اتجاهها المعنوي ما تبقى من عمائر أثرية وتحف وصناعات تطبيقية.

ثم شاء الله أن يفيض ذلك الينبوع نفسه فيضا رائقا يحمل الخير لحضارة الانسان... فكان الإسلام الذي جرى نهره الخالد على سنن من العلم والتقدير والحساب[2] في شتى مجالات الحياة وترك بصماته المنحوتة في عمر الانسانية السابق واللاحق في ميدان الحضارة والعمارة والفن.

وليس بغريب أن يحمل النهر الخالد أثناء مسيرته الأبدية رواسب الحضارات السابقة أو المعاصرة، القريبة أو البعيدة، لتزيد في خصوبة التربة الحضارية التي ترويها عصارة العروبة وتزكيها حكمة الاسلام.

وهكذا استقبل تيار الفن العربي الاسلامي المبكر في مجراه الأعلى روافد الفنون الأخرى كالفن الساساني والفن الهلنستي والفنون المسيحية الشرقية التي يمثلها الفن البيزنطي والفن القبطي. كما استقبل فرعه الغربي روافد أخرى بالأندلس يغذيها الفن القوطي، وبالمغرب العربي تغذيها فنون البربر المتدفقة عبر تاريخ المغرب القديم.

ولا بأس هنا من إلقاء نظرة سريعة موجزة على شخصية ومميزات كل من تلك الروافد التي ذابت في كيان الفن العربي الاسلامي منذ نشأته الأولى إلى أن تم صوغ مقوماته واكتمال شخصيته وتميز صورته عن بقية الفنون العالمية الأخرى.

الفن الساساني والفن الهلنستي :

ينسب الفن الساساني إلى الدولة الساسانية التي كان ملوكها من الايرانيين الوطنيين الذين عملوا على إحياء الفن الايراني القديم. ولكن أحداثا تاريخية كبيرة وحروبا طويلة مريرة

(1) مجلة دعوة الحق الرباط عدد يونيو 1974 ونوفمبر 1976، ويناير 1977.
(2) مقالنا بمجلة الفنون عدد مايو 1974.

وقعت قبل عصر الساسانيين بين الايرانين واليونانيين أخضعت بلاد إيران إلى الاسكندر الأكبر ثم إلى خلفائه من بعده حالت بين الساسانيين وبين احياء فن إيراني خالص اذ تسرب إلى الفنون الايرانية كثير من العناصر الفنية اليونانية. فقد وقعت بين الدولة الكيانية بإيران (559 – 321 ق.م) وبين اليونان حروب طويلة مريرة حتى جاء الاسكندر المقدوني فقضى على استقلال إيران ونشر الحضارة اليونانية بها. ثم خلفه السلوقيون الذين أتموا رسالته إلى أن قامت في خراسان أو بارثيا دولة البارثيين Parthians (50 ق.م – 226 م) وقد كان هؤلاء بحكم ظروفهم إيرانيين مصطبغين بالصبغة اليونانية، وقد جاء من بعدهم الساسانيون الذين حاولوا بعث القومية الايرانية التي أوشك الاسكندر وخلفاؤه على تغيير صبغتها.

وعندما نجح الاسكندر الأكبر في تحقيق هدفه الأساسي من فتوحاته بالمشرق وهو مزج الثقافتين اليونانية والشرقية تكونت من ذلك المزيج حضارة وثقافة وفنون عرفت بالفنون الهلنستية، وهي حصيلة تمازج الفن اليوناني أو الاغريقي مع الفنون الايرانية والشرقية. وقد غلب على تلك الفنون اصطلاح الفن الهلنستي نسبة إلى (Hellas) وهو اسم منطقة بشمال شرق اليونان أطلق على اليونانيين منذ القرن السابع قبل الميلاد[1] بعد إضافته إلى (East) ومعناها الشرق فهو فن البلاد التي فتحها الاسكندر وانتشرت فيها الحضارة الاغريقية فيما بين 303 ق.م و30 ق.م، على أن تمازج وتبادل التأثيرات الثقافية والعناصر الفنية بين الفنيين لم يتوقف بعد ظهور دولة الساسانيين فقد نجحوا في تأسيس دول عظيمة عاصمتها المدائن دخلت في حروب طويلة مع الرومان وتوغلت في أراضيهم وانتزعت منهم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ونجحت في حمل الصليب المقدس من بيت المقدس إلى المدائن. وإلى هذا النصر يشير القرآن الكريم بقوله : ﴿الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[2] كما نقل النساطرة الروم في هجرتهم إلى إيران علومهم وفنونهم المستوحاة من آداب وفلسفة الاغريق وخاصة عند اغلاق جستنيان مدارس الفلسفة في أثينا.

ولا شك أن تلك العلاقات الطويلة والاحتكاك المستمر في الحرب والسلام أدى إلى تبادل التأثيرات فعرفت كثير من الموضوعات الزخرفية الايرانية طريقها إلى بيزنطة حيث استوعبها الفن البيزنطي وعكسها بدوره على مناطق النفوذ التي كانت تابعة للبيزنطيين على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط شرقا وغربا، كما تأثر الفن الساساني نفسه بكثير من عناصر الفنون البيزنطية. وهكذا نتج عن تبادل التأثيرات الفنية بين الفنون الايرانية القديمة وبين الفن الاغريقي ثم بين الفن الساساني والفن البيزنطي عناصر فنية وجدت روافدها الطريق

(1) دكتور أحمد علي : تاريخ اليونان طبعة 1963.
(2) سورة الروم : مكية الآيات 1 – 3.

لتصب في التيار العربي منذ ما قبل الاسلام عن طريق دولتي الحدود مع كل من الفرس والروم ونعني بهما دولتي المناذرة والغساسنة. وعندما جاء الاسلام بتعاليمه وتنظيماته واتخذت الفنون العربية وجهتها الاسلامية وتم للاسلام نجاحه الرائع فوق أرضى المعسكرين الكبيرين وجد آثارا عديدة من عناصر العمارة والفنون التطبيقية التي استوعبتها فنون الاسلام في فترة تكوينها واكتمال شخصيتها على المستوى العالمي.

وكان من أبرز تلك العناصر التي نستطيع التعرف عليها عند تحليل الفنون العربية الاسلامية المبكرة أشرطة متموجة في الهواء وضعها الفنان الساساني عند الرقبة أو حول الرأس و في رمح الملك أو في رقاب الغزلان، واحاطة الموضوع الزخرفي بنقط بيضاء عرفت بحبات اللؤلؤ، ورسم الحيوانات والطيور أو الأشكال الآدمية متقابلة أو متدابرة بين كل زوج منها شجرة عرفت في تاريخ الفن بشجرة الحياة (شكل 26)، وحصر الموضوعات الزخرفية داخل مناطق محدودة تعرف بالجامات قد تكون مربعة أو مستديرة. وتظهر كذلك صور حيوان خرافي يعرف بالعنقاء[1] Dragon يحمل تأثر الفن الساساني بصورة فرس البحر القديمة في الزخرفة اليونانية. ومن هذا القبيل كذلك رسم الحيوانات ذوات الأربع المجنحة ثم رسم الزخارف النباتية البيزنطية كفروع العنب ملتفة حول نفسها وكيزان الصنوبر وورقة الاكانتس والبالمت وغيرها.

الفنون المسيحية الشرقية :

الفن المسيحي الأول :

ولد الفن المسيحي الأول بالمركز الذي نبتت فيه المسيحية في منطقة الشام مهبط عيسى عليه السلام وموطن حوارييه الأول حيث عاش المسيحيون في ظلال الانفاق (Catacomb) والمغاور والكهوف زمنا طويلا يعانون اضطهاد الوثنيين من قياصرة الرومان طيلة ثلاثة قرون إلى أن صدر منشور ميلانو سنة 313م واعلان الامبراطور تيودوسيوس أن الدين الرسمي للامبراطور هو الدين المسيحي.

ولم تكن الديانة المسيحية عند نشأتها محبذة للفنون بصفة عامة تخوفا من مركزها المرموق في العصور القديمة الوثنية، واقتناعا من البعض أن الفن لا لزوم له لان العقيدة المتوطنة في قرارة النفس تعكس صورة الحقيقة الخالدة التي تصورها أحكام الدين المسيحي. وكان منطق هؤلاء المتقشفين نتيجة الاحساس بالعجز عن ابداع فن خالص يساعد على نشر دعوتهم، ولكنهم ما لبثوا شأن بقية الأقوام ان مالوا إلى تزيين مقابرهم والمغاور والكهوف التي مارسوا

(1) أفاد الأستاذ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بأن العنقاء هي Sphinx والتّنين هو Dragon.



شكل 26

تأثيرات الفن الساساني في الفن الاسلامي تظهر في شجرة الحياة والطيور والحيوانات المتقابلة أو المتدابرة وحصر الزخرفة بمنطقة زخرفية (جامة) وحبات اللؤلؤ تدور بالوحدة الزخرفية

فيها عقيدتهم وكان ذلك ايذانا بمولد الفن المسيحي الأول. ولا شك أنهم بدأوا باقتباس الأشكال القديمة وعناصر الفنون السابقة كما اختاروا من تعبيرات الفن الوثني ما لا يتعارض مع معتقداتهم فصوروا مناظر الحب ومناظر الراعي حاملا كبشه رمزا للسعادة الأبدية وطيبة السيد المسيح ورأفته ثم انتقلوا بعد ذلك إلى اقتباس فن زخرفي مكون من رموز تعبر عن بعض مبادىء ديانتهم، فالشجرة رمز الجنة وغصن الزيتون رمز السلام والطاووس رمز الخلود والحمامة رمز لرسالة السلام أو الرجاء السماوي ونجاة الروح.

وقد نحتوا مسطحات التوابيت بأشكال تعبر عنالأفكار المسيحية أو الحوادث الدينية التاريخية كقصة موسى ونوح. ولم يعرفوا النحت في غير عناصر البناء كالتيجان فلم يقبلوا على نحت التماثيل على عكس اهتمامهم بصنع الصناديق العاجية لحفظ البقايا المقدسة ودقة النحت في الخشب والمعادن واتقان المنسوجات النفيسة (أشكال 27 – 30).

وكانت الكنيسة البازيليكية هي بناؤهم الممتاز وكانت مستطيلة الشكل ذات قاعة طويلة يحف بجانبيها رواقان أو أكثر أقل ارتفاعا يتصدرها جوفة APSE نصف دائرية يتقدمها أحيانا رواق مستعرض إحياء لشكل البازيليكا الرومانية، كما فضلوا التخطيط الدائري أو المثمن في بناء الأضرحة واستعملوا الحجارة في مبانيهم بسوريا وآسيا الصغرى وكسوا الجدران الداخلية بالرخام.

الفن البيزنطي :

وكان الاضطهاد الديني الذي لقيه المسيحيون سببا في هجرة الفن المسيحي إلى روما عاصمة العالم ثم جاء اعلان منشور ميلانو سنة 313م فانتعشت المسيحية وزادت سلطة البابا الدينية والدنيوية ثم انقسمت الكنيسة ودخلتها الغايات ونزح الامبراطور قسطنطين الأول إلى بيزنطة واتخذها عاصمة للامبراطورية المسيحية الشرقية سنة 330م وسماها باسمه وأنشأ بها أربع عشرة كنيسة وزخرف قصوره بأجمل الزخارف الاغريقية وشرع في إقامة كنيسة أيا صوفيا.

وقد مر الفن البيزنطي بثلاث مراحل : العصر الذهبي الأول من القرن الرابع إلى السادس الميلادي ثم عصر اضمحلال في القرنين السابع والثامن وأخيرا عصر ذهبي بين القرنين التاسع والحادي عشر للميلاد.

وتمت هجرة الفن المسيحي الشرقي إلى بيزنطة وظهر في بلاد الشرق تطور عميق في الأنظمة المعمارية والأشكال الزخرفية وكان نتيجة ذلك مولد طراز جديد هو طراز الفن

البيزنطي الذي اشتق أصوله من ذكريات الفن الاغريقي وآثار الفنون الشرقية القديمة (أي تراث الفن الهلنستي) واتجاهات الديانة المسيحية.

ويتميز الفن البيزنطي بعدول المعماريين عن الخطوط المستقيمة في البازيليكا السابقة وميلهم نحو التخطيط المستدير والمثمن والصليبي. وكان نظام القباب الفارسي الذي عرفوه عن طريق آسيا الصغرى من أبرز علامات الفن البيزنطي إذ أصبح عنصرا مميزا مع تعديل واحد وهو استعمال العقد نصف الدائري بدل المدبب لاستعمالهم الحجر في مبانيهم بدل الآجر الذي بنى به الفرس بالاضافة إلى الافراط في الزخارف النباتية وصور الطيور والحيوانات وكسوة الجدران بالرخام الملون ولوحات الفسيفساء. لقد استقرت معالم الفن البيزنطي بإقامة الامبراطور قسطنطين كنيسة أياصوفيا تمجيدا للحكمة الآلهية وخاصة عندما أعاد بناءها الامبراطور جستنيان سنة 532م وجعلها تحفة نادرة في تاريخ الفنون وجعل من القسطنطينية عاصمة حقيقية للفن البيزنطي الذي أصبح بحق فن الكنيسة بما يتجلى فيها من قباب وفسيفساء وتصوير (أشكال 31 – 36).

وقد ساعد انتشار القباب نفسها بما فيها من حنيات على انتشار الفسيفساء بالكنائس البيزنطية ودوامها كخاصية من خواص زخرفة الكنائس في بلاد الشرق مما أدى إلى الاستغناء عن المنحوتات الكبيرة والتماثيل.

وكان من نتائج انتشار الفن البيزنطي في إيطاليا ابان القرن السادس الميلادي اهمال الفنان لقواعد الفن الروماني الذي كان يعني بتشكيل الجسم والتجاؤه إلى النمط البيزنطي كجمود الحركة والتزام الوضع المنتظم المتكرر RYTHM وتغطية مساحة الجسم بثروة هائلة من الزخارف متنوعة الألوان تفسيرا لما بلغته الحياة في بيزنطة من رخاء وترف[1].

وكان من أبرز العناصر البيزنطية التي نلحظ تأثيرها في الفن العربي الاسلامي المبكر ورقة العنب وكوز الصنوبر وورقة الاكانتس (شوكة اليهود) وورقة البالمت (الأوراق النخيلية أو السعفية) وتصوير الحيوانات الخرافية كفرس البحر والفسيفساء والعقد نصف الدائري واستخدام قطع الحجارة الكبيرة في البناء (شكل 37).

الفن القبطي : (فن المسيحيين بمصر بين القرنين الرابع والعاشر للميلاد)

لم تكن هجرة الفن المسيحي المبكر في اتجاه روما ثم القسطنطينية هي الحدث الوحيد

(1) صدقي الجباخنجي (معرض المزايكو البيزنطي) جريدة الشعب 14 – 4 – 1957.



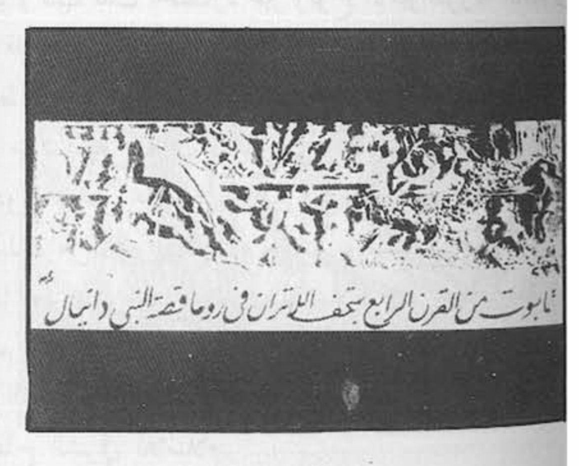
شكل 27

ملامح الفن المسيحي كمت تظهر في صورة السيد المسيح بين الرسل في الفسيفساء



شكل 28

قصة إبراهيم ولوط في الفسيفساء من آثار الفن المسيحي



شكل 29

قصة النبي دانيال منحوتة في تابوت من القرن الرابع الميلادي



شكل 30

تمثال الراعي الصالح من إنتاج الفن المسيحي

في ذلك الوقت حيث كان للمسيحيين تاريخ مجيد بوادي النيل. وكان المسيحيون في مصر كغيرها من البلاد الخاضعة للرومان يعانون الاضطهاد والظلم محرومين من اقامة الشعائر الدينية بحرية مما ألجأهم إلى الاجتماع سرا لأداء شعائرهم بالمغاور والكهوف. وبهذا ابتكر المسيحيون بمصر فنا قبطيا خاصا (مسيحيا مصريا) وحولوا بعض المعابد المصرية القديمة إلى كنائس وبنوا أديرة جديدة بالصحراء ذات نظام معماري خاص أثر في تطور العمارة المصرية وامتد تأثيره خارج مصر إلى الجزائر. واستخدموا في ذلك اللبن المجفف والعقد نصف الدائري والقباب وعرفوا التخطيط البازيليكي. وكذلك أتقنوا عددا من فنون الصناعات التطبيقية كالنحت على العاج والخشب والحجارة بعناصر زخرفية مقتبسة من عصر الاسكندر وتميزوا في تصوير الأشخاص حسب التقاليد الرومانية وخاصة فيما يتعلق برسم الملابس وتفننوا في نسج الحرير والصوف فساد الفن القبطي بمصر (أشكال 38 – 44) منذ ما قبل القرن الرابع للميلاد حتى قيام الدولة الطولونية وسيادة الأساليب العباسية.

الفنون الغربية بإسبانيا وشمال افريقيا :

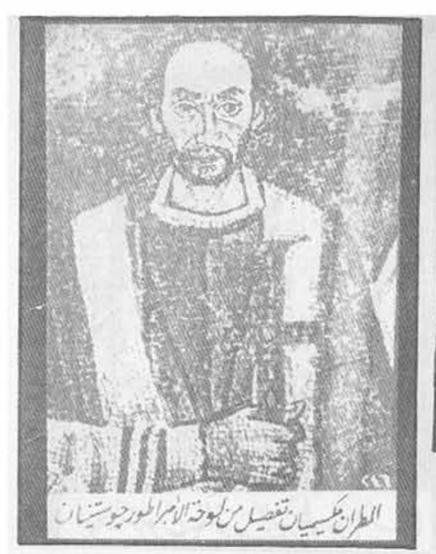
ولابد لنا أن نذكر هنا أنه ليس من الانصاف البحث في روافد الفن العربي الاسلامي المبكر في شرق العالم المعمور فقط وذلك لسببين : الأول، أن الحضارة العربية الاسلامية والفنون المعمارية والتطبيقية التي سايرت ركب تلك الحضارة عبر ربوع الامبراطورية الكبرى زهاء ألف عام لم تكن حضارة شرقية فقط فقد امتدت جغرافيا وعلى طول تاريخ ازدهارها نحو غرب المعمور في تلك العصور فغطت صقلية وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا ومجموع القارة الايبيرية والشمال الافريقي وهو ما نسميه بالغرب الاسلامي. أما السبب الثاني، فهو كون الجنس العربي القديم لم يتقوقع دوما داخل الجزيرة العربية قبل الاسلام، فكما انفتح على ثغور الفرس وتخوم الروم ساح كذلك من اليمن إلى الشام ومصر واستقرت فخوذ هامة منه بالشمال الافريقي الذي أصبح فيما بعد يمثل الجناح الغربي للاسلام. إن سكان المغرب الأصليين الذين عرفوا أحيانا بالبربر هم عرب المغرب القدماء الذين قدر لهم فرض فنونهم العزبية المغربية على فنون أوربا والعالم الغربي أيام المرابطين والموحدين وبني مرين كما مدوا تلك التأثيرات بعبقرية واقتدار إلى الجناح الشرقي للاسلام.

ومن ناحية أخرى فان الاعتماد على دراسة الفنون المسيحية الشرقية وعلاقتها بالفن العربي الاسلامي المبكر يشكل نقصا في دراسة الأصول. ذلك أن انقسام الكنيسة وانفصال الشرق عن الغرب وقيام الدولة الرومانية الغربية اثر في الفن فكان للفن المسيحي بغرب أوربا الذي



شكل 31

الفن البيزنطي بكنيسة اياصوفيا الأثر الفني النموذجي لعصر جوستنيان



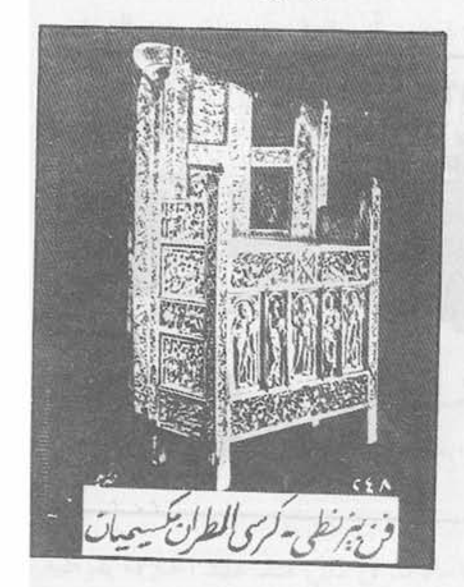
شكل 32

تفصيل رسم جوستنيان في الفسيفساء البيزنطي بكني اياصوفيا



شكل 33

قصة سيدنا يوسف في الفن البيزنطي

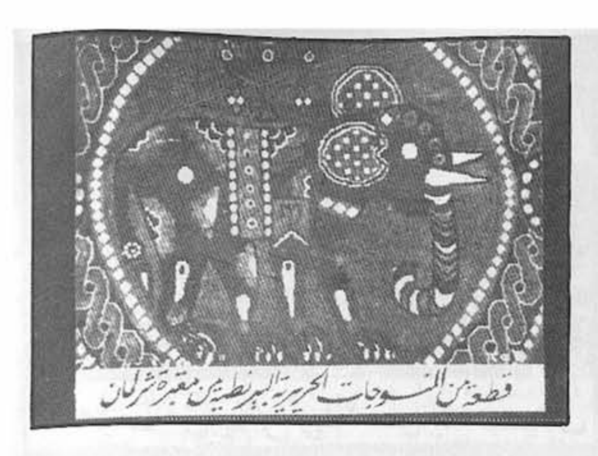


شكل 34

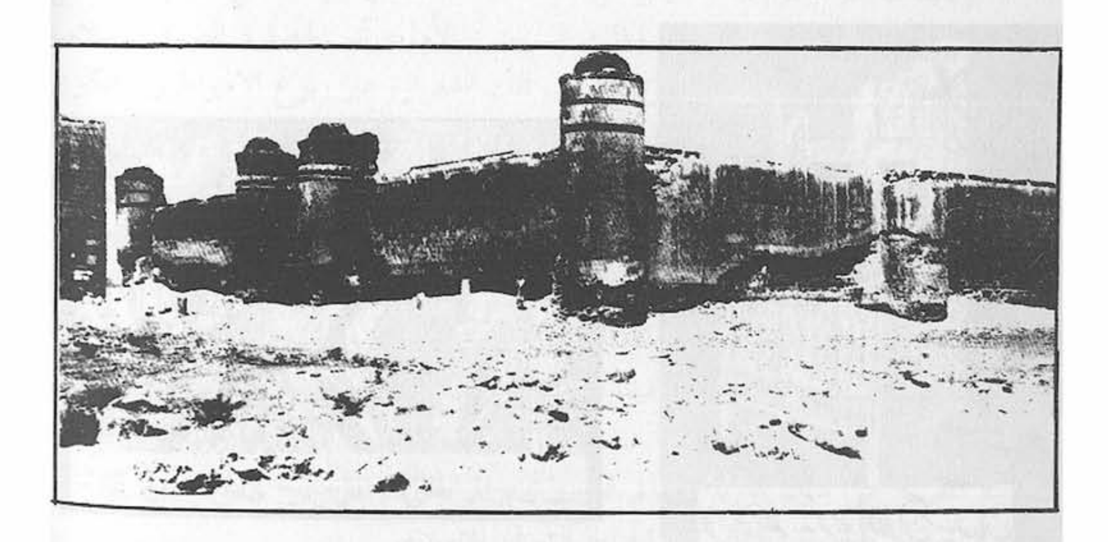
الصناعة والنقش في الفن البيزنطي بكرسي المطران مكسيميان



شكل 35
نحت ونقش بيزنطي في الحجر



شكل 36
نسيج بيزنطي متأثر بعناصر ساسانية مثل حبات اللؤلؤ



شكل 37
تأثير الفن البيزنطي في العمارة الأموية الاسلامية المبكرة
يظهر في الأبراج المستديرة والعقود نصف الدائرية

تتعامل معه فنون الجناح الغربي للاسلام مميزات خاصة غير مميزات الفن المسيحي الشرقي. كما كان للنظام الاجتماعي أثر كبير، فنظام القوط الاقطاعي باسبانيا قبل الاسلام واستقلال كل أمير بمقاطعته وقصره المنيع فرض نظاما خاصا على العمارة المدنية الحربية بوجود القصر المحصن بالاضافة إلى دفع طبقة الفرسان إلى اتقان فن الحفر على المعادن بمعدات الدفاع كالسيوف والحراب والدروع إلى جانب اهتمام طبقة النبلاء بانعاش الفنون التطبيقية من أثاث وحلي وملابس وسجاد مع النقص الواضح في تشييد المؤسسات العمرانية والمرافق العامة التي تخدم جماهير الشعب الكادح. فالحضارة والثقافة القوطية والفن القوطي بما فيها من خير وشر ونقص وكمال كانت القاعدة المحلية التي احتك بها الفن العربي الاسلامي بتأثيراته الوافدة معه من الشرق. ولهذا وجب وضعها موضع الاعتبار إلى جانب فنون العمارة والصناعات التطبيقية البربرية بالمغرب القديم عند دراسة الروافد المتعددة التي صبت في تيار الحضارة العربية المعمارية والتطبيقية المبكرة.

الفن الرومانيسكي والفن القوطي :

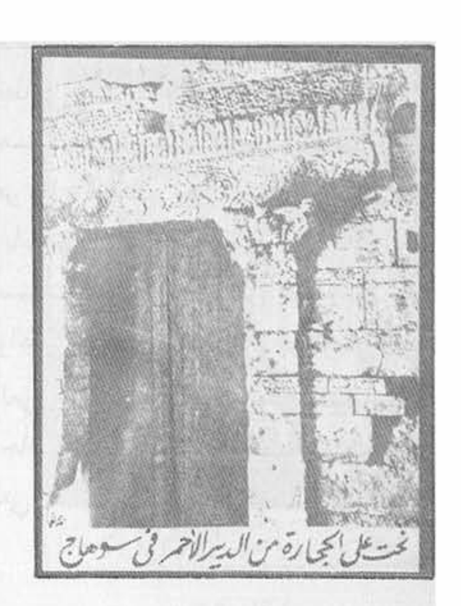
بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية ودخول غرب أوربا في مرحلة من التخلف والانحطاط لعدة أسباب كان أهمها تكرار الغارات الهجمية المتبربرة من جانب قبائل الوندال، حاول الأوربيون الرجوع إلى الاقتباس من الحضارة والفن البيزنطي المتأثر بالشرق وفنونه وحضارته عن طريق الفن الهلنستي فظهر الفن الرومانيسكي نسبة إلى الدولة الرومانية — التي اشتق أصوله منها بعد ذهابها – وتمثل في ثلاثة فروع رئيسية وهي : الفن الكارولنجى والفن السكسوني والفن النورماني، وهي مجمل الفنون التي سادت غرب أوربا قبل ظهور الفن القوطي[1].

ويطلق اصطلاح الطراز القوطي على فنون العصر المتأخر زمنيا بعد أن دخلتها دماء جديدة من الشماليين واختلاطهم بالحضارة الرومانية أو بقاياها بغرب أوربا ويمتاز الفن القوطي بالعقد المدبب والنوافذ المتشابكة والسقوف المعرشة.

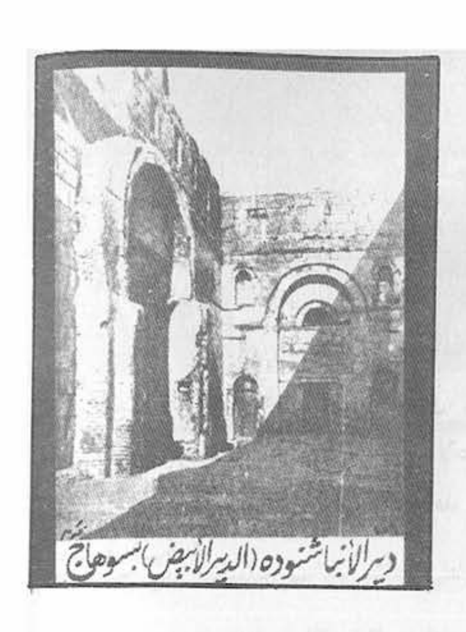
وهكذا تطورت التحف الاسلامية الأندلسية في اتجاه شرقي ذاتي منذ عهد الخلافة بقرطبة دون نسيان لما أمكن أن ترثه من الدولة القوطية القديمة[2].

---

(1) تراث العصور الوسطى : كرامب وجاكوب ج 1 ص 88.
(2) جوميث مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا ص 354.



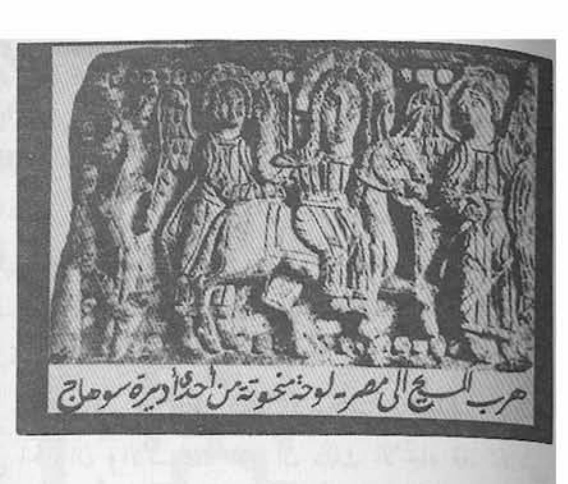
شكل 38
النحت القبطي في الحجر



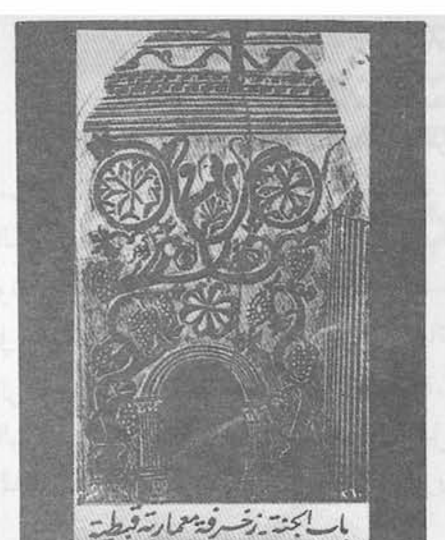
شكل 39
عناصر ومواد البناء في الفن القبطي



شكل 40
الهندسة المعمارية في الفن القبطي


هرب المسيح الى مصر - لوحة منحوتة من أحد أديرة سوهاج

شكل 41
النحت في الفن القبطي


باب الجنة - زخرفة معمارية قبطية

شكل 42
الزخرفة المعمارية في الفن القبطي


فن قبطي - لوحة خشبية منحوتة

شكل 43
النحت في الخشب كما كان في الفن القبطي


فن قبطي - تفصيل من أقمشة صوفية

شكل 44
عناصر الزخرفة المنسوجة في الصوف بالفن القبطي

الفن البربري بالمغرب القديم :

لقد ورث هذا الفن تأثيرات مصرية فرعونية في هندسة البناء وتأثيرات عربية عميقة سابقة على الاسلام من حيث التصميمات المعمارية، ثم تأثيرات رومانية من حيث تشييد أقواس النصر بالحجارة الكبيرة، وتقاليد بيزنطة في الفسيفساء، وصاغ تلك الأصول العربية القديمة والرومانية والبيزنطية في فلسفة خاصة تنسجم مع بيئته الطبيعية ومعتقداته الفكرية فلم تظهر في فنونه آثار الأشكال الحيوانية أو النباتية ولو المحورة (شكل 45)، وكانت كل عناصره الزخرفية تفسيرا لرد خطر العين الحسودة. فعلى الرغم من تأثر الفن الاسلامي بالأندلس بالفن البيزنطي من حيث الميل الشديد إلى تمثيل الحيوان والانسان، غير أن ذلك الاتجاه قد تلاشى تماما عندما سيطرت دول المغرب البربرية على الأندلس سياسيا وعسكريا وفنيا[1].

ان هذا الفن المغربي القديم[2] كان القاعدة الأولى التي استوعبت التأثيرات الاسلامية الشرقية لتكوين فنون المدرسة المغربية في العمارة والفنون العربية الاسلامية.

ولعل من المناسب الآن أن نعطي مثالين على الأقل لتوضيح ضرورة توسيع قاعدة الأصول القديمة شرقا وغربا لتيسير فهم انتقال العناصر والتأثيرات.

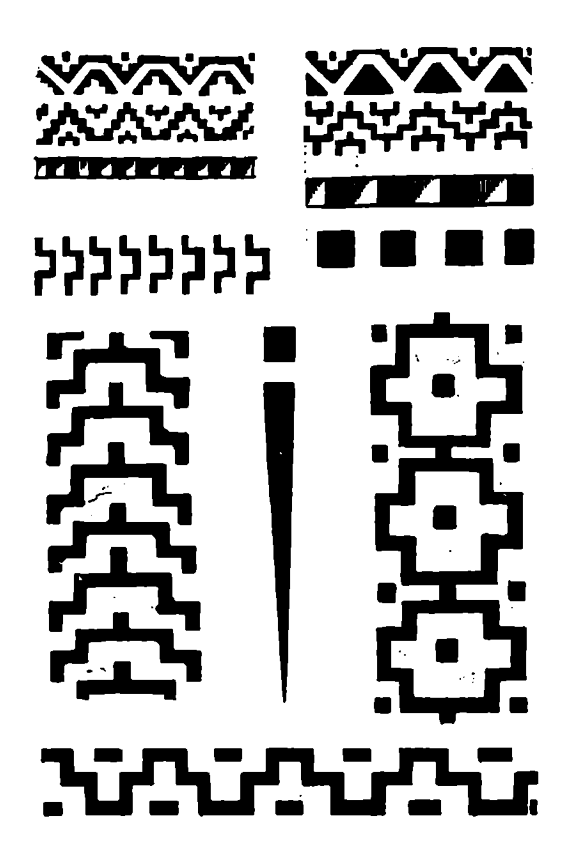
فبعض المنحوتات التي ظهرت في الفن الرومانيسكي بغرب أوربا كانت تقليدا للمنحوتات البيزنطية التي ورثت بعض معالم الفن الهلنستي المتأثرة بالأشكال الهندسية الشرقية. ذلك أن عناصر إيرانية قديمة امتزجت مع الفن الهلنستي ضمن خطة الاسكندر لمزج الحضارتين اليونانية والشرقية ثم انتقلت تلك العناصر إلى الفن البيزنطي الذي كان مصدرا رئيسيا لاقتباس فناني العصر الرومانيسكي الذي تبعه الفن القوطي قبيل نشأة الفن الاسلامي بالأندلس.

كما عادت عناصر مغربية قديمة (بربرية) سابقة على الاسلام كالأشكال النجمية إلى الشرق لتزدهر في تطور مدهش على الخشب والرخام وصفحات الكتب المذهبة في عصر

---

(1) جوميث مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا ص 13.

(2) من المفيد مراجعة كتاب **Abdel Aziz Ben Abedellah, L'Art Maghrebin**.
الفصل الأول عن الفن اليوناني الروماني والفن البربري العربي ثم
الفصل الثاني عن الفن البربري ص 95 - 99.



شكل 45

عناصر متنوعة من خصائص الزخرفة المعمارية في الفن
المغربي العربي القديم (الفن البربري)



شكل 46

فن الخط العربي يحتل بجلاله مواقع بارزة بمختلف
العمائر الاسلامية

الأيوبيين ثم المماليك بمصر بعد انتقالها مع العبيديين، وقد عرفت الصوامع المربعة بمسجد الحاكم بالقاهرة مثالها الأول في الاسلام من مسجد عقبة الجامع بالقيروان.

وأخيرا، فإذا كان الفن العربي الاسلامي قد استلهم بعض عناصره من الفنون السابقة كما أسلفنا، غير أن العناصر والتقاليد الفنية لا تنمو في المجتمعات الجديدة بنفس الطابع السابق دون أن تتأثر بظروف الحضارة والبيئة الجديدة التي زرعت فيها. ذلك أن النفس العربية المسلمة أو المزاج النفسي للعرب المسلمين يختلف عن المزاج النفسي الآخر تبعا لظروف الحياة الجديدة وعقيدتها ودوافعها التي كيفت العناصر المعمارية والفنية في قالب جديد.

الفصل الثالث

دور الاسلام العظيم ومولد الفن العربي الاسلامي

أبحاث هذا الفصل :

أثر الدين في الفن
نظرة الاسلام إلى الانسانية
بعض تنظيمات الاسلام العامة وأثرها في تطور العمارة والفن :
الحج
الحسبة
الوقف
بعض اتجاهات الاسلام نحو الاباحة أو الكراهية أو التحريم وأثرها في الفن
مولد الفن الاسلامي.

الفصل الثالث

دور الاسلام العظيم ومولد الفن العربي الاسلامي

أثر الدين في الفن :

لاشك أن الفن كان منذ البداية وثيق الصلة بالدين، ولا غرو فقد نشأ الفن في خدمة العقائد الدينية بين مختلف الجماعات الانسانية وأنه ظل يعمل في ركابها منذ فجر التاريخ إلى ما بعد عصر النهضة الأوربية بقرن أو قرنين إلى أن طرأت تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية أضعفت من سلطان الدين على نواحي الحياة وأحدثت عدم التوازن والقلق الذي أصاب الانسان بعد أن ألح على تحقيق الرغبات المتدفقة في نطاق آلية المجتمعات الاستهلاكية والوقوف في حيرة أمام مشكلة الفراغ المعنوي دون تحقيق الاستقرار والاستمتاع.

ففي تاريخ الفراعنة دور بارز للدين في توجيه السياسة نفسها ثم مظاهر الحضارة والعمران، ففناء المعبد فسيح تتوسطه مسلة شاهقة الارتفاع مدببة الرأس لاستقبال الأشعة الصادرة من قرص الشمس (معبودهم الاله رع) فتسري من خلالها إلى الأرض وتهب الحياة للانسان والحيوان والنضج للنبات. كما تطور الفن مع تطور الدين وطرأ عليه تأثير كبير بسبب ما طرأ على الدين من تأثير أو تغيير، فقد تأثر الفن الفرعوني القديم في العمارة والفن بالفلسفة الدينية واتجاهاتها ثم تأثر بالانقلاب الديني الذي شهده عصر الملك أمنوفين الرابع. وعلى الرغم من استيلاء الرومان على مصر بعد وفاة كليوباترا سنة 30 ق.م، فقد ظلوا خاضعين للديانة المصرية يعمرون معابدها ويواصلون فنونها نحوا من ثلاثة قرون[1].

وكانت الفنون المسيحية بالشرق الأدنى عامة والقبطية بمصر خاصة تتجه نحو الرمزية في المغاور والكهوف خلال فترة الاضطهاد الروماني حيث خضع الفن نفسه للظروف التي تعانيها الديانة. ومن جهة أخرى فقد كان لدخول المسيحية إلى مصر أثر واضح في تطور الفن المصري وتحوله تحولا كبيرا كاد يقطع صلته بماضيه الفرعوني عند ما انصرف المصريون عن أساليب الفنون القديمة باعتبارها وثيقة الصلة بالوثنية فصار للفن المصري طابع مسيحي فيما بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين عرف بالفن القبطي نسبة إلى القبط Aguptions

(1) دكتور زكي محمد حسن مقال بعنوان «حول وحدة الفن في عصور التاريخ المصري» مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد العدد 8 مجلد أول مايو سنة 1946 ص 13 – 25.

وعندما تم الاعتراف بالديانة المسيحية في أنحاء الامبراطورية بالقرن الرابع للميلاد ظهر تطور عميق في الأنظمة المعمارية والفنون التطبيقية تمخض عن مولد الفن البيزنطي الذي أثر في فنون الشرق والغرب تأثيرات بالغة.

وعندما نجح الاسلام في فتح مصر وتعريبها تطور الفن تبعا للدين الجديد ومر بفترة انتقال من الفن القبطي إلى الفن الاسلامي في القرنين السابع والثامن للميلاد إلى أن نضج بمصر فن إسلامي جديد أخذ يتطور باختلاف العصور الاسلامية في نطاق المفاهيم والتنظيمات التي جاء بها الاسلام. فزيادة طول جدران القبلة عن عمق المسجد كان تخطيطا معماريا ناتجا عن أحاديث نبوية تزيد من ثواب المتقدم عن المتأخر في صفوف المصلين فلزم زيادة الاتساع عن العمق.

ولا يزال من الميسور تطبيق مثل ذلك على فنون الشرق الأقصى بالهند والصين لرؤية تأثير الفلسفات العقائدية في الفن والعمارة. فعندما بدأ تأثير البوذية في فن النحت الصيني بدخول البوذية أرض الصين خلال القرن الأول الميلادي وبدأ اتخاذ الانسان هيكلا للعقيدة، أصبح الانسان للمرة الأولى في تاريخ الصين نموذجا معبرا عن الفلسفة الصينية بدلا من الحيوان القديم. ولهذا ظهرت تماثيل بوذا كاملة مستقلة أحيانا كما ظهرت على شكل حشوات بارزة في كهوف المعابد منحوتة في الصخر أحيانا أخرى وقد أحاطوها بمنحوتات أخرى كثيرة أصغر منها حجما تضفي على الكهف المقدس شعورا بالهيبة.

ونظرا لما أدلى به أحد أعلام العرب في دراسة الفنون والآثار الاسلامية سأجدني مضطرا الآن إلى إبراز دور الاسلام العظيم في الفن ردا على قول الدكتور زكي محمد حسن في كتابه فنون الاسلام (وقد قيل أن الدين والفن توأمان منذ البداية ولكن هذا لا يصدق على الفن الاسلامي فلم تكن للمساجد في الاسلام الشأن العظيم الذي كان للمعابد عند قدماء المصريين والاغريق والبوذيين، أو الذي كان للكنائس المسيحية، فالمسلم يصلي أين يشاء وليس للمساجد الجو الذي تشعر به في الكنائس، ومساجد الاسلام لا تضم شيئا من تماثيل الآلهة والقديسين، والمحراب حنية تبين اتجاه الكعبة وليس فيه أي صورة أو تمثال، والامام في الصلاة لا يرتدي الملابس ذات الألوان[1].

ويكفي النظر الآن إلى شدة تأثير الاسلام الذي طبع مظاهر الحياة العمرانية بتأسيس المسجد الجامع كنواة لجميع المدن الاسلامية ومركزا لتخطيطها واشعاعها وموضعا للتطور والتوسع يتمشى مع اتساع المدن وكثرة عمرانها وموضعا لابداع المهندسين في التخطيط

(1) زكي محمد حسن : فنون الاسلام الطبعة الأولى القاهرة 1948 ص 670.

وابتكار العناصر المعمارية، فقد فرضت الصلوات الجامعة في المسجد دون غيره. أما جو الرهبة والغموض المخيم على أروقة الكنائس فقد جاء الاسلام على نقيضه بجو من الوضوح والانفتاح بتحقيق الاضاءة والتهوية لانعاش الفكر وحضور الذهن وامعان النظر في جوهر الاسلام. ونقص التماثيل واللوحات المصورة لا يقوم دليلا على ضعف تأثير الاسلام في الفن بقد ر ما يعتبر دليلا على ذلك، فقد كان لموقف الاسلام من النحت والتصوير أثره البارز في اتجاه المسلمين إلى الزخارف النباتية والهندسية والكتابة التي عمت جدار القبلة فأحاطت بعقود المحاريب وكست قبابها بأروع الحلل الفنية من المخرمات الدقيقة الرقيقة التي تنم عن عبقرية الفنان وإفراغ مواهبه في قالب لا يتعارض مع تعاليم الاسلام. وإذا كان رجال الدين في المسيحية وغيرها قد عنوا بارتداء الملابس المزخرفة أو الملونة للتأثير على المصلين فقد حض الاسلام عامة المصلين إلى التزين بأفخر الألبسة عملا بقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

وهذا هو كونل الألماني[2] يقول بأن وحدة العقيدة الدينية في العالم الاسلامي أقوى تأثيرا منها في العالم المسيحي ذلك أن الاسلام قضى على الفوارق الناشئة من اختلاف الأجناس والتقاليد وعني بتوجيه شؤون الفكر والآداب والعادات في مختلف البلاد، وكان الأمر بنشر القرآن بلغته الأصلية العربية وحدها مما جعل لها وللتعاليم القرآنية سيادة مطلقة في العالم الاسلامي كله فكان ذلك في مقدمة العوامل التي أدت إلى ابتداع كثير من الفنون وازدهارها.

ودفاعا عن دور الاسلام العظيم في الفن نقدم الآن لمحات عن نظرة الاسلام إلى الانسانية وتنظيماته العامة وآثارها في تطور الفن والعمارة ثم بعض اتجاهاته نحو عدد من الفنون والصناعات ونتائجها ليتضح لنا في موضوعية علمية دور الاسلام وأثره في الصناعة والفن.

نظرة الاسلام إلى الانسانية :

رفع الاسلام الانسانية إلى مكان لم تبلغه المخلوقات الأخرى بما فيها الملائكة اذ فضل الله بني آدم على العالمين وسخر لهم المخلوقات[3] بأسرها ارتفاعا بمستوى الجنس البشري. وطالب الانسان بالتأمل وإطالة الفكر والنظر، ثم دفع بالانسان في عدة مواضع إلى العمل على التطور بمستوى حياته وحضارته.

(1) سورة الأعراف آية 31.

(2) أرنست كونل : الفن الاسلامي ترجمة الدكتور أحمد عيسى الطبعة الثانية 1966 ص 11.

(3) سورة ابراهيم ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ 32 وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ 33 وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا...﴾.

وكانت نظرة الاسلام إلى الانسانية أوسع وأشمل من أية نظرة أخرى فلم تعرف العنصرية ولافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. لقد كان الاسلام أكثر وفاءً للواقع من بقية العقائد والفلسفات والأديان وأكثر دفاعاً عن القيم المتوارثة العالية مهما كان مصدرها مادامت تسير في صالح الانسانية لتحقيق وثبة حضارية تتجاوز حدود البيئة الأساسية وتوثر في مختلف المجتمعات الأخرى وهكذا، كان تسامح الاسلام، وعدم تعصبه لجنس معين، ومبدأ المساواة في الحقوق والواجبات الذي كفله لمختلف الشعوب الداخلة في الدين طوعا أو كرها، سببا في فتح مجال العمل والابداع أمام جميع الأمم والشعوب التي أظلها الاسلام بظله بما فيها من مسلمين وغير مسلمين.

وبهذا تم تطعيم الحضارة العربية الأم بعناصر نفيسة استلهمتها من ابداع المسلمين الشامل عربا وأعاجم ومن ابداع غير المسلمين الداخلين في حوزة الامبراطورية الاسلامية الذين ضمنوا في ظل الاسلام استقرارهم وأمنوا على إنتاجهم وفنهم، وهكذا كانت نظرة الاسلام الراقية المتميزة إلى الانسانية سببا في تطور الحضارة الانسانية بما فيها من معالم معمارية وصناعات تطبيقية.

ومن جهة أخرى، فإن الأمة العربية بعد أن حملت أمانة الاسلام، أرادت أن تفرض قضاياها الانسانية على العالم المعاصر. ولكنها رأت بتوجيه من الدين ألا تفرض وجودها بالقوة العسكرية حتى فيما يتعلق بالاسلام نفسه «لاإكراه في الدين» بل عمدت إلى تحقيق هدفها الانساني الذي حدده الاسلام بقوة التنظيم والعلم والأدب والفن وأشعرها الاسلام بقوتها على الاشتباك مع حضارات العالم المحيط بها واتخاذ مواقف مؤثرة فيها فاشتبكت بحيوية وشجاعة كبيرة مع ثقافات العالم المختلفة ونقدتها وأخذت ما كان صالحا منها واستوعبت وأضافت إليه وجددت فيه، لقد كان من المستحيل رفض الاشتباك مع حضارات العالم وثقافاته، فلم تعرف حضارة قط استطاعت تجنب الاحتكاك بالحضارات الأخرى إلا وانعزلت فأعطاها التاريخ ظهره وقنعت بمكانها في الظل، والواقع أن صراع الروم البيزنطيين ضد الاسلام في جناحه الشرقي وصراع القوط ضد المسلمين بالمغرب والأندلس كان صراعا بين الحضارة المسيحية بتنظيماتها وتراثها وعقيدتها وبين الحضارة العربية الاسلامية بنظمها وميراثها وثقافتها وعقيدتها.

بعض تنظيمات الإسلام العامة وأثرها في تطور العمارة والفن

الحج :

الحج تنظيم اجتماعي واقتصادي وديني جليل أحاطته الشريعة الاسلامية بسياج عظيم من الاجلال بلغت أهميته حدا جعله إحدى قواعد الاسلام الخمس بحكم القرآن والحديث والاجماع ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حَجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، وحديث الرسول «بني الاسلام على خمس...» واجماع المسلمين على وجوبه وهو أمر موجه للقادرين بالمال والبدن أن يتوجهوا إلى مكة استجابة لدعاء ابراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

وكما يتضح الغرض الاقتصادي لخدمة الغرض الاجتماعي من دعاء ابراهيم، تتضح كذلك منافع الدنيا والدين من سورة الحج التي نزلت في فترة التنظيم بالمدينة[2] ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ الله فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ﴾[3].

وقد تقدم هنا ذكر المنافع أولا وهي أجل من أن تحصى، غير أن ما يعنينا الآن هو اجتماع المسلمين من أنحاء المعمور في سوق عالمية سنوية ثابتة التاريخ يشد المسلمون إليها رحالهم مزودين بما خف حمله وتحققت فائدته مهما كان ثمنه. وهكذا تتفتح أعين المسلمين على منتجات وأساليب رفيعة من الصناعات مختارة من شتى المناطق والجهات كالملابس والحلي والأدوات من خشب ومعادن وزجاج وعاج ومنسوجات، كما تنتقل تلك الصناعات من منطقة لأخرى على أثر عودة الحجيج إلى ربوع العالم الاسلامي عن طريق الهدايا أو التجارة فتنتقل أسرار الصناعات من إقليم لآخر لأحداث التكامل المنشود في الفنون والصناعات الاسلامية بالاقتباس والتطعيم وبتبادل التأثيرات بل إن ذلك الجمع الحاشد سنويا يخلف وحدة إسلامية متماسكة في الصناعات والفنون لاتبلى جدتها بقدر ما تزداد قوةً وتأكيداً وتطوراً على مر السنين.

---

(1) سورة ابراهيم الآية 37.

(2) مدنية الا الآيات 55/52 فنزلت بين مكة والمدينة.

(3) سورة الحج الآيات 29/27.

ومن ناحية أخرى فقد كان في الاهتمام بأداء مناسك الحج[1] محافظة على عمارة البيت الحرام الذي يعتبر أول بيت بني على الأرض لعبادة الله وحده. وقد ورد أن الملائكة أول من بنى الكعبة فكان يحج إليها الناس قبل أن يجددها خليل الرحمن عليه السلام مصداقا لقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ...﴾ وليس بخاف هنا أن الاشارة إلى مكانة البيت ومقام ابراهيم تحمل إلى المسلمين توجيها بصيانة عمارته وتعهدها كمبدأ للمحافظة على التراث المقدس.

الحسبة :

والحسبة نهج اسلامي قويم ونظام متكامل للرقابة على شؤون الحياة اليومية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والدينية بقصد تحقيق حياة اسلامية فاضلة.

(وهي في عرف الشرع من الخطط الدينية والكلمات الجامعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت تطلق في عرف النظام الاداري على حسابات الدولة والمواريث وديوان مراقبة الموازين والمكاييل ثم خصصت لمعنى الشرطة وخاصة شرطة الأسواق كنظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إطار الشرع الاسلامي[2] لصالح المجتمع).

وقد عرف عن الاغريق نظام خاص لمراقبة الأسواق وسلامة المبيعات لا يستبعد انتقاله إلى الشرق أثناء العصر الهلينستي وإلى إيطاليا كذلك حيث عرفه الرومان فيما بعد حتى جاء العرب وطوروا ما وجدوا من آثار ضعيفة في الشرق والغرب إلى نظام اسلامي[3] متكامل يبدأ حقيقة بظهور الاسلام ويستند على آيات القرآن الكريم وأقوال الرسول وأفعاله فيما يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عملا بقوله تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾، وقد تولاها الرسول بنفسه تبعا لرواية مسلم عن أبي هريرة[4] وقوله (من غشنا فليس منا) كما قام عمر بوظيفة الحسبة بنفسه فكان يطوف

---

(1) وعن الحج راجع الفقه على المذاهب الأربعة قسم العبادات كتاب الحج ابتدأ من ص 611 الطبعة الثانية لوزارة الأوقاف مصر سنة 1931.

(2) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، موسى لقبائل الجزائر 1971 ص 21/20.

(3) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، موسى لقبال الجزائر ص 21 ـــ 22 وراجع الحسبة كذلك عن حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 2 ص 299 (وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة وكان يقوم بعمل المحتسب، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي 158 ـــ 169 هـ). وانظر خطة الحسبة لعبد الرحمن الفاسي، مجلة المناهل الرباط يوليو 1980 ص 32 ـــ 77 دراسة شاملة من النواحي النظرية والتطبيقية.

(4) مر الرسول عليه السلام على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال يا صاحب الطعام ما هذا ؟ فقال أصابته السماء يارسول الله، أي المطر، فقال عليه السلام : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ثم قال من غشنا ليس منا.

الأسواق ويراقب الموازين ويطرح اللبن المغشوش إلى أن أصبح نظام الحسبة ضمن الوظائف الادارية استجابة لتطور الأحوال الاجتماعية فنشأت دار الحسبة في بغداد على عصر المأمون وعرفته مصر منذ عهد الولاة كما عرفته دمشق ثم تونس منذ عهد اليزيد بن حاتم 156 هـ الذي نظم أسواق القيروان وخصص لكل صناعة سوقاً وعلى كل صنعة عريفاً أو أميناً لمراقبة سير العمل. ولا زالت حتى اليوم آثار نظام الحسبة في كل مدن المغرب الأقصى وأسواقه يتولاها الباشا أو العامل أو المحتسب لمراقبة الأسواق والسلع ومحاربة الغش، وقد ظهرت نواة كتب الحسبة بالمغرب قبل ظهورها في المشرق، فكتاب «أحكام السوق» ليحيى بن عمر يرجع إلى القرن الثالث بينما يرجع أقدم كتب المشرق «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» لعبد الرحمن بن نصر الشيزري إلى القرن السادس[1].

وكانت الحسبة قد بلغت شأوا بعيدا في الاسلام على اثر قول الرسول «من رأى منكرا فليقومه». وبهذا لزم أن يمارسها كل فرد مسلم دفاعا عن حقوق الله ومصلحة الجماعة، وتدخلت الحسبة في شؤون الصناعة فالنساج والنجار والخزاف والوراق لكل منهم منهاج خاص عليه اتباعه ليأمن عقاب المحتسب في الدنيا وغضب الله في الآخرة مما فتح السبيل أمام اتقان العمل وتجنب الغش.

ولا شك أن نظام الحسبة على هذا النحو قد أثر تأثيراً واضحاً في تحسين الصناعات المختلفة من بناء ونجارة ونحت ونسيج وغيرها مما دفع بالفنون والصناعات الاسلامية لقطع أشواط واسعة في سبيل التطور والرقي.

الوقف في الاسلام :

وكان ثالث التنظيمات العامة هو نظام الوقف في الاسلام. والوقف لغة هو الحبس فهما لفظان مترادفان فيقال وقفه وأوقفه وحبسه، ومع هذا فقد تكون لفظة وقف أصرح في الدلالة على التأبيد من حيث أن لفظة حبس تكون مفتقرة إلى قيد في الكلام فنقول هذا حبس لا يباع ولا يوهب.

والوقف سنة قائمة عمل بها الرسول والخلفاء والمسلمون من بعده[2] وقد نفاه الشافعي عن الجاهلية ولا يرد على هذا ببناء فريق للكعبة وحفر بئر زمزم لان ذلك لم يقع منهم برورا وإنما مباهاة وافتخارا. وجاء في المقدمات لابن رشد أن رسول الله حبس سبعة

(1) الحسبة المذهبية ص 39 ثم 79 وبمكتبات المغرب الأقصى مراجع عديدة عن الحسبة في المغرب.
(2) مخطوط البهجة في شرح التحفة لأبي حسن علي بن عبد السلام التسولي ج 2 ص 216.

حوائط (حدائق) وحبس عمر وعثمان وطلحة والزبير وزيد بن ثابت وعمرو بن العاص[1]. وقال جماعة الصحابة وغيرهم أن أول صدقة الحبس يرجع إلى رسول الله إذ أراد بسنة الوقف أن يكون له ميزة خاصة لا تنقطع أبدا وهي ميزة لا توجد في سائر الصدقات، وذكر السمهودي في كتاب الوفاء أن النبي أوقف الأعراف وبرقة والدلال والصافية ومشربة أم ابراهيم وذلك سنة سبع من الهجرة.

ومن الدلائل المقطوع بها على مشروعية التحبيس ما رواه نافع من أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر فأتى النبي وقال اني أصبت أرضا لم أصب مالا أنفس منه فكيف تأمرني فقال رسول الله «ان شئت حبست اصلها وتصدقت بها» فتصدق عمر على أنه لا يباع أصلا ولا يوهب ولا يورث[2] وفي صحيح مسلم عن النبي عليه السلام أنه قال «اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، وقد فسر بعض العلماء الصدقة الجارية بالوقف أو الحبس. وقد ناظر الإمام مالك أبا يوسف بحضرة الرشيد وذكر أحباس الرسول قائلا «هذه أحباس الرسول وصدقاته ينقلها الخلف عن السلف قرنا بعد قرن»[3]فرجع مناظره عن قول أبي حنيفة إلى الجواز بالحبس في سبيل الله مصداقا لقوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾.

وهكذا استمد نظام الوقف أصوله من السنة النبوية قولا وعملا استنادا إلى آيات عدة بالقرآن الكريم تدفع المسلمين وتحضهم على الصدقة خاصة أن الوقف صدقة غير قابلة للفناء والانقراض، فالوقف على المساجد وأبناء السبيل والمشروعات الاجتماعية يصرف دخله على المحبس عليه ويبقى أصله وذاته على ملك الوقف، وقد وقع الاتفاق على جواز تحبيس المساجد والقناطر والطرق والمقابر وغيرها، ولا يصح في مذهب مالك الرجوع في الحبس لأنه بمنزلة العتق.

وبهذا ضمن نظام الوقف بقاء العمارات والمنشآت وغيرها مما حبس لصالح المساجد والمدارس والمستشفيات، ذلك أن العمائر المحبسة لزم دوام مباشرتها بالاصلاح والترميم لتظل صالحة للاستغلال والانفاق على الأعيان والوجوه المحبسة عليها، ولما كان من الضروري مباشرة ذلك الاصلاح على النمط والأسلوب الأصلي من حيث طراز البناء والزخرفة، فقد مهد ذلك من ناحية أخرى إلى ضمان استمرار أساليب الصناعات الاسلامية وازدهار تقاليدها الموروثة،

(1) عبد الرحمن عواد مقال بعنوان الوقف في الاسلام بمجلة الايمان الرباط مايو 1964 ص 30/26.
(2) نفس المصدر ص 28.
(3) عبد الرحمن عواد : مقال بعنوان الوقف في الاسلام «أبحاث عن مشروعية الأحباس الدينية والاجتماعية مجلة الايمان الرباط سبتمبر 1964 ص 38/36.

الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على جماعات ومدارس الصناع والحرفيين التقليديين. ولا زالت لوحات التحبيس والحوالات الحبسية إلى اليوم مصدر اهتمام الباحثين الذين يدرسون من خلالها أساليب وتطور الكتابات العربية ذاتها، كما يقفون على الوصف الدقيق للمباني المحبسة ومواقعها ومواردها وأوجه انفاقها مما يفتح نوافذ جديدة تطل على حقيقة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية.

يقول الباحث المغربي محمد المنوني إن الحوالات الوقفية التي يعنى بها سجلات تقييد الأملاك الحبسية والوثائق التي لها صلة بالموقوفات، بما في ذلك لوائح الكتب المحبسة على المساجد والمشاهد، لا زالت تضم معلومات نادرة وقيمة لتصوير المجتمع المغربي وتاريخه وحضارته، ولهذا دون في بحث قيم له عن مجموعات المصادر التاريخية المغربية نحو سبعين وثيقة حبسية بأرقام أفلامها المصورة في قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط[1].

ان التأمل في بعض مضامين الحوالات الوقفية المغربية يثير عدة أمور انسانية جاء بها الاسلام وليس لها نظير في عالم اليوم الذي يدعى الحضارة والتمدن. فقد حبست بعض الأعيان على طائر اللقلاق وبعض الحيوانات كما حبس البعض على الأواني الفخارية التي تكسر من أطفال المسلمين الذين خرجوا بها من منازلهم لشراء بعض المواد لأسرهم.

---

(1) محمد المنوني : مجموعات المصادر التاريخية المغربية، مجلة البحث العلمي الرباط يوليو 1973 ص 86.

بعض اتجاهات الاسلام نحو الاباحة أو الكراهة أو التحريم وأثرها في الفن :

لا بأس أولا من تلخيص مفهوم كل من تلك الاتجاهات، فالاباحة تعني التخيير بين فعل الشيء وتركه، والمباح هو ما خير الشارع بين اتيانه وتركه دون ترتب ثواب أو عقاب[1]. والكراهة هي خطاب الشارع الناهي دون جزم، والمكروه هو الفعل الذي طلب الشارع تركه لا على سبيل الجزم والالزام[2]، أما التحريم فهو خطاب الشارع بالكف عن الشيء على سبيل الجزم، فالحرام فعل طلب الشارع تركه على سبيل الجزم[3].

والواقع أن موقف الاسلام من النحت والتصوير كان له أكبر الأثر في صرف المسلمين عن تلك الفنون إلى فنون أخرى أفرغوا فيها عبقريتهم، وقد اختلف الفقهاء ورجال الفنون الاسلامية في تفسير اتجاه الاسلام نحو التصوير فالقرآن الكريم يخلو من نص صريح للتحريم، أما لفظة «الأنصاب» الواردة في سورة المائدة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فمعناها الأحجار الكبيرة[4] والأصنام. وهكذا تعددت الآراء حول اتجاه الاسلام بتعدد الأحاديث والاجتهادات في تفسيرها.

وكان من بين الأحاديث التي اعتمد عليها القائلون بالتحريم «ان الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيو ما خلقتم». وحديث آخر «ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون».

ومن الأحاديث التي اعتمد عليها القائلون بالاباحة على ما يمتهن حديث عائشة أم المؤمنين (قدم رسول الله من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل فلما رآه رسول الله هتكه وقال : أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. قالت : فجعلناه وسادة أو وسادتين). وعندما عاد أبو طلحة صاحب رسول الله زيداً في مرضه رأى على بابه سترا فيه صورة، فقال لعبد الله ربيب ميمونة زوج النبي : ألم يخبرنا زيد عن الصور ؟ فقال عبد الله : ألم تسمعه حين قال (إلا رقماً في ثوب).

---

(1) دكتور محمد سلام مدكور : الاباحة عند الأصوليين والفقهاء.

(2) نفس الكاتب : مباحث الحكم عند الأصوليين.

(3) نفس الكاتب ونفس المصدر.

(4) الصنم : ماكان على صورة انسان من معدن أو خشب، الوثن : ما كان على صورة انسان من حجر، النصب : حجر غفل ليس على صورة معينة، انظر حضارة العرب قبل الاسلام مقال بقلم خزيم علي الخزيم بالأنباء الكويتية 1986/7/10 ص 10.

وقد أباح فريق ثالث رسم ما ليس له روح كالشجر[1] وما أشبه اعتمادا على حديث ابن عباس عندما استفتاه مصور فيما يصور، قال يا ابن عباس انني انسان انما معيشتي من صنعة يدي وانني أصنع هذه التصاوير فقال ابن عباس : لأحدثك الا ما سمعت رسول الله ﷺ، سمعته يقول من صور صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدا، فربا الرجل ــ اي مرض مرضا يجعل الرجل يعلو نفسه ــ ربوة شديدة واصفر وجهه فقال ابن عباس ويحك ان أبيت الا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح[2].

وخلاصة القول أن سكوت القرآن الكريم واختلاف الأحاديث قد أدى الى الكراهة في النحت والتصوير وكان من مظاهر تلك الكراهة قصر الرسول السماح بوجود الصور في الأماكن الممتهنة بالاستعمال، كالوسادة والستر والسجاد مثلا دون أن توضع موضع التبجيل.

وقد ادعى بعض المستشرقين أن الاسلام قد تأثر باليهودية في تحريم التصوير علما بأن الديانة الموسوية لم تحرم صناعة التماثيل وانما حرمت عبادتها فقط. وتشير سورة سبأ بالقرآن الكريم إلى التماثيل التي كانت تصنع لسليمان ﴿وَيَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ كما تنصب آيات التوراة صراحة على تحريم التماثيل الخاصة بالعبادة ﴿لاَ تَصْنَعُوا لَكُمْ أَوْثَاناً وَلاَ تُقِيمُوا لَكُمْ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً أَوْ نَصْباً وَلاَ تَجْعَلُوا فِي أَرْضِكُمْ حَجَراً مُصَوَّراً لِتَسْجُدُوا لَهُ لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ آلِهُكُمْ﴾[3].

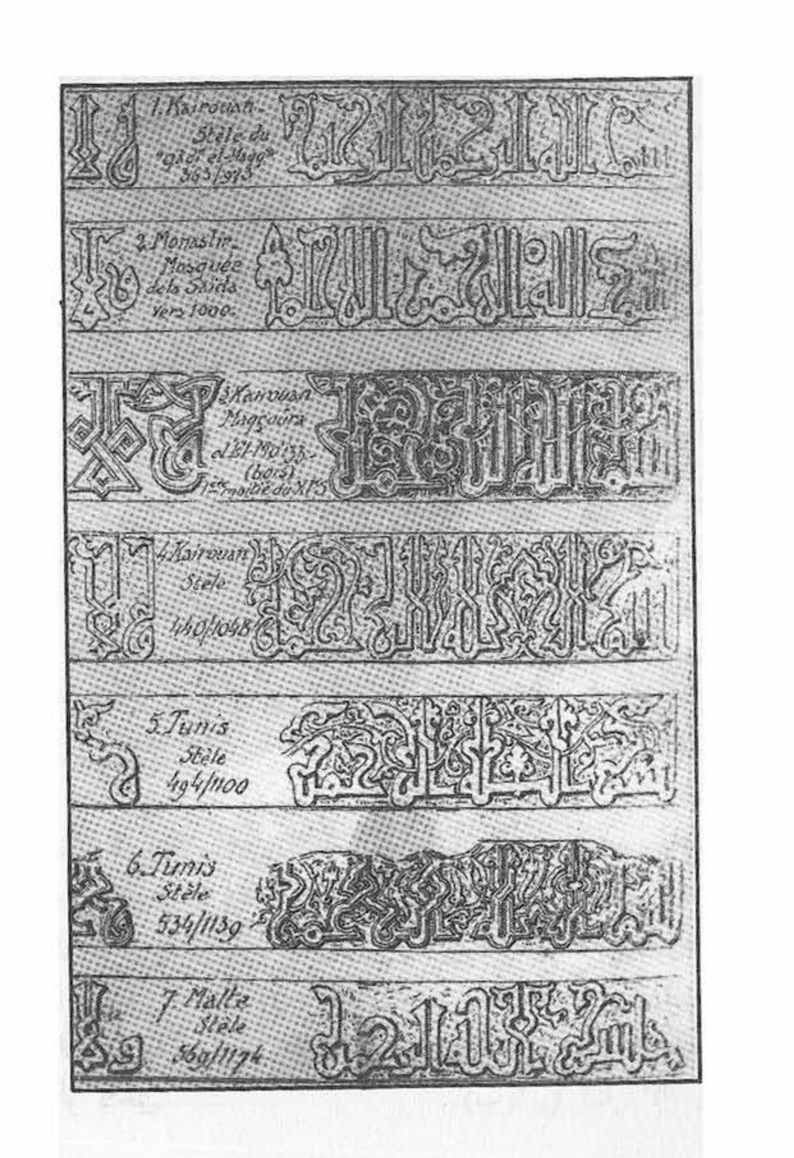
وقد استجاب الفن الاسلامي لاتجاه الدين فلم يستخدم التصوير لنشر التعاليم الدينية كالمسيحية وأهمل فن اللوحات وعمل التماثيل، واقتصر على تزويد المؤلفات العلمية والأدبية بصور تشرح دقائق العلم والفن، فأفرغ عبقريته في فنون الزخرفة الكتابية (أشكال 46 -47) والهندسية والنباتية فبلغ فن الخط العربي جمالا زخرفيا لم يبلغه فن آخر في تاريخ الانسانية قاطبة وتخطى وظيفته الأصلية كتعبير وتسجيل للفكر إلى وظيفة زخرفية جمالية تقصد لذاتها على غير مثال سابق أو لاحق.

---

(1) دكتور جمال محمد محرز : التصوير الاسلامي ومدارسه سلسلة المكتبة الثقافية القاهرة رقم 61 مايو 1962 الفصل الأول.

(2) صحيح البخاري ج 3 ص 169 باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك.

(3) الدكتور محمد جمال محرز : نفس المصدر ص 11/8.



شكل 47

تطور الخطوط العربية بحو الابداع الفني والجمالي نتيجة موقف الاسلام من النحت والتصوير

ذلك أن وظيفة الخطاط كانت حلقة من حلقات فن قائم بذاته يعرف بفن الوراقة أو مانسميه فن الكتاب، ذلك الفن الذي يعنى في المغرب نساخة الكتب وتصحيحها وزخرفتها وتسفيرها. وقد تبنى الملوك والأمراء في المغرب انتاج تلك الطائفة ومنهجيتها في العمل، وهكذا اشتهر عبد القادر السلاوي الأندلسي ثم الفاسي بكتابة وزخرفة (إدراك الأماني من كتاب الأغاني) بتوجيه السلطان محمد الثالث العلوي، كما اشتهر علي عبد القاهر بن محمد الوافلاوي الفاسي الوراق المجيد بكتابته وزخرفته وبراعته في فنون الوراقة حتى رشحه السلطان محمد الثالث المذكور (1202 هـ) لنشر هذا الفن وتعليم أصول الكتابة والزخرفة والجدولة لمائة وأربعين تلميذا داخل بيت المال بفاس[1].

وقد عمد الفنان المسلم إلى البعد عن تقليد الطبيعة في رسم الجذوع والأوراق والنباتات معلنا مبدأ التجريد والرمز في الفنون الاسلامية (أشكال 49/49) وابتكر في مرحلة حاسمة لتطور فنونه أسلوبا زخرفيا جديدا هو أسلوب التوشيح أو التوريق (Ataurique) كما هو معروف في المغرب وفي الأندلس كذلك حيث خضعت العناصر النباتية للفكرة الهندسية العربية وظهرت في مجموعات تتشابك تشابكا هندسيا متماثلا منتظما تتباين الحركة فيه تبايناً توقيعياً حسب تفسير كونيل في دائرة المعارف. ولا غرو فقد أوضح الدكتور أحمد فكري أنها مجال تحرر الفنان العربي من تقليد الطبيعة ومجال للتعبير عن خياله وأحاسيسه الشخصية مع الالتزام بتوجيه الدين فأبدع أشكالا نباتية مجردة تتعانق فيها الأغصان والفروع داخل مضلعات هندسية متقابلة مع تماثل العناصر والمجموعات[2]. وقد فرض هذا الفن نفسه على الأوربيين الذين اقبلوا عليه وفتنوا به وأطلقوا عليه اسم (Arabesque) نسبة إلى مبتدعيه العرب[3] الذين نشروه على جدران العمائر والقاعات فوق الجص والخشب وسطوح التحف المعدنية وأغلفة الكتب الثمينة مما بقيت آثاره فوق جدران قبة الصخر ومباني سامرا ومنبر المسجد الجامع بالقرويين والكتبية وعقود نوافد المنشآت الاسلامية وجوامع المغرب والمشرق.

وكان من نتائج نفس الاتجاه المذكور ابتكار المسلمين لعناصر زخرفية هندسية تقوم على علم وافر بالهندسة العلمية وإبداع تراكيب هندسية نجمية متعددة الأضلاع لم تكن معروفة من قبل ظهرت أروع أمثلتها على جدران مدارس فاس المرينية ومنشآت المماليك بالقاهرة كما ظهرت على التحف المعدنية وصفحات الكتب المذهبة بشتى فنون المدارس الاسلامية.

ولا غرو، فقد طبعت الزخارف الهندسية فنون الاسلام بطابع قوي جعل العالم الفرنسي برجوان Bourgoin يقسم زخارف العالم الهندسية إلى ثلاثة فنون : الاغريقي والياباني

(1) عن أخبار الخط والخطاطين بالمغرب أنظر محمد المنوني مجدة الفنون أكتوبر / نوفمبر 1974 ص 48/46.
(2) دكتور أحمد فكري : المدخل.
(3) دكتور زكي محمد حسن فنون الاسلام ص 672.

والعربي، ويشبهها بالفصيلة الحيوانية والنباتية والمعدنية فقد عني الفن الاغريقي بدقائق الجسم الحيواني وأتقن الفن الياباني تمثيل المملكة النباتية وحققت الأشكال الهندسية في الفن الاسلامي أشكالا متعددة الأضلاع تذكر بالأشكال البلورية لبعض المعادن[1] أعجب بها الغرب وقلدها فكان ليوناردو دافنشي يقضي الساعات الطويلة في رسم الزخارف الهندسية الاسلامية.

وكانت النتيجة الأخيرة لاتجاه الاسلام وموقفه من النحث والتصوير أن أصبحت الفنون الاسلامية تتكون حقيقة من فن العمارة ثم الفنون الزخرفية المستعملة في حاجيات الانسان اليومية والمنسوجات والخزف والأواني حتى أصبح للصناعات والفنون الزخرفية شأن عظيم في فنون الاسلام حيث أصبحت الزخرفة طابع الفنون الاسلامية كلها لا ينافسها نحت أو تصوير[2]وغزت ميدان العمارة نفسه وطغت زخارف الجص والزليج على الجدران وأصبحت عنصرا رئيسيا فيها تحول الفكر عن مميزاتها المعمارية حتى أصبح لفن الزخرفة الاسلامية أثر يستحق الالتفات في مختلف مراحل التطور لشكل الطراز العام لأعمال الانشاء[3]، كما تألق الفنان في اختيار أشكال الأواني وإبداعها وتغطيتها بالزخارف والرسوم.

ومرة أخرى، كان اتجاه الاسلام نحو تنظيم استعمال الحرير سببا في ازدهار صناعته وتجارته عند العرب وزعامتهم لصناعة وتجارة الحرير في العالم الوسيط، وقد ادعى كريستي في كتابه تراث الاسلام أن رغبة العرب الجامحة في الاستمتاع بالرفاهية المحرمة من جانب الدين أوصلتهم إلى السيطرة التامة على زعامة صناعة وتجارة الحرير في العصور الوسطى[4].

والواقع أن الله وعد المؤمنين في عدة آيات بالقرآن الكريم بلبس الحرير والذهب والفضة والنعيم المقيم في الآخرة فليس من المعقول أن يكون التحريم المطلق منطبقا عليها في الحياة الدنيا، وقد استهل كتاب اللباس في صحيح البخاري عرضه بالآية الكريمة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ وقول الرسول عليه السلام «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير اسراف ولا مخيلة» وقول ابن عباس رضي الله عنه «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة[5]» فالمقصود اذن تنظيم الاستعمال وعدم المباهاة والخيلاء.

وقد جاءت الأحاديث النبوية بإباحة الحرير دون قيد أو شرط للنساء، ففي باب الحرير للنساء بصحيح البخاري عن علي بن أبي طالب قوله «كساني النبي ﷺ حلة سيراء — أي لها وشى من الحرير — فخرجت فيها فرأيت الغضب في وجهه فشققتها بين نسائي». وقد أخبر

(1) زكي حسن : فنون الاسلام ص 676.

(2) زكي حسن : فنون الاسلام ص 249.

(3) أرنست كونل : الفن الاسلامي ترجمة أحمد عيسى ص 12.

(4) Legacy of Islam, P. 133

(5) صحيح البخاري ج 7 ص 257.



شكل 48

الزخرفة الحيوانية والنباتية مجردة ومحورة ع الطبيعة



شكل 49

عقاب من البرونز من العصر الفاطمي يبرز بعد
الفن الاسلامي عن تقليد المخلوقات الحية تقليدا
صادقا ويظهر مبدأ التجربة في الفن الاسلامي



أنس بن مالك أنه رأى على أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ برد حرير سيراء[1] وكذلك وردت الأحاديث عن الرسول بإباحته للرجال عند الضرورة كالمرض وخلافة، وعن أنس أنه قال «رخص النبي ﷺ للزبير وعبد الرحمن في لبس الحرير لحكة بهما[2] أي بسبب مرض جلدي... ومع هذا فقد وجدت أحاديث أخرى في الجانب الآخر للنهي عن استعمال الحرير فقد ورد عن البراء قوله «أمرنا النبي بسبع... ونهانا عن لبس الحرير والديباج والقسى والاستبرق ومياثر الخمر»[3]. ولعل هذا الموقف قد دفع بالفنان المسلم إلى التقيد بافراغ عبقريته الفنية في زخرفة جزء محدود من الحرير متصل بالثوب فأتحفه بروائع الزخرفة الهندسية والنباتية وتلك التي كانت تتضمن أحيانا زخارف كتابية كاسم الخليفة وألقابه واسم الوزير وصاحب الطراز والمدينة وبعض العبارات الدعائية والآيات القرآنية.

وبانتشار الاسلام وزيادة النشاط التجاري لجناحي الامبراطورية بالشرق والغرب كانت المنسوجات النفيسة تصدر من مصر وايران والشام وصقلية والمغرب والأندلس إلى سائر أقاليم الاسلام والدول الأوربية والشرق الأقصى كما أقيمت المصانع في مختلف أرجاء الامبراطورية الاسلامية بنظام خاص فرض انتاجه على المستوى العالمي فأطلقت أوربا على منسوجات دمشق اسم **Damasks** ومنسوجات الموصل اسم **Muslin** ومنسوجات غرناطة اسم **Grenadines**.

وقد بنى موقف الاسلام من استعمال الذهب والفضة على الأحاديث الشريفة والسنة النبوية فعن حذيفة قوله «نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها...»[4]. وفي باب خواتيم الذهب بصحيح البخاري رواية عن البراء أنه قال «نهانا النبي ﷺ عن خاتم الذهب أو قال حلقة الذهب... وآنية الفضة»[5]. وعن أبي هريرة أن النبي نهى عن خاتم الذهب[6]. وعن أنس أن نبي الله أراد أن يكتب إلى رهط أو أناس من الأعاجم فقيل له أنهم لا يقبلون كتابا إلا عليه خاتم فاتخذ النبي خاتما من فضة نقشه محمد رسول الله...»[7]، وعن ابن عمر أن رسول الله اتخذ خاتما من ذهب وجعل فصه مما يلي باطن كفه ونقش فيه محمد رسول الله فاتخذ الناس مثله فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال لا ألبسه أبدا ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة، قال ابن عمر فلبس الخاتم بعد النبي أبو بكر وعمر وعثمان حتى وقع من عثمان في بئر أريس[8].

---

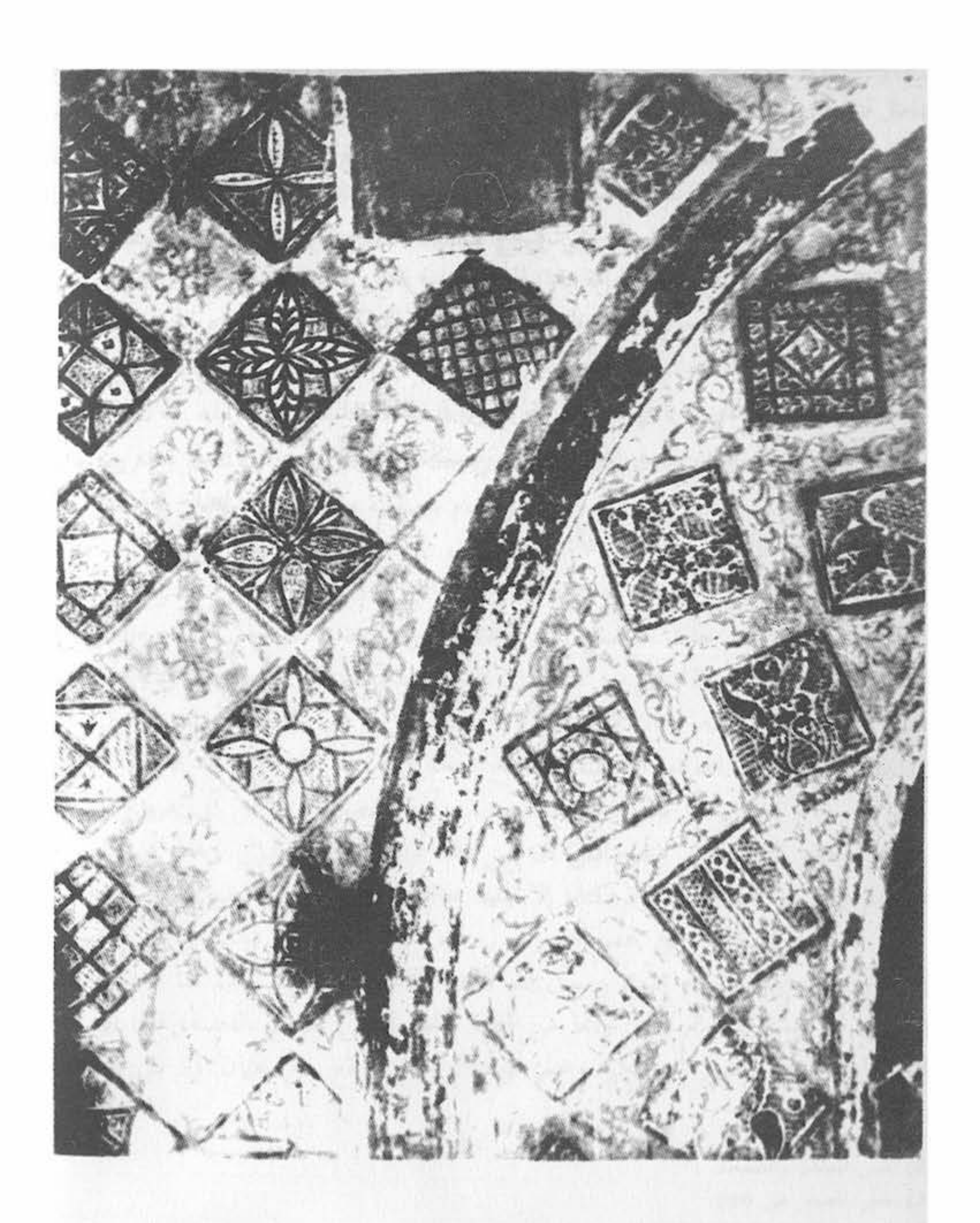
(1) صحيح البخاري ج 7 ص 277.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر ص 280.
(4) نفس المصدر ج 7 ص 276.
(5) نفس المصدر ص 284.
(6) نفس المصدر ص 285.
(7) نفس المصدر ص 287.
(8) صحيح البخاري ص 285.

(بحديقة قرب مسجد قباء) وقد أجمع أهل الحديث على أن المطروح انما كان خاتم الذهب[1] وقد دفع هذا الاتجاه بالفنان المسلم إلى ابتكار طريقة خاصة في انتاج الأواني الخزفية تتعلق بطريقة الصنع ومواد الصناعة ونسبها تقوم على دراية كبيرة بفن النار وطبيعة المواد ومراحل تأثرها بالنار ونتائجها، تمخضت عن ظهور نوع من الخزف يعرف بالخزف ذي البريق المعدني اسماه المستشرقون من الانجليز Lustre Pottery وعرف في المصطلح الفرنسي باسم Faience à Reflet Métalique وهو نوع من الخزف تعكس زخارفه المرسومة بمركبات كيميائية بريق الذهب والفضة دون أن يدخل في تركيبها شيء من المادتين التي حام حولهما التحريم وهما الذهب والفضة (شكل 50).

وكان من هذا القبيل كذلك الاهتداء إلى طريقة جديدة في تزيين الأواني المعدنية باسقاط أجزاء من مادة ثمينة في أخرى أقل ثمنا تكسبها رونقا وجمالا يفوق رونق الأواني المتخذة من المادة الثمينة وحدها.

---

(1) نفس المصدر ص 286.



شكل 50
ابتكار المسلمين لصناعة الخزف ذي البريق المعدني كما نرى في
تربيعات واجهة محراب سيدي عقبة بن نافع بجامع القيروان

مولد الفن الاسلامي

على الرغم من خطأ ابن خلدون بالقول في مقدمته أن «المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وأن العرب شيدوا المباني والمصانع عندما بعد العهد بالدين وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدام العرب أمة الفرس»[1] مما يوحي بأن الفن والعمارة العربية الاسلامية ولدت مع مولد الدولة العباسية.

وعلى الرغم من زعم الدكتور زكي محمد حسن أن عصر النبي عليه السلام والخلفاء الراشدين كان عصر بساطة فلم يكن المجتمع على عصرهم مرتعا خصبا للفنون بأنواعها وأن الفن الاسلامي ولد في عصر بني أمية[2].

على الرغم من ذلك كله، فقد فات البعض أن الاسلام لم يحبذ منذ البداية الرهبنة والتقشف، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانَ اللهِ﴾[3] وعلى العكس من ذلك فإننا نراه يدعو المسلم إلى الاستمتاع الحلال ويمهد للبشرية وسائل العيش المترف في الحياة الدنيا والآخرة بنصوص صريحة من القرآن الكريم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[4] و ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[5].

ومع هذا فما زالت أمامنا فكرة جوهرية فيما يخص قيام الحضارة والفنون العربية الاسلامية حول محور رئيسي أولي وهو المسجد ذلك المكان المقدس لممارسة شعائر العقيدة وإدارة شؤون الحياة وتنظيمها، لقد لزم المسلمون هذه الخطة على طول تاريخهم المجيد اقتداء بسنة رسولهم الأعظم فما أن وطئت أقدامه أرض المدينة حتى أقام جدران مسجد يجعل منه بيتا لله ومركزا لدعوة الايمان والحياة الكريمة. لقد كان هذا العمل أول ما شغل به وفي نفس المربد الذي بركت فيه ناقته قبل أن يبنى بيتاً لعائشة.

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة.
(2) دكتور زكي محمد حسن : فنون الاسلام : الفصل الأول ص 10.
(3) سورة الحديد الآية 27.
(4) سورة الكهف الآية 7.
(5) سورة سبأ الآية 33.

وقد أمر الرسول صحابته فأسسوا المسجد، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبن وجعلت قبلته إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب.

وكان المسجد يشتمل على رحبة واسعة تحيط بها جدران من جهاتها الأربع إلى أن أقام الرسول ظلة فوق قبلته الأولى تجاه بيت المقدس. وعندما حولت القبلة نحو الكعبة أقيمت عليها ظلة ثانية وبقيت الظلة الأولى لأهل الصفة، قال أنس : «بنوا المسجد وصفوا النخل قبلة، وجعلوا عضادتيه حجارة». وقال السهيلي : «جعلت قبلته من حجارة منضودة بعضها على بعض وحيطانه باللبن وجعلت عمده من جذوع النخل[1]».

وهكذا وضعت أصول فن العمارة الدينية في مسجد الرسول عليه السلام وعلى عهده بالذات، وليس هناك أدنى شك في أن المساجد الجامعة التي أقيمت بعد المسجد النبوي في البلاد التي فتحها العرب وفي المدن التي مصروها أو أنشأوها قد اتبعت جميعها نظام المسجد الجامع الذي أقامه الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة غداة هجرته إليها[2].

فتخطيط المسجد مساحة محاطة بجدران يتوسطها فناء أو صحن مكشوف تتقدمها سقيفة فوق جدار القبلة وسقيفة أخرى في المؤخر. القبلة متجهة نحو الكعبة. الأسقف مرفوعة على جذوع النخل التي تقسم بيت الصلاة إلى أروقة أو أساكيب. جدار القبلة أهم جدران البناء فقد اتخذ دون غيره من الحجارة، كما صفت جذوع النخل قبلة أي في موازاة جدار القبلة تأكيداً لأهمية هذا الجدار فسواء كانت حدود المسجد مربعة أو مستطيلة أو شبيهة بذلك، كان جدار القبلة دائما هو القاعدة التي ترتكز عليها تلك الحدود[3].

ان التخطيط والنظام الذي وضع في أول مسجد للرسول هو نفس النظام المنتشر بين أرجاء العالم الاسلامي الفسيح حتى اليوم مع تغيرات طبيعية في مواد البناء وهيئته اقتضتها سنة التطور واختلاف المواد والمناخ في المجتمعات المتباعدة جغرافيا المتحدة عقائديا في ظل الاسلام.

---

(1) أحمد فكري : المدخل (من سلسلة مساجد القاهرة) دار المعارف بمصر ص 171/168 وما يليها. والمراجع التي أشار إليها هامش رقم (3) ص 169.

(2) أحمد فكري : نفس المصدر ص 195.

(3) نفس المصدر : ص 301.

وقد خضع المسجد النبوي للزيادة على عصر عصر الرسول نفسه، ثم جدده أبو بكر ومن بعده عمر الذي جدده علي بناءه في عهد الرسول وجعل أساطينه من لبن وسقوفه من الجريد وأعاد عمده خشبا[1]. وجاء عصر عثمان، وقد أجمع الرواة على أنه زاد فيه زيادة كبيرة فبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفضة وجعل عمده من حجارةٍ منقوشة بالساج وفرغ منه بعد عشرة أشهر بعد أن جعل فيه طيقاناً مما يلي الشرق والغرب وحسنه وجعل منه أثرا فنيا جليلا ايذانا بمولد الفن الاسلامي.

وهكذا يقتضي الانصاف القول بأن الفن العربي الاسلامي الذي ولد بمسجد الرسول في المدينة من حيث التخطيط المعماري وعناصر البنيان ومواد البناء وأساليب الزخرفة كان فنا عربيا اسلاميا نابعا من البيئة ومن ميراثها ومقوماتها وتقاليدها.

ولا شك ان الاحتكاك الحضاري بين العرب في الاسلام وغيرهم من الأمم قد بدأ في عصر الخلفاء الراشدين أنفسهم عن طريق الفتوحات مما فتح أعينهم على ألوان جديدة من العمائر والمنشآت وأساليب عديدة للصناعات والمنتجات. ثم بدأوا يستقرون في البقاع التي فتحوها وقد تدفقت عليهم الثروة فأرادوا الا يظهروا فقراء في عمائرم بسطاء في حياتهم وهم الحاكمون. وقد أسعفهم استعدادهم الحضاري وصفاؤهم الفكري وتصورهم الواقعي للأشياء، واخضاعهم المسائل لقواعد الهندسة والحساب، ودينهم السمح الذي أطلق العنان للمبدعين والفنانين من أبناء الأمم والشعوب الداخلة في حوزة الاسلام، وحرية الحركة والانتقال بين جوانب الامبراطورية الفسيحة شرقا وغربا، ونقل الحكام المسلمين للعناصر المعمارية والزخرفية، إلى مزج روائع الحضارات التي لا تتعارض مع الدين، وما أن تولى معاوية ونقل عاصمة الاسلام إلى دمشق حتى ظهرت الحاجة إلى إقامة قصور لا تقل روعة عن قصور البيزنطيين وما شاهده العرب في فتوح العراق ومصر والمغرب والأندلس فشيدوا خلال القرن الأول للاسلام مساجداً وقصوراً وقباباً تخطت بعمارتها وزخرفتها مرحلة الميلاد المبكر على عصر الخلفاء إلى مرحلة الطراز المستقل بشخصيته ومميزاته وهو الطراز الأموي.

---

(1) نفس المصدر : ص 172.

ولن يمنع ذلك من رؤية بعض العناصر التي تحمل ذكريات سابقة من الفنون الساسانية أو البيزنطية وغيرها كما أسلفنا، فليس ذلك مما يعيب الفن في شيء مادام الفن العربي الاسلامي قد تناول عناصر سابقة معمارية وزخرفية وطورها وطوعها تبعا لحاجاته وأخرج منها عناصر أخرى جديدة أعادها مرة أخرى أكثر نماء وثراء إلى الفنون اللاحقة.

الفصل الرابع

نشأة وتطور الفن العربي الاسلامي وظهور الطرز والمدارس

أبحاث هذا الفصل :

نشأة الفن الاسلامي وتطوره.
ظهور الطرز والمدارس :
الطراز الأموي
الطراز العباسي.

الفصل الرابع

نشأة وتطور الفن العربي الاسلامي وظهور الطرز والمدارس

نشأته وتطوره :

لقد كان اتصال العرب بالاسلام بعد بعثة الرسول عليه السلام حدثا بارزا في تاريخ البشرية جدد شباب الحضارة والعقلية العربية وأماط اللثام عن عبقريتها في الاقتباس والتنويع والابتكار وأطلق العنان للفكر العربي في ربوع الاسلام الفسيحة باستعداده الحضاري يشاهد ويقيم ويستخلص ويقوِّم. وهكذا وصلت فنون العمارة والزخرفة التي شهدت مولدها في مسجد الرسول الأعظم بالمدينة قبل انقضاء عصر الخلفاء الراشدين إلى دور النشأة في صدر الدولة الأموية ولم يمض نصف قرن بعد على ظهور الاسلام.

وقد كان لوحدة العقيدة الدينية في مختلف مناطق العالم الاسلامي شرقا وغربا بما أشاعته من روح العدالة والإنصاف ونبذ فوارق الجنس واللون وما دفعت إليه من امعان للنظر وارهاف للحس، وما استهدفته من نوايا حضارية جليلة بتشريف الصناعات والصناع وتوجيه للفكر والفن دون تمييز لطبقة أو جنس، أثر كبير في امتزاج الحضارة لا يعدله أثر الاسكندر الأكبر في مزج الحضارتين الاغريقية والشرقية، ولا زال من المدهش حقا أن يطبع نتاج العمارة والفنون الاسلامية كافة بقاع الامبراطورية، رغم بعض الفوارق الطبيعية المحلية، بطابع الذوق العربي العام نتيجة نشر القرآن بلغته الأصلية وما ترتب على ذلك من وحدة في التفكير والذوق والابداع.

ومنذ أن وضعت النبتة الأولى في بعث العمارة العربية تحت ظل الاسلام بيد الرسول الكريم في تخطيط مسجد المدينة، ومولد الفنون الزخرفية بالمسجد النبوي على يد ذي النورين ثالث الخلفاء الراشدين، برز الوعي العربي الاسلامي نحو التحضير والتمصير. وما أن انتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق وصفا الملك لمعاوية حتى أدرك الأمويون ضرورة تشييد مساجد لا تقل فخامة عن معابد الوثنيين وكنائس المسيحيين وإقامة قصور لا تقل روعة عن قصور البيزنطيين وبهذا تبنت الدولة العربية الاسلامية الأولى نشأة العمارة والفن بتنشيط حركة

التشييد المعماري وما يوازيها من فنون الصناعات الزخرفية حيث كان من السهل استيراد المواد واستخدام العمال والفنيين من مختلف أنحاء الدولة لمصر والشام والعراق وغيرها لاقامة العمائر وتطبيق أصول الزخرفة وتطويرها في نطاق المظهر العربي الاسلامي.

وقد كان ذلك الانتاج بالضرورة يحمل تأثيرات هلنستية قديمة وبيزنطية معاصرة على الخصوص نتيجة لاحتكاك دمشق القديم بمظاهر العمارة والفنون البيزنطية وزعامة الفنيين السوريين لهذا الطراز بالذات (أشكال 51 – 52). كما لا يخلو كذلك من بعض العناصر الساسانية والقبطية القديمة التي كانت شائعة بالشرق الأدنى.

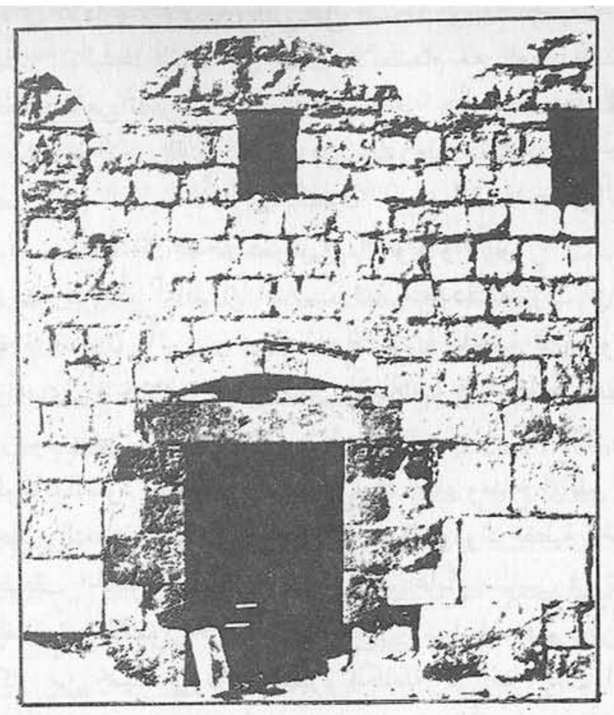
وفي ختام الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة تحولت الخلافة من دمشق إلى بغداد القريبة من المدائن عاصمة الفرس القديمة، وقدر للدولة الأموية بعث تراثها من جديد في أرض الأندلس الاسلامية، فبدأ ضعف التأثيرات الهلنستية على فنون الاسلام الشرقية وازداد ظهور العنصر الفارسي سياسيا وثقافيا فولت الفنون وجهها أكثر من ذي قبل للاعتماد على الأساليب الفنية الفارسية منذ صدر الدولة العباسية وأصبحت السيادة والفن في العالم الاسلامي الشرقي للعراق وايران، وبدأ تطور الفنون المعمارية والتطبيقية بشكل ملحوظ بلغ غاية عظمته ونضجه في مدينة سامرا بالعراق خلال القرن الثالث للهجرة حيث تحددت معالم الفن العربي الاسلامي وتميزت شخصيته فأدرك ابتكارات فنية وآيات معمارية ذات شأن ملحوظ فيما أنتجته المدنية الاسلامية من أعمال فنية خالدة.

وقد شهدت الفنون العربية الاسلامية ازدهارها الرائع في القرن الرابع بالمشرق والمغرب والأندلس وبلغت عنفوان شبابها في القرنين السابع والثامن وغطت مساحة واسعة وعصورا متعاقبة إلى أن دب إليها الهرم في القرن الثالث عشر بتقليد الفنون الغربية وإهمال التقاليد الموروثة والاستجابة لحاجيات السرعة والاقتصاد في الانتاج باستخدام الآلات والأساليب الحديثة.

وكما أجمع المؤرخون على أن الفن الاسلامي هو أوسع الفنون انتشارا وأطولها عمرا (باستثناء الفن الصيني) بامتداد الامبراطورية العربية الاسلامية من الهند وآسيا الصغرى شرقا إلى المغرب والأندلس غربا ومن صقلية وجبال البرتات شمالا إلى اليمن جنوبا، أجمعوا كذلك على نجاح العرب أيام الأمويين والعباسيين في فرض أساليبهم الفنية طوال ثلاثة قرون كاملة على ربوع الامبراطورية كلها.

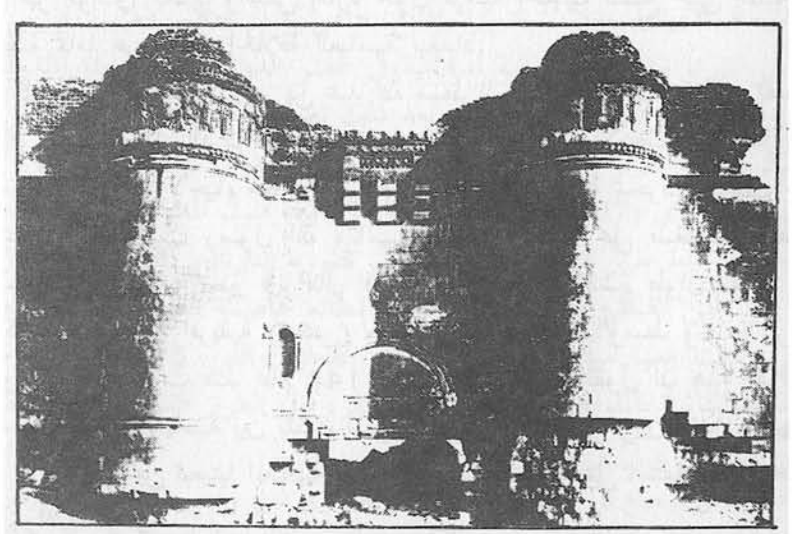
ظهور الطرز والمدارس :

وقد كان التحرر الاجتماعي والاقتصادي الذي أدركته شعوب الامبراطورية العريضة في ظل الاسلام دافعا إلى استمرار التقاليد الفنية المحلية التي لا تتعارض مع المبادىء العليا للدين وضمانا كذلك لمكانة الصناع والبنائين والفنانين وتقريب الممتازين منهم وتقلد أبناء الشعوب



شكل 51

تأثيرات الأساليب البيزنطية في العمارة الاسلامية الأموية



شكل 52

تأثير الفن البيزنطي في الفن الاموي كما نرى في الأبراج

قاطبة مواقع القيادة في الادارة والأدب والفن على السواء. وبهذا تطورت الأساليب الفنية في كل اقليم محتفظة بآثار تقاليدها القديمة في نطاق الانسجام مع العهد الجديد والدين الجديد وما ينقله العرب الفاتحون من تأثيرات فنية من اقليم لآخر حتى تم صوغ الفنون المحلية بالروح العربية الاسلامية الجديدة، الأمر الذي تمخض عن خلق فنون متشابهة في جملتها متميزة بصفة عامة عن فنون الصناعات العالمية الأخرى بكمون الروح الاسلامية فيها رغم ما تختص به من ميزات دقيقة لا يستبينها الا المتخصصون في الفنون والآثار.

وهكذا ظهرت طرز أو أنماط أو أساليب فنية متعددة تطورت في كل إقليم اسلامي تحت تأثيرات عدة قد تكون تأثيرات اجتماعية واقتصادية داخلية تارة، وقد تكون تأثيرات سياسية عامة تارة أخرى. فاختلاف بعض المباني الاسلامية في الهيئة أو النمط لا يمكن تفسيره بزعم جوميث مورينو، بقدر ما هو اختلاف طبيعي اقتضته طبيعة مواد البناء في كل إقليم ونوع الأعمدة وطولها والعقود وأنواعها ومناسبتها لمواد البناء ومناخ الاقليم الذي يفرض فروقا في التخطيط الداخلي والتغطية الخارجية وأنواع الزخرفة ومواد تغطية الجدران.

وقد كان ضعف الحكومة المركزية ببغداد أهم عامل سياسي في تطور الفنون المحلية وظهور المدارس الفنية تبعا لظهور حركات الاستقلال السياسية، فلم يكن من منطق التاريخ أن تحتفظ دولة أكثر من خمسة قرون بالسيطرة الكاملة على مثل تلك المساحة الهائلة.

فمنذ البداية أقدم صقر قريش الجسور على اقتحام الأهوال بحيلة واقتدار أمكنته من الافلات من مكائد العباسيين ثم احياء معالم الدولة الأموية عام 138 هـ عندما حاز نصرا حاسما على نهر الوادي الكبير وأسس إمارة حول قرطبة أخذت تتسع حتى أصبحت خلافة أموية مستقلة تماما عن كيان الخلافة العباسية ببغداد.

كما كان المولى ادريس الأكبر بن عبد الله سبط الرسول أكبر همة وأزكى نفسا وأشرف نسباً من أن يعيش خامل الذكر متخلفا عن حمل رسالة جده الأعظم، وهكذا اتخذ طريقه إلى المغرب الأقصى طلبا لإحياء معالم الاسلام حيث هب المغاربة بمجرد الكشف عن حقيقته للتمسك بمناقب أهل بيت رسول الله وتأسيس دولة مستقلة على ضفاف المحيط. وكانت التيارات السياسية والمذهبية تسير في شمال افريقيا سير النار في الهشيم طوال القرن الثاني الذي شهد حركة الاباضية في افريقية (تونس) وتحولها إلى المغرب الأوسط ونجاح الرستميين في تأسيس دولة حول تاهرت منذ عام 144 هـ بحيث نستطيع القول ان هذا القرن قد شهد فعلا تجميد العلاقات السياسية بين بلدان المغرب العربي والأندلس وبين بغداد، فدولة الأغالبة بافريقية[1] على الرغم من تبعيتها المذهبية للعباسيين قد حصلت على استقلالها الداخلي منذ عام 188 هـ بموافقة الرشيد.

(1) تابع تطور فنون تونس (أشكال 53 – 56) وصقلية (أشكال 75 – 58) ثم فنون بني حماد أصحاب القلعة بشرقي المغرب الأوسط (أشكال 59 – 68).

ويطل القرن الرابع على الغرب الاسلامي كذلك بأحداث سياسية جديدة، فقد نجح العبيديون في بث دعوتهم بشمال افريقيا وكونوا دولة في افريقية ثم تحولوا إلى مصر وأقاموا خلافة بالقاهرة، كما شهد نفس القرن بالمشرق عصر النفوذ التركي في الخلافة العباسية وظهور الامارات المستقلة كالحمدانية في الشام وبني بويه بفارس التي عرفت باعتناقها المبكر للمذهب الشيعي واستثمار تأثير العناصر الوطنية الايرانية في العمارة.

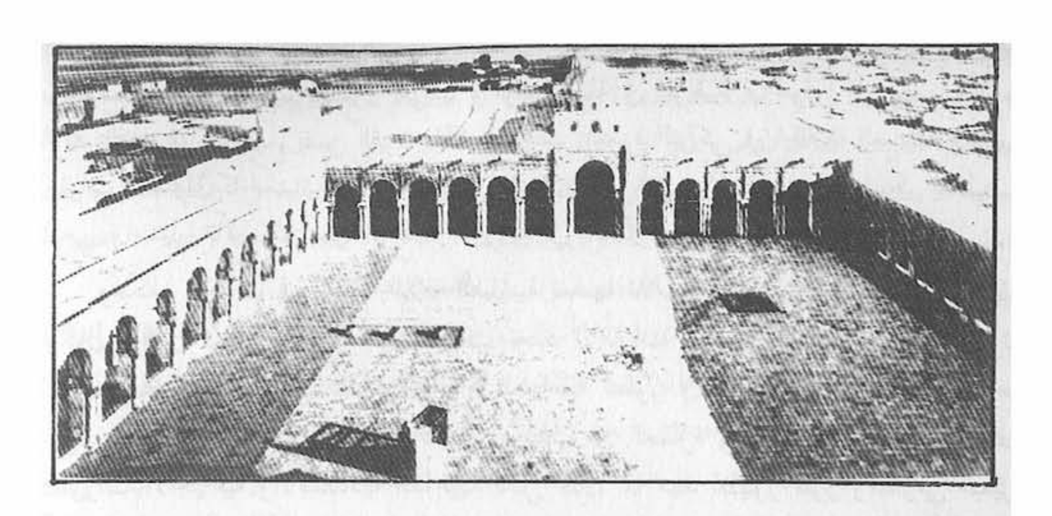
وهكذا وجدت في حياة الخلافة العباسية نفسها ثلاث خلافات كبرى ببغداد وقرطبة (أشكال 69 – 72) والقاهرة، إلى جانب تعدد الامارات والدول المستقلة كليا أو جزئيا بالمشرق والمغرب. ثم بدأت تلك الأوضاع السياسية تتطور في كل اقليم تطورات خاصة مع الزمن، وكان لزاما أن تتأثر لذلك الأساليب الفنية في العمارة والصناعات كما تتأثر كذلك بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية بكل اقليم، مما مهد لظهور طرز ومدارس متميزة الأساليب في كل منطقة وعلى مدى القرون.

ومعنى ذلك أن دراسة تاريخ الفن والعمارة تقتضي منا النظر عند دراسة الطراز الأموي ثم الطراز العباسي وابتداء من القرن الثالث على الخصوص إلى محورين أساسيين يدور أحدهما حول المنطقة والآخر حول الزمن، بحيث يمكن تقسيم الطرز والمدارس تقسيما جغرافيا في بداية الأمر للنظر في فنون المدرسة الايرانية والمدرسة المصرية وفنون الشام وفنون الهند[1] وفنون المغرب والأندلس، وعندما نعود إلى التقسيم الزمني لمعرفة التطور التاريخي لكل فن بمنطقة من المناطق نجده هو الآخر ينقسم إلى طرز وأساليب تبعا لتطوره الداخلي.

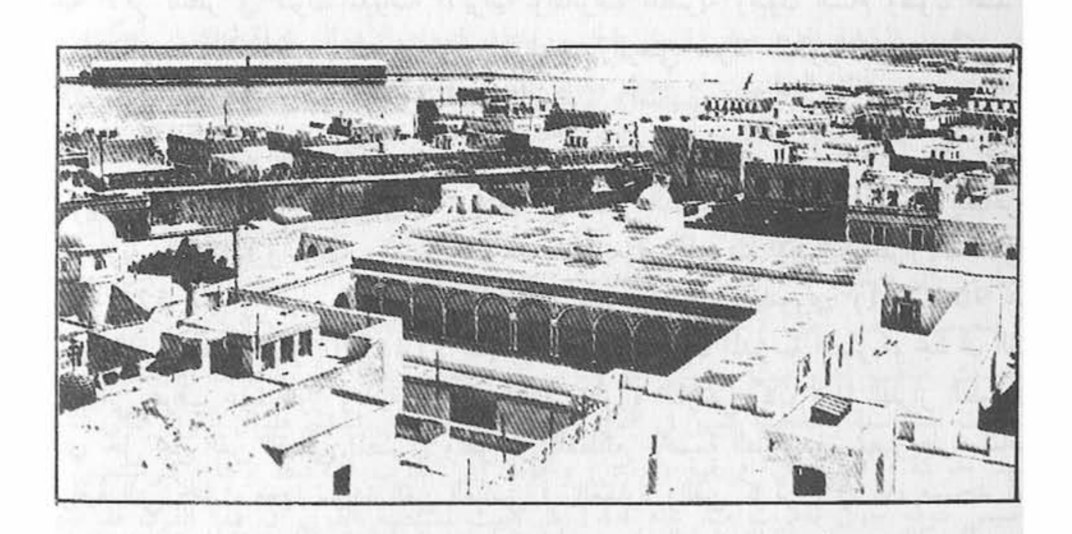
فالمدرسة الايرانية مثلا[2] تتميز بطابع خاص منذ حكم العرب فارس في عصر الأمويين حتى تاريخ قيام دول ايرانية اسلامية في عصر الدولة العباسية مثل الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية والبويهية والغزنوية. وبعد ذلك تعرف المدرسة الايرانية الطراز السلجوقي (522/429 هـ) والطراز المغولي (736/656 هـ) والطراز التيموري (906/771 هـ) وأخيرا الطراز الصفوي (1148/907 هـ) وإذا ما تناولنا فنون المدرسة المصرية، نجد أن الفن الاسلامي عرف عدة طرز وطنية كذلك خلال تطوره التاريخي كان أولها الطراز الطولوني الذي حل محل الفن القبطي المصري ونقل إلى القطائع عاصمة الطولونيين بمصر طرز سامرا العراقية التي حملت معها سيادة الفن العباسي في العمارة والفن كما نرى في بناء مسجد ابن طولون ومنارته المتأثرة بالملوية وطرز سامرا في الحفر، وفي الطراز الفاطمي يعود الفن المصري

(1) عن فنون الهند، أنظر فنون الاسلام لزكي محمد حسن، ص 129.

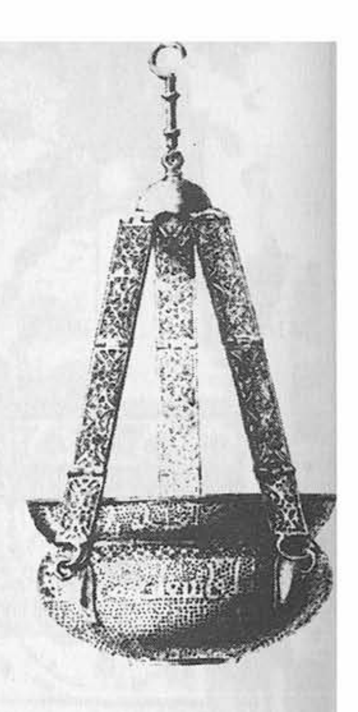
(2) لدراسة ذلك يمكن الرجوع الى كتاب A Survy of Persian Art الذي وضعه جماعة من المستشرقين المتخصصين في الفنون والآثار باشراف Pope فأخرجوه في ثلاثة أجزاء للنص وثلاثة أجزاء للوحات ففي القسم الثاني من النص تقسيم الفنون الايرانية الى ما قبل عصر السلاجقة ثم العصر السلجوقي فالمغولي فالصفوي، ويتناول الجزء الثالث الفنون الزخرفية الاسلامية، أنظر كذلك كتاب زكي محمد حسن : الفنون الايرانية.



شكل 53
المسجد الجامع بالقيروان (الذي أسسه عقبة بن نافع) في حالته
الأخيرة بعد عمارة الأغالبة



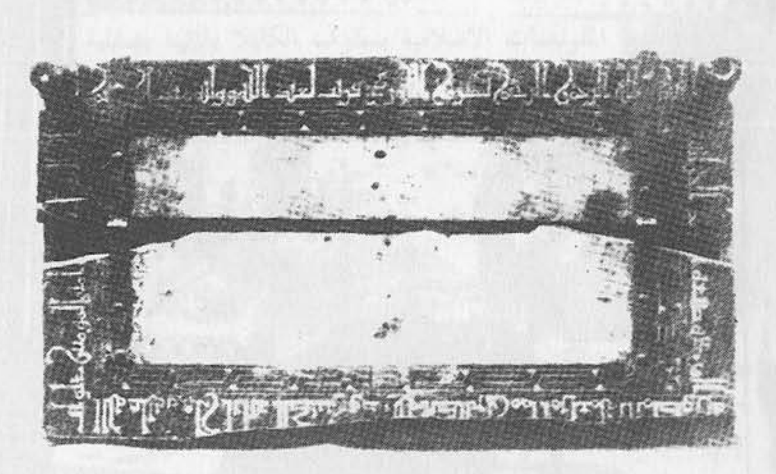
شكل 54
المسجد الجامع بسوسة



شكل 55

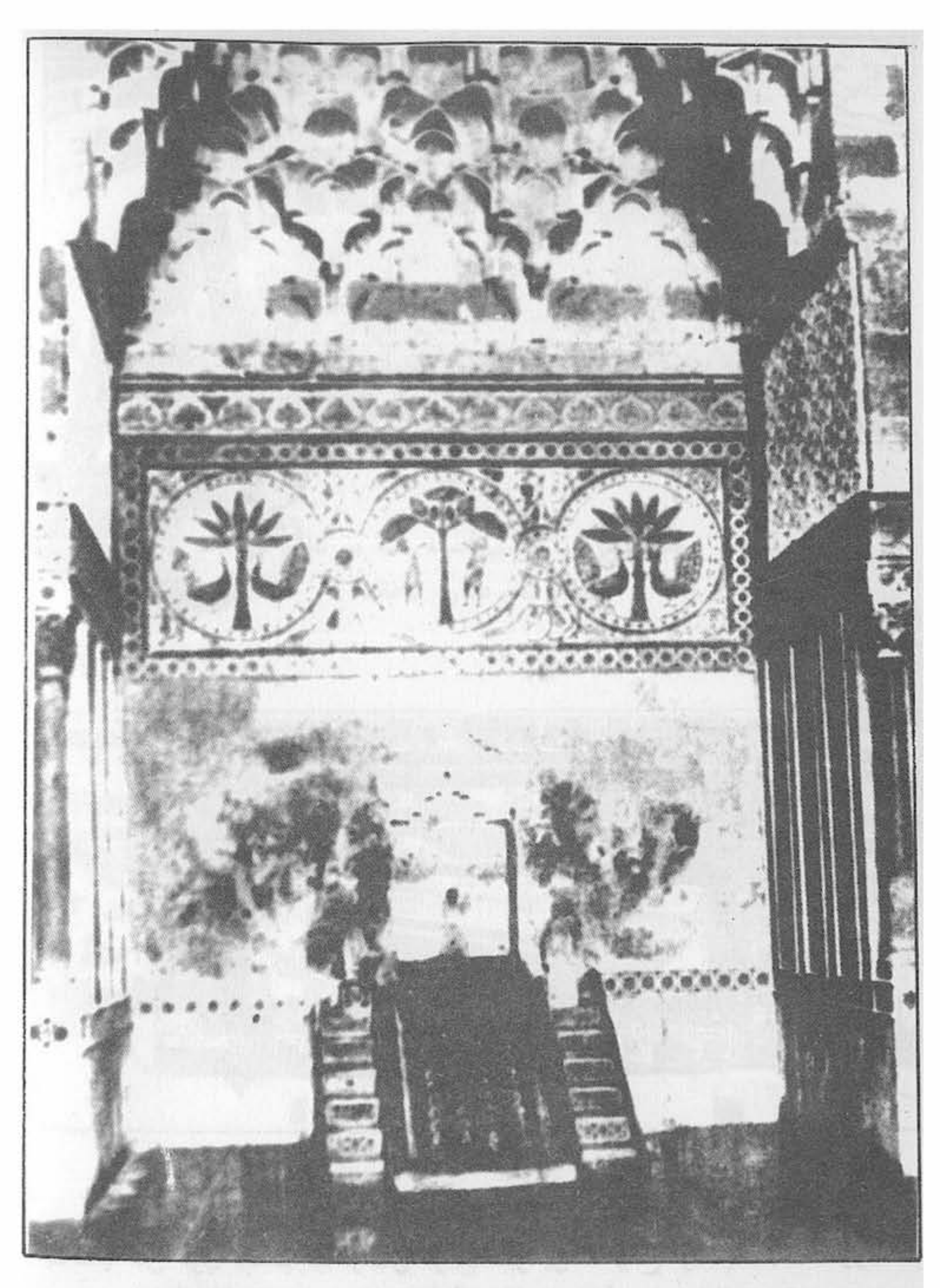
ثريا نحاسية بجامع القيروان تحمل نقشا تأسيسها باسم المعز

(عمل محمد بن علي القيسي الصفار للمعز ابن تميم)



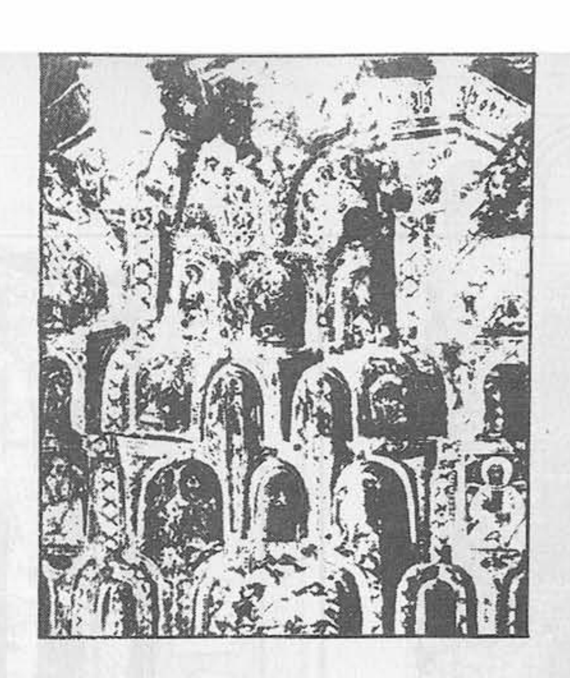
شكل 56

علبة عاجية بمتحف مدريد من صناعة إفريقية للمعز الفاطمي 341 هـ نقش بقاعدتها نص كوفي ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم نَصْرٌ مِنَ الله وفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لعبد الله ووليه معد أبو تميم الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين مما أمر بعمله بالمنصورية)



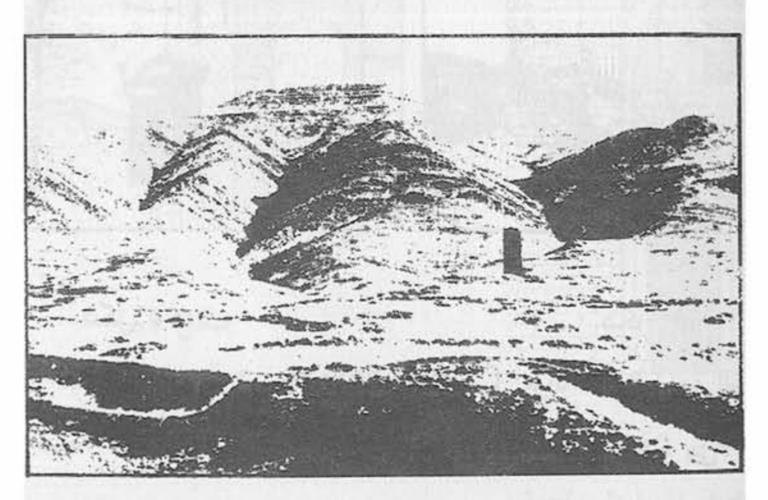
شكل 57

العين الجارية بالقاعة الكبرى بقصر العزيز بصقلية



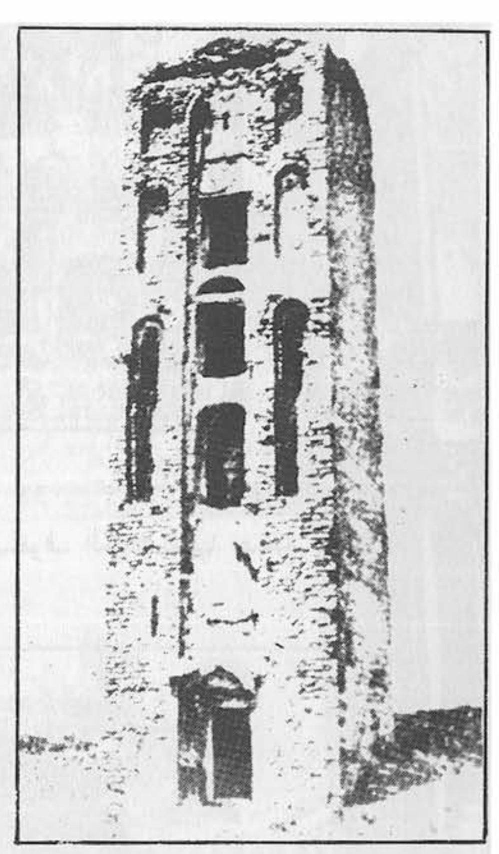
شكل 58

هندسة المقرنصات الاسلامية بسقوف الكابلا بلاتينا بصقلية



شكل 59

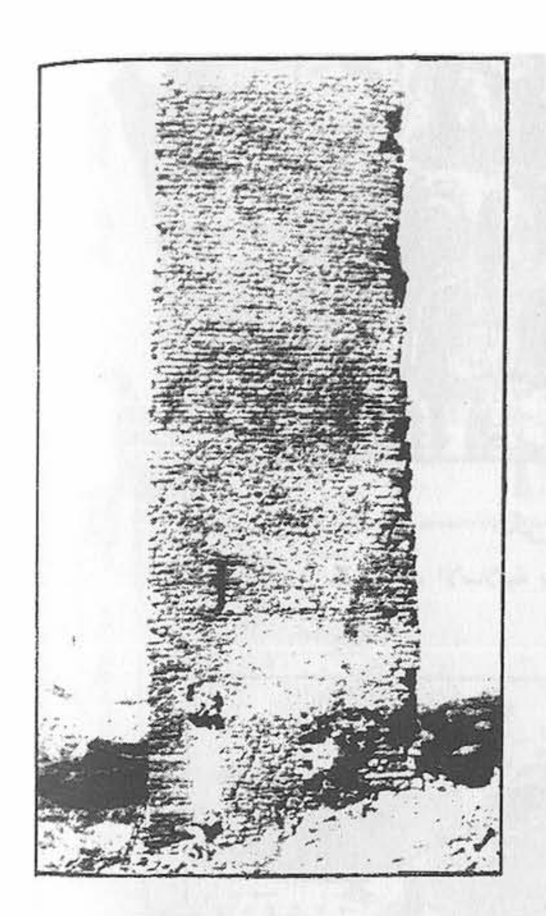
منظر عام لآثار قلعة بني حماد



شكل 60

القسم المتبقي من عمارة صومعة

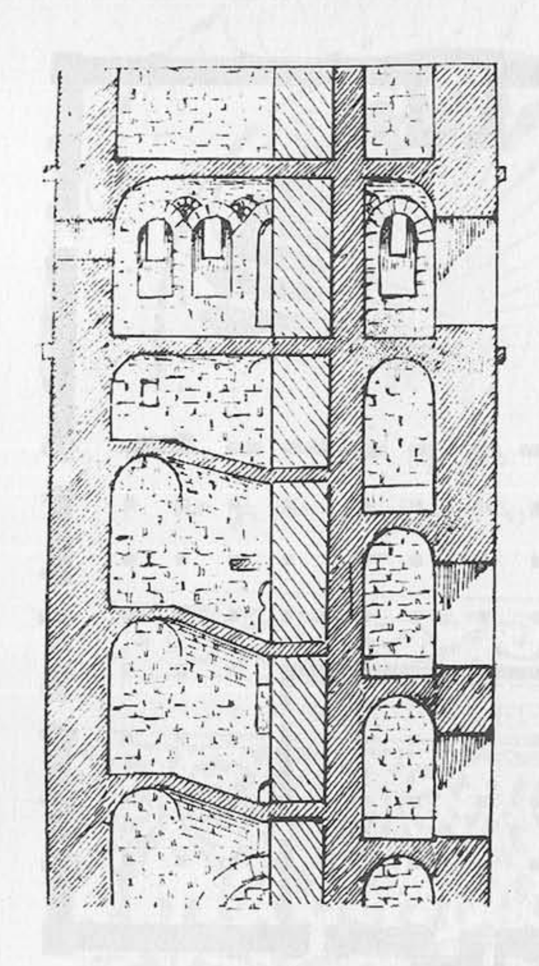
مسجد قلعة بني حماد



شكل 61

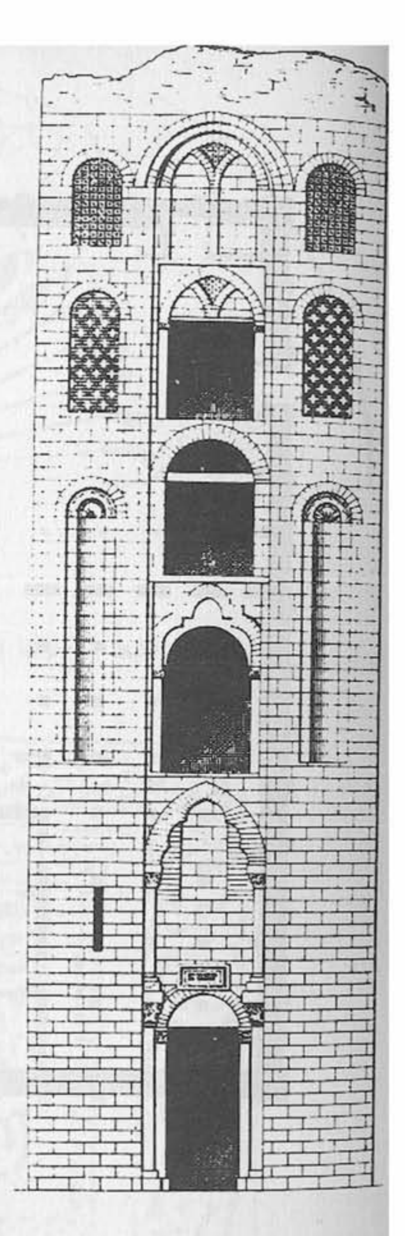
تفصيل مواد بناء الواجهة الشرقية لصومعة

مسجد قلعة بني حماد



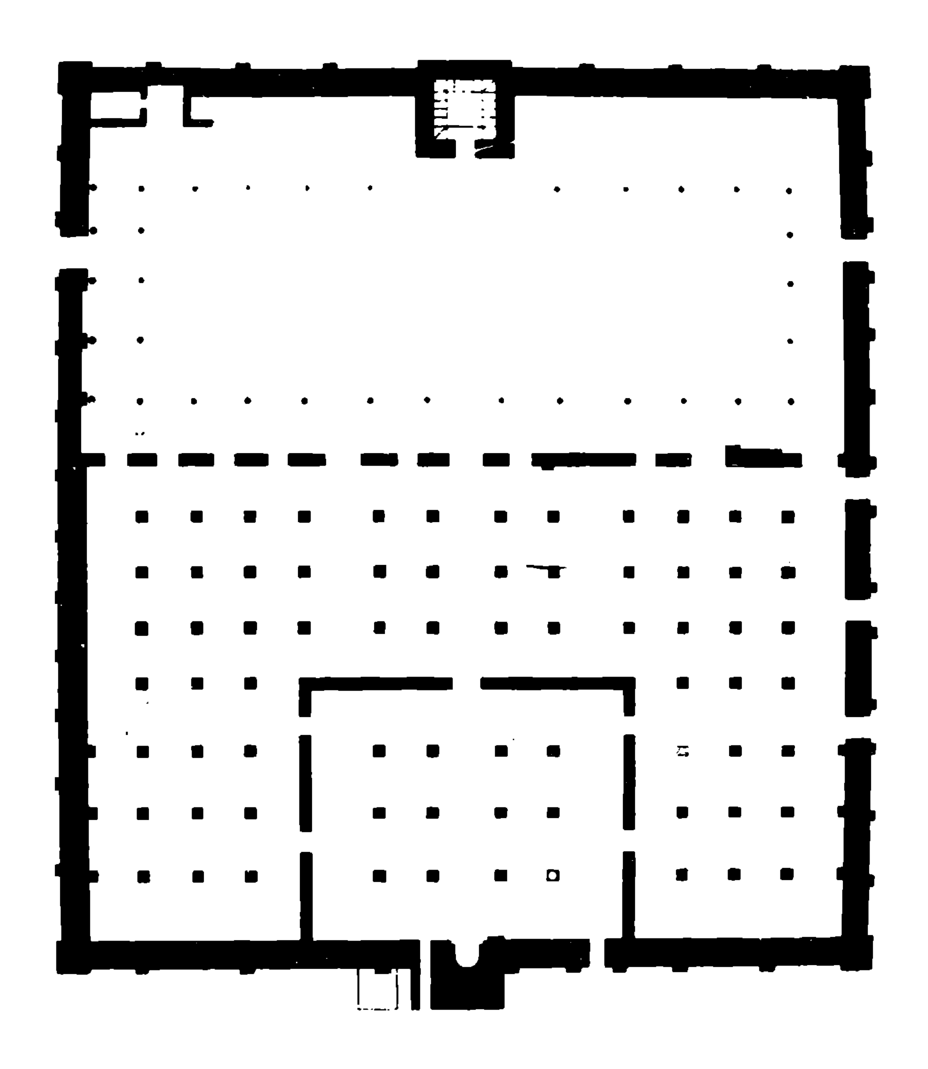
شكل 63

تفصيل عمارة ودروج الصومعة وتغطية ممراتها وفتحاتها كما كانت في عصر بني حماد

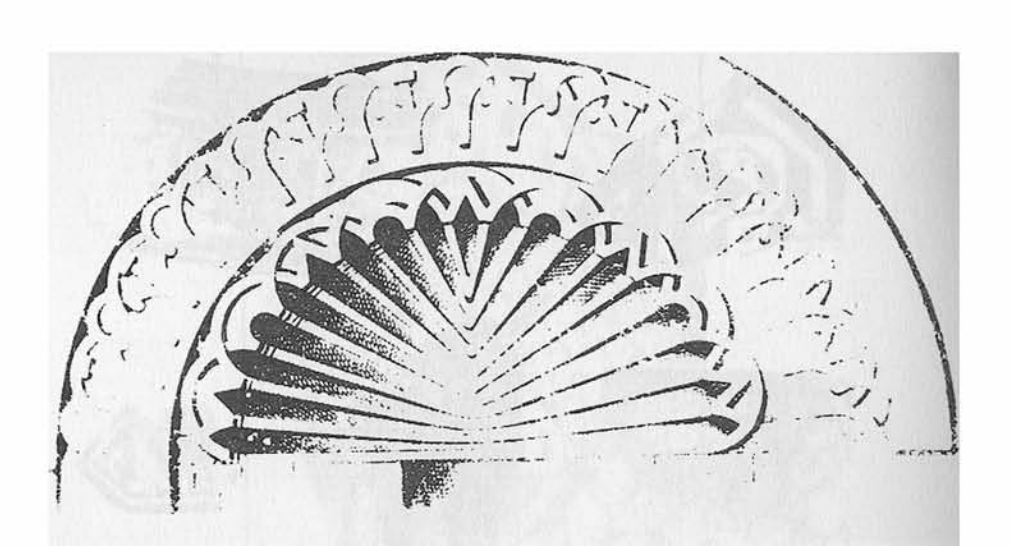


شكل 62

تفصيل الزخرفة المعمارية بواجهة صومعة مسجد قلعة بني حماد

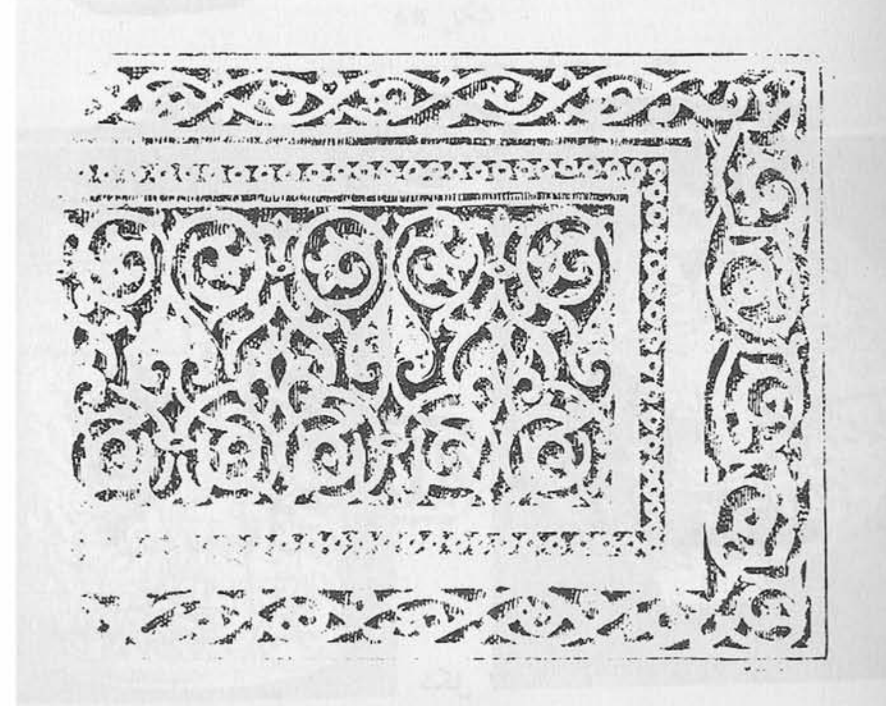


شكل 64
تخطيط مسجد قلعة بني حماد



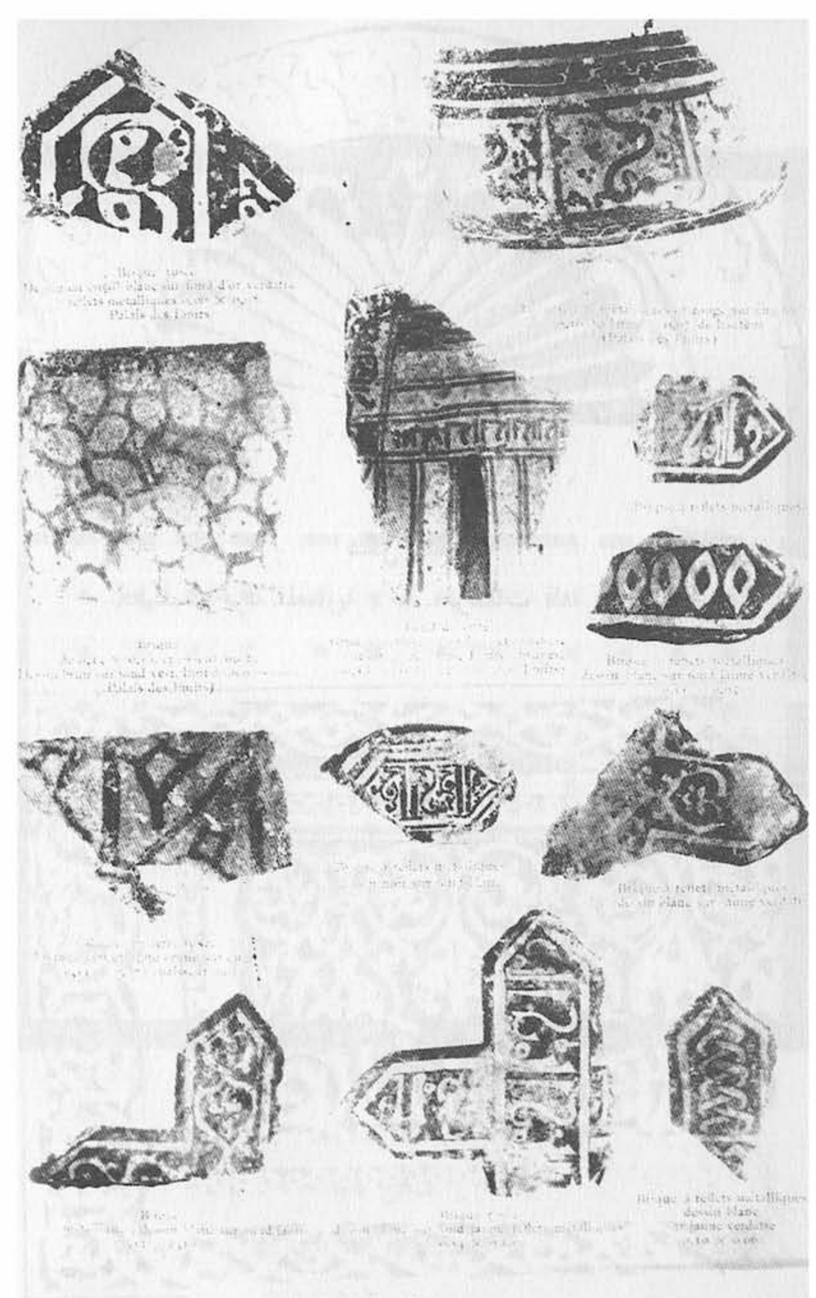
شكل 65

تخطيط الزخرفة المعمارية بأحد مقرنصات قلعة بني حماد



شكل 66

لوحة منحوتة فوق مدخل صومعة القلعة



شكل 67

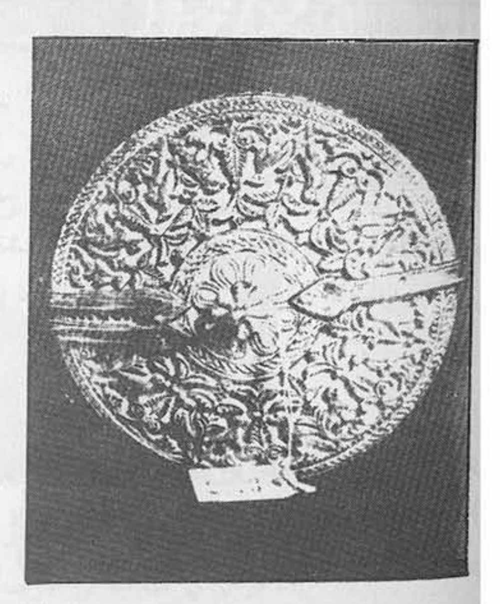
أنواع متعددة من خزف قلعة بني حماد من بينها عينات بالبريق المعدني



شكل 68

بعض الزخارف الجصية من آثار قلعة بني حماد





شكل 69

فن صناعة العلب العاجية في الطراز الأندلسي من القرن الرابع

للظهور قويا بعد أن تسربت إليه العناصر المعمارية والفنية التي حملها الفاطميون معهم من المغرب (أشكال 73، 74، 75) وفي الطراز الأيوبي دخلت عناصر جديدة حملها الأيوبيون السلاجقة إلى مصر واندمجت في الروح المصرية إلى وقت ظهور الطراز المملوكي بمصر والشام (شكل 76) وقد بلغ غاية نضجه فيما بين القرنين السابع والعاشر كما يتجلى في الروائع المعمارية بالقاهرة ونفائس التحف المحفوظة بمتحفها الاسلامي، ثم يتوقف ازدهار الفن المصري في الطراز[1] العثماني المتأثر بالفنون الأوربية.

والطراز من الكلمات الدخيلة في اللغة العربية وأصلها فارسي (تراز) وتنطق في العربية بكسر الطاء، ومادتها الطرز بالكسر كذلك، ومعناها الهيئة، وفي الملبس يقال طرز بفتح وكسر ومعناها تأنق فلم يلبس الا فاخرا. والطراز كذلك ثوب نسج للسلطان، وهو كذلك الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجديدة، وتعني كذلك المصنع الحكومي الذي تنسج فيه الثياب المزدانة بالطراز أي بالزخرفة التي تزين الثوب منسوجة في لحمته وسداه أو مطرزة عليه أو مثبتة فوقه وهو المعنى الشائع لدى المشتغلين بالآثار.

ويذكر ابن خلدون ان المسلمين قد اخذوا عن ملوك ايران عادة تزيين ملابسهم بزخرفة خاصة بهم وخلع الثياب الملكية على حاشيتهم تشريفا لهم وقد اعتاضوا عن الصور والرسوم الايرانية بأسماء الخلفاء وصيغ المديح والدعاء منسوجة في الثوب أو مطرزة عليه بخيوط الذهب والفضة والحرير، وقد جعل الخلفاء ذلك حقا لهم واعتبروه من علامات سلطانهم كذكر إسمهم في خطبة الجمعة والعيدين والسكة سواء بسواء فأنشأوا في قصورهم أيام عظمتهم مناسج حكومية لعمل تلك الثياب أسموها دور الطراز.

ويعدد ابن الخطيب مآثر الناصر بالأندلس فيقول «ومن آثاره التي ضربت بها الأمثال، وقضيت منها العجائب، حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج اليه من الخلع والكسى وملابس الحرم وغير ذلك، فقد كان على عهده مدينة تشتمل على آلاف من الخلق، قد اتخذت فيها المرافق والمساجد والحمام والسوق».[2] ولكننا نعني بالطراز هنا النمط أو الأسلوب الفني للعمارة والصناعات التطبيقية.

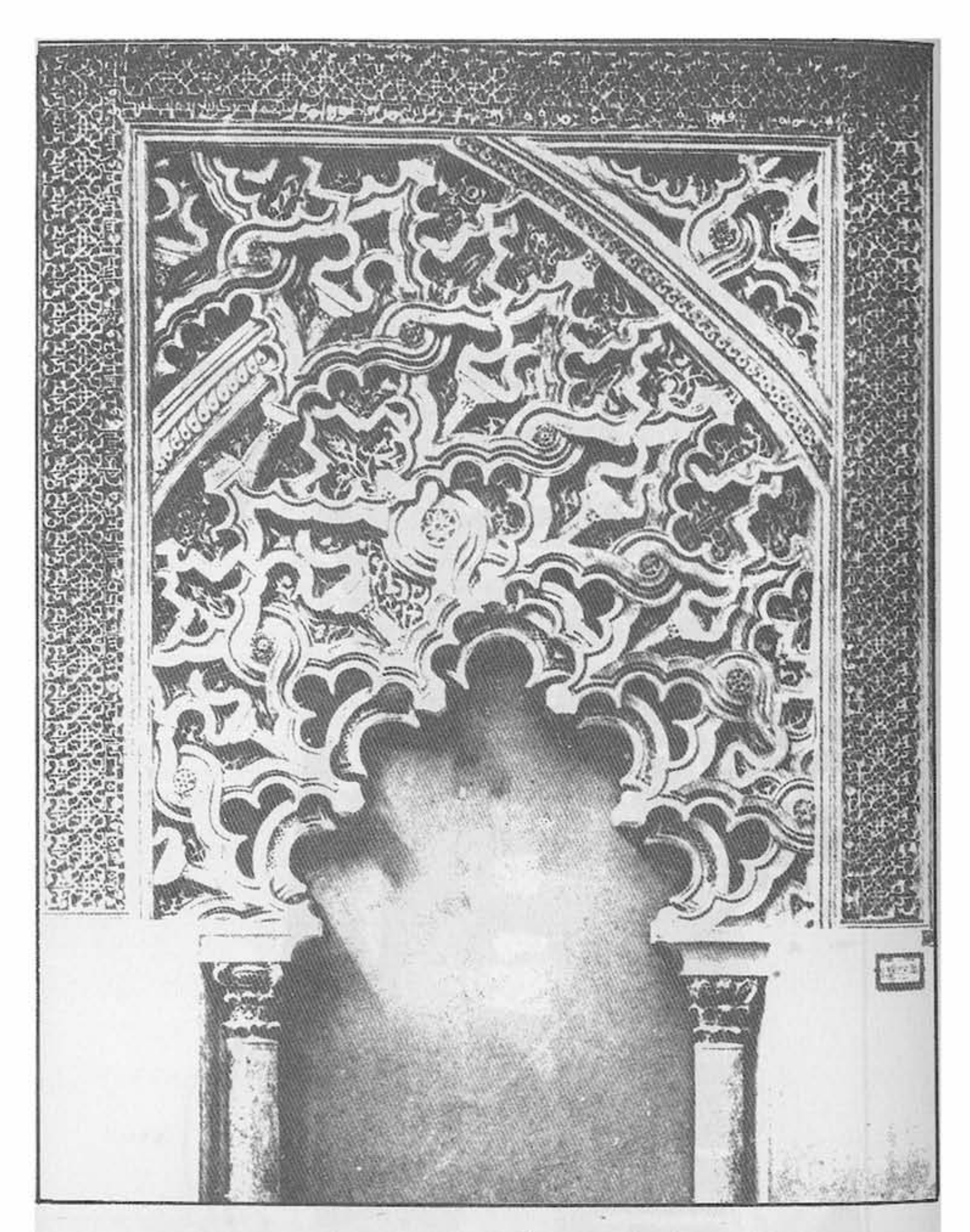
الطراز الأموي :

وعلى هذا الأساس وجب التعرف على أهم خصائص ومميزات الطرازين الأموي والعباسي كتمهيد لدراسة تاريخ الفن والعمارة بأي منطقة من مناطق الاسلام، حيث يمثل الطراز الأموي دور النشأة والبحث عن معالم الشخصية التي اكتملت في الطراز العباسي

---

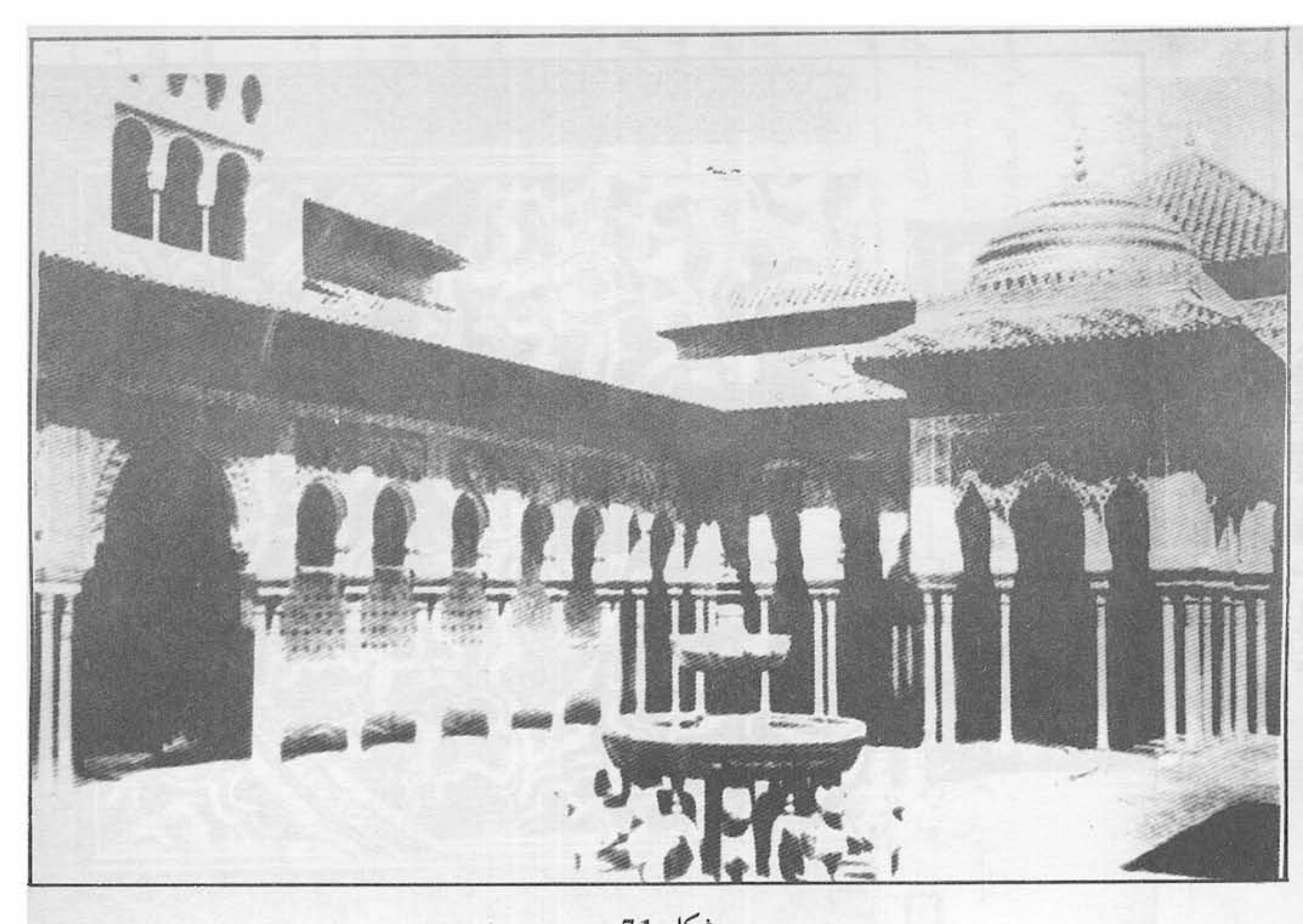
(1) يحسن هنا التعرض لأصل ومعنى كلمة الطراز تاريخيا وماذا تعني بها في هذا البحث.

(2) كتاب أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب نشر ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية بيروت 1956 ص 40.



شكل 70

الاغراق في هندسة وزخارف العقود الجصية بقصرالجعفرية
بالأندلس في عصر ملوك الطوائف



شكل 71
قاعة السباع بقصر الحمراء من عصر بني نصر



شكل 72
خزف بالبريق المعدني من صناعة منيشة قرب بلنسية من أواخر الطراز المغربي الأندلسي (القرن الثامن أو التاسع الهجري)

ونضجت وامتدت آثارها الى مختلف المدارس والطرز التي نشأت بعد ذلك بعيدا عنها أو في رحابها ودخلت عناصرها ضمن مقوماتها الأولى سواء في قرطبة أو فاس أو القيروان أو القاهرة وغيرها من عواصم الاسلام.

ويمثل الفن المعماري والزخرفي في عصر الأمويين أول الطرز العربية الاسلامية كما يعتبر في دور النشأة كمرحلة بين فنون الشرق الأدنى والفن المسيحي الشرقي وبين الطراز العباسي المستقل بشخصيته. وتتلخص مؤثرات الطراز الأموي الشرقي في التقاليد العربية القديمة وتنظيمات الاسلام واتجاهاته في العمارة والفن وحصيلة التأثيرات الهلنستية والمسيحية الشرقية التي كانت سائدة بالمنطقة وبعض الأساليب الساسانية بحكم الجوار، ولا شك أن نجاح الأمويين الكبير في تطوير الأساليب الفنية السابقة والمعاصرة بالمنطقة الى الأسلوب العربي الاسلامي قد مهد السبيل لجلاء الشخصية العربية الاسلامية في عمارة وفنون العصر العباسي، وارساء قواعد التقاليد الشرقية بالأندلس وعلى الخصوص بعد بعث الدولة الأموية بالغرب الاسلامي حيث ظلت قرطبة زهاء ثلاثة قرون تحيي ذكرى العناصر الفنية الدمشقية، كما ظل المغرب الأقصى وفيا لتلك المبادىء التي ازدادت فيه رسوخا مع الزمن على الرغم من توقف مسيرة الفن العربي فيما وراء المضيق بانزواء المسلمين من شبه الجزيرة النائية.

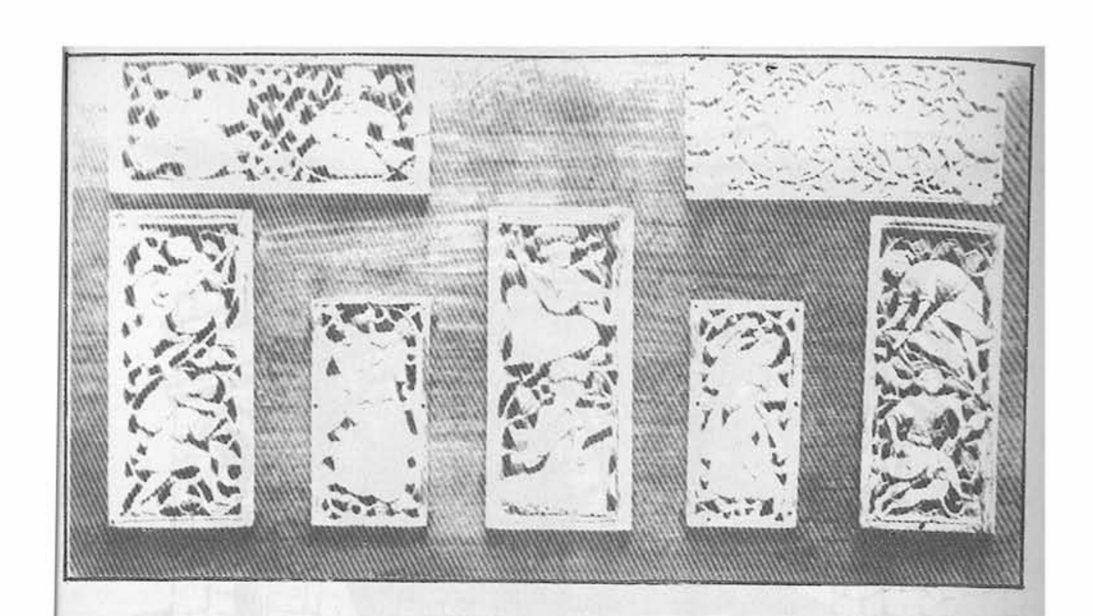
ومن غير العسير علينا التعرف على التقاليد الهلنستية في التصوير الأموي «من حيث التكوين ومعالجة الموضوعات على الرغم من تصوير الخليفة جالسا على عرشه الى جانب مناظر الصيد والاستحمام ومراحل العمر[1]». وتبدو التأثيرات البيزنطية في فسيفساء قبة الصخرة وصحن الجامع الأموي، وملامح الفن الساساني في تصاوير قصر الحير الغربي المحفوظة بمتحف دمشق وفي الزخرفة الجصية لقصر المفجر وقصر الحير الغربي.

ومع هذا فإن أثر الاسلام يبدو واضحا في زخارف واجهة قصر المشتى حيث تغلب صور الحيوانات المجنحة المعروفة في الفنين الساساني والبيزنطي بواجهة الباب اليسرى بينما اقتصرت زخارف الواجهة اليمنى على الأشكال النباتية استجابة لرغبة الأمير الأموي ونفوره من رسم الأشكال الحيوانية بتأثير الاسلام، بالاضافة الى الجهود الفنية الكبيرة في محاولة تجريد العناصر النباتية من صفتها الحية والتحول بها إلى المعنى الرمزي في الزخرفة الاسلامية التي قامت على أساسه ابتكارات فنون الزخرفة العربية الخالصة المعروفة بالأرابسك حيث يؤكد كونل «ان نماذج الحفر الخشبي بحشوات منبر جامع سيدي عقبة ترجع الى الفن الأموي وتظهر في تشبيكاتها النباتية رسوم هندسية مبتكرة غاية في الروعة[2]» ويتجلى أثر الاسلام كذلك

---

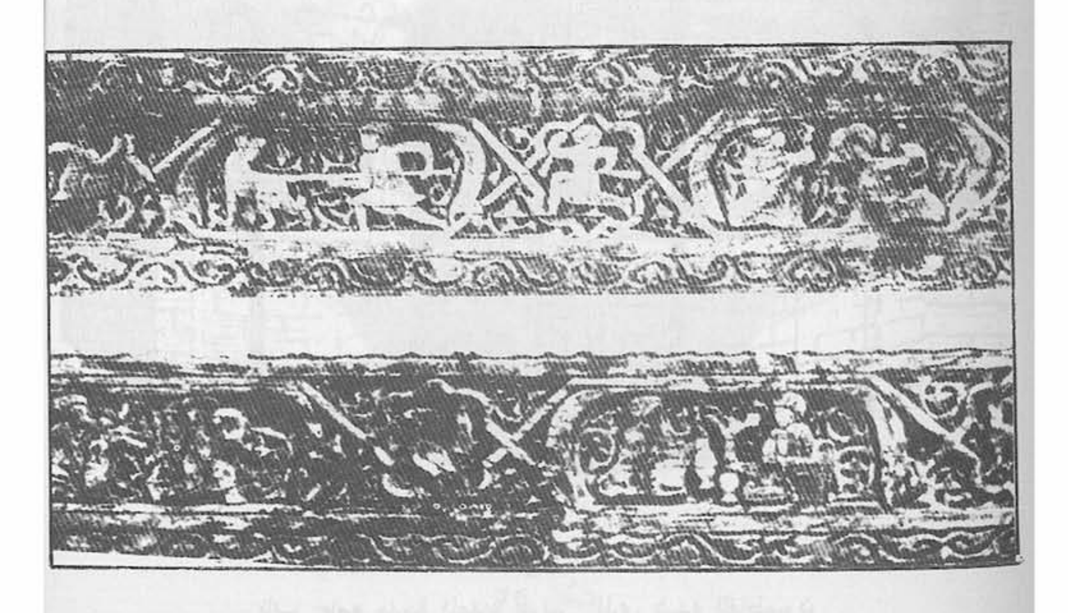
(1) الفن الاسلامي تأليف أرنست كونل تعريب أحمد موسى الطبعة الثانية 1966 ص 25.

(2) أرنست كونل : نفس المصدر ص 28 ويضيف كونل قوله : كما تدل على التفوق الكبير تلك المجموعة الكبيرة للمتنوعات المستنبطة من زخارف الجدائل والأشرطة ومن العقد والتكاعيب.



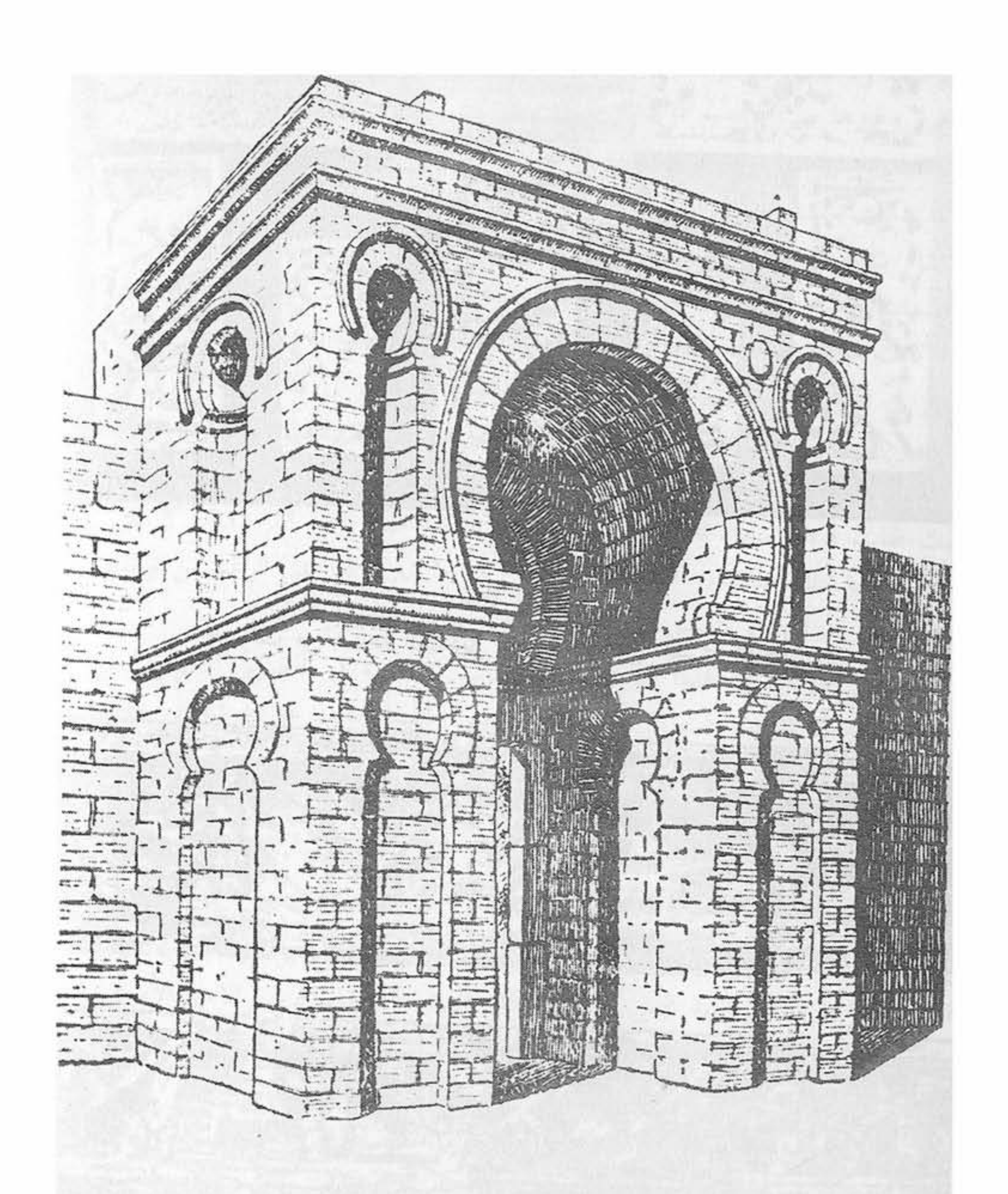
شكل 73

حشوات من صناعة الصناديق العاجية في الفن المصري الفاطمي



شكل 74

حشوات من فن النحت في الخشب تمثل الحياة الاجتماعية في الطراز المصري الفاطمي



شكل 75
باب جامع مدينة المهدية بتونس الذي شيده الفاطميون
قبل انتقالهم إلى مصر



شكل 76

نموذج من المشكاوات الزجاجية الشهيرة ذات الرنوك من روائع الفن الاسلامي المصري أيام المماليك

في هذا الطراز من دراسة النماذج الهندسية المتعددة لكثير من الموضوعات الحيوانية و الأشكال الآدمية في زخارف قصري المفجر والحير الغربي التي أكدت بعد الفنان المسلم منذ البداية عن تقليد الطبيعة تقليدا صادقا احتراما لتعاليم الاسلام.

ويجتمع التأثير العربي والاسلامي في ظهور الكتابة العربية في قبة الصخرة وواجهات العمائر وشواهد القبور وأغلفة المصاحف والمخطوطات المذهبة وعلب العاج ومنابر المساجد وخلع الخلفاء كعنصر زخرفي في حد ذاتها ملتصقة بالمباني تارة ومستقلة على التحف المنقولة تارة أخرى مشتملة على أروع نماذج الخط العربي لتسجيل آيات القرآن الكريم والادعية الدينية المناسبة لنوع ووظيفة البناء أو طبيعة التحفة الفنية من خزف وعاج ونحاس وغيرها.

ولن يعفينا الايجاز هنا من الاشارة إلى أربعة عناصر ذات شأن عظيم في الاسلام ظهرت منذ عصر الطراز الأموي ونعني بها المئذنة والمنبر والمقصورة والمحراب المجوف.

المئذنة :

والثابت أن فكرة المئذنة فكرة أصيلة في الاسلام وأن بلالا كان يؤذن على عهد الرسول على منارة دار حفصة ابنة عمر التي تلي المسجد وكان يرقى على أقتاب فيها، وانه كان في دار عبد الله بن عمر اسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها وكانت مربعة، وقد اعترف (سوفاجية) بأن هذه المئذنة الأولى في أول مسجد قد اتخذت نموذجا في جميع المساجد بعد ذلك ويرجح الدكتور أحمد فكري اشتقاق هذا الشكل من أشكال الأبراج السورية.

ثم أحدثت مئذنة مسجد عمرو بن العاص بمصر بأمر من معاوية بن أبي سفيان لعامله مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة ثلاث وخمسين (672 م) فقد أقام فيه أربع مآذن، مئذنة في كل ركن من أركانه ويقال ان عمر بن عبد العزيز جعل لمسجد الرسول أربع مآذن وأربع منابر في كل زاوية منه منارة»[1].

وكانت المآذن الأولى عبارة عن أبراج صغيرة عرفت في المغرب باسم الصوامع[2]، وانتشرت بمصر والعراق والشام والأندلس مع تطور في الهيئة والزخرفة اقتضتها ظروف الفنون المحلية وتطورها[3] (أشكال 77 – 80).

المنبر :

وكان الرسول عليه السلام يخطب مستندا الى جذع نخلة ثم اتخذ منبرا من ثلاث درجات وجاء عمرو بن العاص فاتخذ منبرا بمسجد الفسطاط، ونهاه عمر بقوله «أما بعد فقد بلغني

(1) أحمد فكري : المدخل لمساجد القاهرة ومدارسها ص 68 ثم ص 178 نقلا عن السمهودي في (وفاء الوفى).
(2) راجع زكي حسن : فنون الاسلام ص 30 وسيد سالم المآذن المصرية.
(3) راجع أحمد فكري : المسجد الجامع بالقيروان للوقوف على أصل الصومعة ومناقشة آراء المستشرقين.

أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين، أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك، فعزمت عليك الا ما كسرته» وعلى الرغم من هذا التحفظ، فقد ظهرت منابر أموية مبكرة في مسجد عمرو نفسه منذ عام 93[1] حسب اشارة ابن دقاق في كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار[2].

المقصورة :

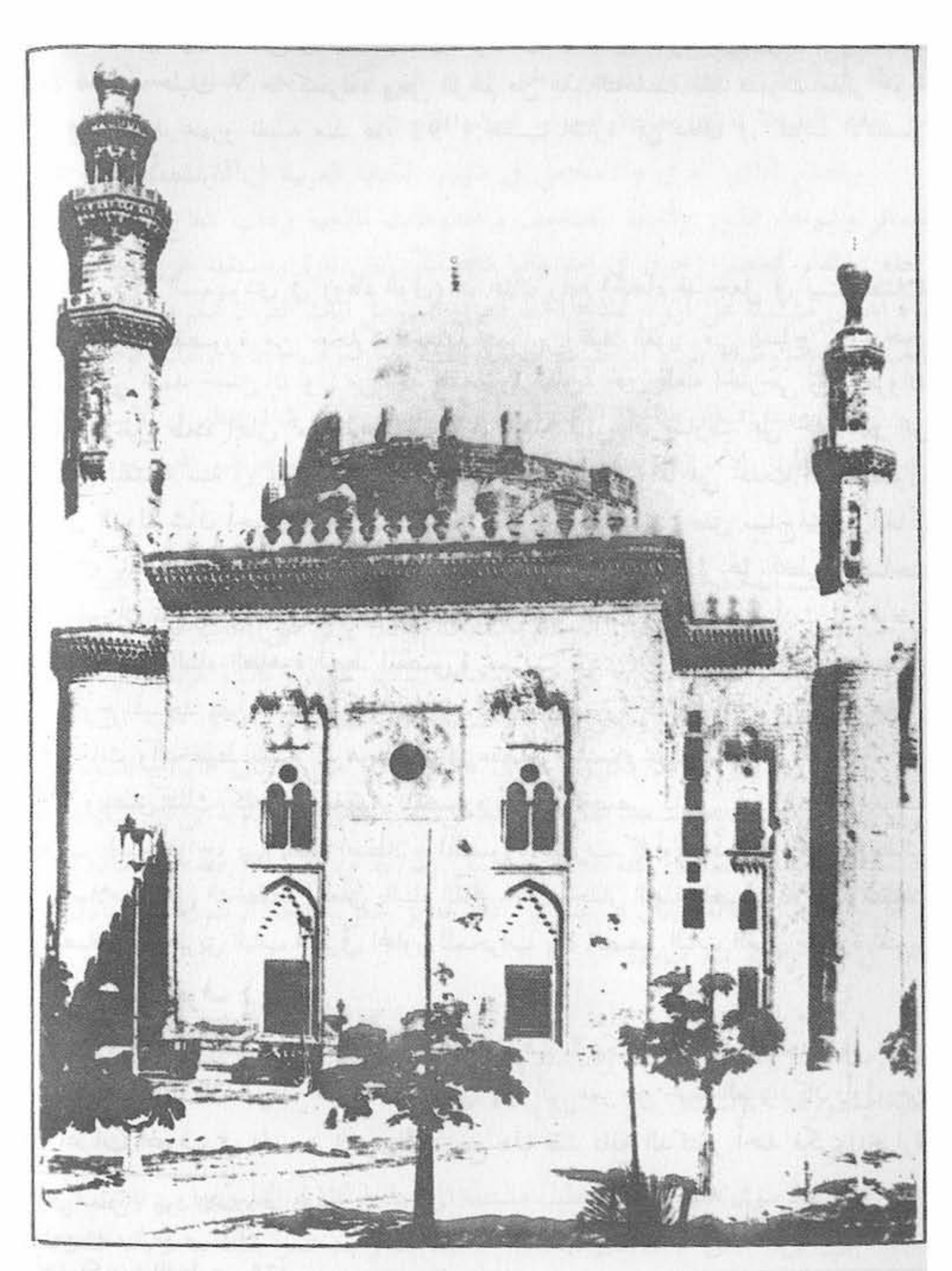
وقد ذكر السمهودي في (وفاء الوفى) أن عثمان رابع الخلفاء قد جعل في بيت الصلاة بالمسجد النبوي مقصورة من حجارة فجعلها عمر بن عبد العزيز من الساج[3] ويرجح الدكتور زكي محمد حسن ان أول من اتخذ المقصورة معاوية حين طعنه الخارجي وقيل مروان ابن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما إلى أن صارت على حد تعبير ابن خلدون في المقدمة سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة، وانما هي تحدث عند حصول الترف في الدولة شأن أحوال الابهة[4] كلها فالأصل في استحداثها خلق سياج يحمي الحاكم أثناء صلاته بالمسجد وقد كان ذلك السياج كأثاث ملحق بالبناء لا يؤثر على تخطيط المساجد الأولى. غير أن تطور الرغبة في الترف والمحافظة على أبهة الملك وهيبة الحاكم أدت إلى فرض تغييرات في هيئة البناء الظاهرة لربط المقصورة بممرات تؤدي إلى مدخل خاص قد يتصل أحيانا خارج المسجد بمقر اقامة الحاكم نفسه.وقد تؤدي المقصورة كذلك الى فرض نظام خاص في الأساسات والتخطيط نفسه كما هو الحال في مقصورة النساء بمسجد ضريح محمد الخامس بالرباط، وينطبق ذلك كله على مفهوم المقصورة كجزء مخصص داخل بيت الصلاة يعرف في المغرب باسم أفراج، بينما يطلق اصطلاح المقصورة بالمغرب كما أوضحت في كتابي «حفائر شالة الاسلامية» على التخطيط المتعلق بالبناء القائم خلف جدار القبلة مخصصا للامام ومتصلا ببيت الصلاة عن طريق الباب الشرقي المجاور للمحراب بينما يخصص الباب الغربي لحجرة المنبر.

المحراب المجوف :

ويذكر الدكتور زكي حسن أن المحراب المجوف لم يكن معروفا بالمساجد قبل عصر الوليد بن عبد الملك[5]، وقد أشار السمهودي إلى أن عمر بن عبد العزيز كان أول من أدخل المحراب المجوف في المسجد النبوي[6]. ومع هذا فقد دافع الدكتور أحمد فكري بحرارة

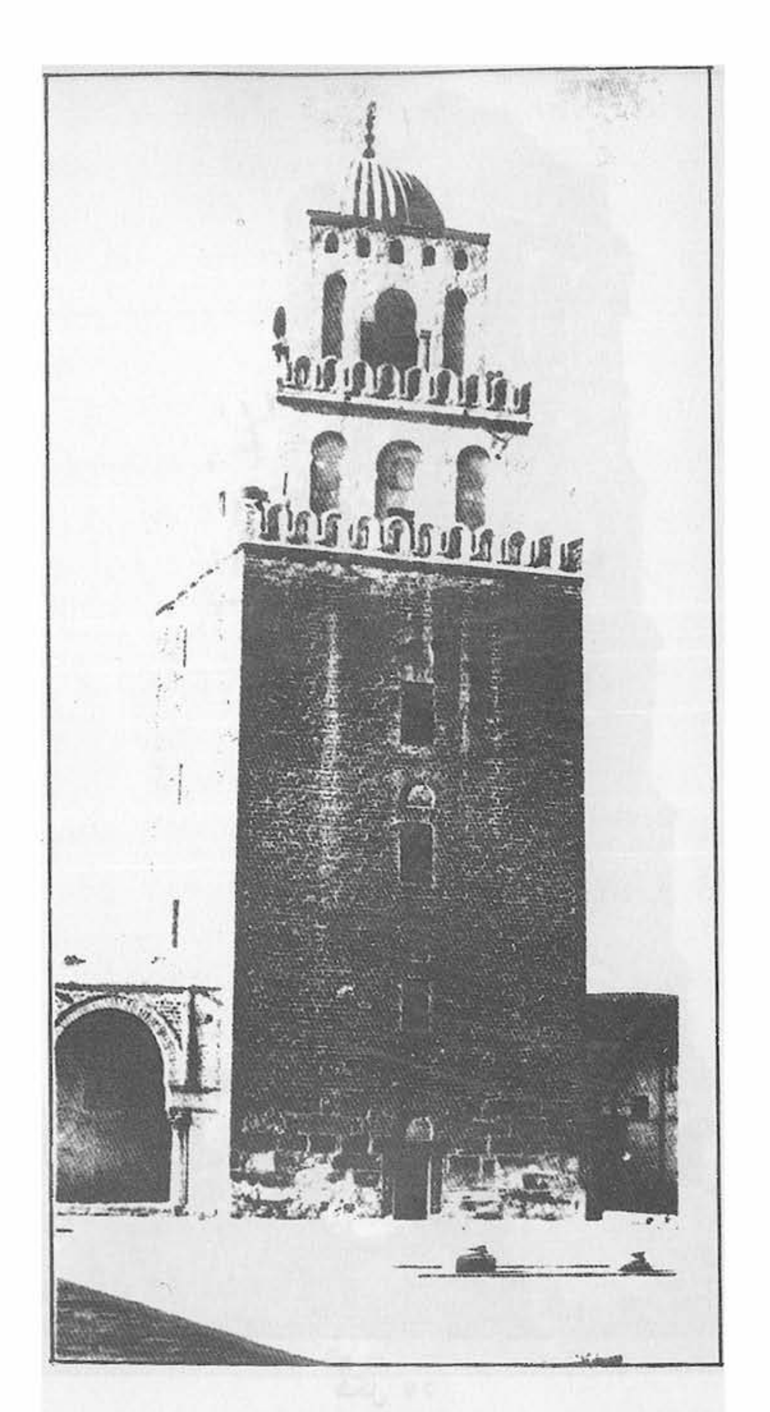
---

(1) زكي حسن : فنون الاسلام ص 35.
(2) راجع الجزء الرابع ص 63.
(3) أحمد فكري : المدخل ص 178.
(4) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 36، وأحمد فكري المدخل ص 279 والمقدمة لابن خلدون.
(5) فنون الاسلام : ص 36.
(6) أحمد فكري : المدخل ص 178.

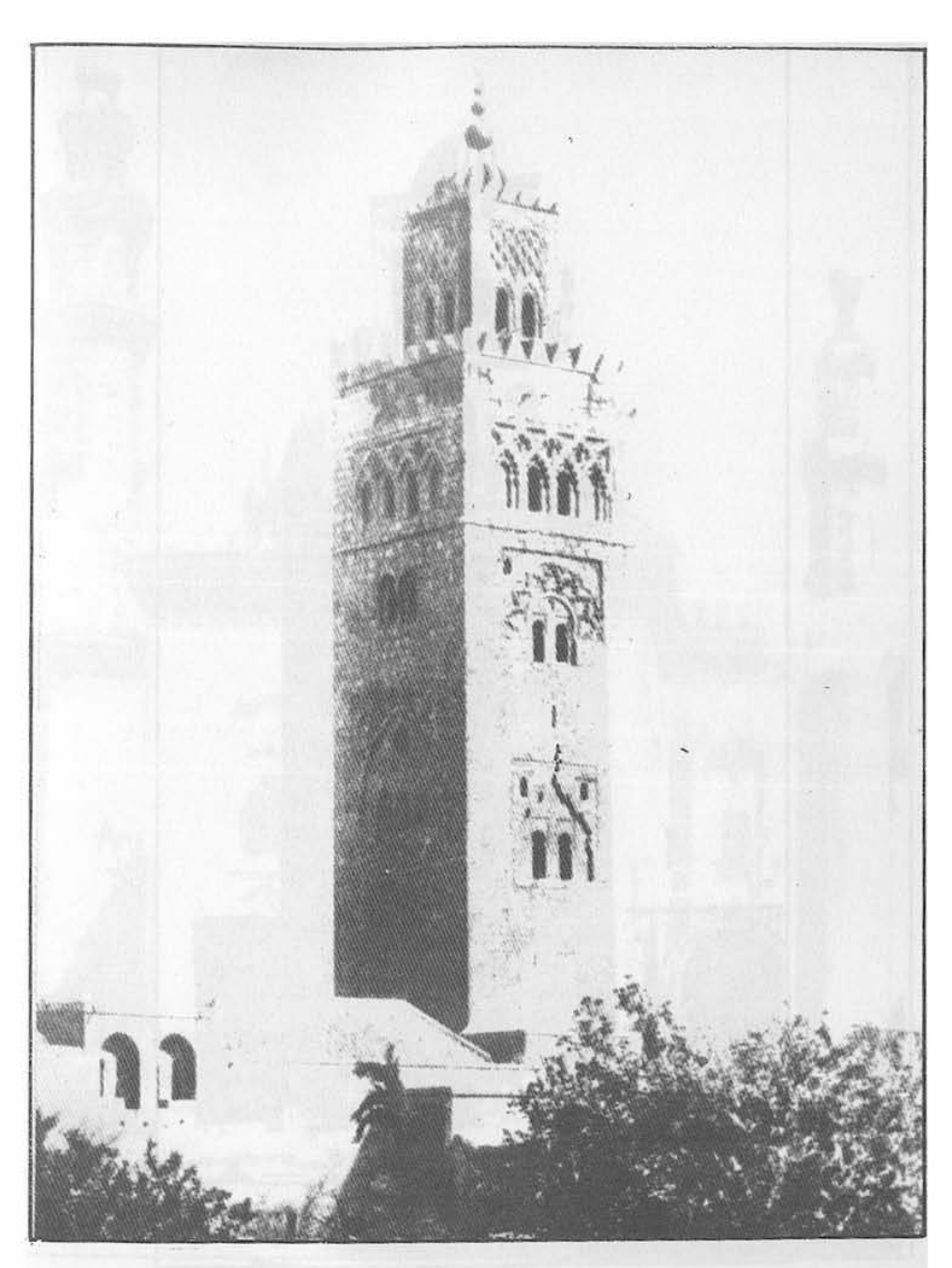


شكل 77

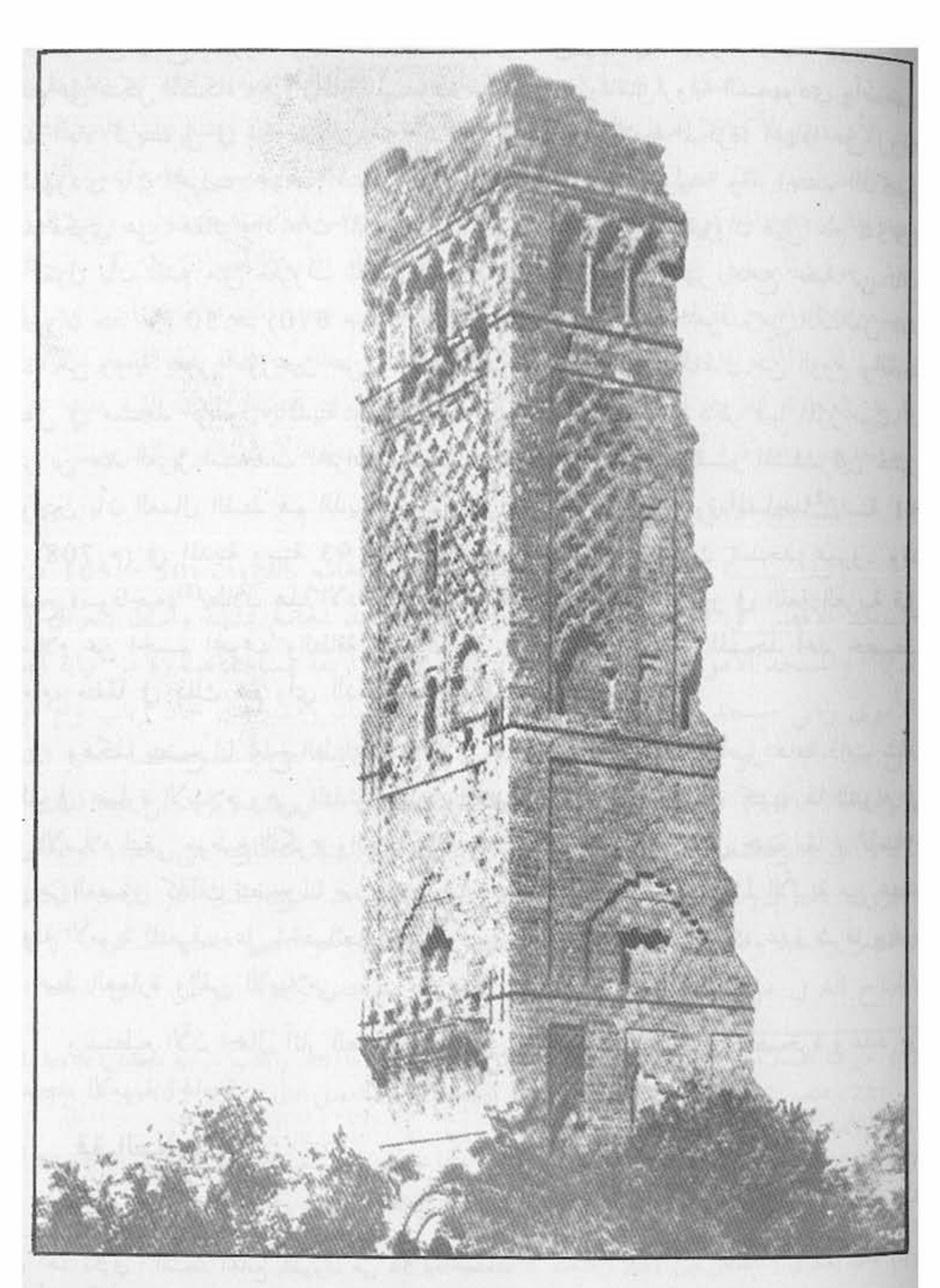
مآذن القاهرة من عصر المماليك مسجد السلطان حسن بالقاهرة



شكل 78
صومعة المسجد الجامع بالقيروان



شكل 79
صومعة الكتبية بمراكش من عصر الموحدين، اختلاف المظهر
العام رغم التخطيط الأساسي المربع



شكل 80

صومعة مسجد منصورة تلمسان التي بناها المرينيون

في كتابه عن جامع القيروان ومقاله «بدعة المحاريب» عن رأيه في ظهور المحراب المجوف منذ القدم على شكل المشكاة وهي الطاقة المسدودة غير النافذة، وناقش رواية السمهودي وأضعفها وفند اتجاه كريسويل في الجزء الثاني من كتابه «العمارة الاسلامية المبكرة» اعتمادا على رواية السمهودي بأن المحراب المجوف أستحدث في الاسلام في عهد الوليد. وقد اعتمد الدكتور أحمد فكري على الحفائر والأبحاث الميدانية التي قام بها بنفسه بجامع القيروان قبيل عام 1934 في القول بأن أقدم مثل معروف للمحراب المجوف في الاسلام ظهر بجامع عقبة بن نافع بالقيروان منذ عام 50 هـ (670 م)[1]، أما نظرية اشتقاق المحراب المجوف من الكنائس فقد نبتت من رواية بعض المؤرخين عن استقدام عمر بن عبد العزيز لعمال من الروم والقبط للعمل في مسجد الرسول بالمدينة وربط هذه الرواية برواية أخرى ذكر فيها المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز استحدث المحراب المجوف في المسجد النبوي، وتفسير المستشرقين لهاتين الروايتين بأن العمال القبط هم الذين أحدثوا المحراب المجوف في عمارة المساجد[2] سنة 91 هـ (708 م) في المدينة وسنة 93 هـ (710 م) أيام قره بن شريك بمسجد عمرو. وقد أوضح «سوفاجيه»[3] بطلان هذا الادعاء وأكد أن لفظ المحراب كان يعبر في اللغة العربية قبل الاسلام عن الجسم المجوف والطاقة الصماء وأن المحراب موضع من المسجد أعد خصيصا للامام، متفقا في ذلك مع رأي الدكتور أحمد فكري.

وهكذا يتضح لنا نجاح الطراز الأموي في خلق أو تطوير أربعة عناصر هامة ذات شأن خالد في عمارة الاسلام وهي المئذنة والمنبر والمقصورة والمحراب المجوف كتب لها الدوام في ظل الاسلام لتبقى موضع التكريم والعناية والتفنن في عمارتها وزخرفتها في جميع بقاع الاسلام على مر العصور كذلك تتضح لنا ضرورة الاشارة ولو بايجاز الى أشهر المعالم الأثرية من عصر الدولة الأموية للتعرف على الخصائص والأصول التي تفرعت عنها تأثيرات عدة شرقا وغربا في محيط العمارة والفن الاسلامي.

ونستطيع الآن اجمال آثار الطراز الأموي في العمارة العربية في قبة الصخرة وعدد من المساجد الأموية الجامعة.

قبة الصخرة :

وتعتبر قبة الصخرة في بيت المقدس أقدم أثر إسلامي قائم معروف[4] وقد بناها عبد

---

(1) أحمد فكري : المسجد الجامع بالقيروان ص 54 وما بعدها.

(2) أحمد فكري : المدخل ص 277.

(3) Sauvaget (J.) : La Mosquée Omeyyade de Médine, Paris 1947 والمدخل لأحمد فكري : ص 278 – 279.

(4) أحمد فكري : المدخل ص 166.

الملك بن مروان سنة 72 هـ على أروع ما تكون العمارة والزخرفة ليباهي بها البيزنطيين ويضاهي مبانيهم (شكل 81، 85). وهي بناء مثمن الشكل داخله رواقان تتوسطهما دائرة من الأعمدة والأكتاف تحيط بالصخرة المقدسة التي روى أن الرسول وضع عليها قدمه الشريف ليلة الاسراء، وكان عمر قد أقام بنفس المكان مصلى من الخشب يسمى جامع عمر أقام فوقه عبد الملك بناءه المذكور ورفع فوق دائرة الأعمدة والأكتاف قبة ضخمة يدور برواقها الداخلي نقش عربي تأسيسي نصه (بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين) وواضح أن اسم الخليفة قد تعرض للتزييف في عصر المأمون فرفع اسم عبد الملك ونقش اسم المأمون دون التنبه لتعديل التاريخ. وقد ظل نظام وتخطيط قبة الصخرة فريدا في تاريخ العمارة العربية الاسلامية حيث لم يقلد المسلمون تخطيط تلك القبة عند تصميم مساجدهم وأدركوا أنه كان مناسبا فقط للاحاطة بالصخرة[1] في الحرم الشريف.

المساجد الأموية الجامعة :

وتبدأ سلسلة المساجد الأموية الجامعة بالمسجد الجامع بالقيروان (50 – 105 هـ) ثم المسجد الأقصى في القدس الشريف (65 هـ) والمسجد الجامع بمدينة واسط بالعراق (84 هـ)[2] والمسجد الأموي بدمشق (87 هـ) بالاضافة إلى أربعة مساجد صغيرة من نهاية العصر الأموي وهي مسجد قصر الحلابات المكتشف قرب عمان ومسجدى خان زينب وأم الوليد على بعد مائة كيلو متر جنوب نفس العاصمة (89 – 133 هـ) ومسجد قصر الحير الشرقي بالرصافة[3] (110 هـ) ويأتي بعد ذلك مسجد البصري الذي شيده يزيد بن عبد الملك سنة 102 هـ والمكتشف قريبا جنوب الشام[4] ومسجد مدينة اسكاف بنى جنيد الواقعة على النهروان بالعراق من عصر هشام ابن عبد الملك 110 هـ حيث تدل آثار الآجر المكتشف بالقصر والسد والمسجد على انتمائها إلى عصر واحد[5] وهو عصر هشام المذكور، كما شهد الجناح الغربي مرة أخرى مسجدا جامعا آخر هو مسجد الزيتونة بتونس الذي شيده عبيد

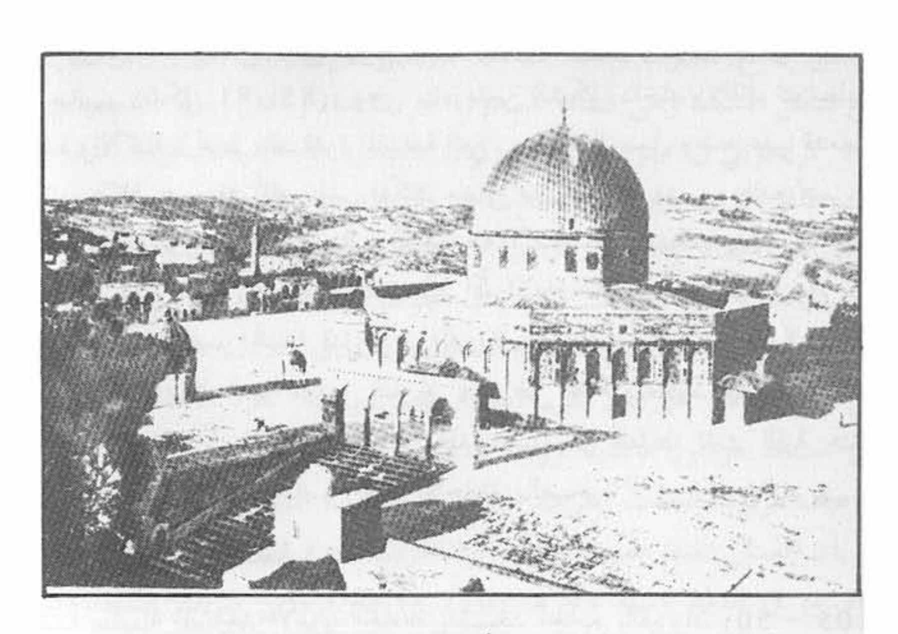
(1) عن قبة الصخرة، راجع زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 36 – 40. وكتاب مارسيه L'Art de L'Islam ص 22 ومختصر العمارة الاسلامية المبكرة لكريسويل a short account الفصل الثاني ص 17 – 40 عن التاريخ والوصف والأصول المعمارية.

(2) كانت مدينة واسط خامس مدينة أحدثت في الاسلام بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في وسط العراق سنة 83 أو84 وبنى مسجدها الجامع المذكور. راجع أحمد فكري المدخل ص 213.

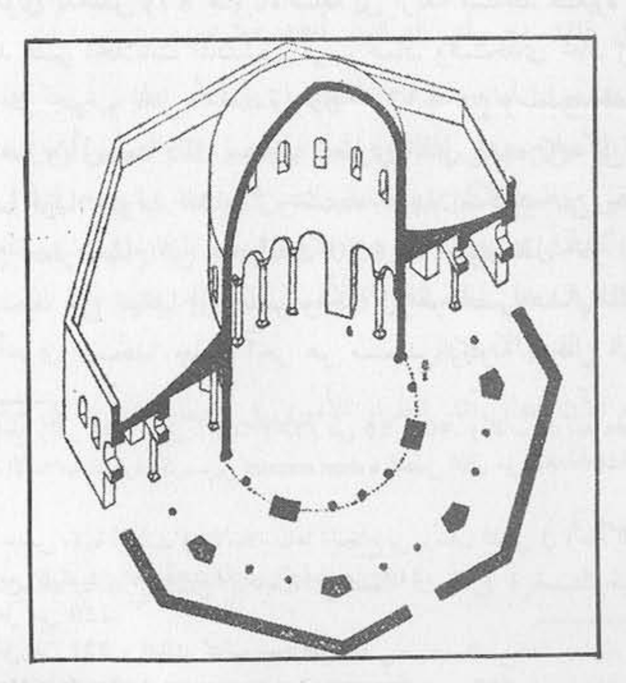
(3) أحمد فكري : المدخل ص 220.

(4) أحمد فكري : المدخل ص 221 وكذلك كتاب سوفاجيه
Sauvaget : Les Inscriptions Arabes de la Mosquée de BOSRA

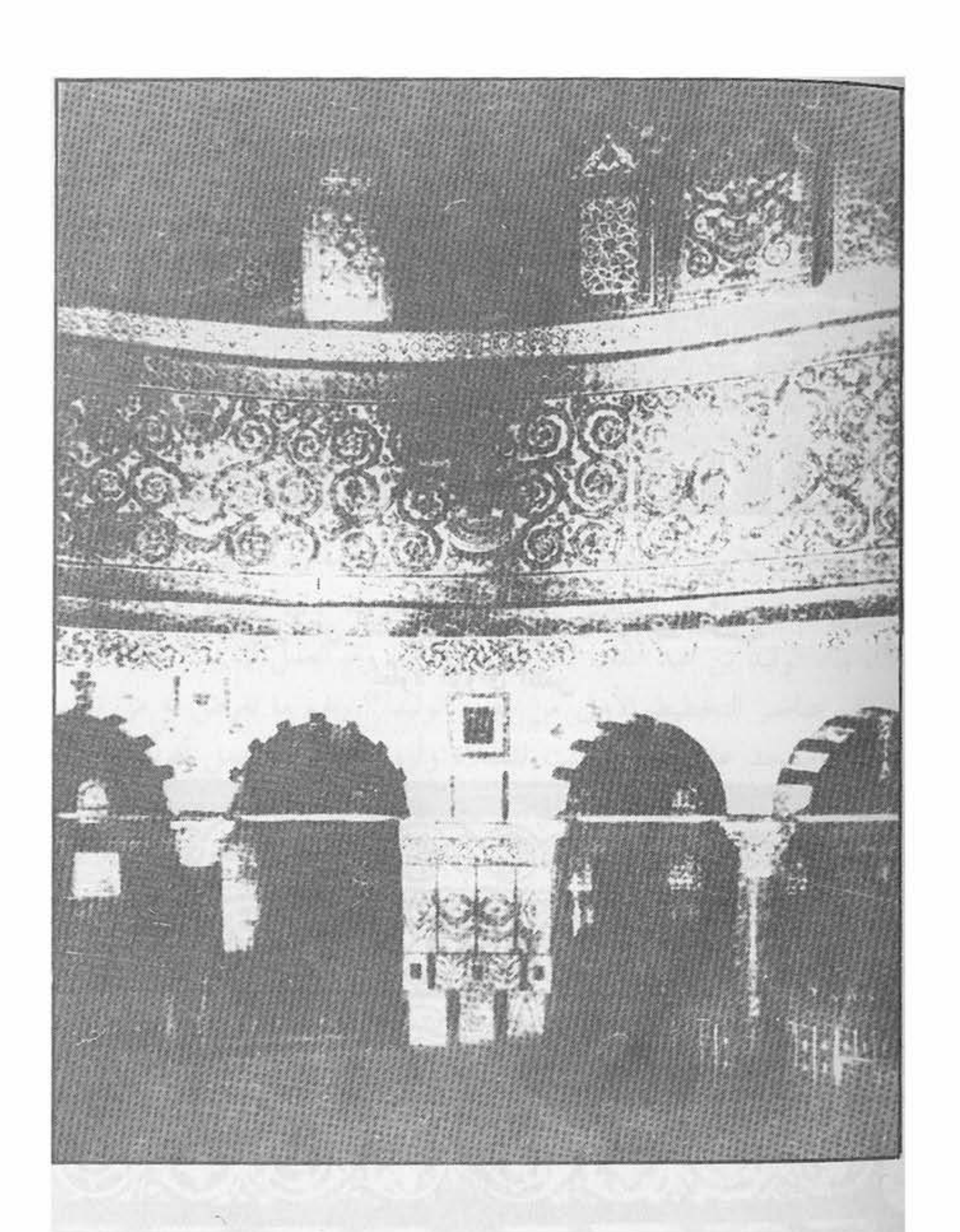
(5) المدخل : ص 222 وما بعدها ومجلة سومر التي تصدرها مديرية الآثار بالعراق المجلد 16 ج 1 و2 سنة 1960 فيما يخص مقال الأستاذ فؤاد صفر (التحريات الأثرية في مناطق مشاريع الري الكبرى في العراق).



شكل 81
قبة الصخرة ببيت المقدس، منظر عام لتخطيط القبة وتغطيتها

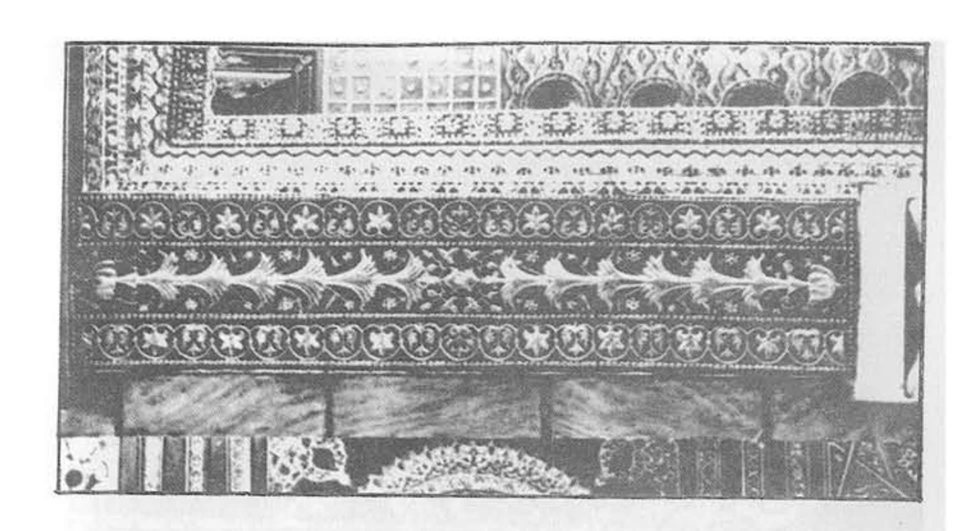


شكل 82
قبة الصخرة ببيت المقدس، التخطيط الأرضي والروافع والتغطية المعمارية

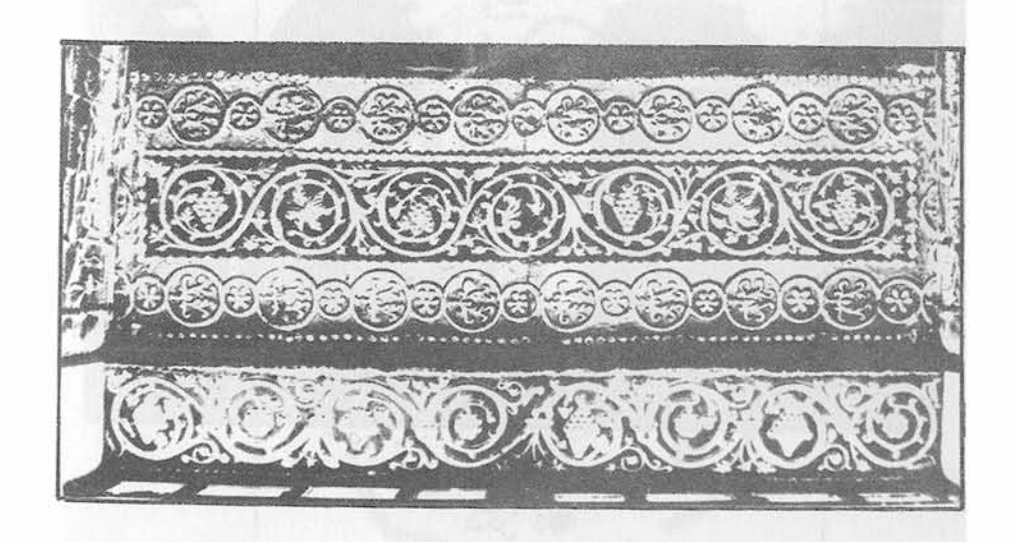


شكل 83

قبة الصخرة من الداخل، تفاصيل العمارة والزخرفة



شكل 84
قبة الصخرة من الداخل، تفاصيل زخرفة الروابط الخشبية
لعقود الرواق المثمن



شكل 85
قبة الصخرة، تفاصيل الزخارف المعدنية بالباب الجنوبي

الله بن الحبحاب سنة[1] (114هـ). وفي حران شمالي الرقة شيد مسجد جامع في وقت اختيارها عاصمة على عهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين[2] (فيما بين 126 – 132هـ) وصفه ابن جبير في رحلته المشهورة.

ويرجع ابن الأثير انشاء المسجد الأقصى بالقدس الى عصر الخليفة عمر بن الخطاب ويرجح معظم المؤرخين أن عبد الملك بن مروان أعاد بناءه سنة 65 هـ وأدخل فيه بناء كنيسة قديمة[3] وجعله من أروقة موازية للقبلة، ولكن المسجد الحالي يختلف عن مسجد عمر وعن المسجد الذي أعيد بناؤه في صدر الدولة الأموية، فقد تعرض لزلزال هدم سقفه فأعيد بناؤه حسب رواية المقدسي أيام العباسيين (أوثق وأغلظ صناعة مما كان). وعندما تعرض لزلزال آخر أعيد اصلاحه في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر 427 هـ ثم جدده المستنصر بالله سنة 458 وتتابعت عليه بعد ذلك اصلاحات غيرت معالمه الأولى[4] بحيث لم يصبح مثالا خالصا للتعبير عن خصائص الطراز الأموي.

ويحتل الجامع الأموي بدمشق مكانة بارزة في تاريخ العمارة العربية الاسلامية من حيث التخطيط ومن حيث أهمية العناصر المعمارية والزخرفية وقد درسه بريجز وكريسويل ومارسيه[5]، بناه الوليد بن عبد الملك 87 هـ (706م)، وتم العمل فيه سنة 96هـ (714م)، ويحتفظ بمعظم عناصر التخطيط الأولى من عصر الوليد[6] رغم ما تعرض له من تعديل فيما بعد. ويشتمل المسجد على صحن وبيت للصلاة وأروقة وأعمدة تحمل أقواسا واسقفا على شكل الجمالون. وتحيط بالصحن أروقة تحدها أقواس تحملها دعائم وفوق العقود نوافذ مستطيلة نصفها العلوي نصف دائري، وبالمسجد بعض نوافذ من الرخام بها أقدم نماذج من الزخارف الهندسية في الاسلام[7].

ويبلغ طول جدار القبلة 136 مترا وعمق بيت الصلاة 36 مترا، وينقسم إلى ثلاثة أساكيب عقودها موازية لجدار القبلة، ويبلغ عرض بلاط المحراب 22 مترا على جانبيه من كل ناحية 11 بلاطا سعة كل منها 5.50 مترا ويقطع بلاط المحراب عقود الأساكيب الموازية للقبلة ويحف به من كل جانب بائكة من ثلاثة عقود عمودية مما أكسبه شكل المجاز القاطع

(1) المدخل : ص 255 وما بعدها.
(2) أحمد فكري : المدخل ص 255.
(3) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 42.
(4) أحمد فكري : المدخل ص 210/209.
(5) كريسويل نفس المصدر ابتداء من ص 44 ومارسيه نفس المصدر ص 24.
(6) أحمد فكري : المدخل : ص 218.
(7) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 41/40.

الذي آستغله بعض المستشرقين في بناء أسطورة اقتباس تخطيط المساجد من الكناش[1]. وكان يعلوا بلاط المحراب في عصر الوليد ثلاث قباب، قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما.

وفي القيروان رابع مدينة أحدثت في الاسلام بعد البصرة والكوفة والفسطاط شيد عقبة ابن نافع ابتداء من سنة 50 (670) مسجدها الجامع الذي جدد أيام حسان بن النعمان سنة 80هـ (694م) وزاد فيه بشر بن صفوان 105هـ (723م) ثم جدد سنة 155 (772م) أيام زيد بن حاتم ثم سنة 221 هـ (836م) أيام زيادة الله بن ابراهيم الاغلبي وبعدها أضاف ابراهيم بن أحمد بن الأغلب أسكوبين سنة 261 هـ (875 م) وقبة البهو ومجنبات الصحن الثلاثة وقد أيدت الأبحاث التي أجراها الدكتور أحمد فكري بمسجد القيروان منذ عام 1931م رجوع المحراب المجوف وتخطيط جدار القبلة الى عهد عقبة بن نافع[2] وان المسجد كان يحتل منذ أيام هشام بن عبد الملك 105 هـ (723م) نفس المساحة التي يحتلها اليوم من جدار القبلة الى المئذنة[3] في جدار المؤخر وما بين الجدارين الشرقي والغربي.

وطول جدار القبلة فيه 72 مترا وجوف بيت الصلاة 34 مترا وكان يشتمل في عهد حسان بن النعمان على أربعة أساكيب أضيفت اليها ثلاثة أخرى في عهد هشام بن عبد الملك بينما ينقسم الاسكوب الواحد إلى 18 بلاطا بوجود 17 عمودا وتبلغ سعة أسكوب المحراب 5.50 مترا بينما سعة كل من بقية الأساكيب 4.25 مترا، وعقود أسكوب المحراب موازية للقبلة في حين كانت بقية العقود عمودية غير أنها لا تقطع أسكوب المحراب الذي ظل متميزا بسعته وامتداده الى أن أراد زيادة الله اقامة محراب جديد أمامه قبة عظيمة فاستلزم ذلك هدم صف الأعمدة المتوسط لخلق بلاط محورى أوسع يشكل مع أسكوب المحراب الفسيح مساحة مربعة أمام المحراب تقوم عليها القبة وبذلك أصبح لبيت الصلاة 17 بلاطا بعد أن كانت 18 كما أضاف زيادة الله أسكوبا جديدا يطل على الصحن فأصبح للمسجد ثمانية أساكيب بعد أن كانت سبعة. لقد وضعت أسس كثيرة في فنون العمارة والتخطيط والعناصر الزخرفية وهندسة الصوامع في المسجد الجامع بالقيروان منذ أيام عقبة وعلى طول العهد الأموي لازالت آثارها واضحة فيما أنشىء بعد ذلك من مباني عربية اسلامية بالمغرب العربي والأندلس.

---

(1) راجع مناقشاتنا في البحث السابق لآراء المستشرقين وأحمد فكري في المدخل ص 275/272/220/218.
(2) راجع أحمد فكري : المسجد الجامع بالقيروان، ابتداء من ص 66. والمدخل : ص 203.
(3) عن المئذنة راجع :
CRESWELL : A short account, chapter 5 and P.109

قصور الخلفاء الأمويين :

أما الآثار القليلة الباقية من قصور الخلفاء الأمويين بدمشق فانها لا تكفي لاعطاء صورة كاملة عن عمارتهم المدنية[1] منذ كانوا غالبا ما يفضلون حياة البادية لملاءمتها لطبيعة نشأتهم، ولهذا أسس بعضهم قصور المعسكرات في الحيرة وقصور اللهو والراحة والاستجمام بعد الخروج للصيد في بادية شرق الأردن[2] مثل قصير عمرة وحمام الصرخ وقصر المشتى، كما اكتشفت في السنين الأخيرة بقايا لقصور المفجر قرب البحر الميت والحير الشرقي[3] والحير الغربي والرصافة[4] والمنية وحمام الصرخ[5] جنوب شرق قصير الحلابات قرب عمان.

ويقع قصير عمرة على مسافة خمسين ميلا شرقي عمان ويضم قاعة استقبال وحمام من ثلاث قاعات تنوعت أساليب تغطيتها فسقف الأولى قبو نصف دائري وسقف الثانية قبوان متقابلانا وسقف الثالثة قبة نصف كروية وقد درس موزل ALOIS MUSIL الذي اكتشف هذا البناء سنة 1898 رسومه ونقوشه التي اشتملت على مناظر الصيد والاستحمام ورسوم راقصات ونساء شبه عاريات ورسوم زخرفية لالهة الشعر والفلسفة والنصر عند الاغريق وتصوير مراحل العمر وقبة السماء والبروج ورسوم الطيور والحيوانات والزخارف النباتية. ومن أشهر رسوم قصير عمرة منظر للخليفة جالساً على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة بحافتها كتابة كوفية دعائية.

وأهم من ذلك لوحة أخرى عرفت باسم صورة أعداء الاسلام وهي عبارة عن ستة أشخاص في ملابس فاخرة فوق رأس أربعة منهم كتابة بالعربية والاغريقية تشير الى قيصر ولذريق وكسرى والنجاشي وقد اعتبرهم فان برشم Ven Berchem أعداء الاسلام وأعداء الوليد بن عبد الملك خاصة وتحدد بذلك عصر بناء القصر فيما بين 92 و96 هـ. ومن تحليل عناصر اللوحة يتضح تأليفها الساساني برسم اليدين مرفوعتين الى النصف ومفتوحتين للامام اشارة الى الخضوع، كما يتضح طرازها الهلنستي من طريقة رسم الأجسام وآلهة الحب والنصر وشكل الملابس مما يوحى بوجود ملامح التأثيرات الساسانية والهلنستية في الفن الأموي المبكر[6] أما إبريق مروان الثاني آخر ملوك الأمويين فانه يعكس التأثيرات الفارسية بشكل ملحوظ (شكل 86).

(1) عن العمارة المدنية لبني أمية راجع : L'art de L'islam. P. 26-30

(2) أرنست كونل : الفن الاسلامي ترجمة أحمد موسى ص 21.

(3) عن قصر الحير الشرقي أنظر كريسويل : نفس المصدر ص 111 121.

(4) راجع نفس المصدر ص 84/82.

(5) عن حمام الصرخ راجع زكي محمد حسن نفس المصدر ص 47 وكريسويل نفس المصدر ص 99.

(6) زكي حسن : فنون الاسلام ص 47/44 وعن قصير عمره راجع كريسويل نفس المصدر 93/84 ثم 101.



شكل 86

الابريق الأموي الشهير يحمل التأثيرات الساسانية كحبات اللؤلؤ وحصر الزخرفة داخل جامات وشكل الديك يصيح ناشرا جناحيه مبشرا بظهور الصباح

وقصر المشتى Machatta (شكل 87) الذي كشف على مراحل خلال القرن التاسع عشر الميلادي على بعد عشرين ميلا جنوبي عمان مازال يعتبر نموذجا للقصر الصحراوي المأخوذ عن معسكر كبير يتوسطه حوض ماء وبهو وسط ذو ثلاثة أروقة وقاعة ملحقة من ثلاثة حنايا وحجرات على الجانبين[1]. وترجع شهرته الى الواجهة الحجرية المشتملة على مدخل واحد وقد حفرت نقوشها داخل مثلثات كبيرة متبادلة الرأس والقاعدة على التوالي وقد وضعت داخل كل مثلث كبير مجموعة من رسوم الأوراق النخيلية وكيزان الصنوبر والأزهار. ويشتمل أحد جانبي تلك الواجهة على زخارف نباتية وعناقيد العنب (شكل 88) بينما يشتمل الجانب الآخر على مناظر الكائنات الحية من طيور تتخلل الأغصان حيوانات خرافية وأسود متقابلة بينها شجرة الحياة (شكل 89) مما يذكر بأن فريقين من الفنانين ساهما في تنفيذ زخارفه وفقا للتقاليد الايرانية والتقاليد البيزنطية[2].

---

(1) أرنست كونل : نفس المصدر 23/22.

(2) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 52/48 ــ وكريسويل نفس المصدر الفصل السادس ابتداء من ص 124، عن قصر المشتى وقصر الطوبة وقصر حران، وعن الأصول المعمارية لقصر المشتى ص 144 وعن قصر الطوبة راجع زكي محمد حسن فنون الاسلام ص 53.

وراجع بروكلمان في تاريخ الشعوب الاسلامية : قصور الأمويين الصحراوية ص 152، قصر المشتى ص 153 وقصير عمرة وصورة أعداء الاسلام ص 156/154.

الطراز العباسي :

ورث العباسيون عن بني أمية امبراطورية واسعة. ولكن نفوذهم لم يشمل نفس الممالك التي سادها الأمويون فقد قامت دولة أموية جديدة بالأندلس كما انسلخ المغرب الاسلامي تقريبا فيما عدا افريقية الاغلبية التي اضطر الرشيد الى منحها استقلالا ذاتيا لا تربطه بالعباسيين أكثر من العلاقة الروحية. ولعلهم ادركوا ذلك منذ البداية فاعتمدوا أكثر من ذي قبل على العنصر الفارسي والعربي ابان حركتهم في الوصول الى الخلافة فبادروا بنقل عاصمة الامبراطورية من دمشق الى بغداد القريبة من المدائن عاصمة الفرس القديمة، وبهذا زاد ظهور النفوذ الفارسي في الشرق سياسيا وفنيا وتحولت السيادة الفنية الى العراق وايران وبدأ الطراز العباسي معتمدا على حصيلة الخصائص الأموية مع زيادة في التقاليد الفارسية ونقص في ملامح العصر الهلنستي القديم.

مميزات العمارة في الطراز العباسي :

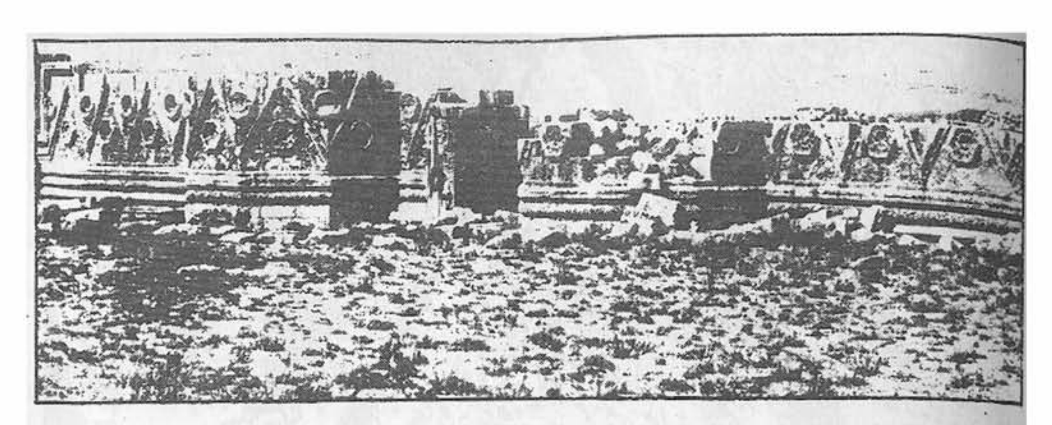
وتتميز العمارة في الطراز العباسي[1] باستخدام الآجر بدل الحجر (الذي استعمل في العصر الأموي) وخاصة في العقود والقبوات والقباب، والتأثر بالأساليب الساسانية في بناء الايوانات الضخمة ذات الفتحات المرتفعة بقصر الاخيضر، وتفضيل استخدام الدعامات والاكتاف بدل الأعمدة والعقود المدببة بمسجد ابن طولون (شكل 90)، وظهور المداخل الملوية كأبواب مدينة بغداد واقامة قبتين على بلاط المحراب ابتداء من زيادة الأغالبة للمسجد الجامع بالقيروان، والمآذن الملوية على هيئة برج حلزوني مصعده من الخارج على غرار الأبراج البابلية المدرجة «الزيجورات» مثل المنارة الملوية بمسجد سامرا الجامع (شكل 91) والمنارة الملوية بجامع أبي دلف ومنارة جامع ابن طولون ذات السلم الحلزوني من الخارج (شكل 99)، وأخيرا الاقبال على تغطية الجدران بالجص بدل الفسيفساء وابتكار طرز خاصة في زخرفة الجص ظهرت في منشآت ومباني سامرا.

مميزات الفنون التطبيقية :

وتتميز الفنون التطبيقية لهذا الطراز بتغشية بنايات الآجر بالجص الذي أصبح الشكل الزخرفي المميز لها شأن مساكن سامرا وبغداد حيث ازدهرت تلك الصناعات التي عرفت تجريدا وابتكارا متنوعا منذ عهد الساسانيين الى أن حققت ثروة زخرفية كاملة وابتكارا جديدا

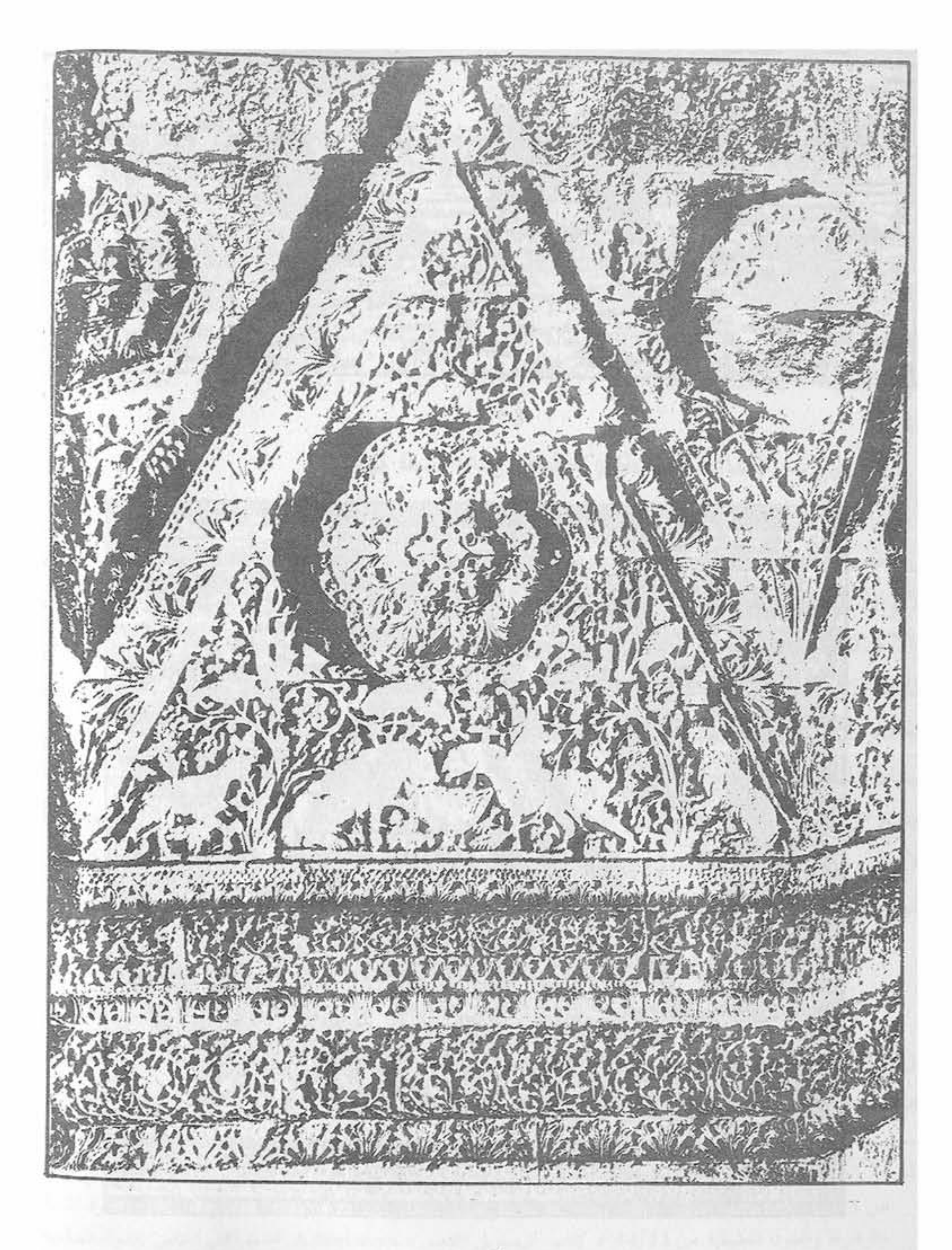
---

(1) عن الطراز العباسي وآثاره وفنونه راجع : أرنست كونل : الفن الاسلامي ترجمة أحمد موسى نفس الطبعة الفصل الثاني ص 44/33 وكتاب مارسيه : L'art de L'islam الفصل الثاني عن فن العباسيين من حيث العمارة الدينية والعمارة المدنية والزخرفة والفنون التطبيقية ص 44/33 ثم كتاب كريسويل المختصر A short account القسم الثاني الخاص بالدولة العباسية ابتداء من تأسيس بغداد الفصل الثامن ص 161.
ثم فنون الاسلام ص 54 — 61 حول العمارة في الطرز العباسي.



شكل 87
واجهة قصر المشنى ببادية الأردن

شكل 88
قسم من واجهة قصر المشتى حافل بالزخرفة النباتية



شكل 89

قسم من واجهة قصر المشتى تظهر فيه الأشكال الحيوانية مع النباتية

يتميز به الطراز العباسي الزخرفي المعتمد على الضغط بالقالب المزخرف لسرعة الانجاز. وقد عرفت تلك الزخارف المحفورة في الجص أو البارزة أو المائلة عند المشتغلين بالآثار بطرز سامرا وقسموها إلى ثلاثة طرز، أقدمها رسوم نباتية تحاكي الطبيعة محاكاة صادقة ثم زخارف أخرى تبدأ في التحوير والبعد عن تقليد الطبيعة (شكل 93) وأخيرا تتحول العناصر النباتية الى مجرد زخارف خطية (شكل 94) بعيدة كل البعد عن الطبيعة، ويعتقد هرتزفيلد الذي كشف عن آثار سامرا ان تلك الطرز هي التي أدت الى ظهور فن الأرابسك الذي تميز به الفن الاسلامي عامة فيما بعد.

كما شهد الطراز العباسي نفسه مولد ابتكار الخزف ذي البريق المعدني سواء في الأطباق أو الأواني أو التربيعات كتلك التي تكسو جدار القبلة بجامع القيروان والمستوردة من بغداد، وكذلك الوصول الى الصيغة الاسلامية بتحلية اجسام الأوعية المعدنية بطريقة التكفيت، وبالنسبة للزخرفة الكتابية فقد ظل الخط الكوفي مفضلا لوضوحه وجلاله مع التحرر من الجمود الذي ساده في العصر الأموي. وهكذا بدأ الاتجاه الى التشكيلات الرائقة والتكوينات الزخرفية الواضحة.

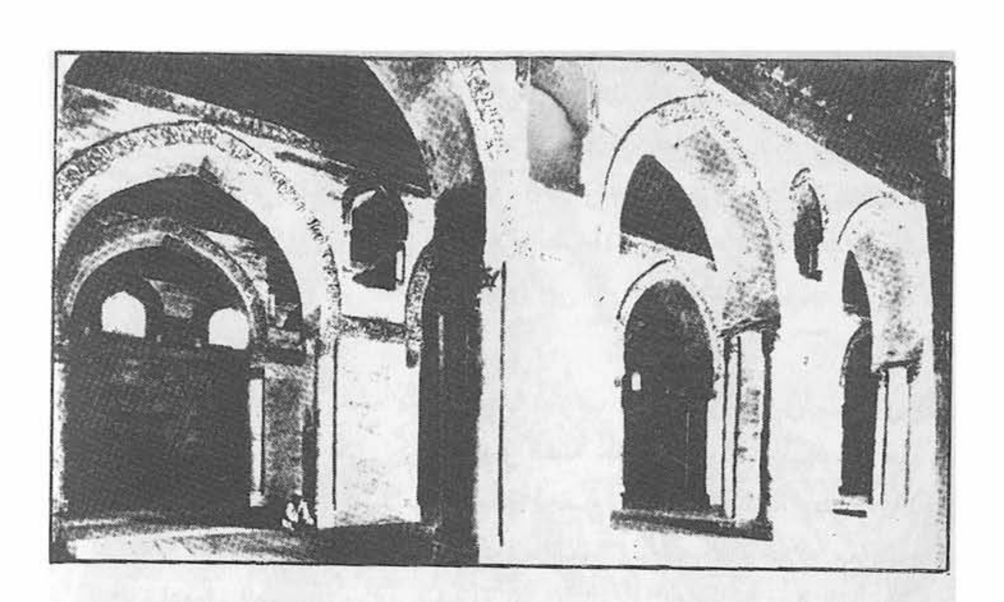
أهم معالم العمارة الدينية في الطراز العباسي :

وكان من أهم معالم العمارة الدينية في الطراز العباسي مسجد المنصور ببغداد ومسجد الرقة ومسجد سامرا الجامع ومسجد أبي دلف بالجعفرية ثم مسجد نايين بايران ومسجد ابن طولون بمصر ثم المسجد الجامع بسوسة ومسجد الرباط بنفس المدينة ومساجد أبو فتاتة والزيتونة[1] واضافات الأغالبة الهامة بجامع القيروان[2] وكلها ضمن الطراز العباسي.

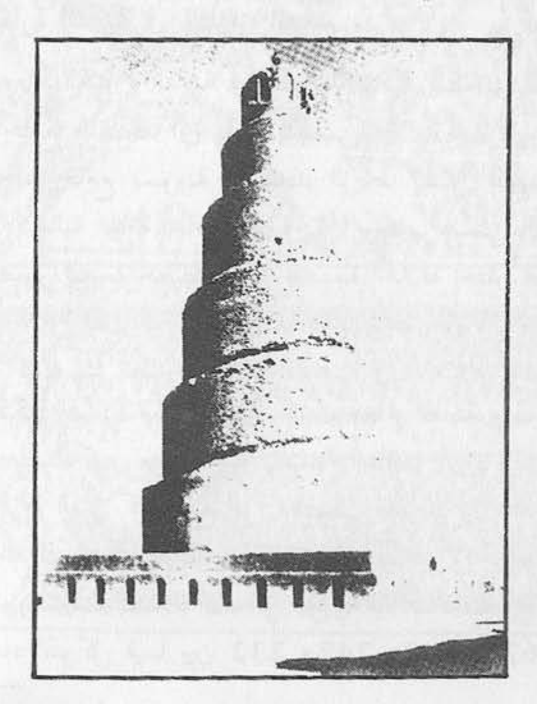
فعندما باشر المنصور بنفسه تخطيط بغداد عاصمة الخلافة اختار عام 149 هـ (766م) أن يكون موضع المسجد من تلك العاصمة في مركزها ومحورها. وترجع أهمية المسجد الذي اندثرت آثاره اليوم إلى كونه يمثل تطور المساجد المذهبية في الاسلام. وقد أنشأ المنصور مدينة الرقة ومسجدها عام 155 هـ (772م)، واذا كانت معالم المدينة والمسجد قد اندثرت غير أنها خلفت آثارا على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لعناصر البناء والزخرفة وتاريخ العمارة نفسه أذ يمثل مسجد الرقة الذي كان يقع على منتصف الطريق بين العراق وسوريا كلا من الطرازين فقد أخذ من العراق التخطيط المربع للمسجد والصحن والحوائط ذات الأبراج وكثرة الأبواب واقتبس من سوريا بيت الصلاة المشتمل على ثلاثة أساكيب والأسقف الهرمية. وكان مسجد سامرا الذي بناه المتوكل فيما بين 232 و247 (847 – 862م) يشغل مستطيلا

(1) عن تلك المساجد الافريقية راجع أحمد فكري في المدخل وكريسويل في العمارة الاسلامية المبكرة وورقات لحسن حسني عبد الوهاب ج 2 خاصة ص 15، 24، 28، 65، 88.

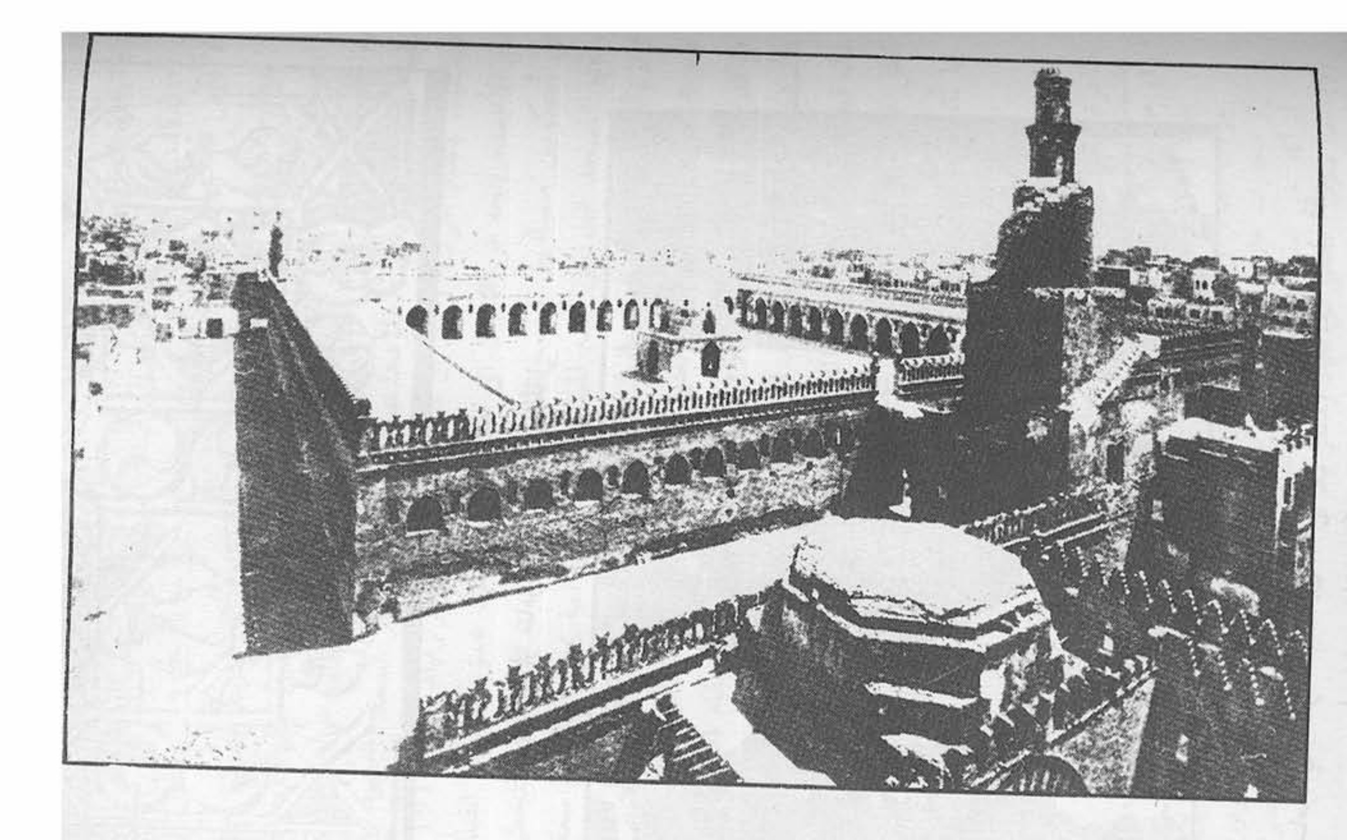
(2) عن جامع القيروان راجع المدخل لأحمد فكري والمسجد الجامع بالقيروان.



شكل 90
تأثيرات الطراز العباسي على عمارة وزخرفة مسجد احمد بن طولون بالقاهرة

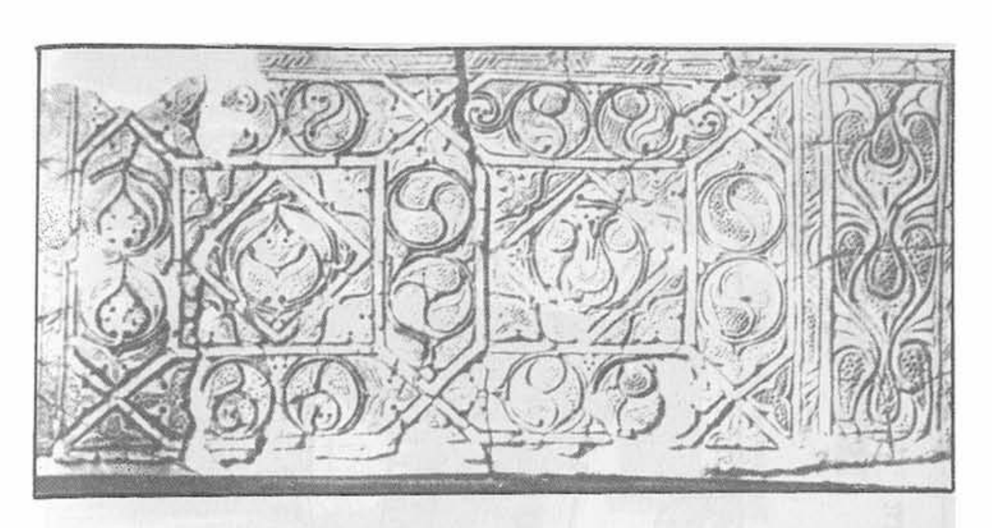


شكل 91
المئذنة الملوية بجامع سامرا الكبير مصدر اشتقاق المآذن الملوية



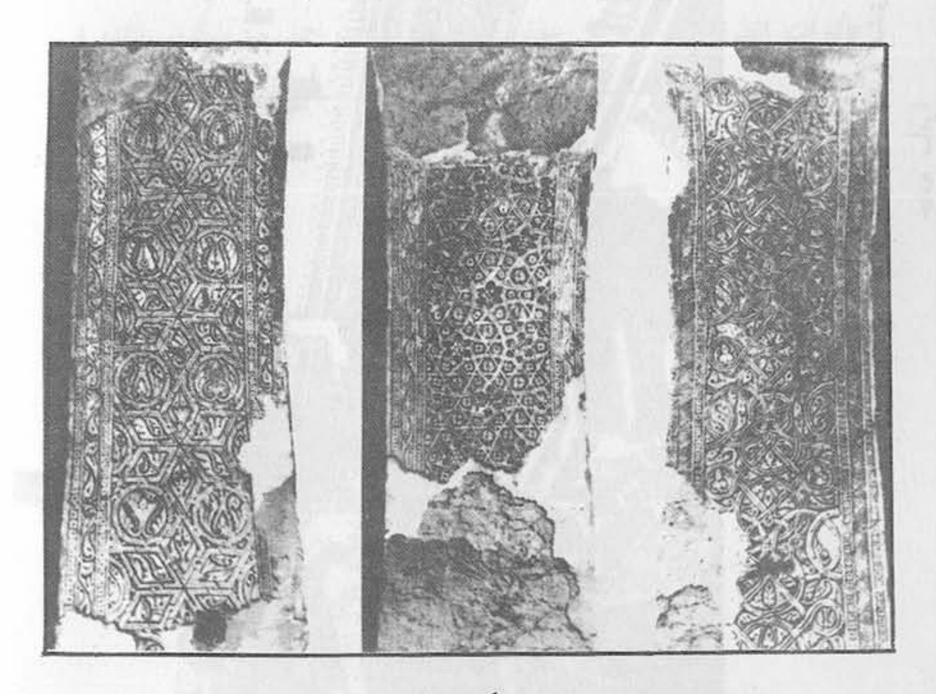
شكل 92

مئذنة جامع احمد بن طولون بالقاهرة صدى لهيئة مئذنة جامع سامرا



شكل 93

طراز سامرا الثاني في الحفر المائل



شكل 94

طرز سامرا في الحفر انتقلت إلى جامع ابن طولون بالقاهرة حيث تظهر في الجص المحفور بكسوة العقود

طوله 240 مترا وعرضه 156 جعله أكبر المساجد التي شيدت في العصور الاسلامية كلها خاصة اذا ما أضيفت الى ذلك مساحة الزيادات الخارجية التي تجعل مساحته أربعين فدانا.
وتذكر مئذنته الملوية[1] بنظام الزيجورات البابلية وقد شاع نظامها في أوائل العصر العباسي في مسجد أبي دلف ومئذنة بغداد التي بناها المكتفي عام 289 (902م) حيث يمكن الصعود الى قمتها على الدواب، ولعل هذا النظام كان مصدرا للحالة المماثلة في كبريات صوامع المغرب والأندلس بالكتبية وحسان واشبيلية.

وخلال عام 245 هـ (860) بنى الخليفة المتوكل مدينة جديدة أسماها الجعفرية وبنى بها مسجد أبي دلف الجامع الذي يقترب من مسجد سامرا في المساحة، ويتميز بيت الصلاة فيه بأسكوب فسيح أمام القبلة يبلغ عمقه 10.60 مترا خلفه شمالا صف من العقود الموازية للقبلة خلفها 17 بلاطا. عقودها عمودية وأوسطها بارز السعة مما جعل المستشرقين يصفون التخطيط بنظام حرف T إلى أن أسفرت حفريات هرتزفيلد سنة 1912 عن أساس صف من الأعمدة يتجه من الشرق الى الغرب في منتصف عمق أسكوب القبلة الفسيح ويقسمه الى أسكوبين متساويين فيضيع بذلك شكل حرف T المزعوم في التخطيط.
ويعتبر المسجد الطولوني أقدم المساجد الجامعة القائمة بمصر وأكثرها سعة وأغناها بالزخرفة ثراء وأعظمها قيمة أثرية، ويحتفظ المسجد بلوحة تأسيسية بالخط الكوفي تشير الى انتهاء عمارته عام 265 هـ. (879 م)، وتعتبر ظاهرة اتساع أسكوب المحراب في هذا المسجد أقدم مثل مؤكد معروف[2] بمصر، وتقوم الدعامات المبنية بالآجر مقام الأعمدة وحمل العقود ورفع الأسقف. واذا كانت الدعائم قد عرفت في العمارة القديمة والعمارة العربية الاسلامية منذ بناء قبة الصخرة وغيرها من آثار المشرق والمغرب العربي، غير ان دعامات مسجد ابن طولون تظل فريدة في تاريخ العمارة كمجموعة معمارية مبتكرة منسقة تشتمل على دعامات تحف بها أشكال أعمدة مبنية بالآجر تعلوها طاقات مفرغة[3].

كما كان المسجد الطولوني أول مسجد معروف ثابت التاريخ استخدمت فيه العقود المبنية المنفوخة كعنصر معماري بطريقة منتظمة[4]، ومن الظواهر العراقية المعمارية في المسجد ظاهرة تعدد الأبواب وفكرة السلم الحلزوني خارج المئذنة ووجود كوة بين النوافذ، ومن

(1) عن الزقورة يقول د. يوسف حبي في كتابه (الانسان في ادب الرافدين) الموسوعة الصغيرة 83 منشورات دار الجاحظ بغداد 1980 (معنى الزقورة تل السماء أو جبل الآله، وهي برج مدرج بأعلاه قدس الأقداس كما أنه برج لرصد حركات الجيوش وفيها يظهر المعماريون والفنيون قابلياتهم الهندسية والفنية، وزقورة يصعد اليها بدرج كزقورة أور أو منحدرات خارجية كبرج بابل أو عن طريق النوعين كزقورة أريدو، وكانت الزقورة مكونة من ثلاث طبقات أو أكثر حتى السبع وكل طبقة ملونة بلون، أما القاعدة فمربعة أو مستطيلة أو مستديرة وهي مشيدة عادة باللبن.
(2) أحمد فكري : المدخل ص 108 وهامش رقم 2.
(3) أحمد فكري : المدخل ص 120.
(4) أحمد فكري : المدخل ص 121.

أبرز الظواهر العراقية الزخرفية وجود افريز يشتمل على مربعات داخلها دوائر مخرمة تحت الشرفات بالجدار الخارجي والتطور بطرز سامرا في الحفر على الجص مباشرة ثم تهذيبه بالنحت بعد جفافه بحيث لا يبدو التعبير آليا كما هو الحال في حفر سامرا.

أهم معالم العمارة المدنية في الطراز العباسي :

أما العمارة المدنية في الطراز العباسي فتمثلها بغداد[1] التي أسسها المنصور عام 145 هـ. بتخطيطها المستدير ومداخلها الملوية والحوائط والفواصل وقصر الذهب. وكان يتقدم السور خندق تعترضه جسور للعبور الى المداخل، والمدخل الخارجي بارز عن نطاق السور ومنحرف Porte coudée بقصد الدفاع يوصل الى رحبة وفاصل أول بين السور السابق وسور آخر أكثر سمكا وارتفاعا يفتح فيه باب رئيسي فوقه قبة تواجه فتحاتها السور الخارجي لكشف الأعداء. ويوصل الباب الرئيسي الى رحبة ثانية وفاصل آخر فطريق محفوف بالقبوات من الجانبين يوصل الى سور آخير مزدوج هو الآخر يضم رحبة وفاصلا ثالثا ثم بابا يوصل الى قلب بغداد[2] حيث مسجد المنصورة وقصر الذهب.

وترجع الأدلة التاريخية نسبة قصر الاخيضر على بعد مائة وعشرين كيلو مترا جنوب غرب بغداد الى بناء عيسى بن موسى ابن عم الخليفة المنصور فيما بين 159 و167 هـ، وتثبت الحيثيات والأدلة المعمارية رجوعه الى القرن الثاني كذلك. وقد كان أعظم انجاز أثر في نفسية كريسويل الذي وضع تخطيطه الأخير ووصفته جرترودبل بقولها انه يمثل أكبر خبرات مدهشة قابلتها في طريق بحثها وأنها كانت تعتقد أولا أنه من عمل الطبيعة وليس من عمل الانسان. ويشترك الاخيضر مع بغداد في عدة ظواهر من حيث التخطيط على الرغم من أنه كان مربع الشكل، ففيه الفاصل الأول لأسوار بغداد والمداخل الأربعة المحورية والممرات المقبوة ومشابهة قاعة العرش وفنائها بالفاصل الثالث لسور بغداد. وقد قام توزيع القاعات بمجموع قاعة العرش على فكرة ساسانية سابقة، كما استخدم الآجر في صنع تصميمات هندسية برص الطوب على شكل خاص تعرف طريقته باسم (هزار بان) أي ألف لوية وهي الطريقة التي ظهرت لأول مرة في باب بغداد بمدينة الرقة.

وقد بقيت بين أطلال سامرا أجزاء من قصر المعتصم (221 هـ) المسمى بالجوسق الخاقاني الذي يطل مدخله الوحيد (باب العامة) على نهر دجلة بواجهة من ثلاث قاعات تغطيها عقود نصف اسطوانية يعتقد هرتزفيلد أنها مأخوذة من أقواس النصر الثلاثية الرومانية التي

---

1) عن اشتقاق لفظ بغداد والتخطيط والبناء راجع حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام ج 2 ص 366.

2) CRESWELL; A short account أنظر الفصل الثامن عن تأسيس بغداد ص 163. وشكل التخطيط ص 165 الأصول المعمارية للتخطيط والأبواب الملوية ص 170 وتفاصيل رسم الأسوار ص 171 هذا ومن المعلوم أن التخطيط المستدير سابق على الاسلام والمداخل الملوية عرفت بمصر الفرعونية.

كانت منتشرة بالشرق الأدنى كما كشفت في مواجهة قاعة العرش غرفة مربعة ذات رسوم ونقوش جدارية تظهر فيها حبات اللؤلؤ الساسانية وصور بنات وراقصات وطيور من صنع اسلامي يعتبرها هرتزفيلد آخر صدى للرسم الساساني. وقد ظهر بنفس القصر ولأول مرة بالاسلام نوع جديد من التيجان نسقت زخرفته على هيئة الساعة Clock Formed Capitals تردد صداه فيما بعد بمقياس النيل وجامع ابن طولون وآثار الفاطميين، ويحتمل أنه من أصل ساساني.

وترجع أهمية قصر بلكوارا الذي شيده المتوكل على نحو ستة كيلومترات جنوبي سامرا الحديثة فيما بين عامي 240 و245 (854 و859م) الى مساحته وحجمه وأفكاره المعمارية أو الهندسية، ويظهر في تخطيطه التأثر بالأساليب المعمارية في ايوان كسرى بالمدائن وقصر المناذرة بالحيرة وقوامه شكل حرف T وقد رتبت أفنيته وقاعات العرش والاستقبال على شكل متعامد بينما يظهر التأثير الهلنستي في واجهته الجنوبية التي تتكون من ثلاث بوائك أوسطها أكثر اتساعا وارتفاعا.

ولكن الطراز العباسي لا تبدأ دراسته أو تختم دون الرجوع الى مصدره الثري في سامرا[1] تلك المدينة المندثرة التي بذت شهرتها بغداد (عاصمة الحضارة في العصور الوسطى) فيما يتعلق بدراسة تاريخ الفنون الاسلامية وذلك بفضل الحفائر الأثرية التي جعلت عاصمة المعتصم مصدرا خصبا لكل ما نعرفه عن الطراز العباسي. وقد شيدها المعتصم شمالي بغداد عام 221 هـ (836 م) كعاصمة خاصة للخلافة، وبنى بها قصر الجوسق وشيد ابنه الواثق القصر الهاروني، وبنى فيها المتوكل قصور العروس والمختار والوحيد والجعفري ثم شيد شمالها مدينة أخرى سماها الجعفرية هجرت وخرجت بعد مقتله، كما انتقل المعتمد الى بغداد عام 276 هـ (889 م) فهجرت بذلك سامرا وتحولت بعد نحو نصف قرن فقط الى خرائب وأطلال ينقب فيها الباحثون اليوم عن بدائع الطراز العباسي وخصائصه المعمارية والفنية فيما حفظه التراب من بقايا دار الخليفة والمسجد الجامع والقصور والمنشآت وزخارفها الجصية.

ومن المدن والمواقع الأثرية التي تمثل الطراز العباسي بالمغرب العربي مدينة العباسية[1] بافريقية (تونس) الاغلبية، وقد اختطها ابراهيم بن الاغلب جنوب القيروان بأربعة أميال وسماها

ومن المدن والمواقع الأثرية التي تمثل الطراز العباسي بالمغرب العربي مدينة العباسية[2] جامعا متسعا ومئذنة مستديرة بالآجر والعمد. واتخذ بداخلها الأسواق والفنادق والحمامات

(1) وقد تعددت القصص التاريخية واتفقت على انبثاق اسمها الاصلي (سر من رأي) وتحريفه مع الزمن إلى (سامرا)، ولكن بروكلمان يقول في تاريخ الشعوب الاسلامية لعل الاذن العربية توهمت ان اسم (سامرا) الفارسي يخفى في طياته نذير شؤم فحرف في الاستعمال الرسمي الى (سر من رأى)، راجع بروكلمان عن المباني والمنشآت والملوية ص 211/210 وعن تاريخ سامرا راجع حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام ج 2 ص 330.

(2) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ج 1 ص 359/353.

وحفر الآبار وأقام بأطرافها الثكنات للحرس وحول اليها آل بيته ومواليه والصقالبة ودواوين الحكومة واتخذها حصنا ومعقلا ضد هجمات الثائرين.

وعندما تحول ابراهيم الأصغر الى مدينة «رقادة»[1] عرفت العباسية باسم «القصر القديم». وقد بقى من آثارها صهريج ضخم للماء خارج سور المدينة، ولازالت انقاضها تحتفظ بآثار حياتها القديمة منذ تخريبها زمن حوادث الزحف الهلالي في منتصف القرن الخامس الهجري. ولا شك في امتداد تأثير الطراز العباسي عمارة وزخرفة الى منشآت العباسية ورقادة وجميع منشآت الأغالبة بالقيروان وغيرها[2] من عواصم وثغور بنى الاغلب.

وبعد هذا العرض الموجز لكل من الطرازين الاموي والعباسي وتبيان أهم خصائصهما ومميزاتهما وأشهر معالمهما المعمارية والفنية سوف يكون من الميسور غالبا تفهم بعض العناصر المعمارية والزخرفية في تاريخ العمارة والفن بالمغرب الأقصى التي لم تكن بدون شك منعزلة عن الأصول التاريخية والفنية لكل من الطرازين الأموي والعباسي اللذين امتد تأثيرهما الى مختلف بقاع العالم الاسلامي في عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، كما يمكن من جهة أخرى وضع أصابعنا على المعالم الجديدة والمبتكرة في عمارة وفنون المغرب التي لم تكن لها نظائر سابقة بالطرازين المذكورين، للوقوف على أهمية الاسهامات المغربية في مجال الحضارة العربية.

---

(1) نفس المصدر ص 358.

(2) عن جامع القيروان ووظيفته وتاريخه وعمارته راجع ورقات ج 1 ص 106 ونفس المصدر عن جامع الزيتونة ص 115 ثم انظر المسجد الجامع بالقيروان لاحمد فكري وكذلك المدخل عن عمارة الاغالبة وجامع القيروان بالزيتونة وغيرهما.

الفصل الخامس

الفن العربي القديم بالمغرب
(الفن البربري)

أبحاث عذا الفصل :

تمهيد :

- عرب المغرب القدماء (البربر)
- الفينيقيون
- الرومان
- الوندال
- الروم البيزنطيون
- عرب المغرب في دورة حضارية جديدة
- سمات الحضارة المغربية وطابعها :
  * الجانبان المادي والروحي
  * الطابع المشرقي
  * الطابع الاسلامي
  * الطابع الافريقي
- الطراز المغربي العربي القديم (طراز البربر)
  * عناصر ومقومات الفن العربي القديم بالمغرب.

الفن العربي القديم بالمغرب
(الفن البربري)

تمهيد :

يعتبر الشعب المغربي منذ القدم، أحد الشعوب العربية الضخمة ذات المدنيات الراسخة بما اكتسبه عبر تاريخه العريق من خبرات وثقافات، نتيجة لاحتكاكه بالأمم والشعوب عن طريق المقاومة والحروب والامتزاج وتعاقب الحضارات.

فمن عصور ما قبل التاريخ وجدت آثار تدل على مستوى المغرب الحضاري بعد أن أسفرت التنقيبات المتتابعة عن كشف موقعين للسكنى بمغارة تمارة قرب الرباط العاصمة، الأول منذ بداية عصر المعادن Enélithique وجد في حالة جيدة يرتقي مسكنا آخر من العصر الحجري الحديث Néolithique بالقسم الأعلى من طبقات العصر الحجري القديم Paléolotique كما أبان الكشف في مغارة الحمام بتافوغالت[1] قرب مدينة وجدة عن علامات تتعلق بحضارة حجرية تتمشى مع مرحلة صناعية قديمة جدا من مراحل العصر الحجري القديم. وفي مغارة دار السلطان[2] على مقربة من العاصمة الحالية عثر على تابوت يرجع الى فترة التطور بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث المسماة Epipoléothique.

لقد اكتسب المغاربة من القرطاجيين[3] فن الملاحة والتجارة وغرس الأشجار، وتعلموا من الرومان سن القوانين وفن العمارة وتنظيم المدن، واقتبسوا من البيزنطيين ألوانا من الترف وتنوع الملاهي. وعندما التأم شمل البربر سكان البلاد الأصليين بأبناء عمومتهم من العرب المشارقة حملة الاسلام، اتخذوا معهم اللغة والدين وأعظم تنظيم اجتماعي عرفته البشرية وهبوا

(1) Voir :Notes de J. Roche, B.A.M. Rabat T. IX p.147-153

(2) Dar Es Soltane Par A. Debenath, B.A.M T. XI p.9.

(3) عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة، أصيلة عبر التاريخ، مقال بمجلة المناهل الرباط عدد 16 ديسمبر 1979 ص 83/76 (تنص الروايات التاريخية على أن أصيلة التي كانت تدعى زيليس عاصرت قرطاج، وامتازت في عهد الملوك الموريتانيين بسك نقود مكتوبة بحروف ولغة بونية).

معهم لنصرة الضعيف ونجدة المظلوم بالايثار واحتمال الخطوب، كما أفاد المغاربة من تجارب التاريخ الحديثة والمعاصر فواجهوا تعصب الاسبان معتصمين بحبل الدين وتفوقوا على الفرنسيين في مضاء العزيمة وانتهاز الفرص منتزعين استقلالهم رغم اختلاف ميزان القوى، وكان المغاربة من أسبق الأمم في مجاراة الأوروبيين في الاستفادة بالمنجزات العصرية واستخدام الآلات الحديثة فجمعوا بذلك بين الأصالة وميراث الحضارة القديمة وبين سياسة الانفتاح والتطور.

عرب المغرب القدماء (البربر) :

ويعرف سكان البلاد الأصليين بالأمازيغ نسبة الى جدهم (مازيغ) ابن كنعان، ومعنى (الأمازيغ) عندهم الأشراف، وقد اطلق عليهم الرومان كلمة Maures التي يقصد بها عرب المغرب، أما كلمة (البربر[1]) فقد وجدها العرب بالمغرب بعد أن أطلقها البيزنطيون على الوندال الذين هاجموا أمبراطوريتهم[2] في العصور الوسطى فورثها سكان المغرب عنهم، بينما كان استعمال العرب لاصطلاح (البربر) مبنيا على علم الأنساب[3]. فكما قيل أن العرب من يعرب، قيل كذلك ان البربر من بر وهو جدهم السادس.

ويجمع جمهرة المؤرخين على أصلهم المشرقي، فابن قتيبة والطبري والبكري وابن الأثير يرون أنهم من فلسطين[4] بينما يرى الصولي أنهم من مصر من أبناء مصرايم بن حام، ويؤكد جوتييه تلك النسبة بتشابه اللغة والآثار عند كل من البربر والمصريين[5]. وقد أرجعهم البعض الآخر الى اليمن وحمير[6]، حتى جاء مالك بن المرحل فقال انهم حميرية ومضرية وقبط وكنعانية وقريشية اجتمعوا في الشام قبل انتقالهم الى المغرب[7].

وليس هناك من شك في أن القرابة والوشائج المتينة بين البربر والعرب التي جعلت

---

(1) عن معنى كلمة (بربر) أنظر قبائل المغرب ج 1 لمؤرخ المملكة ابتداء من ص 262 ومحمد العربي الخطابي، المغرب ومكانته من العالم الاسلامي، المناهل عدد 18 يوليو 80 ص 78 وما بعدها.

(2) دكتور سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص 22.

(3) دكتور سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص 24.

(4) دكتور سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص 25.

(5) جوتييه : ماضي شمال افريقيا ص 42.

(6) عن أصول البربر راجع أفضل ما كتب : الأبحاث المستفيضة الواردة بكتاب قبائل المغرب ج 1 للأستاذ عبد الوهاب بن منصور ص 265 والخلاصة التي وصل اليها ابتداء من ص 277، المجتمع البربري 291/280، أقسام البربر 336/292، مواطن البربر في القديم 341/337 ثم مصادر تلك الأبحاث 343/342.

وعن أصول البربر كذلك راجع أبحاث التقى العلوى بمجلة البحث العلمي الرباط أعداد 19 يونيو 1972 ص 81 ويوليوز 1972 ص 69 وأبريل 1975 ص 71 و25 يونيو 1976 ص 61 وبقية أبحاثه المعمقة.

(7) عن أصل البربر راجع رأي ابن حزم في جمهرة الانساب الذي نقل عنه ابن خلدون، وراجع تاريخ ابن خلدون طبع القاهرة ج 6 حيث نقل ونقد آراء السابقين.

من الصعب التمييز بين العربي والبربري[1]، جعلت النسابة يضعون شجرة النسب البربرية على نسق نظيرتها العربية، ويمثل التشابه بين البربر والعرب ـــ مع مقابلة الحضري بالحضري والبدوي بالبدوي ـــ في اللغة والتنظيم الاجتماعي وطبيعة البيئة التي تنتج انماطا متجانسة من الاجتماع والعمران الأمر الذي يربي عادات وتقاليد مؤتلفة ويخرج عبقرية متماثلة تؤكد وتؤيد القرابة الغارقة في القدم بين العرب والبربر[2].

الفينيقيون :

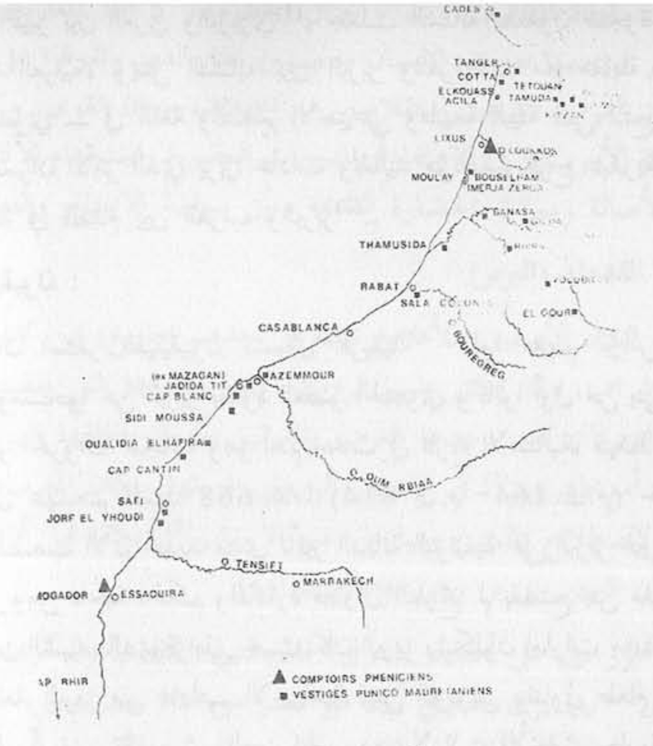
منذ ان استقر الفينيقيون بشمال افريقيا[3] حملوا معهم نبراس الحضارة (أشكال 95 –98) ومسحوا عن البربر بداوة العصر الحجري وكانوا أول من بنى الأساطيل التجارية وأول من نشر الحروف الهجائية وهو أهم حدث في تاريخ الانسانية، فتيقظ بذلك البربر وتحضر المغرب خلال عهدهم الممتد 668 عاما (814 ق.م –164 ق.م) حتى ظهور الرومان. ولازال من الصعب الآن تحديد مدى تأثير الديانة البونيقية على البربر غير أنهم كانوا يقدسون بعض آلهتهم، ومن ناحية الحكم والادارة فلازال التاريخ لم يفصح عن مدى اقتباس البربر من نظام البونيقيين الشبيه بالديموقراطي حيث كان البربر يشكلون امارات مستقلة ترتكز على النظام القبلي وقد أخذ البربر من عاداتهم الاجتماعية لبس البرنوس وتناول طعام الكوسكوس ورسم يد بشرية على أبوابهم تقيهم شر العين الحسود، ولازالت الأبحاث جارية لمعرفة مدى التأثير البونيقي (أشكال 99 – 100) في عمارة وفنون البربر. وقد ترجع صعوبة تلك الأبحاث الى تقليد البونيقيين للاغريق والمصريين في مبانيهم ومنتجاتهم، بالاضافة الى أننا افتقدنا وسائل الحكم على مدى التأثير الفكري حيث حطم الرومان تقريبا جميع الآثار البربرية التي ترجع الى ذلك العهد بما كانت تحمله من نقوش وكتابات بونيقية.

---

(1) شارل جوليان CH. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, VZ, P. 46
وانظر للأستاذ الرئيس محمد الفاسي : البربرية شقيقة العربية بكتاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة للدورة السادسة والثلاثين 1970/1969 ص 277/269 عن أصل البربر وأسمهم ثم لغتهم ومقارنتها بالعربية.

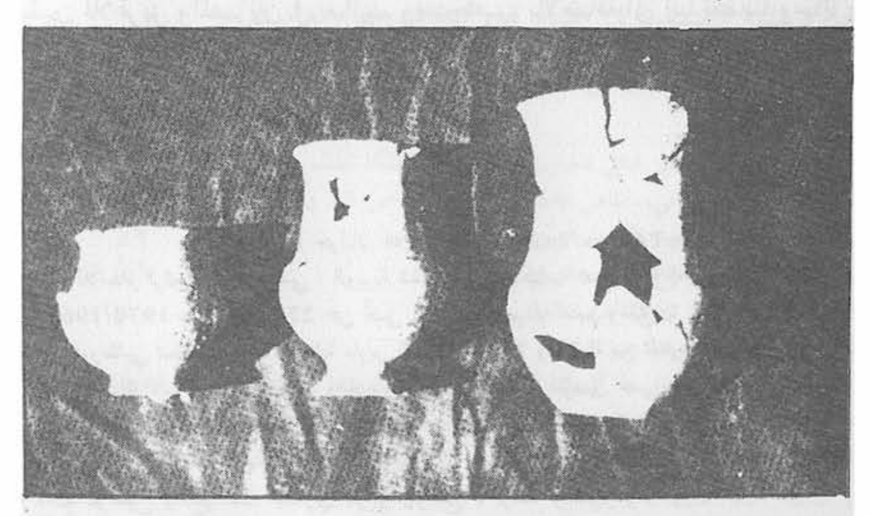
(2) بمقال لقدور الورطاسي بمجلة الارشاد الرباطية مارس 1987 ص 73 (ان ستة من المغاربة قدموا على عمرو بن العاص بمصر يريدون اعتناق الاسلام لوصية الآباء والجدود فارسلهم الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي سأل من كان معه عمن يعرفهم فقال شيخ من قريش : إنهم من أبناء (بَرْ) وقع له سوء تفاهم مع أسرته... فخرج نحو الغرب فقال القوم (بَرَّ بَرْ) أي دخل البرية فهم من أصل عربي.

(3) لدراسة ذلك الموضوع راجع بحث البكاري المركز الموضح بالخرائط والصور والرسوم :
Mahdi Mohammed Bekkari : L'expansion Phenicienne au Maroc.
A. Luquet : Le Maroc Punique, B.A.M. Rabat T. IX P. 237-293
وترى تصميم السفن التجارية لوحة 28.



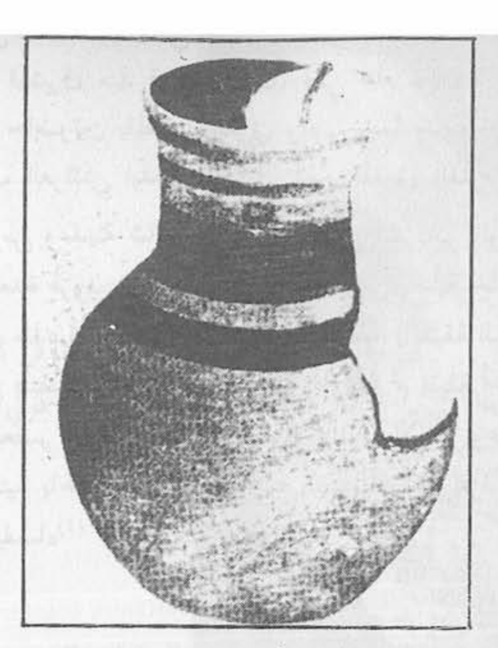
شكل 95

موقع العمران الفينيقي في المغرب الأقصى وآثار العهد البونيقي



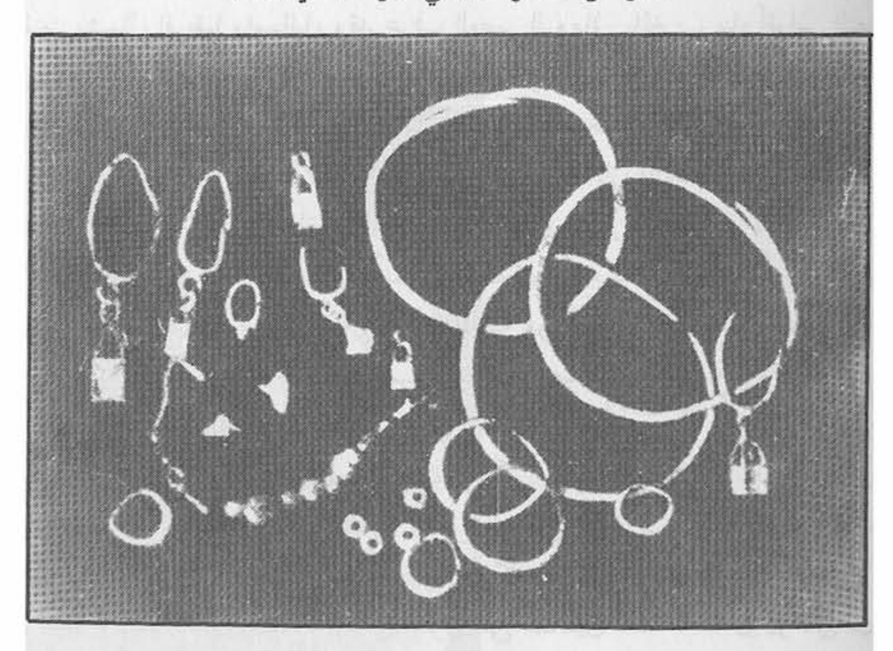
شكل 96

فخار من العصر الفينيقي عثر عليه بمدينة طنجة



شكل 97

فخار من العصر الفينيقي عثر عليه في باناسا



شكل 98

حلي ذهبية وفضية من العصر الفينيقي عثر عليها بمنطقة طنجة

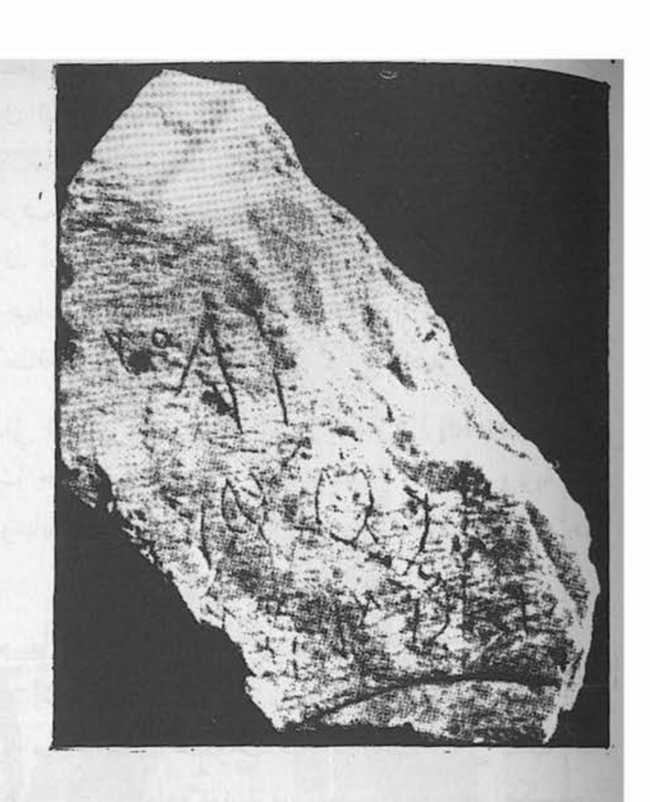
وعلى الرغم من ذلك، فانه يمكن القول بأن الفينيقيين قد أكدوا اتجاه الحضارة المعمارية والفنية بالمغرب شطر المشرق منذ قرون خلت، ففي عام 1101 ق. م على وجه التقريب أسس الفينيقيون أقدم حاضرتين بالمغرب العربي ونعني بهما مدينة أوتيك Utique قرب تونس ومدينة لكسوس قرب العرائش ايذانا بانطلاق الفن المغربي القديم من المشرق.

وكانت ليكسوس ومدينة شالة بالمغرب الأقصى تنفردان بالوقوع في مركز بحري هام رسم معالم الحضارة لعدة قرون، فعندما حظيت لكسوس بعناية خاصة من جانب الآثاريين، تمكنوا من الكشف في هذه المدينة الأزلية عن أبنية فينيقية بالطبقة السفلى على عمق عدة أمتار فوقها بناء روماني على طبقتين أعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة أخيرة من العصر الاسلامي وكان من معثورات العصر الفينيقي فخار مدهون باللون الأحمر وعينات متنوعة من القناديل وبقايا دور بونيقية مبنية بالحجارة وذات غرف مستطيلة على غرار الغرف المغربية المعاصرة بلطت أرضيتها بالفسيفساء[1] المرمرى.

الرومان :

وعلى اثر الحروب البونيقية التي استمرت أكثر من قرن بين البونيقيين والرومان (264 ق. م – 164ق م) دخل الرومان قرطاجة وخربوها واستولوا على جميع ممتلكات البونيقيين بشمال افريقيا واسبانيا، وقد عرف العصر الروماني بالمغرب بناء أقواس النصر لتخليد عظمائهم وجلب المياه عبر مجار تحملها أقواس عالية وقناطر، كما عنوا بالطرق البونيقية والبربرية لربط قواعدهم العسكرية، وكان الاستعمار الروماني عسكريا واقتصاديا يهدف الى الاستبداد بالسكان والاستيلاء على خيرات البلاد. وتفيد دراسة الآثار المتخلفة من العصر الروماني في التعرف على نظام الحكم في المغرب من خلال المباني الادارية والمراكز العسكرية، فقد كان الاهتمام بالغا بتحصين المدن واحاطتها بأسوار ضخمة وأبراج دفاعية تقيهم ثورات البربر المتتابعة، وتتضح الحياة الاجتماعية من دراسة العمارة المدنية من أسواق وحمامات وفنادق وقصور وما اشتملت عليه المدن من ساحات لتجميع السكان ومسارح ومسابح، وقد أخذ البربر عن الرومان كثيرا من وسائل الزراعة ونظم الري والشهور الفلاحية، كما توفرت طرق المواصلات المشتملة على فنادق الاستراحة للمسافرين، وتحكي آثار المدن الرومانية بالمغرب مثل فولي بوليس، وشالة... وغيرها قصة العمارة والفن الروماني بالمغرب، فقد كانت المباني الرومانية تتصف بالتناسق وملاءمة البيئة والمجتمع المحلي، وكانت البيوت تبنى بالحجر المنجور من طابق واحد عادة وتبلط بالفسيفساء، ويحتوي المنزل على صحنين أحدهما صغير يوصل الى حجرات للسكن وخلف المنزل صحن آخر به حمام ومعصرة للزيتون.

(1) عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الفن الاسلامي في المغرب. مؤتمر الآثار السابع بأبي ظبي ديسمبر 1974.



شكل 99

نقوش بونيقية من منطقة
فولي بوليس الأثرية



شكل 100

نقوش بونيقية من منطقة فولي بوليس الأثرية

ويعتبر موقع مدينة وليلة مجمعا متكاملا للعمران المغربي في العصر الروماني (شكل 101)، لقد كشفت المجسات بطول السور الشرقي الذي يرجع الى عصر ما قبل الرومان بحي المساكن العتيقة عن حجرة مبنية بحجر الدبش (غير المنجور) بمساحة 15 مترا كما وجدت حجرتان بالقطاع الثامن المجاور وخزف من العصر البوني وبعض الأدوات المزلية كموازين الطين المحروق الخاص بالنساجين، وقد أمكن العثور في المستويات الرومانية على معصرة زيت وساحة مخصصة لعصر الزيتون وعينات متنوعة من الخزف مثل (Campanienne B) و (Campanienne A) و (Arezo) بالاضافة الى خزف محلي مدهون وعدة جرار.

وقد أدت حفائر الحي الشمالي الشرقي بالطريق الرئيسي الشمالي[1] (Cardo Nord) إلى كشف دار ودكاكين وسوق وأدوات حديدية وبرونزية ومخلفات مطبخ وعملة برونزية ترجع الى ما بين القرن الأول قبل الميلاد ونهاية القرن الثالث الميلادي ومن بينها ما يرجع الى عصر ما قبل الرومان.

وبدار بنات البحر (Maison de Nereides) عثر على نصب منقوش من العصر البونيقي (Punique) ومستويين من الفسيفساء أحدهما من بداية القرن الثالث الميلادي ويرجع الآخر الى نهاية نفس القرن وحوض صغير مزين بست حشوات من الفسيفساء تمثل بنات البحر التي خلعت اسمها على ذلك البناء كما اكتشفت قطعة نقدية من عصر الامبراطور مكسمين[2] (235 – 238)، وبدار الأعمدة النصفية (شكل 102) (Demi colone) تم الكشف عن تخطيط مدهش وعملة من عصر هادريان[3] وجورديان الثالث ومعصرة للزيت ومجموعة من الخزف تغطي فترة تاريخية تمتد بطول أربعة قرون.

وفي سنة 429 ميلادية اختلف بونيفاس قائد الجيش الروماني في المغرب والمقيم في سبتة مع البلاط الامبراطوري في رافنا، واستعان بالوندال الذين كانوا قد استقروا بجنوب اسبانيا، فاحتل الوندال المغرب بقيادة ملكهم جنسريق الذي اضطر لاستمالة البربر لمعاونته في حرب الرومان.

الوندال :

ولم يكن الوندال أهل حضارة، فقد اعتبرهم المؤرخون أكثر الشعوب البربرية

(1) J. Hassar : L'arch. Marocaine de 73-75, B.A.M Rabat T. X 1976, P. 246.

(2) تقرير المملكة المغربية الذي شاركت في اعداده لمؤتمر الآثار لجامعة الدول العربية بمراكش فبراير 1977.

(3) أنظر أشكال 103 – 107 وراجع كتابنا حفائر شالة الاسلامية، بالفصل الخامس وصف البقايا الرومانية التي كشفنا عنها وكتابنا الفنون الاسلامية والنقوش العربية ص 31 الفسيفساء الرومانية التي اكتشفناها وعملة هادريان التي اكتشفناها شكل 7، 8 وتعتبر أفضل نموذج عثر عليه بالمغرب.



شكل 101

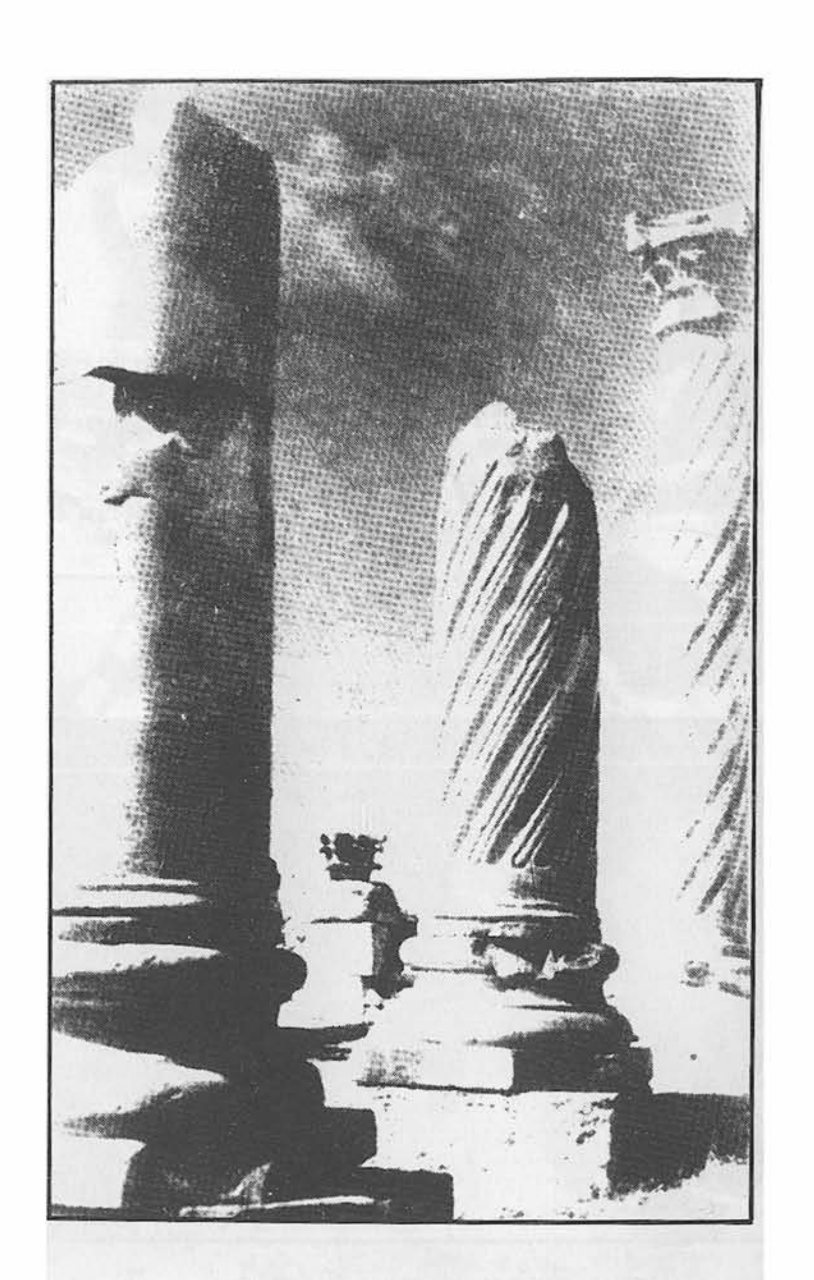
هيئة ومواد العمارة الرومانية بالمغرب كما تبدو بآثار فولي بوليس

تخريبا[1]، ومع هذا فلعلهم احترموا حضارة الرومان واحتفظوا بنظامهم القديم بالمغرب، حتى ثار عليهم البربر وقضى عليهم البيزنطيون ثأرا لاخوانهم الروم الغربيين عام 534 للميلاد بعد اقامتهم بالمغرب حوالي قرن من الزمان دون ترك آثار فنية أو معمارية تذكر.

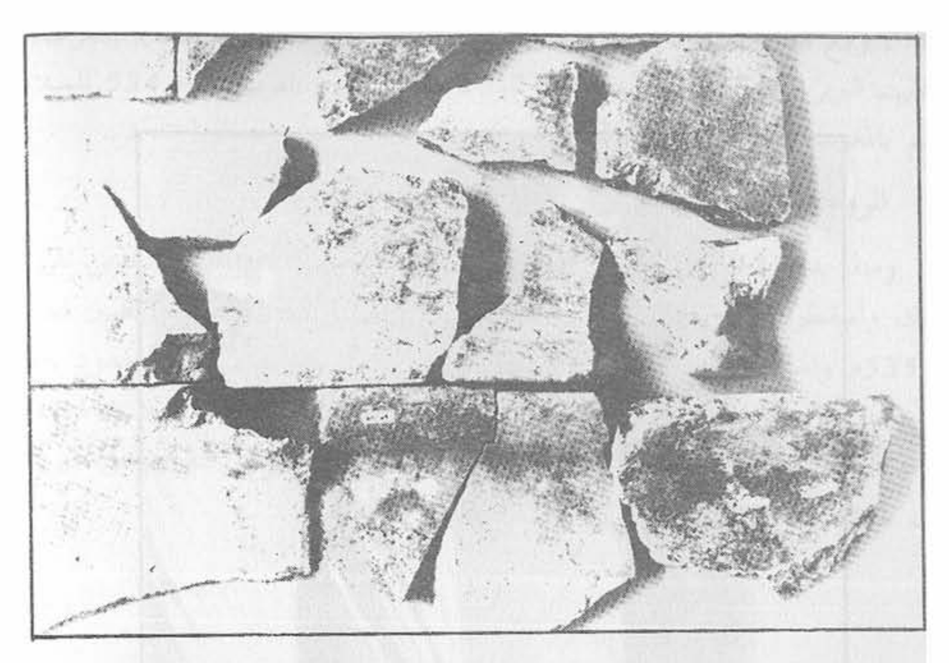
الروم البيزنطيون :

ومنذ بداية العصر البيزنطي أغفل بليزاريوس أمر السكان الأصليين الذين ثاروا ضد الرومان وأسقطوا الوندال، فلم تمض سنتان حتى اندلعت الثورة ضد البيزنطيين ابتداء من عام 535م واستمرت ربع قرن [2] بحيث لم يتجاوز سلطان البيزنطيين حدود (افريقية) تونس وسواحل طرابلس اما نفوذهم على سائر المغرب فلم يكن ثابتا حيث كانت قبائله تعيش شبه مستقلة الى أن جاء جرجير الثاني الذي سار عبثا على سياسة التقرب الى البربر حتى أطلت بشائر العروبة في طورها الجديد مع الاسلام.

(1) دكتور سيد سالم : المغرب الكبير ص 31. وانظر قبائل المغرب لمؤرخ المملكة المغربية : دولة قرطاج البونيقية ص 90، الرومان ص 96، الوندال ص 101، البيزنطيون ص 104.
(2) دكتور سيد سالم : المغرب الكبير ص 15.



شكل 102
منزل الأعمدة بفولي بوليس



شكل 103
آثار مجرى روماني كشفت عنها حفائرنا الأثرية بمنطقة شالة



شكل 104
جانب من الفسيفساء الرومانية



شكل 105

جزء من جرة رومانية مما كشفت عنه حفائرنا بمنطقة شالة قرب الرباط



شكل 106

عملة الامبراطور هادرياني التي كشفت عنها أثناء الحفر بمنطقة شالة سنة 1960



شكل 107

الوجه الآخر من عملة الامبراطور هادريان المكتشفة بحفائرنا بشالة

عرب المغرب في دورة حضارية جديدة :

لقد خلدت شعوب وقبائل البربر سكان المغرب الأقدمين ملحمة رائعة في نضال الغزاة والمستعمرين والبحث عن مبادىء العدل والمساواة والتحرير وما أن أشرق نور الاسلام مع أبناء عمومتهم الوافدين من المشرق حتى كان الشعب العربي المسلم هو الشعب الوحيد عبر التاريخ الذي رحب به البربر وامتزج معه الى حد كبير أدى الى ذوبان الواحد في الآخر، ولا غرابة اذن عند المؤرخ المنصف أن يجد في بسائط المغرب وجباله وأمصاره وأريافه مسرحا لدول عربية اسلامية اشتركت في تكييف الحضارة الاسلامية.

لقد قامت دول وممالك منذ فجر الاسلام بالمملكة المغربية شكلت مع شقيقاتها بالجناح الغربي للاسلام أحد شقي العالم الاسلامي الذي تميزت حضارته بطابع خاص في العمارة والفنون داخل نطاق الوحدة العربية الاسلامية التي تميزت بدورها عن سائر الفنون العالمية. وقد فرضت ظروف الحضارة التاريخية والموقع المتميز على بعد أميال من القارة الاوروبية دورا خاصا على المغرب الذي أصبح من أهم مراكز الاتصال بين العالم الشرقي وحضارته ونظمه وبين العالم الغربي وعقائده ونظمه، ذلك أن حضارة الاسلام عبرت عن طريق المغرب الأقصى الى أجزاء من العالم الأوروبي بعد اكتساح اسبانيا والنزول في أرض (غاليسيا) فرنسا نفسها. وعندما دارت بين المغاربة والفرنجة معارك حامية كانت من أبرز معالم التاريخ في العصر الوسيط، كان ذلك أيضا بمثابة نقط التقاء أخرى احتك فيها المغاربة بالعالم الأوروبي، وعن هذا الطريق أيضا وصلت الى أوروبا روائع الحضارة الاسلامية المغربية والنظم الشرقية العربية ودخل المغرب بذلك مضمار الحضارة العالمية.

سمات الحضارة المغربية وطابعها

الجانبان الروحي والمادي :

تأصلت الحضارة المغربية منذ كانت وإلى يومنا هذا من حياة الدولة العلوية الشريفة في المزاوجة بين الجانب المادي الذي تمثله مظاهر الحضارة العمرانية والمدنية وبين الجانب الروحي التي تستمد منه اتجاهاتها الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية[1] شأن أقدم الحضارات العالمية وهي حضارات الشرقين الأوسط والأقصى بمصر وفينيقيا وفارس ومن ورائها حضارة الصين، وذلك خلافا لمسيرة الحضارات الأوروبية التي يطغى عليها الجانب المادي منذ القدم الى يومنا هذا.

الطابع المشرقي :

ولما كان البربر أو العرب القدماء سكان المغرب الأصليين آسيويين أصلا، فقد يممت حضارتهم شطر أصلها المشرقي عندما غربت شموس الحضارات القرطاجية والرومانية والوندالية التي عفى عليها التناحر والتنازع والأطماع في ثروات البلاد، ومنذ الفتح الاسلامي الذي كان فتحا معنويا[2] قبل أي اعتبار آخر، وجد المغاربة أنفسهم لأول مرة أمام شعب من بني عمومتهم تجمعهم بهم أصول مشرقية وشيم ومبادىء عربية فامتزجوا بهم امتزاجا كليا أدى الى تشييد صرح المدنية المغربية على هدى من تراثين شرقيي الأصل طبعهما الاسلام بطابعه الانساني.

فمنذ صدر الاسلام حاك رجال الفكر والعمل المغاربة انتاجهم العقلي والمادي على غرار الانتاج الشرقي تدعيما للوحدة التاريخية نزعة وروحا، مظهرا وجوهرا، كما تطورت حضارة المغرب بشتى مجالاتها في اطار العروبة ونطاق الاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة مع بعض المميزات التي تقتضيها ظروف البيئة المحلية.

الطابع الاسلامي :

ويندهش الباحثون والمراقبون الغربيون كيف ظل المغرب أمة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة تمكنت من تشييد حضارة رائعة شرقية عربية اسلامية على الرغم من وقوعها

---

(1) لاتخلو خطبة سياسية أو قومية لجلالة الملك الحسن الثاني من تأكيد لازدواجية دعائم الحضارة المغربية واعتمادها على الجانبين الروحي والمادي باعتبار الجانب الروحي موجها للجانب المادي.

(2) الفتح المعنوي يتصف بالثبات والدوام نتيجة انصهار العناصر الوافدة والمستقبلة بوحدة الأصل واللغة والعقيدة والهدف المشترك خلافا لعمليات التوسع أو الغزو العسكري الاستعماري الذي يصير الى زوال كمصير جميع الغزاة الطامعين في المغرب قبل الاسلام وبعده.

أنظر الفروق الكبيرة لهذه المصطلحات بالفصل الأول من كتابنا «قضية الصحراء المغربية» نشر وزارة الأنباء الرباط 1975.

في قلب العالم الغربي[1]. وهكذا اعترف الأستاذ جوستاف لوبون بقوله : «ففي مراكش نرى من العادات والأزياء والمظاهر الشرقية ماينذر مثله في بلد آخر، ويجب على من يرغب في اجتلاء حياة العرب في عصر الخلفاء أن يزورها[2].

وقد كان المغرب أمينا ومخلصا ومقتدرا حقا في تأدية رسالة العروبة والاسلام الحضارية رغم وجوده في موقع جغرافي بالغ الحساسية في أقصى بقعة غربية من العالم الاسلامي وفي قلب العالم الغربي ممسكا بمفتاح البحر المتوسط بباب البوغاز، وواجهة لدول القارة السمراء المشرئبة الى بحر الحضارات.

لقد أبقى المغرب للعروبة والاسلام دولتهما الوحيدة في الموضع الذي ينتصف به المعمور[3] ونقل الى عالم الغرب المتخلف عن طريق اسبانيا سلما وحربا زبدة العبقرية العربية الاسلامية التي أنعشت أوربا وكانت أساس عصر النهضة كما أدى رسالته الحضارية أحسن أداء بحوض البحر المتوسط الذي كان يسمى بحر العرب[4]، فقد كانت قوة المغرب المادية والروحية مسيطرة على نصفه الغربي، ممتدة أحيانا الى شواطئه الشرقية طوال عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية بالعصر الوسيط رافعة أعلام العروبة ناشرة لواء الاسلام في الحرب والسلام تفرض لغة القرآن كلغة دولية للتجارة[5] والعلم وعقد الأوفاق والمصالحات، فقد كانت المراسي المغربية بسواحل المتوسط مصدر نشاط فياض اقتصادي وثقافي مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا[6] كما كانت مصدر النجدات العسكرية لحماية الاسلام بالأندلس.

الطابع الافريقي :

وقد تبلورت رسالة المغرب الافريقية في اشعاع كبير ديني وعمراني بلغ حدود النيجر جنوبا والنيل شرقا منذ أيام المرابطين، والسودان العربية على عهد الشرفاء[7]، وكان المغرب مصدر حيوية الامبراطورية الاسلامية بالغرب الاسلامي (المغرب العربي والأندلس) في عصر

---

(1) عبد العزيز بن عبد الله : «مظاهر الحضارة المغربية» ج 1 ص 43 وما بعدها.

(2) جوستاف لوبون : «حضارة العرب» ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثانية 1948، صفحات 322/310/305/304/302، وانظر جوليان : «تاريخ افريقيا الشمالية». ج 2 ص 10، وجورج مارسيه من ص 42 بكتابه La Berberie Musulmane.

(3) يمر خط جرينتش بكل من لندن والرباط عاصمة المملكة المغربية.

(4) بخضوع ثلاثة أخماس شاطئة من طنجة حتى دمشق للعرب.

(5) عبد العزيز بن عبد الله : نفس المصدر ص 43.

(6) عبد العزيز بن عبد الله : نفس المصدر والصفحات ابتداء من 44 وما بعدها.

(7) من المفيد الرجوع الى بحث «المغرب قلب افريقيا النابض» بالمرجع السابق الجزء الأول.

الموحدين وبطل الاسلام في السودان الغربي وما حوله أيام الاشراف السعديين[1] ولا زال مضطلعا برسالته الى اليوم لغة ودينا وحضارة في قلب افريقيا الغربية التي تعتبره المنفذ السمح الأصيل الذي تطل منه على حضارة العرب وحضارات البحر المتوسط. وليس أدل على ذلك من المنجزات التي تمت لصالح القارة الافريقية في دورة رئاسة جلالة الحسن الثاني لمنظمة الوحدة الافريقية ثم رفض المغرب لقيام دويلة شيوعية لادينية هدامة بالصحراء العربية المغربية التي تحررت لدفع التيار الافريقي واتصاله ما بين عمق القارة وشواطىء المتوسط[2] ثم دور المغرب الفريد في الكونغو ثم زائير لرفض قيام حركات انفصالية تهدد الكيان الافريقي.

---

(1) راجع بحثنا «دفاعا عن الاسلام والمغرب والمنصور» بمجلة دعوة الحق الرباط أبريل 1977.

(2) من أدق وأرق ما نشر مؤخرا، محمد العربي الخطابي : المغرب ومكانه من العالم الاسلامي، المناهل، الرباط يوليو 1980 ص 78 - 111 ص 79 لفظ المغرب ص 81 كلمة بربر ص 86 أصل سكان المغرب ص 88 ارتباط المغرب بأوربا شمالا وافريقيا جنوبا، ص 91 وما بعدها عصر النشوء الاسلامي العربي ثم عصر التكامل والوحدة.

طرز العمارة والفنون المغربية

العمارة والفنون في الطراز المغربي العربي القديم (طراز البربر)

يتمثل الطراز العربي القديم بالمغرب في كل ما أنتجه البربر أو عرب المغرب القدماء منذ أقدم العصور وعبر تاريخ احتكاك سكان البلاد الأصليين بحضارات الأمم الأخرى خلال التاريخ القديم.

عناصر ومقومات الفن العربي القديم بالمغرب :

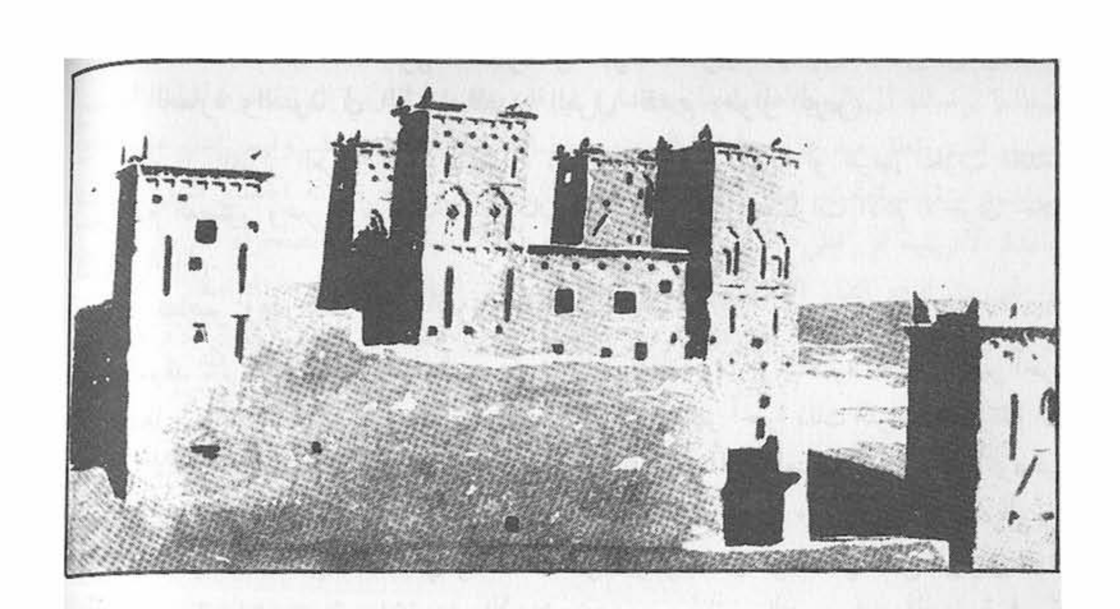
وقد تأثر الفن البربري منذ ألفي عام بمدنيات مختلفة ومزج عناصره المحلية بعناصر أخرى استمدها من القرطاجيين والرومان والبيزنطيين الى أن انصهر أخيرا ذلك التراث في بوتقة الفن العربي الاسلامي محتفظا بشخصيته الخاصة وطابعه المتميز وتأثره بالعناصر المشرقية وتأثيره فيها. وهكذا ظهرت في الفن البربري القديم تأثيرات مصرية فرعونية من حيث هندسة البناء البربري وقوالبها الفنية المتصلة بهندسة مباني واحات مصر الفرعونية، كما لوحظ في الفن البربري القديم تأثيرات ومقومات عربية سابقة على الاسلام تبدو من تجانس التصميمات المعمارية في كل من اليمن والمغرب (شكل 108) حيث تعرف شعوب شتى من البربر أصولها القحطانية اليمنية بشكل راجح، وهو تفسيرنا الشخصي لأصل الصوامع المربعة التخطيط بالمغرب العربي والأندلس المستمد من عمارة القصبات التاريخية بالجنوب المغربي ذات الصلة الوثيقة بعمارة اليمن العربية القديمة[1].

وتحتفظ آثار المغرب القديم بما شيده الرومان من أقواس النصر والأسواق والساحات بالحجارة الكبيرة المنجورة كما نرى في وليلة وبناسة وشالة وغيرها، كما استمر التأثير الروماني في بعض الفنون التطبيقية من أزياء وحلي. وعاش التأثير البيزنطي في الزخرفة الهندسية والفسيفساء التي كست الأرضيات والجدران ولاقت بالفن البربري رواجا استمرت آثاره الى العصر الاسلامي تمشيا مع المقومات التاريخية لفن الانسان البدائي أينما كان.

عصر ما قبل التاريخ :

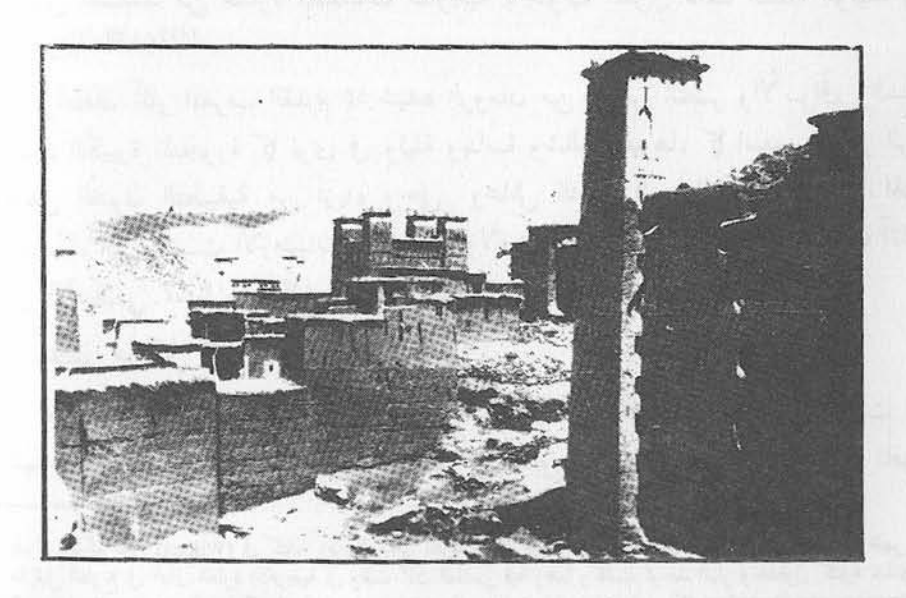
فمنذ ما قبل التاريخ، عرف البربر حياة خاصة في المغاور والكهوف لا زالت الحفائر والتنقيبات الأثرية تسعى للكشف عن كنهها في مغاور تمارة قرب الرباط ومغاور تافوغالت

(1) يقول ويلكوكس (Wilcox) في كتابه (فن الصخر بافريقيا) ان فن الصخور (The Rock Art of Africa) ظهر في فترة ما قبل التاريخ في شمال القارة الافريقية في وقت كان الطقس فيه رطباً وكانت توجد أنهار وجداول كثيرة تغذي شبكة البحيرات الممتدة عبر القارة كلها وانتشرت النباتات التي غذت الحيوانات التي كانت غذاء الصيادين... وعندما بدأ الطقس في التغيير وأخذ يشتد الجفاف وتدهورت الأرض ظهرت الصحراء التي نعرفها اليوم، وتعود إلى القرن الأول الميلادي رسوم بدائية فيها الحصان ثم الجمل، أما أحدث الرسوم فقد أبدعتها جماعات البدو الرحل ويؤكد بعض العلماء أن صناعة الخزف وردت إما من جنوب شبه جزيرة العرب أو شمال شرق مصر، انظر جريدة الشرق الأوسط الدولية 1984/4/13 ص 13.



شكل 108

عمارة الصحراء المغربية وريثة طراز البربر المعماري تعكس
الشبه الشديد لعمارة اليمن الجنوبية



شكل 109

هيئة ومواد العمارة البربرية

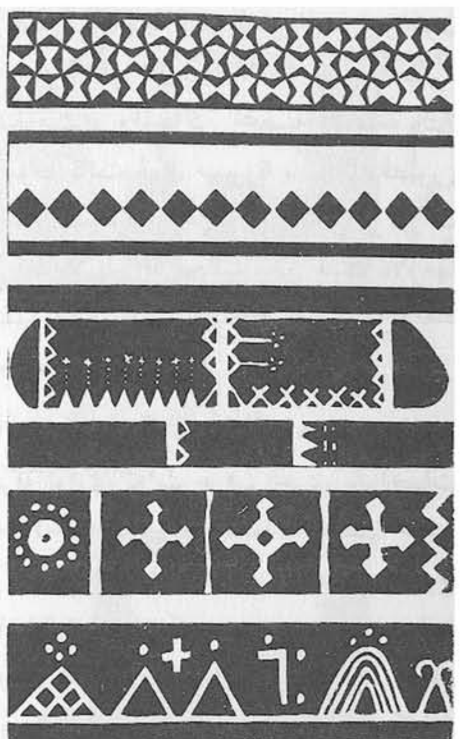
على بعد 55 كيلومترا تجاه الشمال الغربي لمدينة وجدة. وتدل وفرة الآثاث والأسلحة من عصر ما قبل التاريخ على أن المغاربة عرفوا حياة اجتماعية لها خصائصها ومميزاتها منذ أقدم العصور. ويكفي أن الأبحاث التي وضعت على ضوء التنقيبات الأثرية في مغارة تمارة قد تمخضت عن تكوين دراسة مفصلة لنظام تتابع طبقات الأرض سجلت ستة عشر مستوى.

العمارة في التاريخ القديم :

وفي العصر التاريخي القديم عرفت هندسة العمارة البربرية بناء الدار المحصنة والمخزن المحصن وقصور القواد. وسواء كانت تلك البنايات معزولة مثل مخازن الغلال المحصنة (أجدير، ايغرم)، ومثل القصيرات العائلية (القصيرة دار أوتيغرمت)، والمساكن المحصنة الواسعة التي شيدها سادة الأطلس (القصبات بصفة خاصة)، وسواء كانت قرى مسورة بأسوار (قصور) وتجمعات القصيرات التي وجدت أحيانا في الأودية شبه الصحراوية، فإنها جميعا تعكس مميزات عامة مشتركة من حيث تكاملها مع الوسط الطبيعي تكاملا يثير الاعجاب ومن حيث تلاؤمها مع المتطلبات المادية والاجتماعية للأجيال التي خلفتها ومن حيث انسجام النسب والأبعاد والاعتماد على الأصول والمواد المحلية في البناء والزخرفة (شكل 109 – 110).

ففي الأطلس عرفت الدار البربرية المحصنة التي تسمى (تيغرمت) وهي دار مربعة التخطيط من طابقين وذات مدخل واحد يتصل بغرفة توازي ثلاث عرف أخرى بالواجهات الداخلية، وفي أركان السور أربعة أبراج تستعمل لخزن المؤن، ويحيط بالساحة سقف جانبي من الخشب، ويجهز الطابق الثاني بفتحات للحراسة وتوجيه السهام. أما المخزن المحصن (ايغرم) فهو عبارة عن أجنحة منفصلة تفتح على ساحة داخلية تستعمل كمستودعات للمؤن وقلعة يلجأ إليها السكان عند الضرورة، ولهذا كانوا يختارون لها مواقع استراتيجية على قمم الجبال البعيدة عن المنال. وقصور القواد المتبقية في الأطلسين الكبير والأوسط يختارون لها كذلك مواقع استراتيجية على قمم الجبال أو ضفاف الأنهار حيث يسهل الدفاع عنها ويصعب على العدو مهاجمتها.

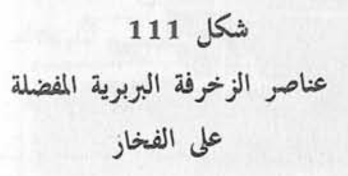
ويحتوي القصر على سكن القائد ودور للخدم ومستودعات للتموين واصطبلات وساحات وحدائق واسعة، وكان يحاط ذلك كله بسور تعلوه الحصون والقلاع. وقد عرفت بعض مستودعات البربر باسم (اجدير) وهي عبارة عن دار مربعة ذات مدخل واحد يؤدي الى ساحة متوسطة تفتح عليها أربع أو خمس طبقات من الغرف الصغيرة. كما توجد اجديرات أوسع هي أشبه بالحصون المستطيلة تشتمل على ثلاث أو أربع طبقات من الغرف لخزن المؤن، وكان بأطراف البناء أبراج كما يحتوي على غرف للحراسة ودار للندوة وصهريج لحفظ المياه. وقد رفعوا سقوف المباني على أعمدة من جذوع الأشجار وزخرفوا أبواب دورهم بالرسوم



شكل 110

عناصر الزخرفة المعمارية على
الملاط كما يفضلها البربر





شكل 111

عناصر الزخرفة البربرية المفضلة
على الفخار

البدائية وزودوها بمطارق حديدية متنوعة الأشكال[1].

البتن المغربي القديم :

وكان البربر يبنون بالتابية حسب تقاليدهم القديمة[2]، وكانت التابية البربرية خالية من الجير حتى تاريخ اتصالهم بالأندلس[3] وهي عبارة عن طين يصب في قوالب من الخشب على هيئة الجدران المطلوب اقامتها وكانوا يملأون الفراغات الناشئة من نزع الألواح بطين تغطيه الرسوم والزخاريف الهندسية[4] أحيانا[5].

الفنون والصناعات وعناصرها الزخرفية :

والفن البربري فن بدائي جمع مميزاته الموروثة منذ ما قبل التاريخ حيث عاش مع التجمعات البشرية الأولى معبرا عن حياة القبيلة وثقافتها وفكرها[6] وهو فن الشعب الذي لعب الرجل دروا بارزا في فنونه المعمارية بينما كانت السيادة والقيادة في فنونه التطبيقية للمرأة المغربية[7] التي تركت بصماتها على جميع الفنون الزخرفية من فخار ونسيج وسجاد وحلي وغيرها. ويلاحظ في أسلوب تزيينهم للمنسوجات والفخار والخشب وغيرها نجاح المناطق المتوازية كقاعدة عامة وأن التركيب يحدث من وجود أشرطة متراصة متلاصقة[8]، وقد عرف فنهم استخدام الأشكال الهندسية المتقاطعة بسيطة كانت أو مضلعة من خمسة أو تسعة عناصر كما في الحلي المسماة (خميسة)[9] التي عرفها الفن الشعبي في مصر إلى يومنا هذا[10].

وقد عرف الفن البربري الزخارف الهندسية دون الحيوانية أو النباتيه فليس في فنون البربر أثر للأشكال الحيوانية أو النباتية ولو المحورة. فعلى المباني والصوف والسجاد والمنسوجات

---

(1) عبد العزيز بنعبد الله : نفس المصدر ج 2، ص 45 – 46 والأشكال 3 و6. وانظر
P. Ricard : «Pour comprendre l'Art Musulman», P. 60

(2) H. Terrasse et J. Hainaut : les Arts Décoratifs au Maroc, Paris 1925, P. 17

(3) المصدر السابق ص 22.

(4) P. Ricard نفس المصدر ص 63 وشكل 114 ص 91.

(5) وقد شرحت الطريقة عمليا أمام السيد بريجنيف رئيس الاتحاد السوفيتي عندما زار منطقة الحفائر التي كنت أباشرها في شالة أوائل الستينات وصحبته مولاي أحمد العلوي وزير السياحة والفنون الجميلة والآثار.

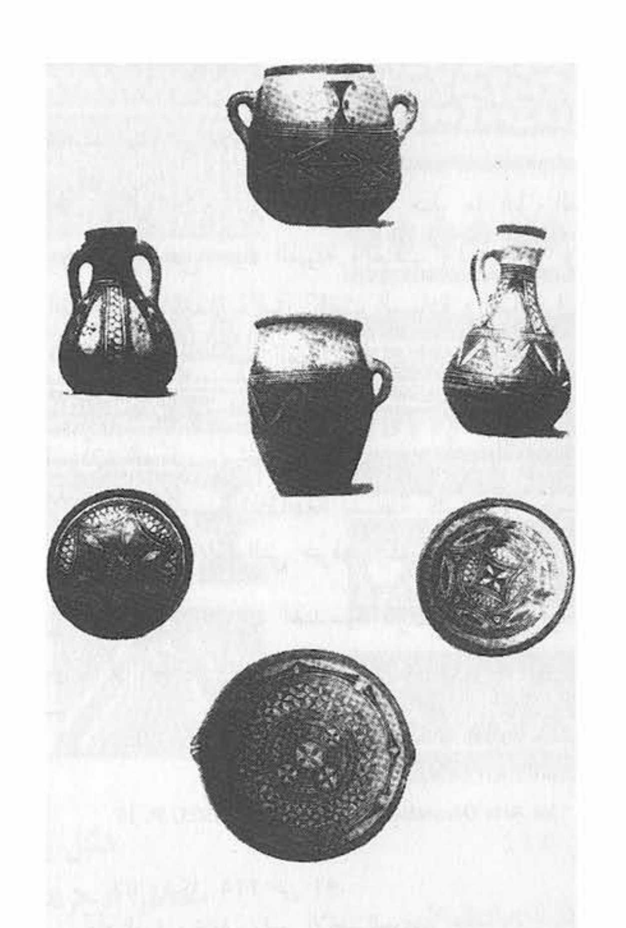
(6) تيراس وزميله : نفس المصدر، راجع الخاتمة وخاصة ص 105.

(7) P. Ricard نفس المصدر ص 10 – 11 للوقوف على شخصية وأصول الفن البربري.

(8) P. Ricard نفس المصدر ص 72.

(9) نفس المصدر ص 77.

(10) لا توجد أية علاقة بين الرسوم الهندسية البربرية المتقاطعة وشكل الصليب كما يدعى ريكار في كتابه المذكور Pour comprendre... ص 76 – 77 فلم تترك المسيحية آثارا تذكر بالفن أو الفكر البربري، بل ان البربر قد تميزوا بذلك بين جميع الشعوب التي دخلت الاسلام.



شكل 112
نماذج من الفخار المغربي في الطراز البربري



شكل 113

عناصر البربر الزخرفية على السجاد حيث تظهر المعينات المجاورة بأساليب مختلفة

والخشب زخارف قائمة كلها على الخطوط الهندسية (شكل 111 - 113) نلحظ من بينها موضوعات بسيطة مثل شبكة المعينات المتجاورة[1] (Le Réseau des Lozanges) وهي أكثر موضوعاتهم انتشارا. وقد ظل فنهم وفيا للخطوط المستقيمة حتى بعد اتصالهم بالأندلس الذي يميل إلى استخدام الخطوط المنحنية[2] وليس في قيام فنون البربر على الأصول الهندسية ما يدعو إلى العجب فجميع الحضارات البدائية اعتمدت أولا على العناصر الهندسية كما كان شأن الفن الاسلامي نفسه[3].

وكانت شبكة المعنيات وما زالت ذات معنى خاص في المعتقدات البربرية التي ترمز عندهم إلى عدد كبير من العيون اليقظة والحذرة التي يسمونها عيون الحجل[4] Yeux de Perdrix وتفسر العين الحسود عند البربر كثيرا من المركبات الزخرفية في العنصر الواحد فتجعل منه عادة شكل يد من خمسة أو أربعة فروع لدفع شر العين، ويمكن القول بالاجمال بأن معظم العناصر الزخرفية البربرية تعتبر رموزا لرد خطر الحسد وأن اعتقادهم هذا يمثل الفكرة الأساسية التي تلعب دورا كبيرا في الفن البربري[5].

---

(1) دكتور عثمان عثمان : الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى للوقوف على أصل شبكة المعينات وتطورها واختلاف الآراء حولها.

(2) تيراس وزميله : الفنون الزخرفية بالمغرب ص 11 - 12 وراجع أصول الزخرفة البربرية ص 12 - 18، الزخرفة الهندسية ص 18 - 24، الفخار ص 24 - 28، السجاد ص 28 - 31 والمنسوجات ص 31 - 37.

(3) راجع هذه الفكرة عند الدكتور أحمد فكري في المسجد الجامع بالقيروان حول زخرفة المحراب وكذلك في كتابه المدخل.

(4) P. Ricard نفس المصدر ص 76.

(5) دكتور عثمان عثمان : من حضارة المغرب، حيوية فنون شالة، مقال بكتاب متنوعات محمد الفاسي الذي أصدرته جامعة محمد الخامس بالرباط 1967 ابتداء من صفحة 51 وعلى الخصوص ص 55 - 57.

الفصل السادس
العمارة الاسلامية في الطراز المغربي الاسلامي المبكر

أبحاث هذا الفصل :

تمهيد تاريخي :

- الوحدة الطبيعية للشمال الافريقي
- الفتح الاسلامي للمغرب
- فتح الأندلس
- المغرب في عصر الولاة
- المغرب العربي والأندلس في القرنين الثاني والثالث
- الدولة الأموية الغربية
- بنو واسول بسجلماسة
- الرستميون بتاهرت
- الأشراف الأدارسة بالمغربين الأقصى والأوسط
- العصر الزناتي
- الأغالبة بافريقية
- القصد من التمهيد التاريخي

العمارة الاسلامية :

- أصالة الطراز المغربي الاسلامي المبكر ومقوماته
- تأسيس فاس معلمة الحضارة المعمارية والفنية
- جامع القرويين
- جامع الأندلسيين
- عمارة أصيلة والقصر الصغير وسبتة ومدن الشمال
- مميزات عمارة الادارسة
- الصوامع الزناتية بفاس وشالة

العمارة الاسلامية في الطراز المغربي الاسلامي المبكر

تمهيد تاريخي :

(يعتبر الموقع الجغرافي والوضع الطبيعي من العوامل الكبرى التي تطبع حياة الجماعات البشرية وتتحكم في تواريخ المدن والقرى التي تقيم بها... ونوعية الأحداث ومدى ازدهار الثقافات والحضارات)[1] وما تخلفه وراءها من سمات ومميزات. وانه حسبما مر بنا في المقدمة الجغرافية بالاضافة الى ما نوجزه الآن عن الوحدة الطبيعية لدول الشمال الافريقي ومن بينها المغرب الأقصى، يتضح لنا أن أية دراسة موضوعية واعية هادفة تريد أن تتناول المغرب الأقصى لابد لها من دراسته في نطاق الوحدة الأزلية لدول الشمال الافريقي الى جانب المحور الرأسي الذي يربط أوروبا بقلب الصحراء الافريقية عبر أراضي المغرب الأقصى.

ان دراسة تاريخ الفن والعمارة لأمة حية كالأمة المغربية صنعت تاريخا طويلا شأنها في ذلك شأن بقية الدراسات الاجتماعية والاقتصادية التي تبنى على تبادل التأثيرات والمؤثرات مع الوسط والبيئة القريبة والبعيدة. ان فكرة الاتصال والربط وتبادل الخبرات والثقافات كانت من الدعائم الكبرى التي ركز الاستعمار الأوروبي الأخير على هدمها لعزل كل دولة من دول المنطقة ونعتها بالتخلف الذي هو نتاج تلك الانعزالية.

الوحدة الطبيعية للشمال الافريقي (المغرب العربي) :

انه كما قسمت الأحداث والظروف ساحة الوطن العربي بشمال افريقيا رأسيا إلى أقسام إدارية أو سياسية تمازجت شعوبها رغم التقلبات الداخلية أو الخارجية، فإنه بالامكان كذلك تقسيمه أفقيا إلى أقسام طبيعية متشابهة تقوم دليلا قويا على وحدة تلك الشعوب وتبادل الخبرات والتأثيرات وتمازج الثقافات والحضارات فيما بينها.

فعندما نبدأ من الشمال نجد أن الأقاليم الساحلية تبدأ من الاسكندرية إلى طنجة على بحر الزقاق ثم من طنجة إلى السوس الأقصى على ساحل المحيط. وفي نفس الوقت تبدأ المناطق الصحراوية من مصر شرقا إلى الصحراء الجنوبية للمغرب الأقصى ناحية الغرب.

(1) الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية، مقال بعنوان (أصيلة عبر التاريخ) مجلة المناهل الرباط عدد 16 ديسمبر 1979.

ثم يلي سلاسل الجبال الممتدة بين الاقليمين موازية للبحر، ذلك البحر الذي يعتبر عامل ربط بين مناطق القسم الشمالي بتوحيد مناخه وجغرافيته المتجانسة. وخلف البحر يمتد الطريق التاريخي البري بين السويس وفاس مارا ببرقة وطرابلس والقيروان وسطيف وتاهرت ثم فاس.

وقد شاء المصير المشترك أن يكون الطريق الصحراوي كذلك من عوامل الربط بين نفس تلك الأقاليم عرضا من واحات مصر شرقا إلى برقة وفزان وواحة زويلة ثم وارجلان وسجلماسة أو تافيلالت بالمغرب الأقصى وسبب قصر هذه الطريق ووفرة موارد المياه خلاله ظل عامرا طوال العصور الاسلامية، وقد تنبه ابن خلدون إلى أن بلاد البربر تمتد من السوس الأقصى إلى سجلماسة وفجيج ثم جبل راشد وورجلان إلى فزان وبرقة الأمر الذي جعل الصحراء مثلها مثل الأقاليم الساحلية من عوامل الربط القوية بين أقاليم المغرب[1] المتلاحمة بما بينها من تشابه وتكامل واتصال، ولعل ذلك يبرز القيمة الاستراتيجية للصحراء الغربية التي تمسكت بها الجزائر خلال مفاوضاتها من أجل تقرير المصير وما بذله المغرب الأقصى من أجل عدم انفصاله عن صحرائه بالجنوب.

وما دام طريق الاتصال والتشابه والتكامل بين مختلف أقاليم الوطن العربي بشمال افريقيا بارزا على هذا النحو، فليس من الصواب أن تدرس آثار وفنون بعض التجمعات البشرية منعزلة عن البعض الآخر، ولعل هذا الهدف هو ما قصدت إليه من تقديم ذلك التمهيد التاريخي.

انه لا يكفينا مطلقا الوقوف على مسيرة التاريخ التي خلفت آثارا معينة بالمغرب الأقصى دون الربط بين أشقائه على امتداد الشمال الافريقي ودون مراعاة المحور الرأسي الذي يربط أوروبا عن طريق اسبانيا بقلب افريقيا عن طريق المغرب.

ومعنى هذا أننا أصبحنا ملزمين قبل دراسة الطراز المغربي الاسلامي المبكر بالنظر في الظروف والأحوال والعلاقات السياسية التاريخية بين المغرب وقلب العالم العربي بمصر أفقيا وبين اسبانيا وما يلي المغرب جنوبا في اتجاه رأسي.

الفتح الاسلامي للمغرب :

بدأت منذ الولاية الأولى (50 – 55) لعقبة بن نافع[2] المرابط العابد مرحلة الفتح الثابت المنظم بتأسيس القيروان كقاعدة ثابتة لمواصلة الفتح الاسلامي بعد أن اتسمت المرحلة الأولى بمحاولات الكشف والاستطلاع، ويختلف المؤرخون المحدثون في تفاصيل حملته الأخيرة بولايته الثانية (62 – 64) ويرى ليفي بروفنسال انها غطت السوس الأقصى. وتبعا

(1) دكتور سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ابتداء من ص 14.

(2) عثمان عثمان : كتابنا سيرة أبطال الاسلام بالمغرب من الأصول والمصادر، طبعة الدارالبيضاء.

لابن عبد الحكم، وصل عقبة الى المغرب الأقصى عن طريق طنجة حيث التقى هناك بيليان الغمارى المعروف بالكونت جوليان ثم سار من طنجة إلى وليلة ثم تادلا فالسوس الأقصى حتى وصل إلى المحيط وأقحم قوائم فرسه فيه حتى بلغ نحره وقال : اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا لجزت[1].

وعندما تولى موسى بن نصير[2] قيادة الميدان الافريقي عام 85 هـ غادر مصر إلى القيروان التي اهتم بمطقتها لأهميتها بالنسبة لاقليمي برقة وطرابلس شرقا واقليمي المغرب الأوسط والأقصى غربا حيث لم يقع في اغراء الامتداد الجغرافي قبل تثبيت قاعدة القيروان.

وإذا كان حسان قد مهد افريقية والمغرب الأوسط، فإن المغرب الأقصى لم يكن قد مهد أمام العرب وإن استكمال الفتح الاسلامي لم يتم نهائيا إلا بفتح المغرب الأقصى فتحا حقيقيا واكمال رسالة الفتح الاسلامي[3] بشمال افريقيا بنشر الدين وتعليم اللغة والقضاء على أية مقاومة تذكر ابتداء من قيروان افريقية إلى المغرب الأقصى.

لقد أحدثت حملة موسى الكبرى رجة عظمى أفاقت على صداها القبائل وتنبهت إلى العصر الجديد وهرعت إلى الاسلام وشاركت جيوشه المنتصرة في الفتح والغنم وتضخمت جيوش الاسلام بالمغرب على نحو لا نظير له في تاريخ الفتوح الأخرى لانسجام مزاج العرب مع البربر مما اضطر موسى أن يحولهم إلى معارك جديدة فيما وراء بر العدوة بعد استكمال فتح المغرب الأقصى[4].

بدأ موسى تخطيطه للمشروع الكبير بالاهتمام بعمران تونس وتوسيع دار الصناعة بها وظهر اهتمام المشارقة بالمغرب من كتابة علمائهم لأهل افريقية (من رابط عنا يوما حججنا عنه حجة) ونهض الاسطول المصري متعاونا مع أسطول المغرب لغزو جزيرة سردانية واستولى موسى على صقلية وتابع أساطيل الروم في جزر ميورقة ومنورقة قرب اسبانيا، وحقق النجاح البحري بشمال افريقيا الاستقرار وتبلور الخبرات ونقله إلى ميدان جديد فسيح عظيم الروعة

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص 50.

(2) عن موسى بن نصير : راجع ابراهيم العدوي في كتاب موسى بن نصير من سلسلة أعلا م العرب، وتاريخ مسلمي اسبانيا ج 1 تأليف دوزي تعريب حسن حبشي ص 122 - 133 وتعليق ص 122، وانظر الاستقصه 1/ص 95 وما بعدها.

(3) وعن الفتح الاسلامي أنظر المغرب عبر التاريخ ج 1 للدكتور إبراهيم حركات ص 87 وما بعدها.

(4) تفصيل الأحداث واختلاف الروايات وتحليل المحدثين عند : تاريخ افريقية والمغرب ص 68 للرقيق القيرواني، وراجع ابن عبد الحكم وابن عذارى وابن خلدون ثم تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول ص 20 وما بعدها وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص 46 والمغرب الاسلامي وضع لقبال موسى ص 101 وسيد عبد العزيز سالم بكتابه المغرب الكبير ص 251 وكتاب موسى ابن نصير من تأليف الدكتور ابراهيم العدوي.

وهو شبه الجزيرة الايبيرية[1] وأصبحت طنجة تتأهب لنقل المسلمين إلى أوربا نفسها وبدأت بلاد المغرب تدخل ميدان الحضارة العالمية ونجح موسى في استكمال فتح المغرب الأقصى وتشكيل الجناح الغربي للاسلام من غربي مصر إلى البحر المحيط فأصبح للمغرب قوة ورسالة حضارية في البحر المتوسط الغربي وصبح ذلك الحدث فاصلا كبيرا في تاريخ المغرب عجزت عنه جميع الحضارات التي عرفها قديما من فينيقية ورومانية وغيرها طوال عدة قرون.

فتح الأندلس :

مر بنا آنفا أنه لا يمكن مطلقا تفسير مجريات الأمور بالمغرب منعزلا عن محوره الرأسي الذي يربط أوروبا شمالا بالصحراء الافريقية جنوبا مما يجعلنا نتعرض لفتح الأندلس ودور طارق ابن زياد[2] ويليان الغماري[3] المعروف بالكونت جوليان وجهودهما كمغاربة في ذلك الفتح.

---

(1) عن فتح الاندلس كنتيجة لفتح المغرب : إبراهيم حركات في المغرب عبر التاريخ ج 1 ص 104، فجر الأندلس لحسين مؤنس، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص 22 للدكتور سيد سالم، وتاريخ مسلمي إسبانيا الذي وضعه دوزي وعربه دكتور حسن حبشي.

(2) اختلفوا في أصل طارق وممن يرى أنه كان من خيرة المزيج بين العرب والبربر : فتوح افريقيا والاندلس لابن عبد الحكم ص 17 بمقدمة الناشر عبد الله أنيس، وابن القوطية في تاريخ افتتاح الأندلس، ومن المحدثين موسى بن نصير للدكتور إبراهيم العدوي ص 41 وسعد زغلول بتاريخ المغرب العربي ص 213 ويقول لقبال موسى (كان طارق من طبقة المولدين الجدد فهو ليس بعربي ولا بفارسي وإنما مزيج اختلطت فيه العادات والمثل العربية مع الدم البربري، ثم يورد نسبه كاملا) أنظر المغرب الاسلامي ص 120. أما ابن عذارى فيؤكد نسبته إلى قبيلة نفزة البترية وولائه لموسى بن نصير وذكر نسبه مفصلا نقلا عن صالح بن صالح بالبيان المغرب 37/1 ويرى أحمد أمين في ظهور الاسلام ج 3 أنه بربري الأصل، وسيد سالم في تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص 71 (كان طارق بربريا) ثم أعطى صفاته الجسمية نقلا عن نص لعبد الملك ابن حبيب نشره محمود مكي بمجلة الدراسات الاسلامية بمدريد 1957 ص 221، وقال ابراهيم حركات في المغرب عبر التاريخ ج 1 ص 105 (أغلبية المؤرخين عدوه بربريا). ويؤكد محمد بن تاويت أنه بربري من نفزة ويوضح أهمية قبيلة نفزة فقد كانت كنزة أم إدريس الثاني من نفزة وأم أبي جعفر المنصور نفزية وكذلك أم عبد الرحمن الداخل ثم كانت زوجة يوسف بن تاشفين نفزية، أنظر مجلة البحث العلمي الرباط عدد 25 يونيو 1976 (سبتة الأسيرة) خاصة ص 111 وص 114.

(3) ذكر سيد سالم في تاريخ المسلمين وآثارهم ص 57 رواية المؤرخ الاسباني سافدرا ان يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة، وممن قال أنه قوطي مسيحي لقبال موسى بالمغرب الاسلامي ص 119 وحسين مؤنس بفجر الأندلس ص 52 (اختلفت المراجع اختلافا عظيما فبعضها يزعم أنه قوطي وبعضها يزعم أنه رومي وبعضها الأخير يزعم أنه بربري من غمارة... وقد حقق دوزي وكوديرا وسافدرا شخصية يليان فأثبت دوزي وجوده فعلا بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه كان شخصية أسطورية خلقها خيال العرب ولكن سافدرا ذهب إلى أنه فارسي الأصل)، أنظر كذلك ابن القوطية في تاريخ افتتاح الأندلس والبلاذرى بفتوح البلدان ص 323 والرقيق القيرواني في تاريخ افريقية. ويرى ابن عذارى أنه قوطي ويذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كان تابعا للذريق، أما ابن الأثير وابن خلدون فيعتقدان أنه كان روميا، ويرى إبراهيم العدوي أنه أمير رومي راجع كتابه موسى بن نصير سلسلة أعلام العرب 68 ص 42 وكذلك سعد زغلول في كتابه تاريخ المغرب العربي ويرى علماء المدرسة المغربية أنه كان بربريا وطنيا فقد (احتفظ البيزنطيون في موريطانيا الطنجية بسبتة التي حصنوها وأقاموا بها أسطولا لحراسة الشواطىء المؤدية إلى جبل طارق... حيث شخصية يليان الغماري الذي كان على ما يظهر حاكما وطنيا لسبتة تحت السلطة الاسمية للبيزنطيين) أنظر المغرب عبر التاريخ 85/1 – 86 للدكتور ابراهيم حركات. ومن أفضل وأعمق ما قرأت للمغاربة في أصل يليان واسمه وعمله وعلاقاته مع بيزنطة والقوط والبربر وقصة فلورندا ومناقشتها وإثبات سطحيتها، أنظر محمد بن تاويت، مجلة البحث العلمي الرباط يونيو 1976 ص 110 – 113 حيث يؤكد أن يليان مغربي صميم من مصمودة من قبيلة غمارة ص 111 بنفس البحث..

ولازالت كثيراً من المصادر تروي أخبار (الكونت جوليان) وأساطير عرضه السليب بقصر لذريق[1] الأمر الذي دفعه إلى الاتصال بطارق بن زياد وإغرائه لغزو الأندلس وتعريفه مواقع الضعف فيها.

وليس بخاف سذاجة ذلك السبب كدافع مقنع يكون وراء عملية عسكرية اعتبرها البعض مغامرة كبرى ومخاطرة غير مأمونة العواقب فيما وراء البوغاز. لقد نسي هؤلاء أنه كان لزاما على المسؤولين الدفع بعجلة الفتوحات شمالا بعد استقرار الاسلام بالمغرب الأقصى وتلاحم قواته عربا وبربرا وتضخم حاميات هائلة بطنجة من المؤمنين الذين لم يكن هناك سبيل إلى كبح جماحهم نحو التدفق للجهاد في سبيل الله ورفع لواء الاسلام.

فخلال عام 91 للهجرة انطلقت عمليات الاستكشاف الأولى تحت إمرة طريف ابن مالك أحد قواد البربر المسلمين على أربع سفن ليوليان بقصد اختبار الجزيرة بالسرايا ثم بدأت عام 92 هـ حملة كبرى تحت لواء أحد خبراء البربر بشؤون المغرب وطبيعة الأندلس، ذلك هو طارق بن زياد بطل الفتح الذي قاد جيشا جله من البربر مع قلة من العرب معظمهم قواد تحت إمرته. وصل طارق إلى طليطلة عام 93 هـ حيث لحق به في نفس السنة قائده موسى بن نصير الذي أكمل الفتح معه ورمم ثغراته إلى أن عادا سويا إلى دمشق سنة 95 هـ بعد إتمام فتح الأندلس وتأمين وضعية الاسلام بالمغرب الأقصى إلى ما شاء الله.

المغرب في عصر الولاة :

لقد كانت عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق ووصولهما إلى بلاط الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة 95 هـ بعد إتمام فتح الأندلس وتثبيت فتح المغرب ايذانا بانتهاء عصر القادة الفاتحين وبداية دخول المنطقة في ظل حكم الولاة[2] الذين يعينهم الخليفة الأموي بدمشق ثم الخليفة العباسي ببغداد (بعد سقوط الدولة الأموية 132 هـ) إلى تاريخ ظهور حركة استقلال الأطراف[3] عن جسم الدولة الاسلامية «العباسية» وتأسيس دول مستقلة (عن مركز الخلافة الشرقية) بالمغرب والأندلس.

---

(1) كثير مما يدور حول تلك القصة من آراء عربية أو نصرانية بفجر الأندلس لحسين مؤنس ص 59.

(2) أصبح المغرب كله ولاية واحدة والأندلس تابع له (وقد يكون أحيانا تابعا لدمشق) وكانت قاعدة المغرب القيروان ينزلها الوالي من قبل الخليفة الأموي ثم العباسي (بعد سقوط دمشق)، ويقوم الوالي من القيروان بتعيين العمال على النواحي، عن عصر الولاة بالمغرب راجع الاستقصا ج 1 ص 100 - 113.

(3) لا نتعرض هنا لتفاصيل وتعدد المذاهب والفرق التي وردت على المغرب العربي مع الفاتحين في ثوب المحاربين بعد ظهور المذهب الخارجي على أثر الخلاف الناتج عن قضية التحكيم بين الامام علي ومعاوية تلك المذاهب التي تطورت بعدة مواطن بالشمال الافريقي إلى حركات استقلالية ودول وإمارات.

نجح بادىء بذي بدء عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش في تأسيس إمارة حول قرطبة واحياء دولة الأمويين الغربية بالأندلس ابتداء من سنة 138 هـ ثم ظهر بنو مدرار بسجلماسة سنة 140 هـ والرستميون بتاهرت سنة 144 هـ فالأدارسة الأشراف بالمغرب الأقصى 172 هـ ومن بعدهم الأغالبة (استقلال داخلي) بافريقية سنة 184 هـ (أشكال 114 - 117).

المغرب العربي والأندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة :

يهمنا الآن النظر في الخريطة السياسية للمغرب العربي والأندلس أي الجناح الغربي للاسلام في القرنين الثاني والثالث للوقوف على مدى ونوعية العلاقات بين مراكز القوى المتآلفة أو المتنافرة وعلاقة ذلك كله بالمغرب الأقصى لنقف على حقيقة الهدف الذي نريد الوصول إليه من هذا التمهيد التاريخي، ذلك أن دراسة الآثار من عمارة وفن تقتضي تقييم العناصر المعمارية والفنية والبحث في الأصول التاريخية لتلك العناصر وتحليلها بقصد فهمها ومعرفة الدوافع والتأثيرات التي أوجدتها وتأثيرها هي نفسها على الفنون الأخرى في نطاق وضعيتها الشمولية ودون تفتيت حتى لا يضيع عنصر الوحدة الذي سار ضده عدد من المستشرقين.

إن عنصرا معماريا أو زخرفيا كيفما كان لا ينشأ عادة من فراغ وإنما تبدو فكرته بسيطة أول الأمر ثم يتطور إما داخليا أو جهويا أو عالميا، وقد يبتكر الفنان من العنصر المعروف أشكالا أخرى أكثر قيمة تفرض نفسها في مجال الدوافع والمؤثرات وحتى نرد للعرب والمسلمين حقهم في الابداع ونبرز ما قدموه للعالم من عبقريات لزم التعرف على الأصول التاريخية والعناصر المعمارية والفنية التي طرحوها أمام ملكات النقد.

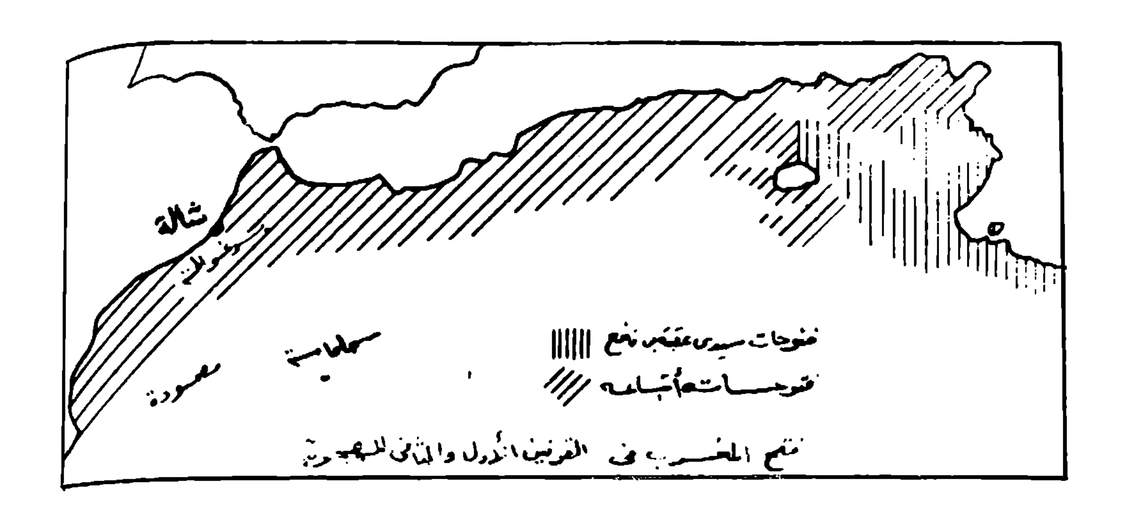
وإذا كان الأمر يتعلق بتحليل تاريخي رأسي، فإن الأمر يقتضي كذلك التعرف على المسيرة الأفقية (للعناصر المعمارية والفنية) جغرافيا، ولهذا وذاك لزم النظر في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية على مستوى خريطة العالم العربي أفقيا في نفس الوقت الذي نتناول فيه تلك الدراسة بصفة رأسية جهويا بكل قطر من الأقطار.

وبدون الولوج إلى منزلق التفاصيل الدقيقة لظهور المذاهب الدينية التي تحولت إلى إمارات أو مراكز قوى سياسية ودول مستقلة[1] تكتفي بالنظر إلى قمة التطور في المجال السياسي بالجناح الغربي للاسلام في القرنين الثاني والثالث، وقد مر بنا أن حركات الاستقلال عن جسم الخلافة المركزي بالمشرق تمخضت في الغرب الاسلامي عن ظهور عدة دول مستقلة.

الدولة الأموية الغربية :

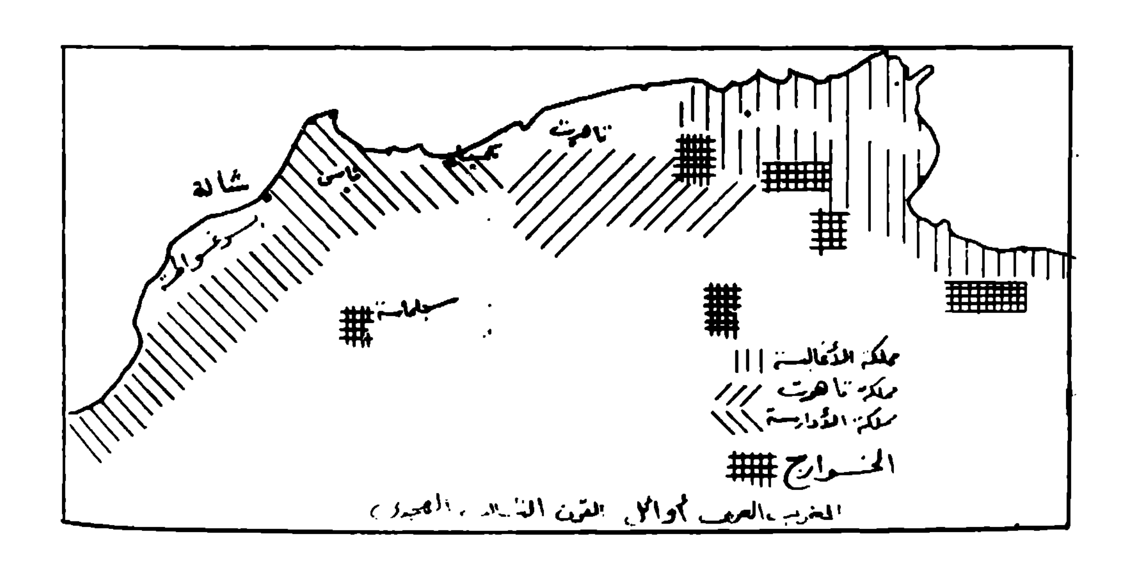
قامت الدولة الأموية الغربية بقرطبة ابتداء من الأحداث التي استهلها عبد الرحمن الداخل سنة 138 هـ على نهر الوادي الكبير، وكان ذلك احياء لتراث الدولة الأموية الأولى بدمشق وعلى صلة وثيقة بمؤثرات التراث الاسلامي المبكر عمارة وفنا باستخدام العمال واستقدام الأعوان والفنيين ومختلف المنتجات التي درج عليها الأمويون وشبوا على معرفتها بموطنهم الأول،

(1) راجع الباب الرابع (أحوال المغرب على أواخر أيام الأمويين وقيام العباسيين) بتاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول ص 281 - 358.



شكل 114

رأي البعض في مدى فتوحات سيدي عقبة بن نافع واتباعه بالمغرب الاسلامي الافريقي إبان القرنين الأول والثاني للهجرة



شكل 115

المغرب العربي أوائل القرن الثالث الهجري

غير أن منجزات الأمويين الغربيين في تلك الظروف[1] لاتنفصل كلية عن التأثيرات المحلية السابقة على الاسلام بالأندلس وبهذا يكون الطراز الأندلسي الذي تمثله على الخصوص قرطبة (أشكال 118 – 122) ومدينة الزهراء (أشكال 123 – 126) (ابتداء من فتح الاسلام للأندلس إلى تاريخ واقعة الزلاقة وضم المرابطين للأندلس وبداية ظهور الطراز المغربي الأندلسي بالعدوتين) نتاجا متكاملا لمقومات شرقية اسلامية وإسبانية قديمة. ان ملامح ذلك الطراز لا تظل حبيسة البقعة المحدودة لأن الوضع السياسي اقتضى تفاعلا مع الشرق سرا وجهرا كما اقتضى تفاعلا أكبر مع دول المغرب العربي في حلبة الصراع على البقاء ومحاولات تأمين الذات بالهجمات المضادة أو المواجهة المكشوفة للتوسع والاستقلال بزعامة الجناح الغربي لمملكة الاسلام بمعناه الواسع.

بنو واسول بسجلماسة :

وفي سجلماسة التي تعرف حاليا باسم تافللت شمال وادي درعة على طرف الصحراء جنوبا حيث تليها جنوبا المفازة الكبرى المؤدية إلى غانا من بلاد السودان ابتنى بنو واسول سنة 140 هـ عاصمتهم الجديدة وكانوا من الصفرية من قبيلة مكناسة، وكانت من أهم قبائل البربر التي سيطرت على الطريق القديم الذي سلكته الهجرات والقوات الفاتحة ويربط مدينة فاس ومدينة مكناسة (التي تحمل اسمها حاليا) وبين اقليم تافللت أي سجلماسة جنوبا[2]. لقد كانت صفرية سجلماسة على علاقة وثيقة بإباضية تاهرت... وبعد أن بدأت سجلماسة بسيطة كقرية صحراوية تطورت واتخذت شكل العاصمة وبنيت بها القصور والدور وخزانات المياه وبذلك تم بناؤها وتشييدها كما يقول ابن خلدون[3] وبني لها سور من الحجارة في أسفله والطوب في أعلاه، ثم تطورت على عهد المرابطين الذين وجهوا جهودهم نحو بلاد السودان التي كانت سجلماسة بابها.

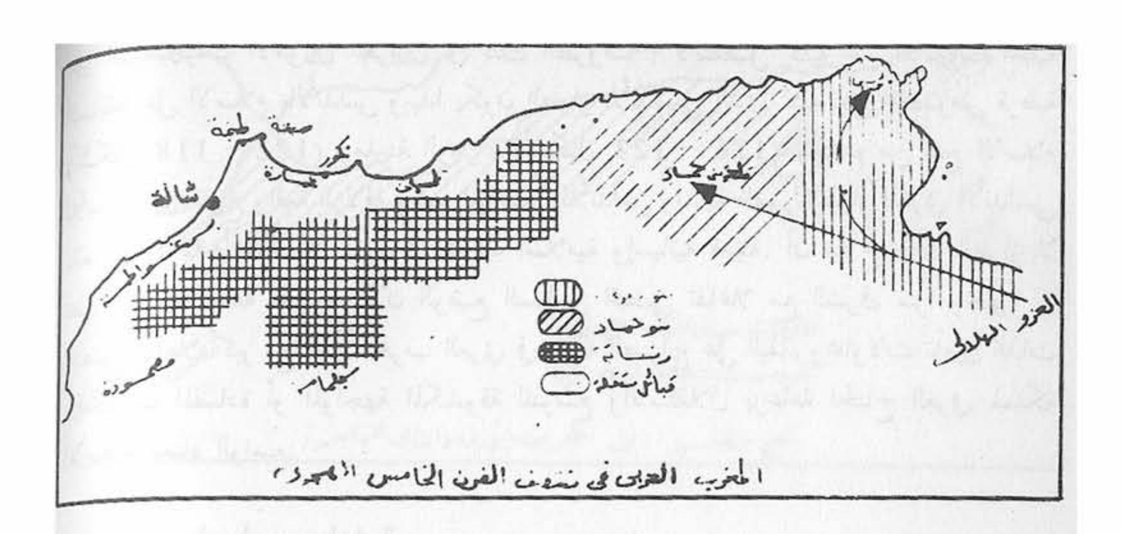
لكن حركة العمران التي عرفتها سجلماسة أيام اليسع من بناء القصور والدور والمصانع (خزانات المياه) والتي جعلت من المدينة عاصمة سنة 208 هـ كان قد تم بمشاركة الأندلسيين

---

(1) عن الدولة الأموية الغربية أنظر تاريخ اسبانيا الاسلامية نشر وتحقيق ليفي بروفنسال لكتاب أعمال الأعلام تأليف لسان الدين بن الخطيب ص 7 – 58، والاستقصا 118/1 وما بعدها.

(2) تاريخ المغرب العربي ص 398 وما يليها والمراجع التي أشار اليها وانظر القسم الثالث من أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب الذي نشره الكتاني باسم تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ص 137 – 148.

(3) نفس المصدر ص 402.



شكل 116

المغرب العربي في منتصف القرن الخامس الهجري



شكل 117

المغرب العربي (بما فيه مصر وليبيا) الشكل الطبيعي
والتقسيم السياسي المعاصر

من أهل قرطبة الذين طردهم الحكم ابن هشام سنة 202 هـ من الحي الجنوبي الكبير من قرطبة المعروف بالربض[1] (أي الضاحية) بعد الفتنة المشهورة بوقعة الربض، وهكذا نرى أن الحركات السياسية تتبعها تأثيرات متبادلة في فنون العمارة والصناعات التطبيقية بين مناطق الاسلام المختلفة وها هي علاقات سجلماسة مع كل من تاهرت والمغرب والأندلس ونوعية بعض تأثيرات الحضارة عمارة وزخرفة.

الرستميون بتاهرت :

حملت قبيلة لماية المذهب الاباضي من طرابلس وجبل نفوسة جنوب افريقية إلى جنوب موقع تاهرت[2] حيث اختار عبد الرحمن بن رستم مكان تأسيس عاصمته الجديدة وقد وصف اليعقوبي تاهرت في القرن الثالث الهجري (والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار تسمى عراق المغرب...) كما وصفها المقدسي في أحسن التقاسيم خلال القرن الرابع (تاهرت اسم القصبة وهي بلخ المغرب... بها جامعان... بنيا بالحجارة والجير..) وذكرها ابن خرداذبة في المسالك والممالك[3] وقال ابن الفقيه الهمذاني في كتاب البلدان (وفي يدي الرستمي الاباضي وهو أفلح بن عبد الوهاب ابن رستم... يسلم عليه بالخلافة...)[4].

وفي القرن الرابع وصفها ابن حوقل بقوله (وتاهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة أزلية والأخرى محدثة، والقديمة ذات سور وجامع، وفي المحدثة أيضا جامع.. وبساتين وحمامات وخزانات).

لقد وصف البكري تلك العاصمة في القرن الخامس ثم وصفها الادريسي في نزهة المشتاق وصاحب الاستبصار في القرن السادس وياقوت في معجم البلدان كما أرخ لها مؤرخ معاصر لدولة الرستميين وهو ابن الصغير المالكي في كتابه سيرة الأئمة الرستميين[5].

---

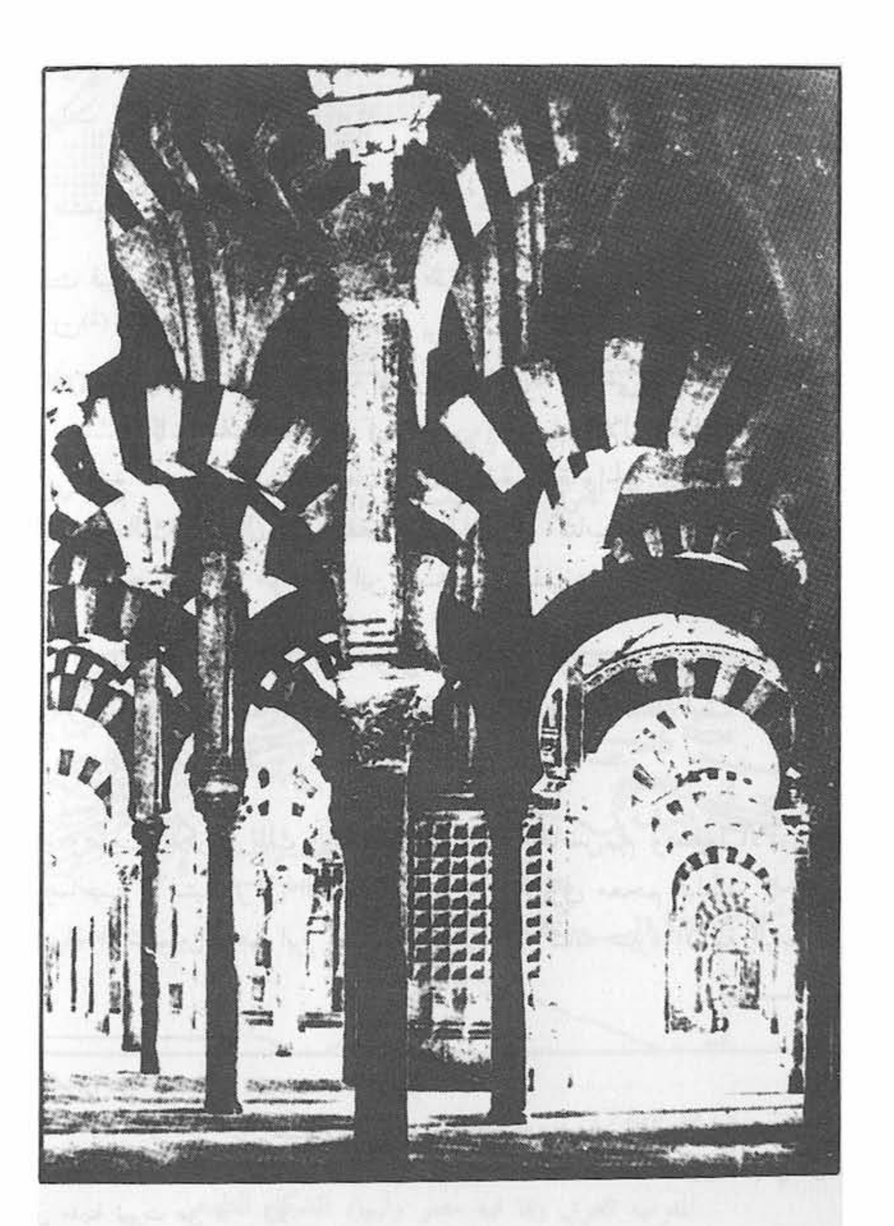
(1) نفس المصدر ص 403.

(2) يسميها المشارقة تاهرت والمغاربة تيهرت وهي أقرب إلى الفظة البربرية وعن انتقال الامامة من طرابلس إلى (تيهرت) راجع القسم الثاني من الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية تأليف عبد الله الباروني النفوسي ص 2 – 5، وعن تأسيس مدينة تيهرت ص 6 – 13.

(3) وصف المغرب واورفي في القرن الثالث، منتخبات نشرها صدوق محمد بالجزائر 1949 ص 6.

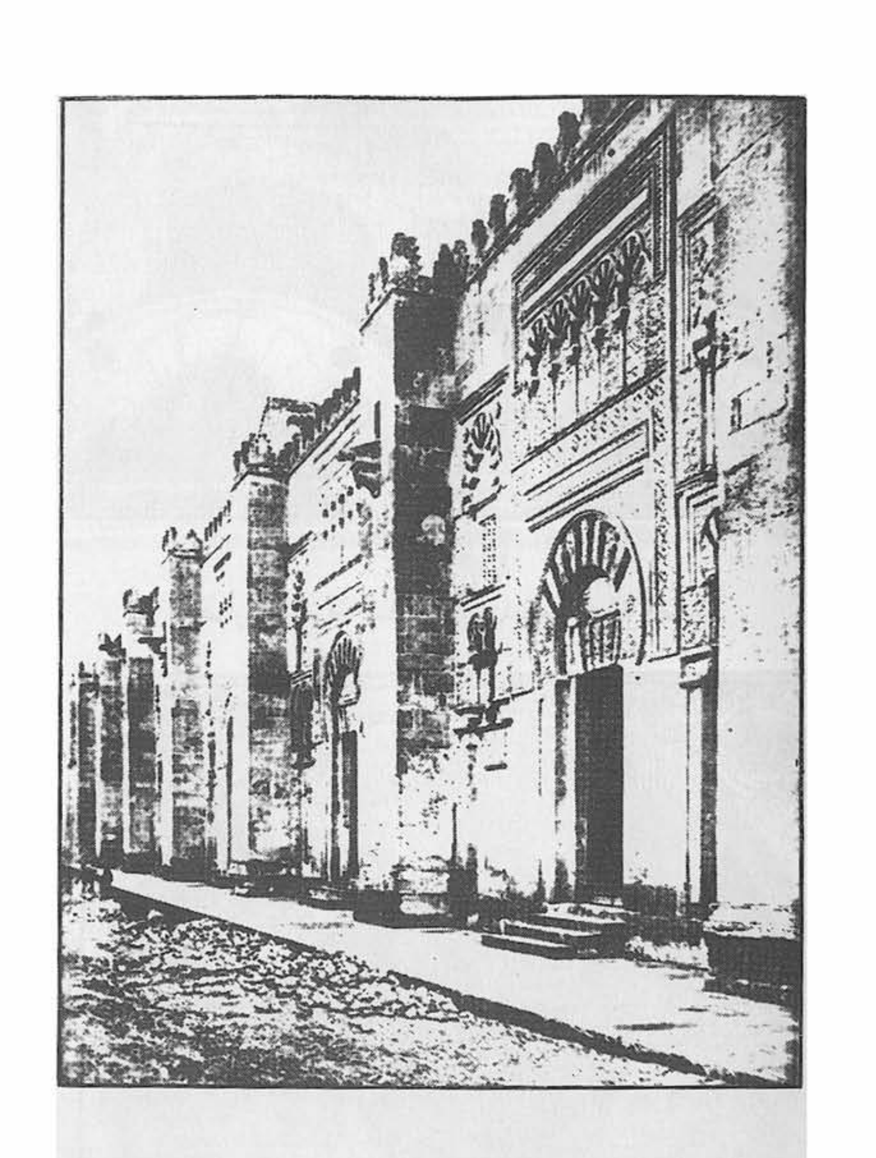
(4) نفس المصدر ص 30.

(5) طبع باريس ص 42، وعن وصف تاهرت وأقوال المؤرخين فيها : القسم الثاني من الأزهار الرياضية ص 44/14.



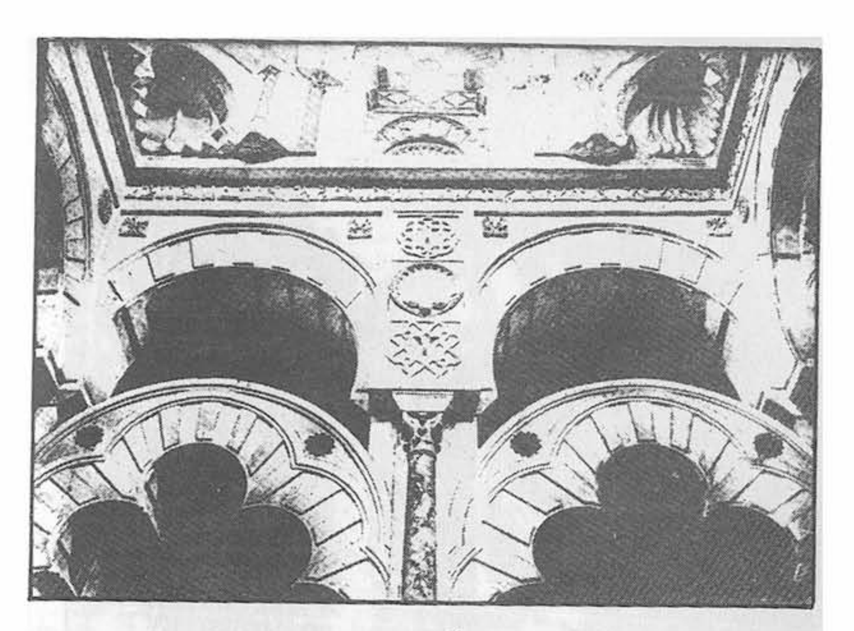
شكل 118

مسجد قرطبة الجامع وعمارته الداخلية من عصر الأمويين الغربيين

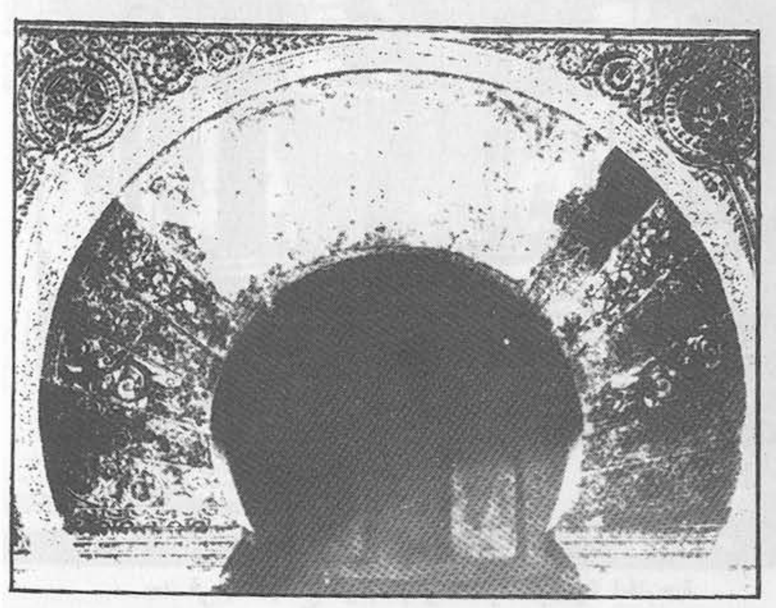


شكل 119

مسجد قرطبة الجامع حيث تبدو عمارة الواجهة الخارجية لاضافة المنصور



شكل 120
عمارة وزخرفة اضافة الحكم لمسجد قرطبة الجامع

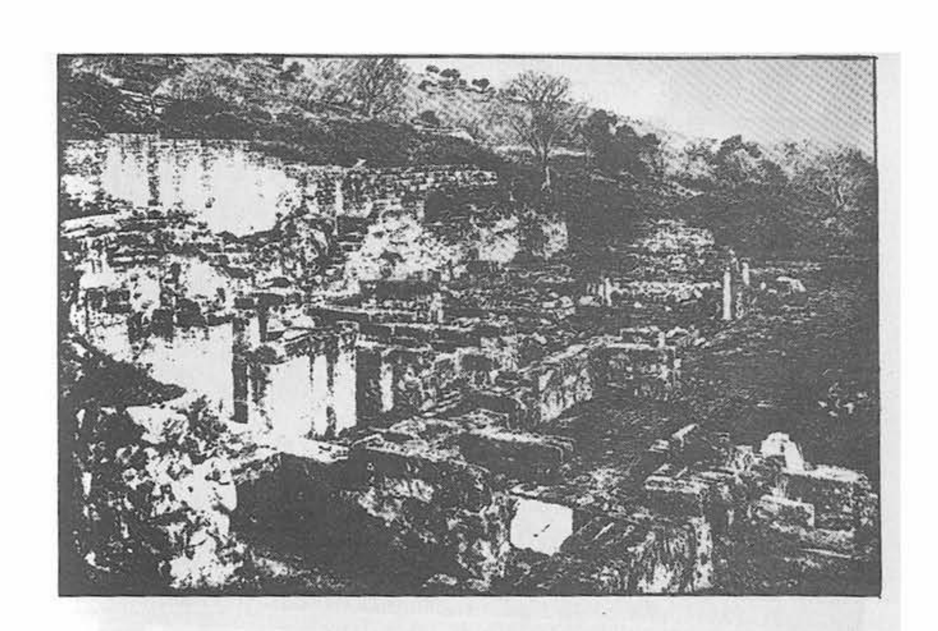


شكل 121
تفاصيل زخارف محراب المسجد الجامع بقرطبة أحد علامات الطراز الأندلسي البارزة



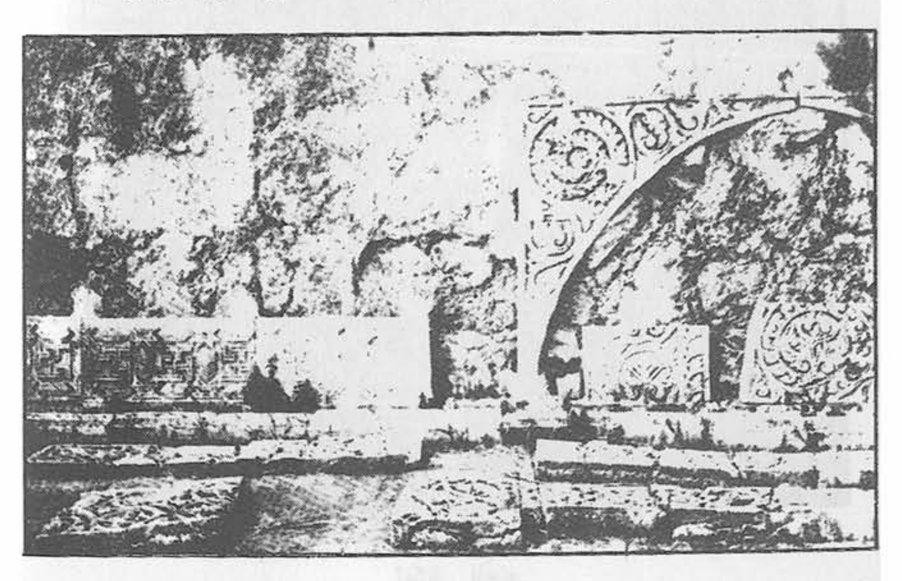
شكل 122

نقوش وزخارف باسقف المسجد الجامع بقرطبة



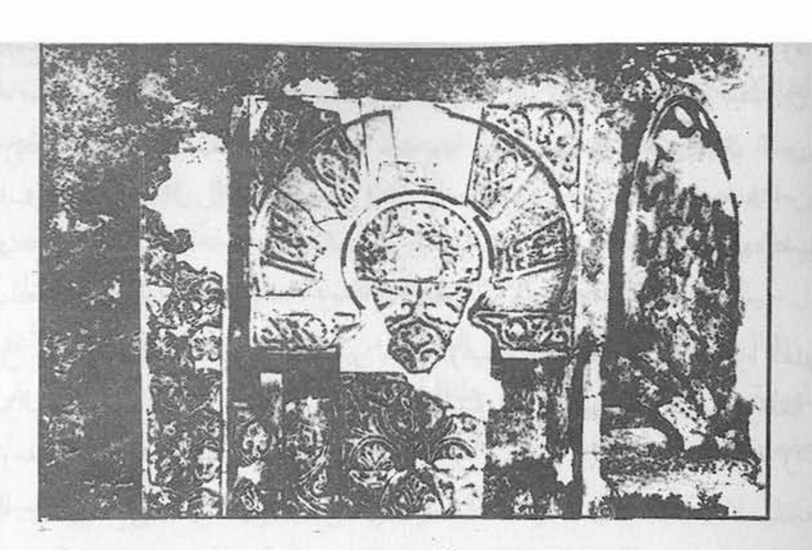
شكل 123

منظر عام لبعض نتائج الحفائر الأثرية بمدينة الزهراء منذ تاريخ دراستنا الميدانية بها عام 1959، واللوحة نقلا عن هنري تيراس



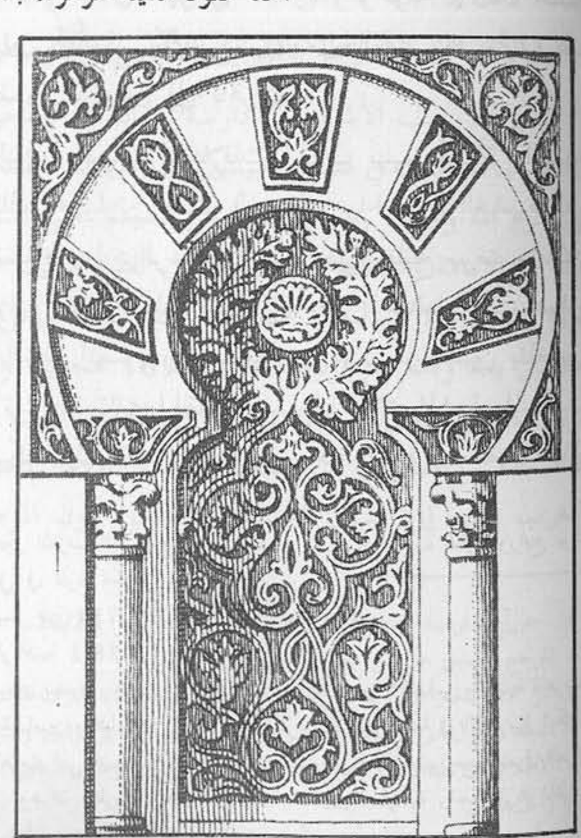
شكل 124

فنون الحفر والنقش التي عرفها الطراز الأندلسي بمدينة الزهراء



شكل 125

أحد عقود مدينة الزهراء بعد الترميم



شكل 126

الزخارف النباتية التي تبرز خصائص فن الحفر في الجص بمدينة الزهراء

ويجمع المؤرخون على ازدهار الحياة الاقتصادية أيام الرستميين[1] لوفرة الثروة الفلاحية وتنوع الحاصلات وموقع العمران المتوسط بين المغارب الثلاثة ثم الموقع المتوسط بين الأندلس شمالا وسجلماسة جنوبا، واتصال تجارتهم البحرية إلى الأندلس عن طريق تنس ووهران ومستغانم، وانتظام القوافل التجارية بينها وبين السودان وسجلماسة جنوبا وفاس غربا ثم القيروان ومصر شرقا، كما غدت ورجلان أكبر قاعدة تجارية في الجنوب وتدفق الصناع المهرة عليها من المشرق والمغرب وارتقت الصناعة وظهر أثر الرخاء في العمران[2].

وإلى هذه الحقيقة أشار ابن الصغير بقوله (هيئتها تبدلت وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية... وازينت المدينة بقصور مشيدة وأبنية بهيجة وقباب مرتفعة وأسواق مزدوجة ومساجد متعددة بمنارات عالية... ومطاحن منتصبة على الأنهار الجارية واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة وتنوعت الألبسة...)[3].

والواقع أن تاهرت ورثت تأثيرات الحضارة المحلية البربرية فالفينيقية و الرومانية ثم أخضع الرستميون جميع منتجاتهم للطابع الاسلامي الذي ظهر في العمارة والزخرفة كما كان لحسن علاقاتهم السياسية والتجارية مع الأمويين بالأندلس[4] وتبادل إقامة الجاليات بتاهرت وقرطبة أثر كبير في نقل فنون الأندلس وحضارة الأمويين إلى تاهرت.

وكان لجوارهم مع دولة الأغالبة ومنافساتهم وعلاقات الحرب بينهما أحيانا والصلح أحيانا أخرى نتائج واضحة من احتكاك الحضارتين وتأثر الرستميين بالحضارة العباسية التي يمثلها الأغالبة خاصة إذا أضفنا فكرة اتساع حدود الرستميين شرقا حتى خليج سرت وامكان استقبال التأثيرات المصرية والعباسية (التي نقلها الطولونيون إلى مصر) عندما كانت هوارة ونفوسة تجوب صحراء سرت محملة بالسلع المصرية والرستمية بين مدن الرستميين بالمغربين الأدنى والأوسط وبين مصر. وهكذا نرى أن تلك الحقائق تفسر لنا ملامح المشرق المنعكسة في قصبة تاهرت التي صممت على شكل نظام قصور الأمويين ببادية الشام من القرن الثاني

(1) عن الرستميين المراجع الحديثة : محمد علي دبوز المغرب الكبير ج 3، سيد سالم في تاريخ المغرب الكبير ورابح بونار في المغرب العربي تاريخه وثقافته ومبارك الميلي في تاريخ الجزائر وغيرها.

(2) أنظر حضارة الرستميين بتاريخ المغرب الكبير ص 754 والمغرب الكبير لدبوز ج 3.

(3) تاريخ الأئمة الرستميين ص 26 والازهار الرياضية 138/2.

(4) أصل العلاقة الطيبة مع الأندلس هو عداء العباسيين ببغداد وحلفائهم الأغالبة بافريقية للأمويين بالأندلس وأباضية تاهرت. وكان الأمويون مضطرين لعداء الأغالبة ممثلي العباسين وعداء الحركة الشيعية بالمغرب الأقصى ممثلة في الأدارسة شكلا، ولهذا وثق أمراء قرطبة العلاقة مع أصحاب تاهرت التي أصبحت الجسر الوحيد الذي يربط الأندلس مع المشرق العربي فتتابعت الوفود والهدايا وانتظمت السفن بين وهران والمرية، وعن علاقات الرستميين الخارجية راجع تاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 567 وما بعدها.

من حيث التخطيط العام والمدخل الوحيد والحجرات الملتصقة بالحائط الخارجي والسلم الملوي ومختلف التقاليد الشرقية السورية[1].

وعندما نجحت حركة العبيديين بافريقية سنة 296 هـ وأسقطوا دولتي الأغالبة والرستميين وتقدموا غربا نحو المغرب الأقصى إنحاز الرستميون إلى الصحراء جنوب ورجلان حيث أحيوا حضارتهم بسدراته التي أضافت إلى أصولها البربرية تأثيرات الأرستقراطية الواردة من الشمال حيث أوضحت الحفائر الأثرية تأثيرات الفن القبطي المصري (كورقة العنب القبطية على سبيل المثال) بالاضافة إلى العناصر الواردة من مصر وسامراء والقيروان الأغلبية، تلك العناصر المتمثلة في تزيين جدران المباني بطاقات معقودة تعلوها انصاف قباب على غرار النظام المعروف بقصر الأخيضر بالعراق وزخارف الجص التي تذكر بطرز سامراء في الحفر[2].

وهكذا لا يمكننا مطلقا دراسة العمارة والفن بالمغرب الأقصى محرومين من الالمام بتفاصيل ونوعية التيارات الفنية المتبادلة مع بلدان المغرب العربي المعاصرة شرقا إلى مصر وشمالا إلى الأندلس وجنوبا بقلب الصحراء إلى عمران افريقيا المعاصر للأحداث.

الأشراف الأدارسة بالمغربين الأقصى والأوسط :

يرتفع نسب الأشراف الأدارسة[3] بالسند الصحيح الصريح الذي لا يتطرق إليه شك (كما هو شأن الشك في نسب العبيديين) إلى سيدتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ والامام على كرم الله وجهه، وهم يعتبرون من الشيعة بمعنى المتشيعين للامام على المطالبين بحقه وحق أبنائه في الامامة والخلافة مع اعتدالهم في نفس الوقت اعتدالا يجعلهم من أهل السنة. وكان المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه أكبر نفسا وأعلى همة من أن يفر[4] بحياته من فتك العباسين بعد وقعة فخ قرب مكة سنة 169 هجرية، وانما استعمل الذكاء والحيلة لينجو عن طريق مصر إلى المغرب حيث يواصل رسالة أهل البيت وقد رأى العباسيين أقاموا دولتهم على أكتاف الفرس ففكر في الاستعانة بالبربر ابان ازدهار العصر الذهبي لطوائف الخوارج بالمشرق والمغرب وتنبه إلى تمسك الخارجية بالشكل دون الموضوع فشاء الله أن تتحول الخارجية

---

(1) جورج مارسيه «بالفرنسية» : العمارة الاسلامية ص 29/28.

(2) المرجع السابق عن فن سدراتة ص 55 وما بعدها.

(3) عن الأدارسة راجع : قبائل المغرب 115/1 وما بعدها، المغرب الكبير للسيد سالم من ص 466، تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول ص 406، والمغرب عبر التاريخ لحركات 113/1، وكتابنا تاريخ شالة 159/140 والقسم الثالث لأعمال الاعلام 224/188 والاستقصا 147/1 وروض القرطاس بتعليق الهاشمي الفيلالي طبعة الرباط 1936 ج 1 ص 6 وما بعدها.

(4) للأهمية راجع مقالنا عثرات الأقلام في كتابة تاريخ الاسلام، الأنباء الرباط 17 – 7 – 1976.

الجمهورية الثائرة على الملكية الوراثية إلى مناصرة الامامة العلوية الوراثية بأصولها وفلسفتها كما شهد التاريخ تحول الخارجية نفسها بسجلماسة وتاهرت إلى الحكم الوراثي على النحو الذي فسره دكتور سعد زغلول بكتابه تاريخ المغرب العربي.

بايعت قبائل البربر بجبل زرهون (قرب مدينة مكناس الحالية) الامام ادريس وراء زعيمها إسحاق الأوربي سنة 172 هـ بمجرد اكتشاف حقيقة نسبه (دون حرب) قصد التقرب إلى الله بمناصرة أهل البيت بعدما عرفوا من فتك العباسيين بالطالبيين أثناء توجه البربر إلى الشرق لأداء فريضة الحج.

خرج المولى إدريس في السنة التالية 173 هـ من قاعدته «وليلة»[1] متجها صوب تلمسان بالمغرب الأوسط لمحاربة مغراوة وبني يفرن من الخوارج الزناتيين فدخلها صلحا وبنى مسجدها وصنع منبره الذي قرأ نقشه التأسيسي العلامة ابن خلدون وذكره صاحب روض القرطاس وبه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر 174).

تنبه الرشيد العباسي إلى تزايد نفوذ المولى إدريس وامتداد بصره شرقا فكان حادث اغتيال المولى ادريس بالسم أو قارورة العطر بالحيلة والخديعة التي نفذها الشماخ، وقام بأمر المغرب مولاه راشد إلى أن وضعت كنزة مولودها إدريس الثاني الذي بويع البيعة الكبرى[2] سنة 192 هـ. شعر المولى إدريس الثاني بالوحشة والغربة بعيدا عن الوطن والأهل واللغة والسند القريب فعاش كمشرقي الأصل في ديار المغرب الأقصى، ولهذا نراه يستقبل الأعوان والأهل من المشارقة بالاضافة إلى عرب افريقية الهاربين من استبداد العباسيين وعرب الأندلس الوافدين بعد واقعة الربض على عهد الحكم بن هشام صاحب قرطبة والأندلس.

على هذا النحو نرى أن تقاليد العمارة والفنون (البربرية) العربية القديمة بالمغرب شأنها شأن بقية منجزات الفكر ومنتجات العمل تستقبل مؤثرات جديدة وتأثيرات شتى من الأندلس شمالا وافريقية شرقا وحصيلة ما تجمع من عبقريات (الشرق الأوسط) الواردة مع المشارقة المتدفقين على المغرب الأقصى.

ومرة أخرى نقول أنه من نتائج ذلك التلاقح بين اتجاهات المغرب القديمة، ونتاج الأندلس الاسلامي بما حمل من ميراث قوطي قديم، وتراث (افريقية) التي كانت خزانا للتأثيرات

---

(1) حسب رسم مؤرخ المملكة المتفق مع الأصل التاريخي

(2) اختلف المؤرخون المبكرون في تاريخ بيعته حسبما نرى في نصوص البكري وروض القرطاس وصاحب الاستبصار وابن خلدون، ولعله بويع ثلاث مرات أولها 186 في حياة مولاه راشد ثم 188 برعاية أبي خالد يزيد الذي حل محل راشد بعد وفاته وأخيرا البيعة الكبرى سنة 192 للهجرة.

المشرقية بمصر وسورية والعراق، لقد قامت من ذلك كله حركات العمارة وضروب الفن في انسجام متكامل بشخصية مغربية واضحة المعالم مميزة السمات في جميع ما تخلف بمدينة فاس (قطب الرحى) من عمائر وفنون وصناعات.

العصر الزناتي (الغامض) بين عهدي الأدارسة والمرابطين :

بادر الامام محمد الأكبر بن الامام إدريس الثاني سنة 213 للهجرة بتقسيم المملكة[1] بين إخوته بمشورة جدته كنزة فتعرض المغرب للأخطار ووقع فريسة مجابهات عسكرية بين الاخوة، وفي نفس الوقت انفتحت جبهات أخرى (محلية متوازية) للزناتيين واختلط الأمر بحيث أصبح لا يمكن لمؤرخ اليوم احصاء عدد الامارات التي أنشأها بربر زناتة بالمغرب في أواخر عهد الأدارسة وأعقاب سقوط دولتهم الأولى بفاس وخاصة تلك الأحداث التي قادها زعماء من قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفرن ابان الفترة التي نسميها «العصر الغامض»[2] الذي امتد حتى ظهور المرابطين وبداية حلقة جديدة من الصراع يشترك فيها المرابطون إلى تاريخ نجاحهم بالقضاء الأخير على الزناتيين ودخول فاس الأخير عام اثنين وستين وأربعمائة بعد الهجرة[3].

غير أنه بعد سقوط دولة الأدارسة بفاس وفرار الأمير الحسن ابن محمد بن القاسم المعروف بالحجام واستيلاء موسى بن أبي العافية على عدوتي فاس اتجهت فلول الأدارسة شمالا واعتصموا بقلعة حجر النسر ذلك الحصن المنيع الذي بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم ابن ادريس سنة 317 هـ حيث استمرت دولتهم الثانية بامارات الشمال[4] وعندما عاد الحسن بن كنون سنة 373 هـ بعد إقامته الطويلة بمصر مؤيدا بعهد العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي على المغرب قابلته جيوش المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام الأموي وقتل الحسن بن كنون سنة 375 للهجرة وانتهت بذلك دولة الأدارسة الثانية.

وفي ذلك نقل السلاوي عن روض القرطاس ان الأدارسة حكموا المغرب (من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وكانت قاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين، دولة العبيديين بافريقية وبني أمية بالأندلس... فإذا اضطر الحال عليهم لا يتجاوز سلطانهم البصرة[5] وأصيلا وحجر النسر إلى أن انقضت أيامهم...)[6].

وهكذا نرى أنه بالاضافة إلى المجابهات العسكرية الداخلية بين الاخوة من بني ادريس الثاني بعد حادث التقسيم، والنزاعات المحلية الزناتية التي قادها زعماء مكناسة ومغراوة وبني

---

(1) راجع كتابنا تاريخ شالة للوقوف على رأينا الخاص في تفسير وتوزيع اختصاصات الأخوة ص 146 وما بعدها، وانظر الاستقصا 173/1 وما بعدها.

(2) دراسة ذلك بالتفصيل وباجتهادات جديدة بكتابنا تاريخ شالة الفصل الخامس ص 223/163.

(3) راجع كتابنا تاريخ شالة الفصل السادس ص 240/230.

(4) راجع الاستقصا 194/1 وعن نهاية الحسن بن قنون وركود ريح الدولة (الادريسية) بالمغرب راجع القسم الثالث من أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب ص 224.

(5) بصرة الكتان شمال المغرب وليست بصرة العراق.

(6) الاستقصا 204/1.

يفرن، يدخل المغرب في نفس الوقت دائرة الأطماع الخارجية من جانب العبيديين بافريقية[1] شرقا والأمويين بالأندلس[2] شمالا الذين جابت جيوشهم أرض المغرب طولا وعرضا ترغى وتزبد وتقمع وتخرب فينال المؤسسات ما ينالها وتصاب المنشآت بما تصاب من هدم أو تزييف.

وبين هذا الحدث أو ذاك، قد تفلت بعض السنوات من قبضة الفوضى والتقلب والخراب لتشهد يقظة من هذا الجانب المتغلب أو الجانب الآخر عندما يُقَدَّرُ له التفوق، وبهذا تنمو فكرة الاصلاح أو التعمير بقصد ترك آثار طيبة للنظام المتغلب ومحو ذكريات التهجم والتخريب، الأمر الذي أدى إلى ظهور بعض الجهود للبناء والتشييد والتعمير وتنشيط التجارة والفلاحة والصناعة، ولا يخفى علينا كباحثين في التراث إدراك الأساليب والتقنيات الواردة مع الفاتح الجديد من الشمال كان أو الشرق لتمتزج مع الأساليب المحلية وتؤثر فيها تأثيرات متميزة، وفي هذا النطاق (تحضرت فاس وزيد في جامعيها الأندلسي والقروي زيادات كبيرة، وبنيت مدينة وجدة وكثر الاتصال والتنقل ما بين الأندلس والمغرب وكان لذلك تأثير كبير على تطور الحضارة والثقافة بالبلاد المغربية، كما كثر الاختلاط والاندماج بين قبائل المغرب الأقصى وقبائل المغرب الأوسط، وما بينهما وبين العنصر العربي الذي أصبح يتقوى شيئا فشيئا)[3].

ومن هذا العصر نفسه تبقت لنا صومعة القرويين الحالية التي شيدها سنة 344 هـ الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي الذي عينه على عدوتي فاس ابن عمه محمد بن الخير المغراوي حليف عبد الرحمن الناصر[4]، وإلى ذلك العهد أيضا ترجع عمارة العصر الثاني (الزناتي) من عصور تأسيس وتعمير ثم توسيع المسجد العتيق بشالة الاسلامية التي كشفت عنه حفائرنا[5] التي بدأناها منذ عام 1957 للميلاد، كما كان أبرز عمل للزناتيين بذلك الجامع تزويده بالصومعة التي تشهد إلى اليوم بمؤاخاتها لصومعتي الجامع القروي وجامع الأندلسيين بفاس، أما منبر جامع الأندلسيين بفاس فيروى بما احتضنه من زخارف وصناعات وما انتشر فوق أديمه من نقوش عربية وكتابات، تفاصيل تلك الأحداث والصراعات وما صحبها من تأثيرات وافدة وأساليب خارجية في فنون الصناعات والزخرفة.

---

(1) الاستقصا 182/1 + 198.
(2) الاستقصا 196/1.
(3) قبائل المغرب 122.
(4) الاستقصا 196/1.
(5) بكتابنا حفائر شالة تفاصيل آثار ذلك العصر بمسجد شالة العتيق، وبكتابنا الفنون الاسلامية والنقوش العربية أسباب تأريخنا لصومعة المسجد العتيق ودراسة الزخرفة الزناتية.

الأغالبة بإفريقية :

في القرن الثالث الهجري ضعفت الدولة العباسية وبدأت ظاهرة استقلال الأطراف وقامت بالمغرب الأقصى دولة الأدارسة يقابلها في الجانب الآخر من بر العدوة دولة الأمويين بالأندلس، ولهذا أسرع الخليفة العباسي بزرع المتاريس في وجه وطريق القوى الغربية وذلك بإقامة الدولة الطولونية بمصر كخط دفاع متقدم ومن ورائه دولة الأغالبة بإفريقية.

استقطبت افريقية الأغلبية معالم الحضارة والثقافة والفكر والابداع الاسلامي الذي انحدر اليها من المشرق كما عرفت ازدهارا اقتصاديا لم تعرفه منذ عهد الرومان، وبهذا وذاك أي بالفكر والانتاج تأسست الدولة الأغلبية في شباب الدولة العباسية الحضاري وعرفت تنظيم الادارة وترتيب المرافق وترقية المدارك، وبهذا عملت دولة الأغالبة المستنيرة على نشر الحضارة الاسلامية في جميع البقاع التي وصلتها قواتهم وسفنهم بجزيرة صقلية ومالطة وسردينية وشواطىء فرنسا الجنوبية وشواطىء إيطاليا، وهكذا كانت همزة وصل بين الحضارة الاسلامية وبين الحضارة الأوروبية.

وفيما يهمنا بالنسبة للمغرب الأقصى، فقد انسابت من افريقية الأغلبية نحو الشمال الافريقي غربا روافد عدة مترعة بالفنون محملة بمختلف الأساليب وضروب الصناعات المعبقة بتراث المشرق الاسلامي بعد أن استقرت بافريقية وتطورت نحو الانسجام مع البيئة الجديدة والمجتمع الشمال الافريقي قبل أن تصل إلى المغرب الأقصى خاتمة المطاف قبل أن تعبر المضيق وتودع القارة الافريقية إلى أرض الأندلس الأوروبية.

ولما كان الأغالبة بنائين ممتازين وفنانين متفوقين ومبدعين موهوبين، فإن كثيرا من العناصر المعمارية والوحدات الزخرفية خرجت من أرض افريقية على عهدهم[1] لتجد رواجا كبيرا في المغربين الأوسط والاقصى وخاصة بالمغرب الأقصى بالذات.

إن ظروف وملابسات المسيرة الحضارية في كل من القطرين المغربين الأوسط والأقصى لم تكن متكافئة مما اضطر المغرب الأقصى نظرا لامكانيات حضاراته المتصلة وانتاجات عبقرياته الموصولة أن يتحمل العبء الأكبر والاسهام الأوفر في احتضان الاتجاهات الفنية الواردة من الشرق تباعا عن طريق افريقية ثم صهرها محليا قبل أحداث التزاوج الذي نراه فيما بعد عند معانقة الفنون المغربية لفنون الأندلس الاسبانية بعد موقعة الزلاقة وتوحيد المرابطين للعدوتين وادماج الحضارتين فيما ندرسه بالجزء التالي من كتابنا تحت اسم الطراز المغربي والأندلسي.

(1) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ج 1 به، تأسيس القيروان وتطورها ص 62/43، بناء العباسية ص 359/353، بناء مدينة رقادة 375/360، الفسيفساء 380/376، النقوش العربية في تونس 466/397، ج 2 : ص 66 سوسة الأغلبية، 110/15 المصطلحات والأسماء والمباني بأنواعها، ص 154 الرق، ص 160 البردي، ص 164 الكاغد وعن الأغالبة راجع القسم الثالث من أعمال الاعلام نشر الكتاني : دولة الأغالبة 14، أحمد بن محمد بن الأغلب وبناء الماجل الكبير بباب تونس وزيادات جامع القيروان والمسجد الجامع (جامع الزيتونة) بتونس وسور سوسة ص 23 وما بعدها، إبراهيم بن أحمد وبناء مدينة رقادة ص 27 وما بعدها.

ولا بأس أن نشير هنا على سبيل المثال لا الحصر إلى تخطيط وعمارة القبة المقامة على أسطوانة المحراب واتساع البلاط الأوسط المحوري (بلاط المحراب) اللذين ولدا بجامع القيروان[1] على عهد الأغالبة ذلك النظام الذي كان المصدر الأول (Prototype) لجميع النظائر التالية تاريخيا بالمغرب الأقصى والأندلس (أشكال 127 – 131) كما هو الشأن منذ تأسيس صومعة جامع القيروان (50 هـ) التي كانت فيما بعد مصدر اشتقاق جميع صوامع المغرب والأندلس.

القصد من التمهيد التاريخي :

ولعلنا بذلك التمهيد التاريخي نكون أقدر على فهم وتحليل العناصر المعمارية والوحدات الزخرفية فيما أنتجته العقول والأيدي المغربية،من مظاهر الحضارة المعمارية والفنية، والوقوف على سر ظهور ذلك العنصر أو ذاك، ومدى اتفاقه أو اختلافه عن نظيره بمدرسة إسلامية أخرى سابقة أو لاحقة، بالاضافة إلى تحديد الطريق الجغرافي والعصر التاريخي اللذين سمحا بوصول المثال الأول (Prototype) لانضمامه إلى المميزات المغربية، كما تسمح لنا تلك الخلفية التاريخية بالقول بأن عنصرا معماريا أو زخرفيا قد ولد بالمغرب أو أن دور المغرب كان مقتصرا على تطوره، وفوق هذا وذاك يكون بإمكاننا الحكم بكل أمانة على دور الفنون المغربية إذا ما كانت جامدة كادعاء بعض المغرضين من مؤرخي المدرسة الاستعمارية أو أنها كانت ولا زالت فنونا حية تأخذ وتعطى شأن الكائن الحي الذي يستقبل ليهضم ويمثل ثم يعطي من جديد انتاجا أكبر قيمة وأكثر تماسكا وأعمق تأثيرا.

العمارة الاسلامية في الطراز المغربي الاسلامي المبكر

يبدأ بالطراز المغربي الاسلامي المبكر عصر جديد في تاريخ الفنون المغربية، ذلك أن الفن البربري القديم يعتبر حلقة من حلقات فنون العالم القديم، بينما يعتبر الطراز المغربي منذ فجر التاريخ الاسلامي أحد فنون العالم الوسيط. ومع هذا فإن كلا من الفنين يقترب من الآخر ويمتزج به. فالفن البربري القديم يعتبر المصدر المحلي الذي استوعب ميراث الفنون العربية (السابقة) ثم استقبل تيارات وتأثيرات الفنون العربية الاسلامية منذ فجر الاسلام بالمغرب وانصهر معها في بوتقة مغربية مشرقية تحكي تقاليد العروبة والاسلام في منتصف العالم المعمور.

أصالة الطراز المغربي :

ومن الجدير بالملاحظة أن الفن المغربي في عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية لم يتخل مطلقا عن مميزات عديدة وكبيرة للفن البربري كشبكة المعينات[2] المتجاورة التي لم يكتب لها الرواج والخلود على مستوى الفن الوطني والعالمي إلا بعد انتصار الاسلام الحاسم بالمغرب والأندلس الذي دفع بالعناصر البربرية المنطوية تحت إطار الفن المغربي الاسلامي إلى اسبانيا وأوروبا نفسها.

وقد ساعد على هذه الوضعية وفاء الفن البربري القديم والفن المغربي العربي للتقاليد الموروثة والعمل على تطويرها ونمائها دون أن تنقطع إلى اليوم صلة الفنون المغربية المعاصرة بمصادر الفن المغربي وفنون المغرب في العصر الوسيط، ولعل هذا هو سر ازدهار الفنون عامة في نطاق الشخصية المغربية المتميزة وهو غاية ما يمنحه الانسان الفنان للتاريخ، ذلك الفنان الذي تجري في عروقه إلى اليوم دماء الأصالة الفنية إلى جانب التطلع إلى ضروريات التطور المعاصر.

حدوده الزمنية :

ونعني بالطراز المغربي جميع ما أنتجه الفنان المغربي من فنون العمارة والفنون التطبيقية داخل النطاق الجغرافي لحدود المملكة المغربية[3] ابتداء من استقرار الفتح الاسلامي سواء من تاريخ وصول عقبة في ولايته الثانية أو وصول موسى بن نصير أواخر القرن الأول للهجرة ونجاحه في تأسيس الجناح الغربي للاسلام وحتى عام 479 هجرية وهو تاريخ انتصار الاسلام

---

(1) راجع المسجد الجامع بالقيروان والمدخل لمساجد القاهرة ومدارسها للمرحوم الدكتور أحمد فكري.

(2) نظريتنا الخاصة بالأصل التاريخي لشبكة المعينات بكتابنا الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى.

(3) عثمان عثمان : الطراز المغربي، مقال بمجلة دعوة الحق الرباط يونيو 1960 ص 70 – 75 + 7 لوحات بالنسبة لذلك الطراز على مستوى المغرب العربي.

في واقعة الزلاقة[1] بالأندلس أيام المرابطين، وبديهي أن الطراز المغربي جغرافيا يخضع لاختلاف امتداد الحكم المغربي طوال أربعة قرون كاملة على وجه التقريب. ومن جهة أخرى فإن نهاية القرن الأول الهجري تمثل استقرار الاسلام الحنيف واقامة الجسور العربية للتأثيرات الفنية المشرقية بحيث يتخذ الفن المغربي طابعا جديدا وطرازا مستقلا بعكس حالة انصهار التأثيرات المشرقية مع التقاليد المغربية القديمة تبدأ من طرز الفن الاسلامي بالمغرب والعصر الوسيط، بينما تقف واقعة الزلاقة عام 479 هجرية كعلامة بارزة في تاريخ الفنون المغربية تشير إلى نهاية عصر الطراز المغربي وبداية عصر آخر في تاريخ الفن نسميه بعصر الطراز المغربي الأندلسي وذلك عندما تمتزج الفنون الاسلامية المغربية بتأثيرات الفنون الاسلامية الأندلسية بعد واقعة الزلاقة ثم ضم الأندلس سياسيا وعسكريا وعمرانيا إلى كيان الدولة المغربية وهو نفس الطراز الذي يسود عدوة الأندلس ابتداء من واقعة الزلاقة إلى تاريخ سقوط غرناطة متميزا عن سمات الطراز الأندلسي الذي كان يسود عدوة الأندلس ابتداء من فتح الاسلام لها إلى تاريخ واقعة الزلاقة.

وهكذا يتضح لنا أن مقومات الطراز المغربي تشتمل على حصيلة التقاليد البربرية القديمة بما فيها من سمات عربية مشرقية منذ ما قبل الاسلام[2] وما جمعته من ميراث الفنون الفينيقية والقرطاجية والرومانية بالاضافة إلى التأثيرات العربية الاسلامية بعد الفتح الاسلامي التي هي حصيلة التقاليد المشرقية بما فيها من تأثيرات فارسية وبيزنطية وغيرها بعد أن خضعت جميعا لتوجيهات الاسلام وتنظيماته في الفن والصناعة[3] والاقتصاد والاجتماع والعمران.

ويشهد هذا الطراز المغربي كما أسلفنا أربعة قرون من التاريخ تبدأ من عصر القادة الفاتحين للمغرب العربي منذ أيام عقبة في إمارته الثانية وموسى بن نصير من بعده ثم يدخل المغرب في عصر الولاة تابعا للدول الأموية الشرقية أولا حتى تاريخ سقوطها عام 132 هجرية وهي الفترة التي نشطت فيها التأثيرات الاسلامية الأموية في فترة تكوين الفن الاسلامي العام لشخصيته العربية الاسلامية[4].

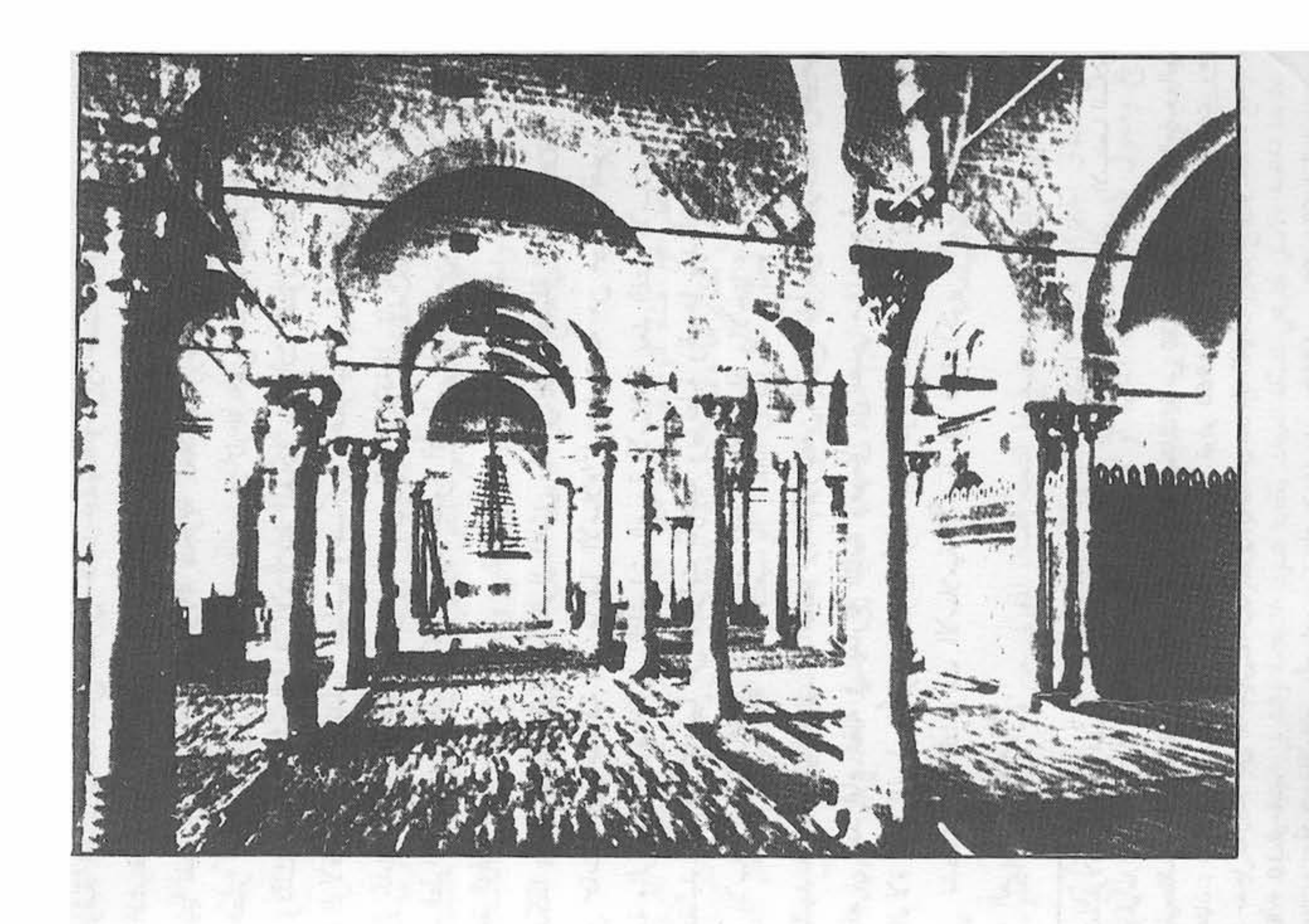
---

(1) عن واقعة الزلاقة راجع على الخصوص تاريخ المن بالامامة، وتاريخ ابن خلدون وروض القرطاس والاستقصا للسلاوي ج 2 وغيرها.

(2) أنظر جوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر الطبعة الثانية ص 230 خطأ المفرقين بين العرب والبربر.

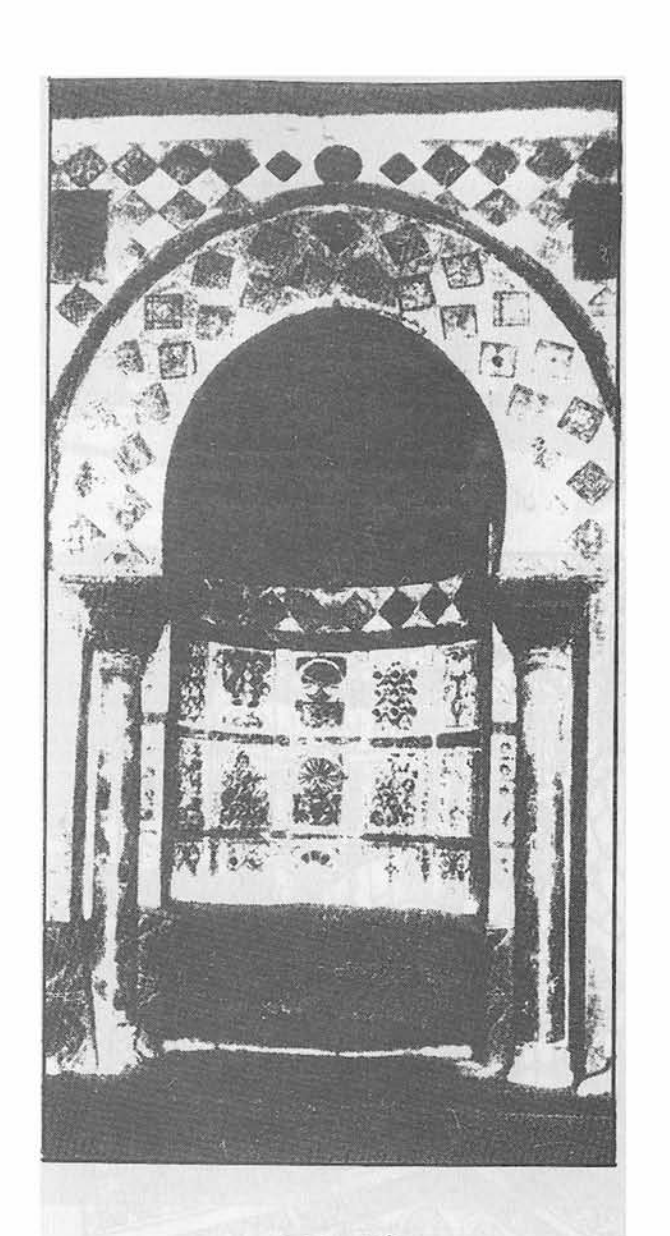
(3) عثمان عثمان : نشأة الفن الاسلامي وأصوله، دعوة الحق الرباط فبراير 1960 ص 62 – 68 + 7 لوحات. وعثمان عثمان : مدخل لدراسة الفن الاسلامي بالمغرب العربي والأندلس ــ مجلة الفنون ــ الرباط يونيو 1974 ابتداء من ص 82 + 10 لوحات.

(4) عثمان عثمان : نشأة الفن الاسلامي وأصوله، دعوة الحق الرباط مارس 1960 ص 60 – 68 + 7 لوحات. والدكتور زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 5 – 6.

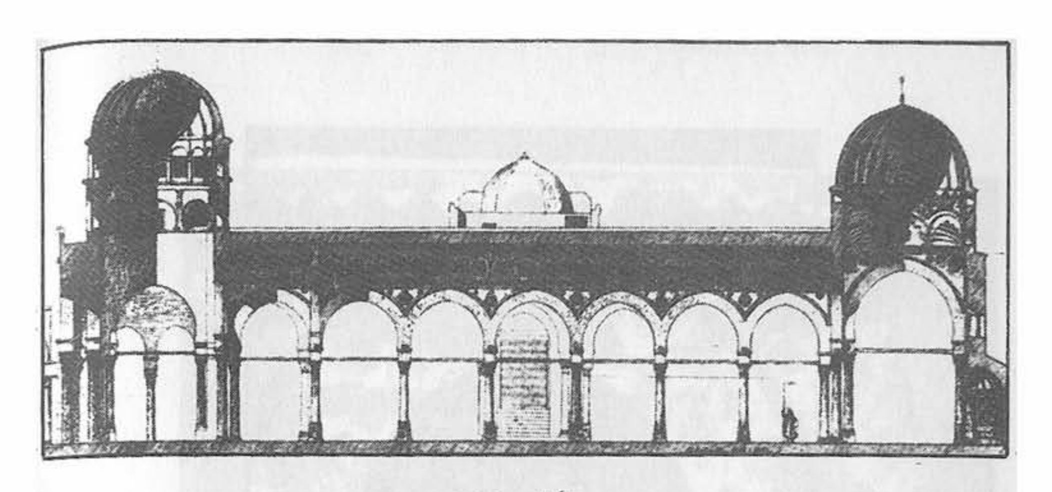


شكل (127)

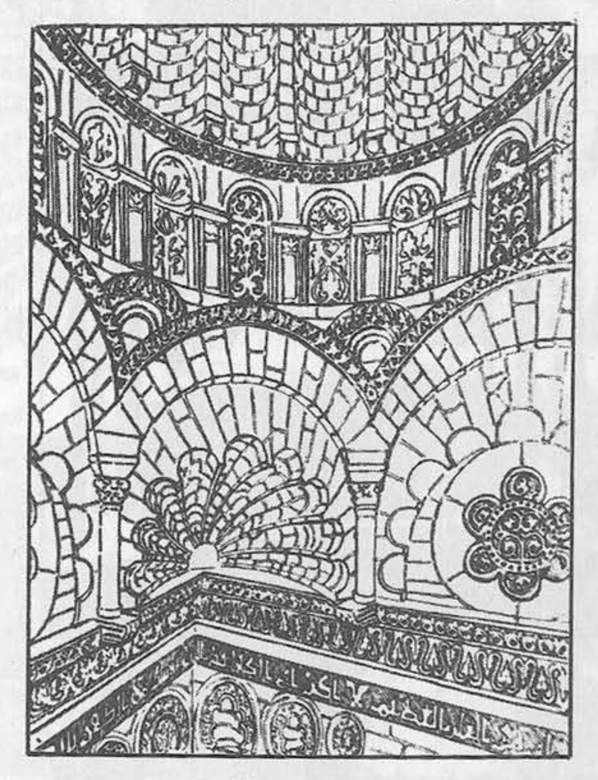
بيت الصلاة بجامع القيروان كما كان منذ عهد الأغالبة



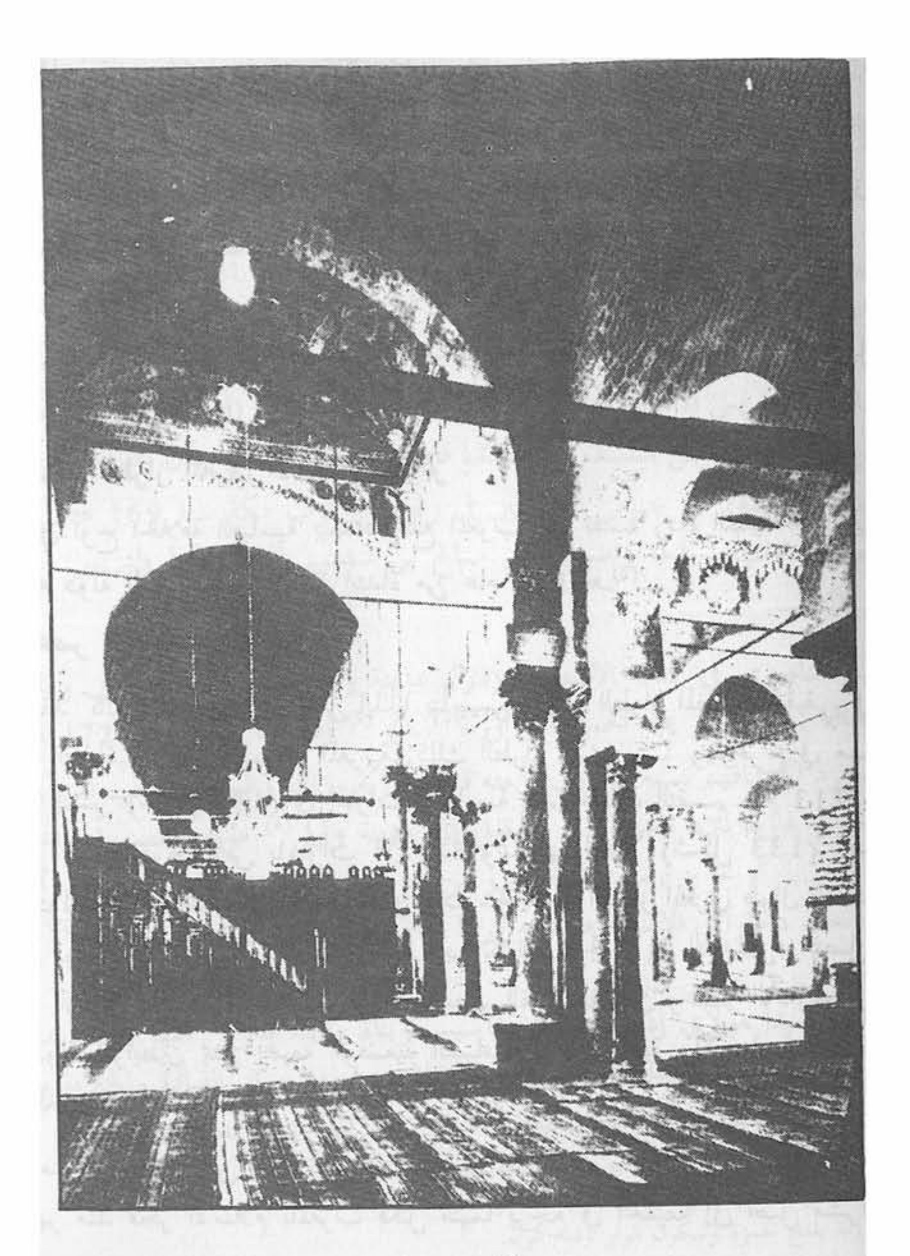
شكل (128)
تفاصيل زخارف الرخام بجوفة محراب المسجد الجامع
بالقيروان وخزف جدار القبلة من عهد الأغالبة



شكل (129)
قطاع طولي بالمسجد الجامع بالقيروان



شكل (130)
قبة اسطوانة المحراب بجامع القيروان



شكل (131)

بيت الصلاة بالمسجد الجامع بالقيروان حيث نرى المنبر الأصلي ومن ورائه المقصورة التي أمر بصنعها المعز بن باديس

العمارة المغربية في فجر الاسلام :

ففي مدينة نكور بالريف المغربي على شاطىء البحر الأبيض المتوسط قامت أول مملكة عربية صميمة في ربوع المغرب الأقصى أيام خلافة الوليد الأموي، وفتح الله قلوب صنهاجة وغمارة للاسلام فاتجهت الجهود إلى بناء رباط يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحي تصميمه من جامع الاسكندرية بأسلوب معماري بسيط في نطاق الفن الاسلامي الشرقي الذي كان في فجر انبثاقه وتكوين شخصيته.

ومن هذا الطراز مسجد أغمات غيلانة الذي أسس عام 85 للهجرة تبعا لرواية ابن عذارى ليكون على الأرجح أول مسجد إسلامي بالمغرب الأقصى بعد فترة تحويل معابد المشركين إلى مساجد[1].

مولد الطراز المغربي الاسلامي المبكر :

وفي أوج الخلافة العباسية ببغداد يخلع المغرب عن نفسه رداء التبعية السياسية عندما قامت به دولة الأشراف الأدارسة ابتداء من عام 172 هـ[2].

عصر الأدارسة وزناتة :

لقد كان تأسيس مدينة فاس ايذانا بتأسيس صرح الطراز المغربي الحقيقي في العمارة والفنون التطبيقية بربوع المملكة المغربية، ذلك الطراز الذي ينشأ ويترعرع في مهده الأول بفاس ثم ينتشر (شكل 132) في إمارات الأدارسة بعد حادث التقسيم عام 213 هجرية[3] كما يستمر بعد سقوط فاس بإمارات الأدارسة وممالكهم شمالا (شكل 133) حتى تاريخ انقراض دولتهم الثانية بالشمال، وبعد عصر الأدارسة يعيش الطراز المغربي طوال العصر الزناتي حتى قيام دولة المرابطين إلى وقت قيام يوسف بن تاشفين بالجواز إلى الأندلس وانتصاره الكبير في موقعة الزلاقة عام 479 هجرية. فأواخر عصر القادة الفاتحين وعصر الأدارسة والزناتيين وصدر دولة المرابطين يمثل جميعه الوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يشرحها الطراز المغربي.

ومنذ البداية لم يكن هناك تنافر بين هندسة المباني البربرية القديمة وهندسة الطراز المغربي الذي ظهر منذ فجر الاسلام بالمغرب فكل منهما يرجع في الحقيقة إلى أصل مشرقي واحد

---

(1) عبد العزيز بنعبد الله : بحثه بمؤتمر الآثار السابع بأبي ظبي ديسمبر 1974.

(2) عن قيام دولة الأشراف الأدارسة راجع روض القرطاس وابن خلدون والاستقصا للسلاوي ج 1.

(3) دكتور عثمان عثمان : تاريخ شمالة الاسلامية، دار الثقافة ببيروت للوقوف على تفاصيل حادث التقسيم ومناقشة النصوص القديمة المتعلقة به.

حيث يقر الباحثون بالعلاقات بين المباني البربرية وبين المباني المصرية القديمة ومباني اليمن القديم، وإذا كانت معظم عمائر الطراز المغربي المبكر من عصر الأدارسة وزناتة قد اندثرت أو تحولت إلى أطلالها كما هو الحال بالقصر الصغير وقلعة حجر النسر وبصرة الكتان وغيرها، غير أن عمارة فاس وفنونها لا زالت قائمة إلى اليوم.

مدينة (وليلة) الأثرية أولى قواعد الأدارسة بالمغرب

موجز التاريخ والموقع الجغرافي والأثري وتحقيق الاسم :

(أولا) : مدخل إلى تاريخ المدينة.

نجا المولى إدريس الأكبر، أو الأول، سبط الرسول المصطفى (إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله وزوجها الامام علي[1] رضي الله عنه) من جيوش العباسيين في وقعة فخ قرب مكة سنة 169 هجرية ولحق بمصر فأعانه صاحب بريدها واضح مولى صالح بن منصور فلحق المولى إدريس مع مولاه راشد إلى المغرب.

يقول الشيخ الناصري في كتابه الاستقصا (فنزل بمدينة **وليلي** سنة اثنتين وسبعين ومائة وبها يومئذن إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أَوْرَبَة[2]...) [3] (فبايعوه بمدينة **وليلي** 172 هـ...)

فبمجرد اكتشافهم نسبه الشريف بايعته قبائل أَوْرَبَة وزناتة وغيرها واستتب أمره وقويت شوكته وخرج غازيا بلاد تامسنا ... ثم قفل إلى مدينة **وليلي**[4] مؤيداً منصوراً أواخر ذي الحجة 172 هـ... ثم خرج برسم الجهاد لغزو من بقي من القبائل على دين النصرانية واليهودية والمجوس... حتى دخلوا في الاسلام طوعاً وكرهاً وتأسس بذلك أول عرش للمملكة الاسلامية بالمغرب الأقصى.

وبعد أن بدأ مولاي إدريس الأكبر تأسيس وبناء مدينة فاس[5] أتمها وحضّرها خلفه المولى إدريس[6] الأزهر (لا يقال الأصغر تأدباً وفألاً) وجعلها مركز القيادة والخلافة والحكم بعد (**وليلي**) التي كانت أول قاعدة لمملكة الاسلام في المغرب الأقصى.

---

(1) عبد الوهاب بن منصور مدير الوثائق الملكية : قبائل المغرب 115/1.

(2) تكتب أَوْرَبَة بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الراء.

(3) الاستقصا 155/1

(4) هكذا كتبتُها بكتابي تاريخ شالة الاسلامية.

(5) بناء مدينتي فاس بكتابنا تاريخ العمارة الاسلامية والفنون بالمغرب الأقصى ج 1.

(6) كتابنا تاريخ شالة الاسلامية ص 114 (بنى ادريس الأول 172 هـ فوق الأرض التي أقيم عليها فيما بعد عدوة الأندلس بفاس مدينة صغيرة ثم بنى خلفه إدريس الثاني 192 هـ عدوة القيروانيين.

كانت المدينة التاريخية والأثرية المعروفة اليوم باسم مولاي إدريس (في الخرائط والاستعمال الشعبي) عبارة عن مدينة صغيرة تحتضن ضريح مؤسس المملكة الادريسية قرب مدينة مكناس[1] فوق هضبة صخرية تشرف على سفح وادي الرمان وسهل المدينة الرومانية (VOLUBILIS) وهو موقع أثري روماني على بعد ثلاثة كيلومترات من مدينة مولاي إدريس موضوع البحث، ويحتمل رجوع فولي بوليس إلى العصر (NÉOLITHIQUE) وكانت عاصمة (MAURITANIE) في عهد جوبا الثاني (25 ق.م — 24م) تتوفر على معابد وبنايات عمومية وأصبحت فولي بوليس إحدى حواضر الاحتلال الروماني يقيم بها الحاكم الروماني للاقليم ثم ضعف شأنها في القرن الثالث الميلادي، ومع هذا ظلت مسكونة إلى نهاية القرن الثامن للميلاد حيث عُرفت باسم (وليلي) بكسر اللام أو فتحه[2].

وذكر الأستاذ الهاشمي الفلالي محقق كتاب روض القرطاس رواية فتح عقبة بن نافع لها سنة 62 هـ كما اعتنق أهلها الاسلام على يد والي عمر بن عبد العزيز سنة 100 هـ ثم استقلوا أيام العباسيين وقام بالأمر إسحاق بن عبد الحميد الأَوْرَبِي إلى أن سلمه للمولى إدريس سنة 172 هـ[3].

(ثانيا) : وصف المدينة الأثرية

وهذا هو الجزنائي يصف المدينة في كتابه زهرة الآس بقوله : وهذه البلدة قديمة البناء، يذكر أنها من بناء القبط، وهي المعروفة الآن بقصر فرعون من أراضي أولاد تعلُّوا الأوربيين وهي متوسطة بين العمارات... وكان لها سور عظيم قد بقي بعضه...[4].

ويصفها مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور قائلا : تبلغ مساحة وليلي أربعين هكتاراً، ويبلغ طول السور الذي كان يحيط بها 2450 مترا يتخلله نحو أربعين برجاً، وهي الآن من أهم المشاهد الأثرية بالمغرب وقد أزاح الأسارى الألمان خلال الحرب العظمى الأولى التراب عن 15 هكتاراً من مساحتها ورممت مصلحة الآثار بعض هياكلها، ولا يزال الطرف الأكبر من المدينة تحت الردم إلى اليوم[5].

وفي كتاب روض القرطاس : كانت وليلي متوسطة خصبة كثيرة المياه والغروس والزيتون وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل فنزل بها إدريس...[6].

---

(1) عاصمة المملكة فيما بعد في عصر مولاي اسماعيل ذروة الدولة العلوية الشريفة المعاصرة.

(2) جنى زهرة الأسى، طبعة الرباط 1967م ص 12 هامش 31.

(3) روض القرطاس طبعة 1936 م ص 14 هامش 3.

(4) جنى زهرة الآس تأليف علي الجزنائي من رجال القرن الثامن هجري وقف بحوادثه سنة 766 هـ، طبعة المطبعة الملكية الرباط تحقيق الأستاذ بن منصور ص 12.

(5) نفس المصدر والصفحة هامش 31.

(6) روض القرطاس نفس الطبعة 14/1.

وذكر الأستاذ الهاشمي الفيلالي في تحقيقه لكتاب روض القرطاس رواية ليون الافريقي ووصفه للمدينة على رأس الجبل ولها أبواب عالية واسعة وطول سورها نحو ستة أميال وقد ورد في تاريخ مارمول أنها من بناء الرومان محاطة بسور من الحجر المنجور...[1].

(ثالثا) : تحقيق إسم المدينة (وليلي) أو (وليلة)

1 - الكتاب المعاصرون :

وهذه نماذج من كتابات المعاصرين برسم إسم المدينة (وليلي) :

مر بنا نص الشيخ الناصري السلاوي في كتابه الاستقصا (فنزل بمدينة **وليلي** سنة اثنتين وسبعين ومائة وبها يومئذن إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة[2]...)

وفي كتاب النبوغ المغربي بالجزء الأول للعلامة المرحوم سيد عبد الله كنون رئيس رابطة العلماء بالمغرب (وأول ما فتح من البلاد طنجة ثم وليلي...)[3].

وقد كتبتُها شخصياً (**وليلي**)بأبحاثي المنشورة منذ عام 1959م بمؤتمر الآثار الثالث لدول الجامعة العربية وبكتابي تاريخ شالة الاسلامية وغيره.

وفي كتاب وزارة الاعلام المغربية بالانجليزية (MOROCCO A GLIMPS OF HISTORY)[4] ما تعريبه (وصل إدريس الأول سنة 788 م إلى WALILI **أي وليلي**

وفي نشرة وزارة الاعلام المغربية المصورة (ثم تدهورت مكانتها حوالي نهاية القرن الثالث الميلادي ومع مجيء الأدارسة حملت إسم **وليلي**.

ويقول الوزير المغربي الأديب الأستاذ عبد الهادي بوطالب (مر مؤسس عرش المغرب إدريس الأول... عندما دخل المغرب وأقام أشهراً بين قبيلة أَوْرَرَبَة **بوليلي** يدعوها للاسلام...)[5]

وظهر أخيراً في مايو 1991م برنامج وثائقي بالاذاعة المرئية بالمغرب بعنوان (عندما تنطق الأطلال) خصص الحلقة الرابعة منه لأطلال مدينة **وليلي**[6].

---

(1) نفس المصدر ص 14 هامش 3.

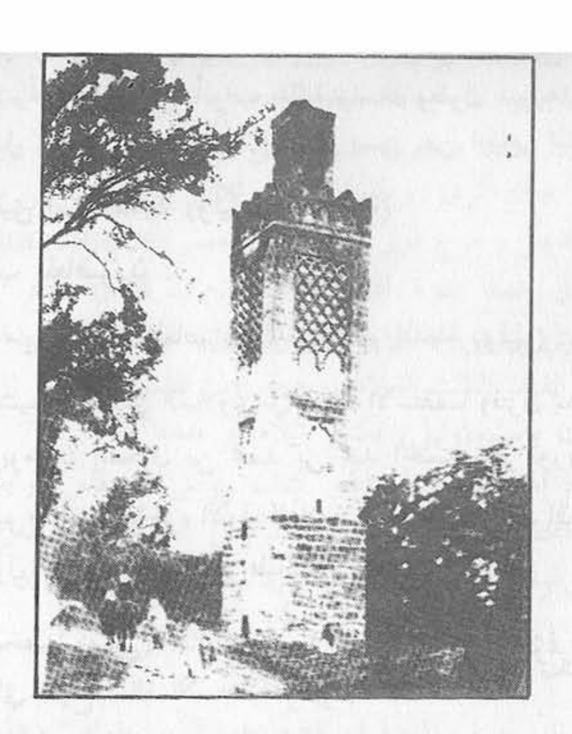
(2) الاستقصا 153/1.

(3) النبوغ المغربي 37/1

(4) الطبعة الثالثة مطبعة فضالة بالمحمدية 1967/4/4م ص 18.

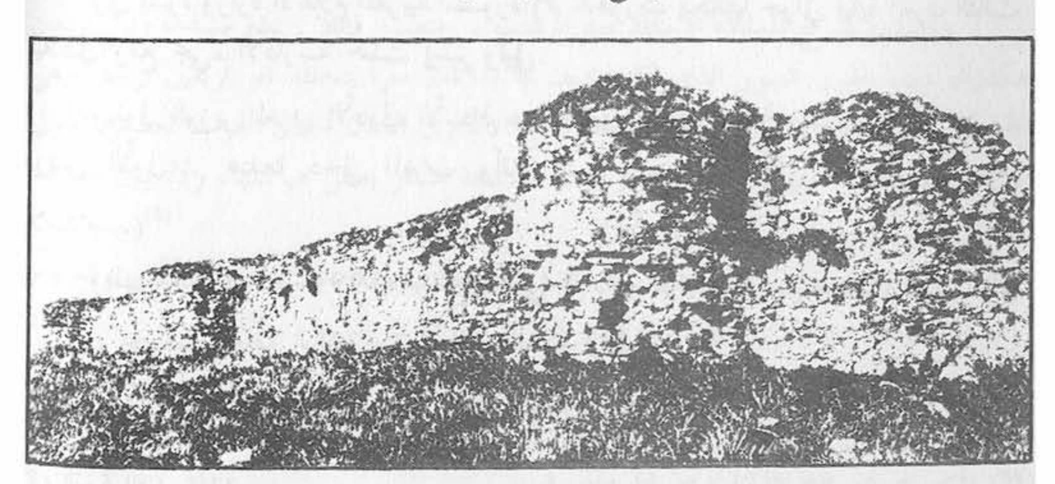
(5) كتاب ذكريات وشهادات ووجوه المنشور بجريدة الشرق الأوسط 1990/3/28م ص 17.

(6) ظهر البرنامج مساء الخميس 1991/5/9م الساعة 22.45.



شكل (132)

صومعة أجادير تحدد موقع المسجد الذي أسسه ادريس الأول بتلمسان
وصنع له منبرا نقش اسمه عليه



شكل (133)

بقايا عمارة البصرة (بصرة الكتان شمال المغرب)
من تأسيس الادارسة بامارات الشمال

2 – نصان من القرن الثامن للهجرة :

نص روض القرطاس لابن أبي زرع :

نقل الأستاذ ليفي بروفنسال في (نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب[1] الأقصى) عن روض القرطاس (فرجع مع مولاه راشد حتى نزل بمدينة وليلي قاعدة جبل زرهو وكانت وليلي متوسطة خصبة) وفي نسخة روض القرطاس تحقيق الأستاذ الفيلالي[2] (حتى نزل بمدينة وليلي قاعدة جبل زرهون).

نص زهرة الآس :

وفي نص جنى زهرة الآس وضع علي الجزنائي تحقيق مؤرخ المملكة[3] الأستاذ بن منصور (ثم إلى بلد وليلي قاعدة زرهون واستجاب له قبائل البربر...)

3 – فصل الخطاب في أصل التسمية وتطورها :

أ – نصوص مؤرخي القرن الثالث الهجري ترسمها (وليلة) :

كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة :[4]

(وفي يد ولد إدريس بن إدريس... ومن مدينة وليلة ومدركة ومتروكة ومدينة زقور...)

وفي الترجمة الفرنسية للنص WALILA (VOLUBILIS)[5]

ويقول ناشر المقتطفات الحاج صادوق محمد في التعليق مع الترجمة الفرنسية[6] WALILAهي VOLUBILIS القديمة يسميها جغرافيون عرب آخرون WALILI وتقع على جبل زرهون وسط قبيلة أَوْرَبَة.

وفي كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني :[7]

(فحمله البريد إلى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة يقال لها وليلة فاستجاب له من بها...)

وفي الترجمة الفرنسية (VOLUBILIS) وتسمى (WALILA) فلما استخلف الرشيد أعلم بذلك... ودس إلى إدريس الشماخ اليماني... فخرج حتى وصل إلى وليلة...

(1) مكتبة اميل لاروز باريس 1934 م ص 17.
(2) 14/1 طبعة الرباط 1936م.
(3) المطبعة الملكية الرباط يونيو 1967 ص 12.
(4) مقتطفات من المسالك والممالك ومن كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ومن الاعلاق النفسية لابن رستة، نشرها مع الترجمة الفرنسية الحاج صادوق محمد، مكتبة كاربونيل الجزائر 1949م.
(5) نفس المصدر ص 9.
(6) نفس المصدر ص 97.
(7) نفس المصدر ص 34.

ب – العلامة عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية :

على الرغم من أن العلامة المؤرخ رسم الكلمة (وليلي) بالجزء الأول من كتابه قبائل المغرب نشر المطبعة الملكية بالرباط 1968م صفحات 10، 118،375 وغيرها، غير أنني لاحظت شروعه في التحول بتحقيقه لكتاب جنى زهرة الآس طبع 1967م وذلك بصفحة 12 هامش 31 حيث يقول (إن المدينة كانت مسكونة قبل القرن الثامن الميلادي من طرف بعض نصارى البربر وعرفت في هذه الفترة باسم (وليلي) بكسر اللام أو فتحه، وبعد ذلك شرع في رسم إسم المدينة (وليلة) وتحمس لذلك الاتجاه.

ج – الجامع في الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها :

واسم الكتاب (Corpus des dirhams Idrisites et Contemporains) وطبعه زميلنا السابق بمصلحة الآثار المغربية الأستاذ دانييل أوسطاش ونشره بنك المغرب سنة 1971/70م.

وفي هذا المؤلف انجلت الحقيقة وتم فصل الخطاب على ضوء الدراسة التطبيقية المباشرة لعدد من قطع العملة الادريسية المضروبة بالمدينة موضوع البحث وهي وثائق أثرية من الدرجة الأولى ضربت بالمدينة ذاتها في تاريخ عمرانها وبتصميم واملاء أمرائها وجميعها ترسم اسم المدينة **(وليلة)** كما هو واضح بصفحة 105 (وليله) والأمر واضح كل الوضوح بصفحات 262 – 266.

ولهذا أوضح الأستاذ أوسطاش الخبير في دراسة العملة بالفصل الأول عند دراسة تاريخ الأدارسة إسم ورسم المدينة التي كانت قاعدة أول مملكة إسلامية بالمغرب هكذا (وليلة).
يقول أوسطاش في صفحة 25 :

ثم تابع رحلته ــ يعني إدريس ومولاه راشد ــ تجاه المغرب... حيث استقر في **وليلة** ونصه بالفرنسية (où il a fixa à WALILA).

ويضيف أوسطاش : وبويع الجمعة 4 رمضان 172 هـ واستطاع إدريس الذي لا يحمل سوى لقب الامام أن يؤسس مدينة فاس على هيئة معسكر حربي على الضفة اليمنى لوادي فاس، وبعد أن بسط نفوذه على القبائل المجاورة عاد إلى **(وليلة)**...وفي **وليلة**) مات مسموماً.

دراسة انتاج مصنع ضرب العملة في وليلة) WALILA :

ونوجز هنا أهم نتائج الدراسة الواردة بين صفحتي 162 و169 بكتاب أوسطاش المذكور، فقد كان الاسم (وليلة) تبعاً لنقوش العملة والمراجع العربية من القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكان مصنعها يعرف بإنتاجه الوافر بالعاصمة الادريسية الأولى.

إن لفظ (وليلة) أصله لفظ بربري معرب وشكله البربري هو (**وليلي WALILI**) وتركب الكلمة من (وا + آليلي) فهي (WA + a/ ULILI) ومعناها (ورد شجر الغار (Laurier - Roze) اشارة إلى مكان ورد شجر الغار وهو لفظ بربري مذكر، ثم كانت وسيلة التعريب وضع (تاء مربوطة) بنهاية اللفظ على العادة الشرقية في تانيث أسماء المدن العربية.

وعلى العملة الادريسية وما قبلها كان اسم المدينة يقرأ (وليلة) وآخرة (تاء مربوطة)، كما أن المؤلفين العرب في القرنين الثالث والرابع أجمعوا على كتابته (وليلة) كما وجدناه عند ابن خرداذبة وابن الفقيه بالصفحات السابقة وكما ورد أيضا عند المقدسي.

وفي النصوص اللاحقة توجد (وليلي آ/WALILà) كما عند البكري، وقد تكتب هكذا (وليلي)، وقد كتبها ابن أبي زرع (وليلي) بالياء المردودة.

وهكذا، فان تناوب (وليلا) مع (وليلي WALILI) يعتبر أولا تعريباً لأصل بربري ثم عاد الأمر إلى الشكل الأول لظروف تاريخية تتعلق بتعاقب النفوذ العربي والبربري.

وان استعمال الألف المقصورة ياء بدون نقط (وليلى) التي توجد في نصوص الفترة ما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، فإنها تمثل إما (الألف الأخيرة في وليلا WALILA) أو (الياء الأخيرة في (وليلى WALILI).

والخلاصة أن رسم الاسم الوارد على وجه اليقين بالعملة الادريسية المضروبة بنفس المدينة ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري وهو (وليلة) يكون هو الأصل في تاريخ الاسلام، والرجوع إلى الأصل أصل، والله أعلم بالصواب.

تأسيس فاس معلمة الحضارة المعمارية والفنية :

أصبحت فاس منذ تشييدها (حيا جامعيا دائم الحياة تعاقب عليه كبار العلماء والفقهاء والأدباء والأطباء فقد بلغ عد الكراسي العلمية بها حينا من الدهر مئة وأربعين كرسيا، وكأنما هي مركز ديني وقبلة للمؤمنين على مر العصور وقاعدة سياسية لتوجيه الأحداث الكبرى في الداخل والخارج وسوقا تجارية قصدها الناس[1] بتحفهم ونفائسهم) ودارا للصناعة التي امتزجت فيها قدرة الصانع مع عبقرية الفنان.

لقد سحر الناس بوفرة عيونها وصفاء منابعها واعتدال فصولها وما احتضنته من مباهج الشرق والغرب... فكل شيء في فاس... أهل البيت والعلم والايمان والفضل في فاس... والثراء والتجارة والصناعة والفلاحة في فاس، والطبيعة والماء والخضرة في فاس التي جمعت خصال كمال المدن وشرفها وزادت عليها محاسن كثيرة إذ ضمت فيما ضمت النهر الجاري والحرث الطيب والحطب القريب والسور الحصين والسلطان القاهر اذ به صلاح حالها وتأمين سبلها، فلم تزل مدينة فاس منذ أسست وهي دار رفعة وعلم وصلاح ودين وقاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها.

ويقترن اسم فاس[2] بتاريخ الأشراف الأدارسة من أهل بيت رسول الله منذ القرن الثاني للهجرة عندما نجح الامام ادريس الأكبر بن عبد الله ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الامام علي رضي الله عنهم في النجاة[3] من وقعة فخ[4] قرب مكة 169 هـ وقصد المغرب الاقصى لاقامة دولة اسلامية واحياء الدعوة الطالبية.

---

(1) دكتور عبد الهادي التازي : جامع القرويين ج 1 ص 45.

(2) تتضارب الأقوال في أصل التسمية وهل هي مستمدة من فاس وجد أثناء حفرها أو أنه قلب لاسم قديم (ساف) أنظر زهرة الآس ص 24/23، ويرى ابن تاويت ان الاسم من صنيع الفرس ويقبل رواية روض القرطاس بأن أصل الاسم فارسي وأن المولى ادريس الثاني سمى المدينة باسم شيعة من الفرس، مجلة المناهل عدد 5 ص 180 مقال بعنوان : فاس، جولة في احداثها الكبرى وانظر روض القرطاس نشر الفيلالي الرباط 1936 ج 1 ص 58 – 60 عن مميزات موقعها ونهرها.

(3) من المفيد الرجوع إلى مقالنا : عثرات الأقلام في تاريخ الاسلام وعتاب من أجل المولى ادريس جريدة الأنباء الرباط 17 – 7 – 76 للرد على استعمال المؤرخين لفظة (فرار) واطلاقها على حركة المولى ادريس من المشرق إلى المغرب الأقصى.

(4) موقع فيه مويه على مسيرة ثلاثة أميال من مكة ذكرها الشعراء منها ما أورده صاحب زهرة الآس ص 11 :

فلا بكين على الحسين بعـ ـولـة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي تركوه ليس بذي كفن
تركوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كراما قتلوا لا طائشين ولا جبن

رأى المولى إدريس الأكبر استعانة العباسيين بالفرس فلجأ إلى البربر الذين كانوا يتوجهون إلى الشرق لأداء فريضة الحج وطلب العلم ووقفوا على النزعات السياسية وما أصاب الطالبيين من قتل وفتك فودوا التقرب إلى الله بمناصرة أهل البيت.

وقد كان من نفحات النبوة أن يتحول البربر أنصار ميسرة المطغرى لمناصرة المولى ادريس بعد أن بايعه عبد الحميد الأوربي في وليلة بجبل زرهون بمجرد اكتشافه حقيقة نسبه في الرابع من رمضان سنة 172 هـ... فتتحول الخارجية الجمهورية الثائرة على الملكية الوراثية الى مناصرة الامامة العلوية الوراثية بأصولها وفلسفتها ويبدأ تأسيس الدولة في حدود رسالة أهل البيت ونشر الاسلام والجهاد في سبيل الله في نفس السنة.

ذكر ابن أبي زرع وابن خلدون والسلاوي وغيرهم أن الامام ادريس خرج غازيا في نفس السنة بلاد تامسنى وتادلا وقفل إلى وليلة[1] منصورا، ثم خرج بعد أن استراح برسم جهاد من بقي من قبائل البربر على دين المجوسية واليهودية والنصرانية ففتح أولا مدينة شالة[2] وبعدها سائر بلاد تامسنى وتوجه بعد ذلك في شهر رجب من سنة 173 نحو تلمسان لحرب الخوارج بها فلقيه محمد بن خزر المغراوي مبايعا دون قتال فدخلها الامام صلحا وبنى بها مسجدا.

تأسيس مدينة فاس :

وهنا تقفز مشكلة أولية تأسيس مدينة فاس خامسة العواصم الافريقية في الاسلام بعد الفسطاط والقيروان وسجلماسة وتاهرت، وثاني قواعدها الباقية بعد القيروان اذ اندثرت الفسطاط وسجلماسة وتاهرت وأصبحت وقفا على معاول وتنقيبات رجال الآثار.

غير أن المؤرخين المبكرين اختلفوا في تأسيس عدوتي فاس وهل كانت احداهما من بناء ادريس الأكبر أو كليهما، أو أن العدوتين كانتا من بناء ادريس الثاني، كما اختلفوا في تاريخ بيعة ادريس الثاني الأمر الذي يتضح من مراجعة نصوص البكري وصاحب روض القرطاس وصاحب كتاب الاستبصار وابن خلدون.

وليس بخاف ما يصاحب تحديد تاريخ ذلك الحدث وأعني به موضوع بيعة ادريس الثاني من أهمية تتصل بحادث بناء مدينة فاس على وجه من الوجوه، ومن الممكن أن يكون ادريس الثاني الذي فقد والده سنة 175 هـ «قبل أن يولد[3]» قد بويع ثلاث مرات أولها

(1) زهرة الآس هامش 31 ص 12 عن تاريخ وليلة وأصلها وضبط الاسم كما يرى مؤرخ المملكة.
(2) كتابنا تاريخ شالة وكتابنا حفائر شالة للوقوف على علاقة ذلك بالموضوع
(3) الاسلام في المغرب والأندلس تأليف ليفي بروفنسال تعريب دكتور سيد سالم وصلاح الدين حلمي ص 7 : ولد ادريس الثاني في وليلة بجبل زرهون بعد شهرين من وفاة والده مسموما...سنة 175 هـ أو 177 هـ.

سنة 186 هـ تبعا لرواية الجزنائي بعد تخطيه الحادية عشرة من عمره وتحت اشراف مولى والده راشد، ثم بويع مرة أخرى سنة 188 هـ برعاية أبي خالد يزيد الذي حل محل راشد بعد وفاته وكان ادريس الثاني قد تخطى الثالثة عشرة وأصبح راشدا، ثم بويع البيعة الكبرى سنة 192 هـ بعد تاريخ بناء مدينة فاس الذي لا يتأخر في جميع النصوص عن 192 هـ و193 هـ.

فمنذ القرن الثالث الهجري وصف اليعقوبي فاساً بقوله (... المدينة العظيمة التي يقال لها مدينة افريقيا على النهر العظيم الذي يقال له فاس بها يحيى بن يحيى بن ادريس... ومن الجانب الغربي من نهر فاس... المدينة التي تسمى مدينة أهل فاس... بها داوود بن ادريس...).

وإذا كان اليعقوبي ومثله المقدسي قد قرر أيضا وجود مدينتين منفصلتين منذ القرن الثالث، غير أنهما لم يذكرا شيئا عن تأسيس المدينتين[1] في حين نرى جغرافيا من المشرق وهو ابن حوقل وصفها في القرن الرابع وذكر المدينتين المختلفتين وبكل منهما أمير ثم زاد (وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة أحدثها ادريس بن ادريس...[2].

ثم يصفها البكري في القرن الخامس ويقول (... ومدينة فاس مدينتان مقترنتان... بينهما نهر مطرد... وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلسيين... وأسست عدوة الأندلسيين في سنة 192 هـ وعدوة القرويين في سنة 193 هـ في ولاية ادريس بن ادريس...[3].

وفي القرن السابع يكتب ابن أبي زرع تاريخ المغرب العام وتاريخ تأسيس فاس بتفاصيل أكثر ينقلها عنه مؤرخا فاس الجزنائي وابن القاضي في (زهرة الآس) و (جذوة الاقتباس) على الترتيب، ثم تستقر رواية (روض القرطاس) لدى جميع أهالي فاس المعروفين بحبهم للتاريخ وخلاصتها ان ادريس الثاني أسس حي الأندلسيين سنة 192 هـ ثم حي القرويين المقابل له بعد ذلك بعام[4]، فقد ضرب ادريس الثاني أخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوة بعدوة الأندلس وبنى جامع الأشياخ وسور المدينة سنة 192 هـ ثم انتقل سنة 193 هـ إلى الموضع المعروف بالمقرمدة وبنى دار القيطون ومسجد الشرفاء والأسوار وأنزل الوافدين عليه من الأندلس بعد حادث الربض بالعدوة الشرقية فحملت اسمهم وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية فحملت اسمهم.

ومع هذا فان البحث الذي نشره المستغرب ليفي بروفنسال سنة 1938 في حوليات الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر[5] عن تأسيس مدينة فاس وكتاب روجيه لوتورنو تحت اسم (فاس تحت الحماية) باللغة الفرنسية لازالا يستحقان النظر.

---

(1) ليفي بروفنسال، نفس المصدر ص 3/2.

(2) دكتور سيد سالم : المغرب الكبير ص 487 نقلا عن صورة الأرض لابن حوقل ص 90.

(3) نفس المصدر ص 488 نقلا عن البكري ص 115.

(4) ليفي بروفنسال : نفس المصدر ص 9/7، وبهذا اقتنع الدكتور عبد الهادي التازي في جامع القرويين.

(5) يكون هذا البحث الجزء الأول من كتابه الاسلام في المغرب والأندلس.

فبروفنسال يرى أن ادريس الأكبر أسس أولا مدينة فاس سنة 172 هـ محل عدوة الأندلسيين ثم جاء ادريس الثاي فبنى عدوة القرويين سنة 192 هـ[1] بدليل العثور على عملة ادريسية ضربت بفاس سنوات 189 هـ و185 هـ أي قبل تأسيس ادريس الثاني لمدينة فاس سنة 192 هـ، كما يعزز بروفنسال رأيه بنصوص نقلها ابن الآبار عن الرازي المؤرخ القرطبي المتوفى 344 هـ ونصوص أخرى لابن سعيد المغربي وفضل الله العمري والقلقشندي وخلاصتها (وهي مدينتان احداهما بناها ادريس بن عبد الله وتعرف بعدوة الأندلس والأخرى بنيت بعدها...[2].

ونحن لا نستطيع أن نتصور على ضوء دراسة تاريخ الحضارة المعمارية ونشأة العواصم في الاسلام أن يتأخر المولى ادريس الأكبر مؤسس الدولة الجديدة في بناء عاصمة له ولرجال دولته. بل اننا نؤكد هذا الرأي بفكرة ثابتة تاريخيا، فان عددا من دول الاسلام لم يتقرر تاريخ قيامها الا بتاريخ تشييد عاصمتها كحجة على استقرار النظام.

انه تبعا لما فعله الجناح الغربي للاسلام متأثرا بالمشرق، بادر بنو مدرار بتأسيس سجلماسة قاعدة دولتهم سنة 140 هـ، وبنو رستم الخوارج الذين أسسوا تاهرت سنة 144 هـ، وبناء العبيديين فيما بعد مدينة المهدية بالمسجد ودار الامارة والأسوار بافريقية، ثم تشييد المعز لدين الله القاهرة قبل وصوله اليها بماله ورفاة أجداده، وهكذا عهدنا قيام الدولة الجديدة يصحبه مباشرة بناء العاصمة الخاصة، وهو ما يجعلنا نرجح بناء فاس أولا في عهد المولى ادريس الأكبر فيما بين عامي 172 هـ و175 هـ وهما تاريخ ظهوره بالمغرب والاعلان عن الدولة وتاريخ وفاته مسموما على يد مبعوث هارون الرشيد.

ولاشك في أن ادريس الثاني عمد إلى المدينة البربرية المتواضعة التي بناها والده فأعاد بناءها وأنزل بها البربر الذين يريدون التحول من وليلة كما استقبلت الأندلسيين فيما بعد، ثم بنى عدوة القرويين والأسوار[3] وانتقل اليها بحاشيته من العرب والمشارقة.

(1) ليفي بروفنسال : نفس المصدر ص 15.

(2) نفس المصدر ص 22.

(3) تأسيس إدريس الثاني لفاس بزهرة الآس ص 19/18، عدوة الأندلسيين ص 24، عدوة القرويين ص 25 وابتداء من ص 40 بناء الأسوار والزيادات ثم الجامعين العتيقين القرويين والأندلس ص 45 راجع (روض القرطاس) نشر الفيلالي الرباط 1936 ج 1 : ص 41 الخبر عن بناء ادريس بن ادريس مدينة فاس، ص 50 تأسيس مدينة فاس 172 هـ بناء عدوة الأندلسيين وجامع الأشياخ، عدوة القرويين وبناء جامع الشرفاء (ولم يزل على ما بناه ادريس ابن ادريس... لم يزد فيه أحد من الملوك ولا من الرعية تحريا منهم وتبركا... إلى أن خر سقفه... وردت على ما كانت عليه من غير زيادة ولا نقصان وذلك في سنة ثمان وسبعمائة...) راجع ص 64 نفس الطبعة، والمعلوم أن صاحب روض القرطاس وقف بحوادثه عام 726 هـ.

ويدل اعتناء ادريس الثاني بكيان العاصمة الجديدة وعمرانها وتخطيطها وأسوارها ومرافقها ومساجدها ودور الامارة، على وعيه بضرورة اقامة قيروان جديد بالمغرب الاقصى يحتضن الاسلام ويحمل شعلة العروبة لاقرار مشروعه الحضاري الذي هو صلب رسالة الاسلام التي حملها الأدارسة العلويون إلى المغرب الأقصى واستقطبوا لها علوم ومعارف افريقية والأندلس، وهكذا تبدو عاصمة المملكة المغربية (منذ بدء تاريخها الاسلامي وارثة مباشرة ومخلصة لماض طويل من الحضارة)[1].

تلكم هي فاس موطن الأصالة الحضارية ومعلمة بارزة في حياة الاسلام في نصف العالم المعمور الغربي وقد وسمت بطابعها عدة عهود وحقب حتى في أحلك أزماتها[2] عندما تأبى الظروف غير تحول مركز الصدارة عنها.

ان أية دولة جديدة في تاريخ الاسلام بالمغرب لا يمكن لها الاعلان عن تأسيسها إلا بعد دخول فاس وحمل لواء القيادة والزعامة منها.

انها فاس التي وفد اليها ملكان من ملوك الأندلس فيما بعد مستنجدين فقد حل بها السلطان محمد بن اسماعيل بن الأحمر سنة 732 هـ حيث أمده أبو الحسن المريني بجند المغرب وأساطيله لاسترجاع جبل طارق الذي احتله الطاغية منذ سنة 709 هـ، كما حل بفاس سنة 755 هـ السلطان المخلوع الغني بالله صحبة وزيره لسان الدين بن الخطيب مستغيثا بسلطان فاس أبي سالم بن أبي الحسن المريني الذي أعاد له ملكه واسترجع له غرناطة.

لقد استقبلت فاس في رحاب أمير المؤمنين أبي عنان اثنين من رواد التاريخ الاسلامي وكتاب ومفكري الاسلام وشعراء ساحته وهما لسان الدين بن الخطيب الملقب بذي الرئاستين أو ذي الوزارتين وصنوه مؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون اللذين تقلدا المناصب العليا بحضرة فاس.

ويكفي فضلا وشرفا الحديث الذي أورده الجزنائي عن أبي هريرة مرفوعا إلى الرسول صلوات الله عليه (تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة... لايضرهم من خالفهم يدافع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة).

---

(1) بروفنسال نفس المصدر ص 50.

(2) كانت فاس عاصمة الأدارسة ثم العاصمة المركزية بعد حادث التقسيم في عهد الامام محمد بن ادريس الثاني بمشورة جدته كنزة، ثم أصبحت مركز الرحى طوال صراع العبيديين (بافريقية) والأمويين (بالأندلس) وأطماعهم في المغرب طوال العصر الزناتي، واذا كان كرسي المملكة وقاعدة الحكم قد تحول إلى مراكش أيام المرابطين والموحدين، غير أن فاساً ما لبثت أن عادت إلى مكان الصدارة أيام بني مرين والوطاسيين، وبعد أن انتقل كرسي الملك إلى مراكش أيام الأشراف السعدين، عادت فاس لاحتلال موقعها الاستراتيجي في تاريخ المغرب مع الأشراف العلويين إلى تاريخ اعلان الحماية باستثناء فترة حكم المولى اسماعيل الذي اتخذ من مكناس عاصمة لملكه.

والخلاصة أن العصر الادريسي قد خلف لنا تراثا معماريا وفنيا كبيرا بمدينة فاس حاضرة المغرب التي وضع نواتها الأولى المولى ادريس الأكبر منذ عام 172 هـ[1] بتأسيس مدينة بالعدوة الشرقية أسست على الطراز البربري وحملت اسم فاس طورها ادريس الثاني عام 192 هـ وأدار حولها الأسوار وبنى بها جامع الأشياخ من ست بلاطات كما شرع في بناء العدوة الغربية على الطراز الشرقي عام 193 هجرية فأدار حولها الأسوار وبنى بها مسجد الشرفاء من ثلاث بلاطات لصق داره المعروفة بدار القيطون ثم أنزل الوافدين عليه من الأندلس بعد واقعة الربض بالعدوة الشرقية فسميت بعدوة الأندلس وأنزل العرب الوافدون عليه من القيروان بالعدوة الغربية فسميت بعدوة القرويين (أشكال 134 – 135) نسبة على غير قياس فهي مدينة القيروانيين التي اختطها ادريس الثاني على الطراز الافريقي وأطلق عليها رسميا اسم العالية بينما أطلق على العدوتين معا اسم فاس.

(1) عن تأسيس فاس راجع ذلك مفصلا في روض القرطاس وجذوة الاقتباس وزهرة الآس ووصف الجغرافيين العرب كاليعقوبي وابن حوقل والبكري والإدريسي وغيرهم وكتابات عثمان عثمان في تاريخ شالة، وسيد سالم في المغرب الكبير وسعد زغلول بالمغرب العربي وعبد الهادي التازي في جامع القرويين ج 1، وكلها مصادر حديثة جمعت النصوص القديمة وقابلتها وناقشتها، ثم ليفي بروفنسال : الفصل الأول من كتابه الإسلام في المغرب والأندلس ص 1 – 50 خاصة ص 46 حول اسم فاس.

جامع القرويين :

بادرت فاطمة الفهرية أم البنين فأسست بمالها الخاص عام 245 هـ جامع القرويين الأول[1] الذي أصبح أقدم جامعة في العالم بعد أن اجتمع لفاس حاضرة المغرب علوم وفنون القيروان وما وراءها بمصر والعراق. وتراث قرطبة وما وراءها بحواضر الأندلس، فلا زال من أعظم آثار المغرب الاسلامي شهرة على الاطلاق جامع القرويين الذي جاء ذكره مفصلا في روض القرطاس وزهرة الآس على الخصوص، وقد وضعت أساسه الأول أم البنين فاتح رمضان سنة 245 من أربعة أساكيب (بلاطات عرضية من الشرق إلى الغرب) وجعلت محرابه موضع الثريا الحالية وصومعته في موضع قبة العنزة الحالية على محور المحراب وكان صحنه الأول يشغل موضع البلاطات العرضية الثلاثة الأولى ابتداء من العنزة (أشكال 136).

وفي العصر الزناتي تعرض جامع القرويين للتعديل والزيادة على يد الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي سنة 345 هجرية وقد شملت هذه الزيادة مساحة بيت الصلاة (شكل 137) واقامة صومعة جديدة (شكل 138) بدل الأولى بمنتصف الرواق المطل على الصحن من المجنبة الغربية.

وبسبب ازدهار فاس على عصر المرابطين وكثرة العمران بعدوة القرويين شرع أمير المسلمين علي بن يوسف في اجراء زيادة هامة بالمسجد منذ عام 528 استغرقت نحو عشر سنوات وتناولت التخطيط والمداخل والتغطية والمحراب والمنبر والزخارف المعمارية والنقوش التي اكتملت بها عمارة المسجد وحدوده على النحو القائم إلى اليوم (شكل 139).

تاريخ عمارة جامع القرويين :

كان الشروع في حفر أساس جامع القرويين للأخذ في أمور بنائه (يوم السبت مهل رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومئتين).[2].

---

(1) عن تأسيس جامع القرويين راجع كتابات هنري تيراس وبوريس ماسلوف وجورج مارسيه وليفي بروفنسال وعثمان عثمان وسعد زغلول وسيد سالم وعبد الهادي التازي الذي نشر دراسة حوله حصل بها على الدكتوراه من جامعة الاسكندرية.

وروض القرطاس 76/1 عن جامع القرويين وصفته وما زيد فيه في كل زمان من حين أسس إلى 726 هـ.

(2) زهرة الآس المطبعة الملكية الرباط، نشر مؤرخ المملكة المغربية ص. 45.

وكان بموضعه أرض فلاحية لرجل من هوارة فاشترتها منه فاطمة بنت عبد الله الفهري القروي ودفعت الثمن من مالها الحاصل من ميراثها في أبيها وتطوعت لبناء الجامع المذكور ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه الامام ادريس بن ادريس (وبني من أربع بلاطات من قبلة إلى جوف في كل بلاط اثنا عشر قوسا من شرق إلى غرب وجعل محرابه بمقدم البلاط الذي أمام الثريا الكبرى الآن وجعل بمؤخره صحن صغير وبمؤخره صومعة حيث العنزة الآن... وذلك بمطالعة الأمير يحيى)[1].

ولا يتعارض مع تلك الحقيقة التاريخية العثور على لوحة منقوشة من خشب الأرز طولها 4.70 مترا بناحية البلاط الذي كان فيه المحراب القديم نقش عليها بالخط الكوفي «ان الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، شهد الله أنه لا اله إلا هو، سبحان الله العظيم، بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتي سنة، مما أمر به الامام أعزه الله داود بن ادريس أبقاه الله وأكرمه وكلأه ونصره نصرا عزيزا، وفتح له فتحا مبينا».

ولا يستبعد أن تكون اللوحة نقلت من مكان آخر إلى موضعها المذكور بجامع القرويين الأول خشية عليها من الضياع. وليست هذه الحالة فريدة في تاريخ العمارة والنقوش المغربية فان كثيرا من اللوحات التأسيسية نقلت في وقت لاحق لعصر كتابتها إلى مآثر أخرى كما حدث في لوحة تحبيس أبي عنان المريني على شالة الموجودة حاليا بصحن الجامع الكبير[2] برباط الفتح بعد خراب شالة، بالاضافة إلى الأمثلة التي ذكرها الدكتور عبد الهادي التازي[3].

وهكذا كانت القرويين الأولى في عهد الأدارسة تشتمل على أربعة أساكيب تسير في موازاة القبلة وهو ما يفهم من عبارة الجزنائي غير المحددة التي يقصد بها أربعة بلاطات[4] تشغل مساحة عمق المسجد بين القبلة الواقعة جنوبا وبين العمق في الجهة الشمالية. كما يشتمل بيت الصلاة على اثني عشر بلاطا فوقها اثني عشر قوسا يبلغ اتساعها الأفقي الموازي لجدار القبلة طول حائط المحراب.

---

(1) نفس المصدر ص 46 وانظر روض القرطاس 77/1.
(2) كتابنا الفنون الاسلامية والنقوش العربية ص 211 – 212.
(3) راجع النص بجامع القرويين ج 1 ص 47 والتعليق والأمثلة.
(4) جرت العادة عند التمييز بين البلاطات العمودية والأخرى الموازية للقبلة ان ينص المؤرخون على ان البلاطات تسير من الغرب الى الشرق لنعرف انها تعني الأساكيب وعندما ينصون على البلاطات التي تسير من القبلة الى الجوف فنعرف أن المقصود بها البلاطات. فالبلاط في اصطلاحنا العلمي حاليا هو الممر بين الأعمدة عندما يتجه نحو جدار القبلة أما الأسكوب فهو الممر الموازي لحائط القبلة. أنظر تخطيط القرويين عند التازي ص 202.

(وجرى أمر زناتة بأرض المغرب في سنة سبع وثلاثمئة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره وصنع له منبر من خشب الصنوبر... وقيل سنة احدى وعشرين وثلاثمئة، وان الذي أقام الخطبة به إذ ذاك هو الأمير حامد بن حمدان الهمذاني عامل عبيد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب...)[1].

(ولم يزل كذلك إلى أن تقوى ظهور زناتة بالمغرب باستدعاء الناصر لدين الله لكبرائهم ورؤسائهم... إلى أن هوت إليه أفئدة كثير منهم... فقام زناتة بدعوة الناصر لدين الله... وبايعه أهل مدينة فاس... فولى عليها عاملا له من زناتة يعرف باحمد بن أبي بكر الزناتي... فكتب إلى الناصر يستأذنه في بناء الجامع واصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس فأذن له وبعث اليه بمال كثير... فأصلحه وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق، وثلاثة من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه. وجعل بمؤخره الصحن الذي به الآن، وفي غربي هذا الصحن بلاطان وفي شرقيه كذلك وفي جوفه بلاط واحد بعد ان هدم الصومعة التي كانت به لكونها متطامنة الأشراف وبنى الصومعة التي به الآن)[2].

وهكذا يصبح تخطيط جامع القرويين في العصر الزناتي فيما بين عصري الأدارسة والمرابطين عبارة عن بيت للصلاة يشتمل على 21 بلاطا عمودية على القبلة تتجه بين القبلة والصحن (بعد أن كان 12 بلاط أيام الأدارسة) كما يشتمل على سبعة أساكيب عقودها موازية لحائط القبلة بعد أن كان يشتمل على أربعة أيام الأدارسة ثم زود بصومعته الحالية بعد هدم الأصلية لقدمها.

وما زالت تلك الصومعة المربعة التخطيط قائمة للآن (وسعة كل وجه منها واحدا وعشرين شبرا، ويصعد لها على مئة درجة ودرجة، وجعل بابها من جهة القبلة وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصفر، وتم العمل في بنائها على يد أحمد بن أبي بكر الزناتي المذكور في شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثلاثمئة حسبما كتب في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن، وجعل في أعلاها قبة صغرى ووضع في زاويتها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد[3] وركب في الزج المذكور سيف الامام[4] ادريس بن ادريس وجعل تحت القبة المذكورة قبة أكبر منها لجلوس المؤذنين ومبيت المراعي منهم لأوقات الليل وانصداع الفجر لاقامة الآذان[5].

(1) زهرة الآس نفس الطبعة ص 46.

(2) نفس المصدر ص 46 + 47 وانظر التخطيط في العصر الزناتي بجامع القرويين ج 1 ص 202.

(3) نفس المصدر ص 47، وانظر روض القرطاس 79/1.

(4) قصة السيف مفصلة بزهرة الآس ص 47.

(5) نفس المصدر ص 50.

ويعتبر تخطيط الصومعة المربعة في جامع القرويين مثالا أوليا تاريخيا حذا حذوه البناؤون اللاحقون بحيث لم نعرف صومعة أخرى قائمة على نحو ذلك التخطيط في المغرب العربي سابقة على صومعة القرويين غير صومعة المسجد الجامع بالقيروان والتي تعتبر مصدر اشتقاق صومعة القرويين. واذا كان المستشرقون يؤكدون على اقتباس ذلك التخطيط من الصوامع المسيحية بالشام، فان الدكتور عبد الهادي التازي يقدم فكرة رائعة باشتقاق ذلك التخطيط مباشرة من هيئة الكعبة الشريفة التي صعدها بلال للآذان عند افتتاح مكة، كما لا يزال احساسنا شديدا بأن التخطيط المربع الذي حافظت عليه الصوامع المغربية يرتبط ارتباطا وثيقا بنوع الأبراج المربعة في العمارة البربرية القديمة جنوب المغرب التي تستمد أصولها من عمارة اليمن العربية القديمة االأمر الذي يدعمه فيما بعد توافق ذلك النظام مع تخطيط الكعبة الشريفة قبلة المسلمين.

وعندما يتحقق نص ياقوت الذي أشار إليه جرجي زيدان[1] تتضح تماما الأصول العربية للصوامع المغربية المربعة ذلك أن قبيلتا طسم وجديس ــ من ارم مثل سائل العرب البائدة ــ سكنتا اليمامة في شرقي نجد وعاشت عاصمتهم القرية إلى أن بادت دولتهم في أوائل القرن الخامس للميلاد. وكانت (القرية) من أشهر مدنهم في اليمامة ويقال لها خضراء حجر وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم (الواحد بتيل) وهو بناء مربع مثل الصومعة المستطيلة في السماء من طين، وقد رآه المسلمون في القرن الثالث والرابع، وذكر احدهم أنه أدرك (بتيلا) طوله 500 ذراع، ولعل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبع من أحدها.

وأما القبة التي على العنزة[2]فانها من بناء المظفر بن المنصور ابن أبي عامر حاجب الخليفة المؤيد بناها عندما تغلب على فاس سنة 388 هـ، وبنى السقاية والبيلة المستطيلة التي عن يسار الخارج من باب الحفاة الجوفية وجلب لها الماء من وادي حسن بأعلى المدينة من ناحية باب الحديد[3].

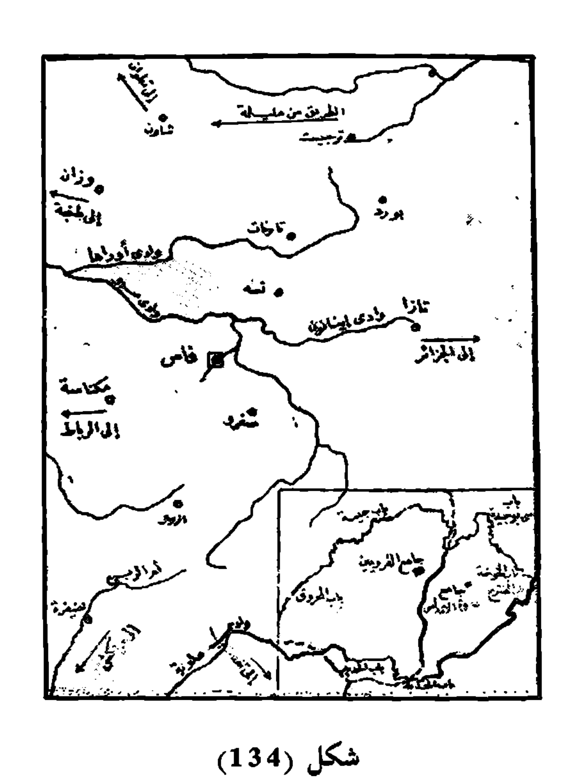
---

(1) العرب قبل الاسلام طبعة 1969 ص 68.

(2) العنزة بفتح النون حاجز من خشب، جامع القرويين للتازي ج 1 ص 53 هامش 35. والعنزة اصطلاح مغربي يقصد به المحراب الرمزي الذي يقام في الصحن عند نهاية بلاط المحراب. والعنزة هو الحربة أو اللواء الذي يركزه شيخ القبيلة في الصحراء قبل قيام الاعراب للصلاة ليحدد موضع المحراب من الفضاء ومقام الامام من المصلين، أنظر أحمد فكري مساجد القاهرة ومدارسها ج 1 العصر الفاطمي ص 142 ومسجد الزيتونة الجامع في تونس ص 89. والمعروف أن هذه العادة كانت متبعة منذ عهد الرسول ﷺ، أنظر البخاري (كتاب الجامع الصحيح، ج 1 ص 106. وقيل ان بلالا كان يحمل العنزة أمام الرسول إلى المصلى في العيدين فيركزها في الأرض ويحدد بها القبلة (أحمد فكري العصر الفاطمي ص 142 هامش 4).

أنظر مايلز عن المحراب والعنزة في: Archaeologica orientalia, New York, 1952 p. 156-177.

(3) زهرة الآس ص 55.

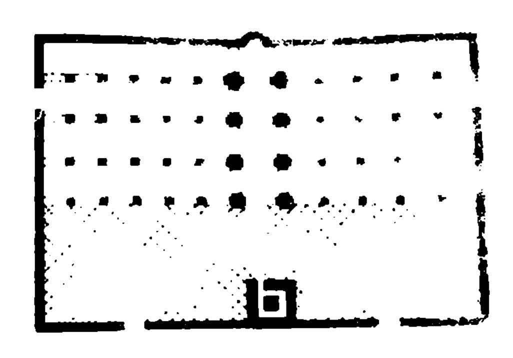


شكل (134)

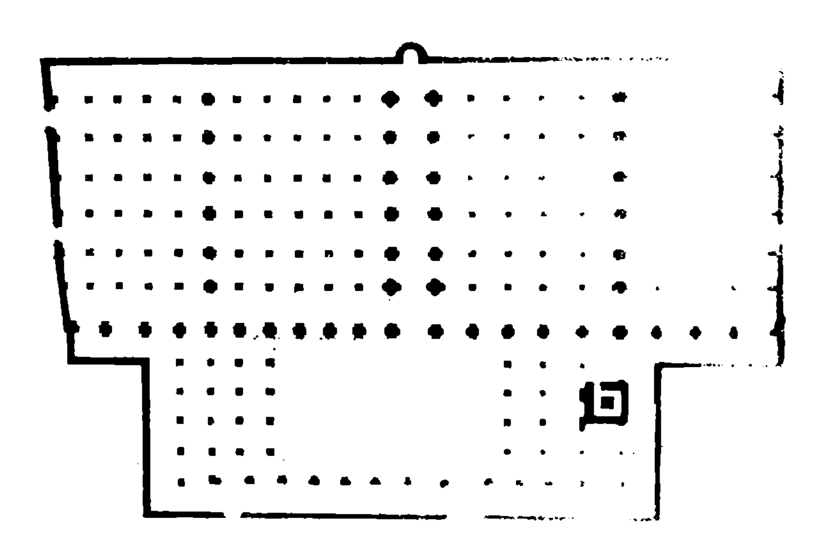
موقع فاس وتخطيط المدينة

شكل (135)

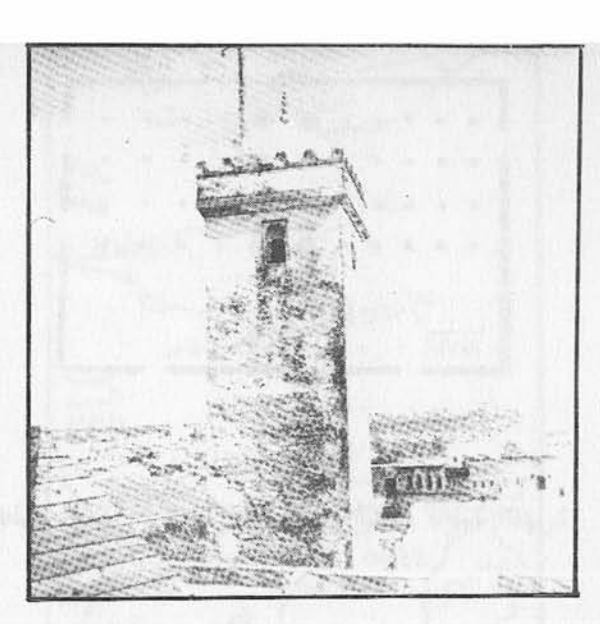
مدينتا فاس



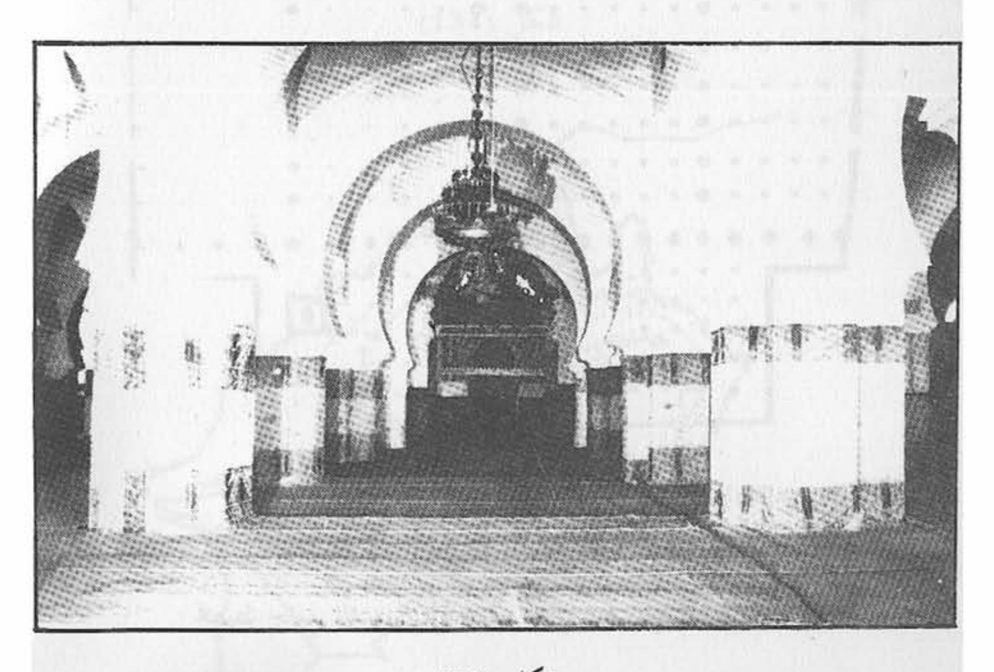
شكل (136)
تخطيط جامع القرويين الأول الذي أسسته فاطمة الفهرية



شكل (137)
تخطيط جامع القرويين في عهده الثاني بعد الزيادة الزناتية.



شكل (138)
صومعة جامع القرويين التي شيدها الزناتيون وبقيت سالمة إلى اليوم.



شكل (139)
بلاط المحراب بجامع القرويين بعد أن اتخذ تخطيطه النهائي في عصر المرابطين

وعندما ضاق الجامع بالمصلين في عصر المرابطين رفع الناس رغبتهم إلى القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي سنة 529 هجرية فشاور الأمير علي ابن يوسف واذن له وشرع في شراء الأملاك التي كانت بقبلي الجامع وكان أكثرها لليهود فهدمت وبيع مالا يحتاج من نقضه وأخذ في بناء الزيادة (فكملت به عشر بلاطات من صحنه إلى قبلته وأخذ في عمل القبة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها...) وغشيت الأبواب بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم وأمر بعمل المنبر الذي به الآن... ثم بدأ العمل في بناء مقدم القبلة حيث يدخل إلى مصلى الجنائز... وكان الفراغ من هذه الزيادات سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

وبهذا يتبين أن تخطيط المسجد الادريسي كان من صحن وبيت للصلاة يشتمل على أربعة أساكيب واثني عشر بلاطا زيد اليه في العصر الزناتي ثلاثة أساكيب من جهة الصحن وأربعة غربا وخمسة شرقا فاشتمل على سبعة أساكيب وعشرين بلاطا. ثم زاد المرابطون ثلاثة أساكيب خلف حائط القبلة القديم وأصبح تخطيطه النهائي مشتملا على عشرة أساكيب (nef transversal)[1] واحدى وعشرين بلاطا، ومن زيادات المرابطين كذلك بناء الباب الغربي الكبير الذي بسماط الموثقين بنى من مال الأحباس في أيام القاضي محمد بن عيسى السبتي سنة 505 هجرية وكذلك باب الشماعين أيام القاضي محمد بن داود سنة 518 هجرية حسبما كتب في قبة الجص التي بداخلها وهو الذي زاد في الصحن بناء البلاطين من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك[2].

وقد تبقى نقشان تاريخيان من عصر المرابطين بمواجهة المحراب والقبة التي توازيه الأول عبارة عن نقش داخل شكل مثمن في أعلى الواجهة نقرأ فيه (عمل عبد الله بن محمد وكمل بحمد الله وحسن عونه في شهر رمضان المعظم احدى وثلاثين وخمس مائة). أما النقش الثاني بين الافاريز التي تحيط بالقبة فنصه (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسول الله مما أمر بعمله عن أمر الملك العادل الآمر بالخير والفضل أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف ابن تاشفين، أدام الله له أسباب التأييد والتمكين الفقيه المشاور الاجل الامام القاضي الأفضل أبو محمد عبد الحق ابن عبد الله بن معيشة الكناني أدام الله توفيقه فعمل ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم وعنده تعالى وجل حسن الثواب وكريم المآب فرحم الله من قرأه ودعاه إلى الله سبحانه في عاجل القبول واعظام الاجر والمجازاة له يوم النشر والحشر وكان اتمام ذلك كله بحمد الله وعونه في سنة احدى وثلاثين وخمس مائة)[3].

---

(1) أنظر دراسة التخطيط عند جورج مارسيه في العمارة الغربية ص 197 – 200.

(2) زهرة الآس ص 65 – 66 الذي زاد في الصحن أيام المرابطين محمد بن داود سنة 518 وليس محمد بن عيسى السبتي 505 كما ذكر الدكتور التازي في جامع القرويين ج 1 ص 66 ولعله سهو صححه ص 73.

(3) جامع القرويين ج 1 ص 71 هامش 22 ص 75.

كذلك نقش على عنزة المرابطين في قسمها العلوي (صنعت هذه العنزة في شهر شعبان المكرم سنة أربع وعشرين وخمسمائة). وإذا كانت العنزة بفتح النون كهيئة نصف الرمح غير أنها في المغرب مع تسكين النون تعني الحاجز الذي يحمي واجهة بيت الصلاة على الصحن. وهي في القروين الواح الأرز المنقوشة بسعة الاسكوب المطل على الصحن تستعمل كمحراب يستقبله الامام في الصلاة صيفا.

ولم يغير الموحدون في التخطيط العام للقرويين وإنما أضافوا عناصر ووحدات معمارية وزخرفية أخرى بعد أن مرت فترة عبد المؤمن بن علي فحين عزم على دخول فاس والصلاة في الجامع المذكور عمد الى النقش والتذهيب الذي كان بأعلى المحراب ودائرة القبة التي عليه فغطى ذلك بالكاغد وعمل عليه الجبص إذ رأى أن ذلك كان مشغلا للمصلين[1]. وكان من أعمال الموحدين قبة الجبص بالباب الغربي الكبير وهي القبة المقربسة الصناعة مما أنجزه الخطيب محمد بن عبد الله بن موسى المعلم سنة 617 هجرية.

وبأمر الناصر الموحدي و اذنه للفقيه الصالح أبي محمد يسكر تم توسيع باب الحفاة وتجديده وفتح الباب المقابل لفندق ابن حيون من الجهة الشرقية من القرويين وأنشئت البيلة[2]، وهي صهريج من الرخام مستطيل ملاصق للأرض، والخصة ودار الوضوء.

وكان لدار الوضوء 15 بيتا، ولكل بيت مصراعان، فوق كل بيت طاق لدخول الضوء وبكل بيت أنبوب نحاس ينصب منه الماء الى نقير محفور في حجر طوله شبران وبالجهة القبلية

والشرقية والجوفية 11 طاقا لدخول الضوء، وكان بوسطها بيلة من الحجر الأحمر طولها عشرون شبرا وبوسطها ذراع مجوف ركبت عليه شبه خرشفة فيها عشرون ثقبا كلها نحاس مموه بالذهب ينصب منها الماء للبيلة. وقد أدار البناؤون بالبيلة مقعدا لجلوس المتوضئين.

ثم قدم لعمل البيلة والخصة اللتين في الصحن رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه أبي الحسن بن عبد الله السجلماسي من أهل المعرفة بالبناء والهندسة فعمل البيلة وما حولها من الرخام الأبيض جعل طولها اثني عشر شبرا وارتفاعها ستة أشبار وأدار بذلك تكفيف رخام وجعل شباكا من الرخام من مئة وأربعة وعشرين خاتما وكتب تحته في خط منقوش بارع ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ... وَأَنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارَ...﴾ كمل في شهر جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة[3].

---

(1) زهرة الآس نشر وتحقيق مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور ص 68.

(2) أنظر الهامش 133 ص 70 زهرة الآس نفس الطبعة (وأصل البيلة كلمة اسبانية).

(3) أنظر النص الكامل في زهرة الآس ص 73.

وفي عصر بني مرين وبالذات سنة 685 هجرية (شرع في إصلاح الصومعة المذكورة ــ صومعة القرويين الزناتية ــ وتبييضها بالجص والجير بعد أن سمر فيها من خارجها ثلاثة قناطير وربع قنطار ونصف ربع قنطار من مسامير الحديد، ودلكت بعد تبييضها حتى صارت كالمرآة بعد أن كانت الطيور تعشش في فرج كانت بها فانقطعت اذايتها، وبنيت أيضا الغرفة المطلة على باب الصومعة وانتقل اليها مبيت المراعي وجلوس القومة[1].

وعندما لاحظ المرينيون اندثار الثريا الكبرى القديمة صنعوا أخرى تماثلها في الجرم (أيام الخطيب أبي محمد عبد الله محمد بن المعلم... وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن)[2] وقد أمر السلطان يوسف المريني أن تسرج كلها في ليلة السابع والعشرين من رمضان ويسرج بعضها في سائر ليالي العام. كما أقيمت العنزة المرينية غربية الصنعة دقيقة الخرط سنة 686 بعد أن أصلح السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة 682 الحائط الشرقي مع سقف البلاطين المتصلين به وجاء يوسف بن يعقوب فأصلح الحائط الجوفي من حد الساباط الفاصل بينه وبين الدار الموقفة لسكنى الائمة سنة 686 هجرية وفي عهده بنى أبو الحسن علي بن محمد ابن عبد الكريم والي فاس الباب المدرج على غرار الباب الذي أنشأه الناصر الموحدي لجامع عدوة الأندلسيين (وصنع أسفله نقيرا من خشب مصفح بالرصاص وجلب له الماء من عيون ابن الصادي... وعمل عليه شباكا من خشب الأرز... وصنع بأعلى الأدراج بابا عظيما يدخل منه لقبلة الجامع)[3].

ولما وصل الى فاس الناقوس الكبير الذي الفى بجبل الفتح. أمر أبو الحسن المريني أن يعلق بالبلاط الأوسط المقابل لباب الكتبيين وعلى نطاقه نص تاريخي بذلك[4]. كما أضاف أبو عنان خزانة الكتب وخزانة المصاحف سنة 750 ثم أضاف خلفه زاوية القراء سنة 762 هجرية.

---

(1) زهرة الآس ص 51.
(2) زهرة الآس ص 69.
(3) نفس المصدر ص 74.
(4) نفس المصدر ص 75.

جامع الأندلسيين

تاريخ التشييد والاسم :

شرعت مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري في بنائه سنة خمس وأربعين ومئتين بعد أن اشترت أرضه من مالها الخاص الموروث عن أبيها، واستمد اسمه من عدوة الأندلسيين العدوة الشرقية من فاس التي أنزل بها الامام ادريس بن ادريس الوافدين عليه بعد حادث الربض قرب قرطبة.

وتبدو البساطة في مواد البناء، اذ أقيمت الحوائط الخارجية جميعها بالتابية بينما خصص الآجر لبناء الدعائم (Piliers) والعقود وأركان المداخل وكان الملاط فقيرا في نسبة الجير. وكانت عقود بيت الصلاة في البلاط الأوسط من النوع المتجاوز كامل الاستدارة (Plein cintre outrepassé) وذو ثلاثة مراكز وهو نوع فريد بالمغرب.

ومن الملاحظ في تخطيط المسجد الحالي أن أسكوب المحراب ليس أكثر سعة من بقية الأساكيب بينما البلاط المحوري (nef axiale) المتجه نحو المحراب يكون أكثر سعة من بقية البلاطات وهذا دليل على أن التخطيط الحالي لا يلتزم خطة البلاطات والأساكيب الأصلية من العصر الادريسي.

التخطيط والزيادات :

وما زال تخطيطه الادريسي غامضا كما يصرح جورج مارسيه[1] الأمر الذي يؤكده الدكتور عبد الهادي التازي بتصريحه أن الجزنائي فهم ان وصف البكري لمسجدي الأشياخ والشرفاء كان يقصد به القرويين والأندلسيين ويتضح لنا ذلك من جهة أخرى من قول الجزنائي نفسه بآخر مؤلفه زهرة الآس (وهنا انتهى القول فيما قيدته واختصرته... مع أنني لست من أهل التأليف ولا من المعرفة في التصنيف... فمن وجد خطأً فليصفح...)[2] كما نلاحظ عدم دقته في اختيار العبارات الصحيحة للدلالة على اتجاه البلاطات لتحديد صفتها ان كانت أساكيبا أو بلاطات.

وازاء ذلك الغموض فهل بقي المسجد على تخطيطه الأول منذ عام 245 إلى 321 عندما نقلت اليه الخطبة من جامع الأشياخ على يد الأمير حامد بن أحمد الهمداني عامل عبيد الله الشيعي بعد أن تغلب على فاس وعين لخطبته أبا الحسن بن محمود الصدفي ؟

ان ذكر الجزنائي لقول البكري أن المسجد كان يتكون من ست بلاطات[3] وصحن

---

(1) مارسيه : العمارة الاسلامية الغربية ص 211 – 212، وعن تاريخ جامع الأندلسيين من البداية الى تاريخ الاضافات السابقة على عصر الموحدين والمرينيين انظر جامع الأندلسيين لهنري تيراس ص 7 – 13 ثم دراسة تخطيط الجامع المذكور بالفصل الثاني ص 14 – 17.

(2) زهرة الآس نشر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ص 98.

(3) أي ست أساكيب لان القدماء يصفون الأساكيب الموازية للقبلة باسم بلاطات ويحددون اتجاهها من الشرق إلى الغرب.

يمكن أن يحدد مساحة بيت الصلاة ان صح قصد البكري لوصف جامع الأندلسيين، بحيث يحدد حالته في القرن الرابع ولكن الأمر مازال غامضا فهل كان المسجد من ستة أساكيب منذ عصر الأدارسة (شكل 140 – 143)، وأنه بلغ تلك المساحة بعد زيادة القرن الرابع.

الصومعة :

تبدو البساطة في صومعة جامع الأندلسيين (شكل 144) واضحة بالنسبة لصومعة القرويين المعاصرة لها بسبب اهتمام الخليفة الناصر الأموي بصومعة القرويين وارساله الأموال الى عامله بفاس لبنائها لمكانتها الخاصة التي انفردت بها منذ البداية، بينما كان تأسيس وانشاء صومعة مسجد الأندلسيين بمجهود ذاتي من عامل المدينة دون ميزانية خاصة من الخليفة الأموي. وقد بنيت بالحجر المغطى بالملاط وجعل لها سلم يدور حول نواة مركزية يغطيه قبو.

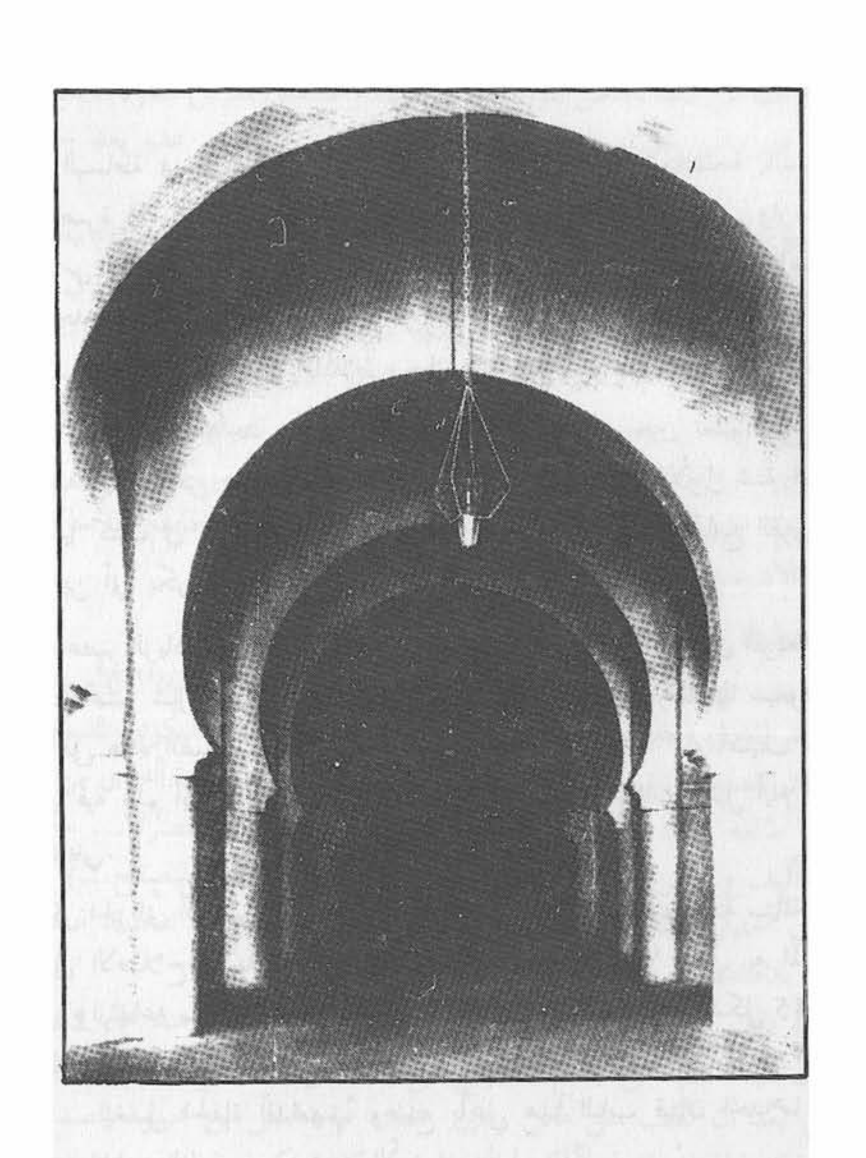
يقول الجزنائي أن (أحد عمال الناصر لدين الله المرواني حين تغلبوا على بعض بلاد المغرب زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التي فيه وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وثلاثمئة حسبما كتب في عتبة بابها)[1] وذلك ما حدث مثله بالنسبة لجامع القرويين على يد الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي في نفس التاريخ.

ومنذ عصر الزيادة الزناتية كانت الصومعة على هيئة صومعة القرويين المربعة وسعة (كل وجه منها ستة عشر شبرا وفيها من الأدراج أربع وسبعون درجة وارتفاعها سبعون شبرا فيما يذكر وفي أعلى هذه الصومعة قبة لجلوس المؤذنين لتداول الآذان[2] ثم أضيف لها صار من خشب ينشر فيه علم أبيض أوقات صلاة النهار وفنار مسرج أوقات الليل أيام أمير المؤمنين أبي عنان المريني.

ويذكر الجزنائي أن المسجد لم يتبدل إلى عصر الناصر الموحدي سنة ستمائة حيث وُجد في حاجة إلى الاصلاح والبناء (فأمر ببناء الباب الكبير الجوفي[3] الذي به المدرج وسعته عشرون شبرا وارتفاعه سبعة وعشرون شبرا وأدراجه أربع عشرة درجة (شكل 145) وبأسفل أدراجه شباك من خشب الأرز فيه ثلاثة أبواب في الوسط منها بيلة من الحجر الأحمر يتفجر منها الماء[4]... ليغسل الحفاة أقدامهم. وصنع بأعلى هذا الباب قبتان احداهما من الجبص مقربصة من داخله والثانية من خشب الأرز من خارجه[5].

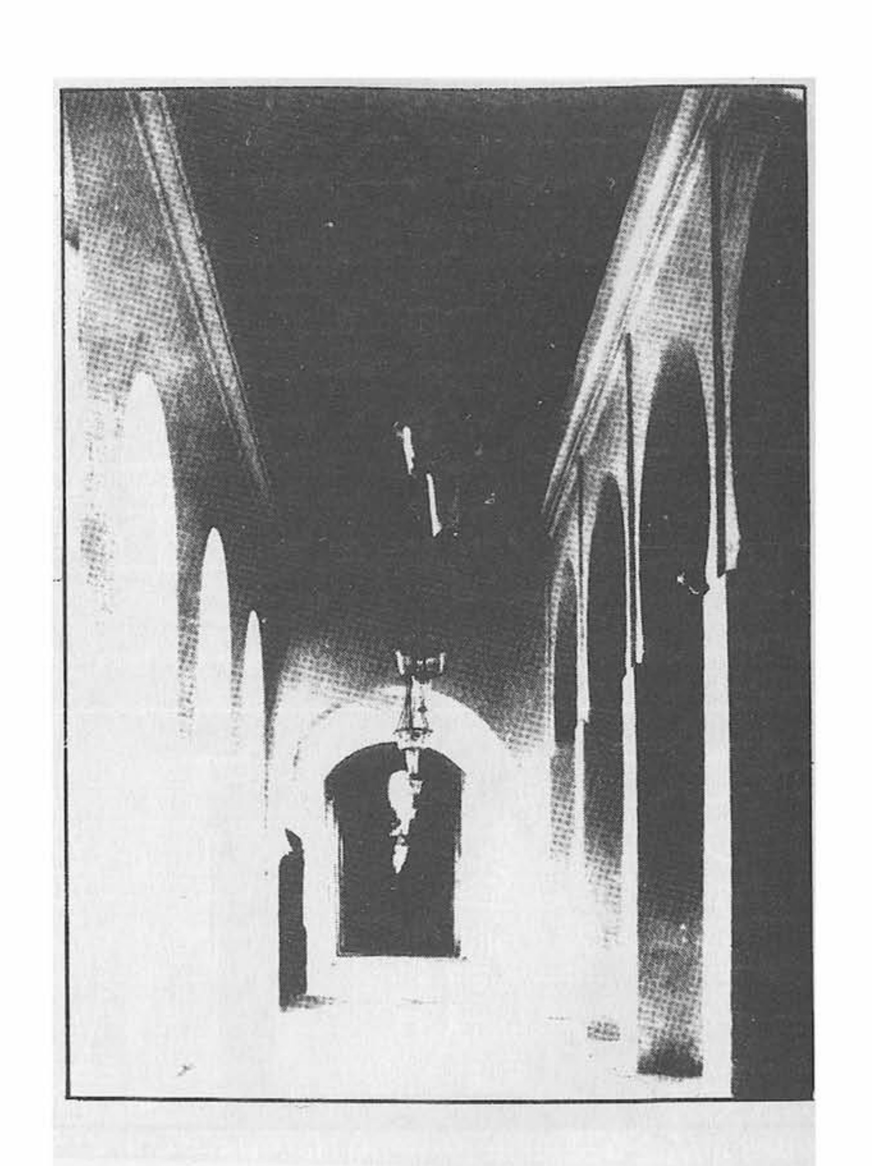
---

(1) زهرة الآس ص 92.
(2) نفس المصدر ص 94.
(3) الجوفي تعني الشمالي لأنهم تعودوا وصف المسجد قبلة وجوفا.
(4) البيلة تعني الحوض.
(5) زهرة الآس ص 92 – 93.



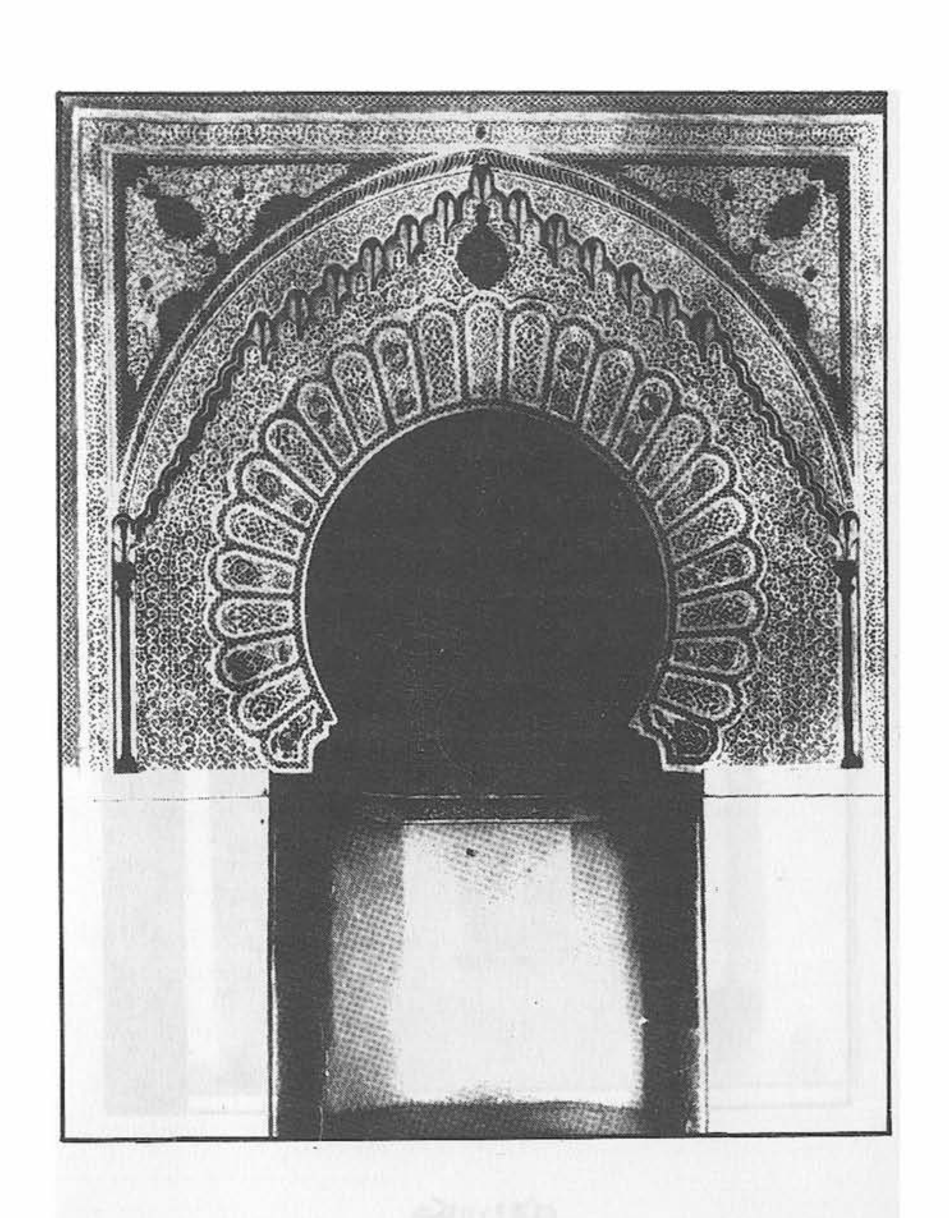
شكل (140)

بلاط المحراب في جامع الأندلسيين بفاس

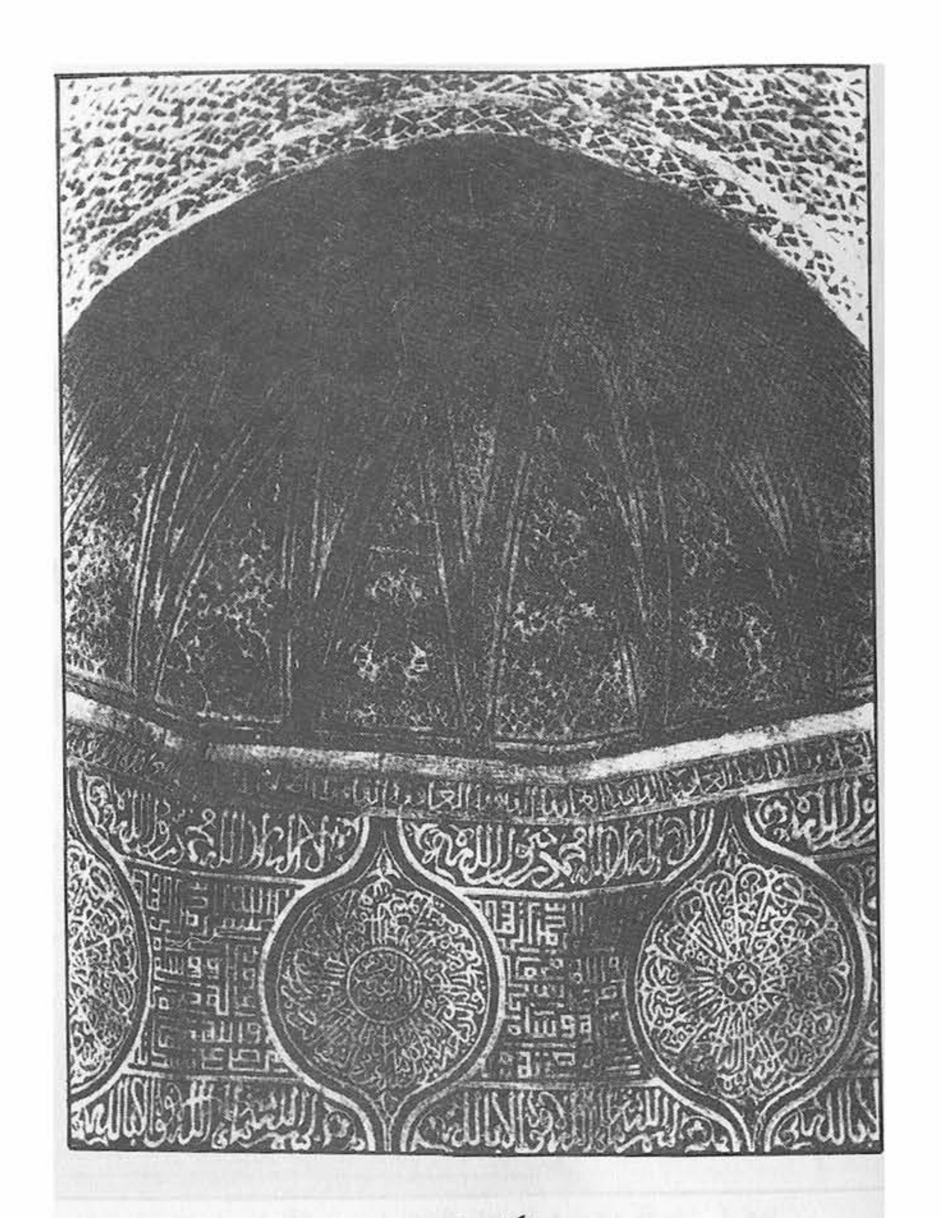


شكل (141)

اسكوب داخل بيت الصلاة بجامع الأندلسيين بفاس

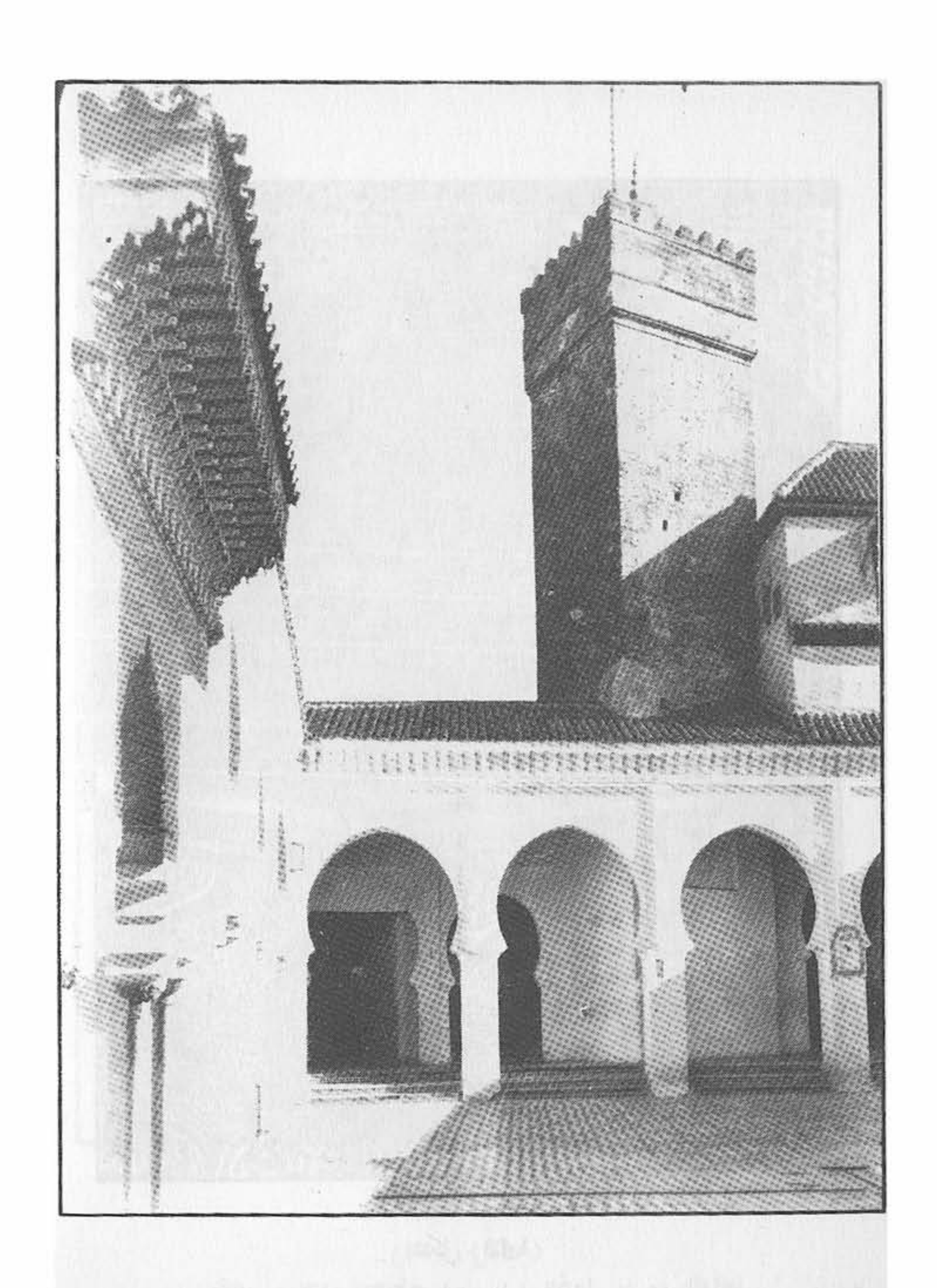


شكل (142)
تفصيل زخارف محراب جامع الأندلسيين كما هي الآن



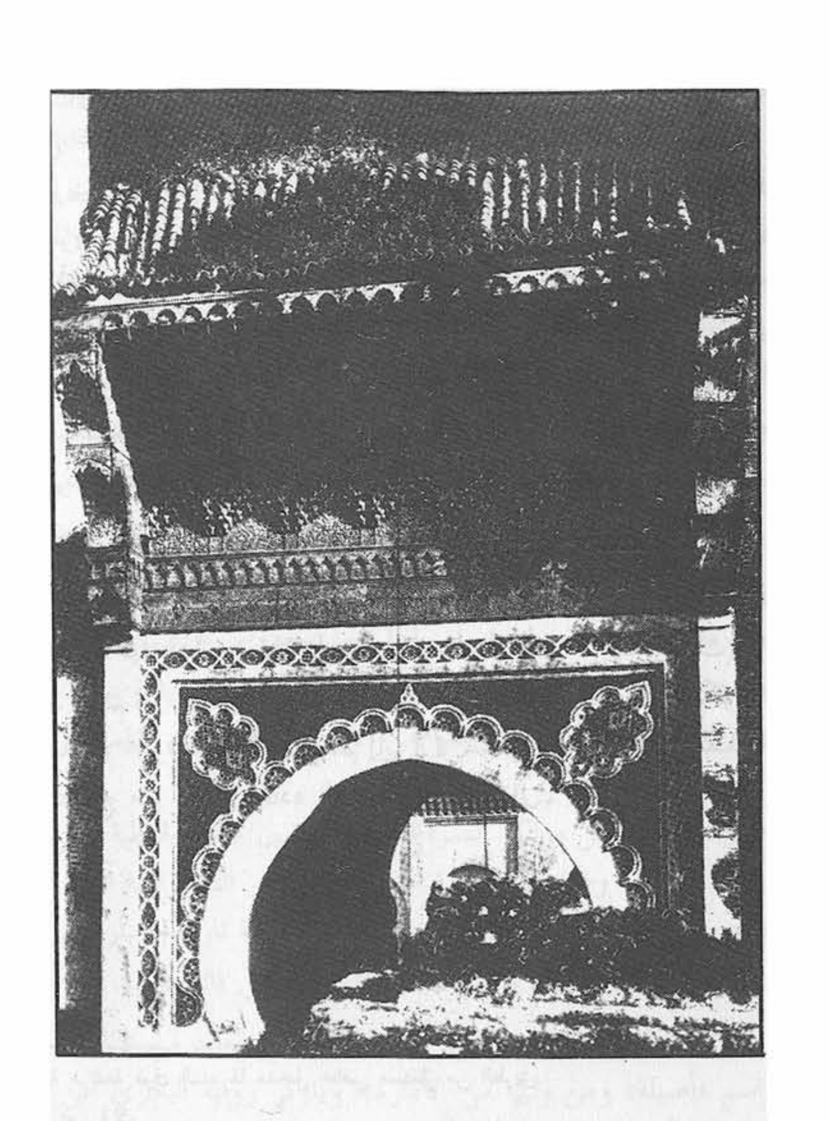
شكل (143)

تفصيل زخارف طاقية محراب جامع الأندلسيين من الداخل



شكل (144)

صحن جامع الأندلسيين وصومعة المسجد شقيقة صومعة جامع القرويين



شكل (145)

تفصيل زخرفة وعمارة المدخل البارز لمسجد الأندلسيين بفاس

وأمر أمير المؤمنين الناصر الموحدي (ببناء سقاية ومدخل لبيت صلاة النساء وعليهما مصرية[1] لأئمة الجامع وذلك عن يمين الخارج من باب المدرج المذكور)[2] كما بنى قرب ذلك سنة 604 دارا للوضوء تحاكي التي بجامع القرويين.

ثم أمر أبو زكريا يحيى نجل خلفاء الموحدين بعمل البيلة والخصة بصحن جامع الأندلسيين على غرار بيلة القرويين وخصتها.

وأيام المرينيين أمر أبو يعقوب يوسف سنة 695 باصلاح المسجد بعد أن (اعتل سقفه وجملة من سواريه... فأمر باصلاحه على ما هو عليه الآن)[3] ثم جلب له خلفه أبو ثابت عامر الماء من العين التي بخارج باب الحديد بعد أن اعتل مجرى الماء الذي عمله الناصر وأمر ببناء (السقاية بالجهة الغربية من جوفيه وذلك سنة سبع وسبعمائة)[4].

على أن الشيء الثابت بالنسبة لتخطيط المسجد واتساعه وعمارته هو ما آلت اليه حالته بعد أعمال أبي يعقوب يوسف المريني (فأمر باصلاحه على ما هو عليه الآن) وهذه هي عبارة الجزنائي المعاصر لدولة المرينيين الذي وصل بحوادثه الى سنة 766، وهذه هي سعة المسجد ابتداء من ذلك العصر يجمعها الجزنائي في قوله :

(وعدد بلاطاته من شرق إلى غرب خمسة عشر بلاطا ومن قبلة الى جوف ثلاثة عشر بلاطا... وفي طوله على هذا من قبلة الى جوف مئتا شبر وفي عرضه كذلك)[5] فيكون طول جدار القبلة قد قسم الى 15 بلاطا تشغل طوله من شرق إلى غرب كما يكون عمق المسجد من القبلة جنوبا إلى الجوف شمالا قد قسم إلى 13 أسكوبا بحيث تكون مساحة بيت الصلاة مربعة حسبما يتضح من قياس أبعاده التي ذكرها الجزنائي[6].

---

(1) المصرية غرفة مرتفعة فوق البناء لها مدخل خاص مستقل من الطريق.

(2) زهرة الآس ص 93.

(3) زهرة الآس ص 93.

(4) زهرة الآس ص 93 والمعلوم أن أبا ثابت عامر تولى بعد يوسف الذي توفي أثناء حصار تلمسان سنة 706 هجرية كما هو منقوش على مقبريته، انظر تفاصيل ذلك بكتابنا : تاريخ شالة الاسلامية ودراسة مقبريته بكتابنا : الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى.

(5) زهرة الآس ص 93.

(6) عن مساحة الصحن أنظر زهرة الآس ص 94، وعن السواري وعدد الزيادات والثريات ص 94، وعن مشاهير رجال وخطباء وعلماء جامع الأندلسيين ص 94 – 97.

عمارة أصيلة والقصر الصغير ونكور ومليلية والبصرة وبعض مدن الشمال في العصر الاسلامي المبكر (عصر الأدارسة وزناتة)

أصيلة :

نبدأ ذلك برواية لمؤرخ المملكة المغربية الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور حول احدى المدن العريقة بشمال المغرب والتي شهدت أحداث الفترة التاريخية التي تعنينا ابان وجود النفوذ الادريسي بشمال المغرب بعد زواله من فاس وصراع المغرب الداخلي بين الأدارسة وزناتة من جهة، وفروع زناتة من جهة أخرى، وبين صراع الزناتين أنفسهم على السلطة، بالاضافة الى الأطماع الخارجية التي يمثلها العبيديون بافريقية والأمويون الغربيون بالأندلس إلى بداية ظهور المرابطين.

يقول الأستاذ مؤرخ المملكة تحت عنوان (أصيلة عبر التاريخ)[1] انه (في منتصف القرن الأول الهجري دخل الاسلام الى المغرب وأن المدينة عادت إلى الظهور تحت اسم أصيلة) وأنها كانت من حظ القاسم بن ادريس صاحب طنجة بعد التقسيم سنة 213 هـ[2] (828 م).

ويضيف مؤرخ المملكة أنه في سنة 229 هـ (844 م) بنيت أصيلة التي كانت أرضها ملكا لقبيلة لواتة، وأن البكري يذكر عن سبب بنائها أن البربر تسامعوا بوجود كنوز وأموال مخبوءة في باطنها فجاءت كتامة وبنت بها رباطا جعلت منه سوقا عموميا تنعقد ثلاث مرات في السنة فقصدها الناس من الأندلس وسائر الأمصار فخيموا بها وبنوا شيئا فشيئا حتى أصبحت مدينة معمورة، ثم ذكر من وليها من الأدارسة من عهد القاسم بن ادريس الذي بنى سورها وقصرها.

وقد صارت أصيلة من مراكز الصراع بين المروانيين خلفاء قرطبة وبين العبيديين أئمة افريقية على حكم المغرب وصارت واحدة من المراكز التي التجأ اليها آخر الأدارسة عندما ضيق عليهم موسى بن أبي العافية، كما نشر مؤرخ المملكة وثيقة تاريخية عبارة عن رسالة موجهة عام 362 هـ (973 م) من خليفة قرطبة الحكم المستنصر إلى قائدها عبد الرحمن بن أرمطيل.

وقد نشر العلامة الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله بنفس العدد من مجلة المناهل[3] بحثا قيما حول تطور اسم «أصيلة» ومن وليها من الأدارسة ويذكر رواية البكري عن أسواقها الثلاثة سنويا وأنها عمرت وأقام سورها القاسم بن ادريس بن ادريس وبها قبره، فعندما أخرجه أخوه محمد من البصرة نزل (أصيلا) وزهد وبنى مسجدها على ضفة البحر وسورها وقصرها.

---

(1) مجلة المناهل الرباط عدد 16.

(2) كتابنا تاريخ شالة الاسلامية، حادث التقسيم واختلاف الروايات التاريخية في تفاصيله، وقد كانت طنجة في رأينا من نصيب القاسم تبعا لما ذكره البكري وروض القرطاس والسلاوي، كتابنا المذكور ص 146 – 150 والمصادر التي أشرنا إليها.

(3) المناهل نفس العدد 16.

القصر الصغير :

سوف يتضح لنا قريبا الدور السياسي والحربي الذي قامت به مدينة القصر الصغير بالاضافة إلى مكانتها العمرانية بعد انجاز سلسلة من الحفائر والكشوفات الأثرية تناسب دور هذه المدينة الاسلامية المبكرة، فالأمل لا زال معقودا على اتمام الدراسات المترتبة على نتائج الحفائر التي شرع فيها الاخصائيون بين عامي 1974 و1977 م بقصد تحقيق مؤشرات التغيرات الطارئة على مجتمع غرب البحر المتوسط فيما بين القرنين 12 و16 للميلاد (أشكال 146 - 151).

وإذا كان شغل الموقع قديما بواسطة الفنيقيين أو الرومان مجرد احتمال مطروح، فإنه أصبح من الواضح أن قصر مصمودة كان أول الأسماء المتتابعة التي عرف بها الموقع منذ فتح الأندلس في العصر الاسلامي. وقد كان للموقع الاستراتيجي العسكري أهميته البالغة منذ عصر المرابطين كقاعدة عسكرية للجهاد تزايد خطرها في عصر الموحدين خاصة أيام يعقوب المنصور.

بل ان الموقع الاستراتيجي لا يفقد أهميته طوال عصر الموحدين وحملات الجهاد المقدس لانقاذ الاسلام بالأندلس طوال عصر المرينيين الذين عرفوه باسم (قصر المجاز) الذي تحول ابتداء من القرن الثامن الهجري ليحمل اسم (القصر الصغير) وتقل أهميته لاعتماد المرينيين على سبتة كقلعة أكثر صلابة ومركز تجاري هام بساحل المغرب الشمالي.

وإذا كان البرتغاليون قد نجحوا في احتلال الموقع لمدة سبعين عاما بقيادة ألفونسو الخامس ابتداء من عام 1458 م وتمكنوا من إجلاء السكان المسلمين بثرواتهم، غير أن المدينة لم تفقد دورها الحضاري إلى اليوم، لقد كشفت الحفائر الأخيرة عن مساحة محاطة بأسوار ذات أبواب ومبان عامة وعدد من المساكن، وكان بمركز العمران مسجد وحمام وبقايا سوق عامة ترجع الى العصر المبكر للعمران الاسلامي[1].

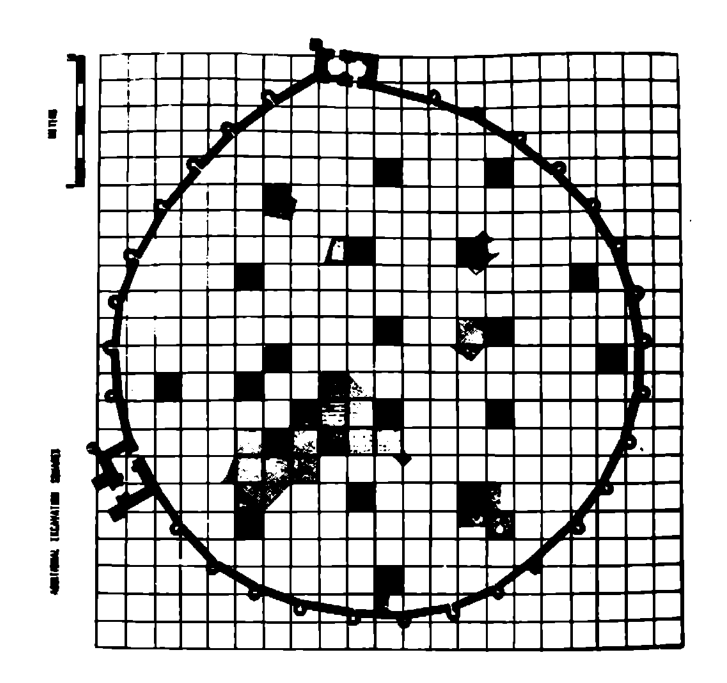
---

(1) Qsar Es-saghir, Thrée Seasous of Excavaition, B. A. M. 1978 P. 151-187.

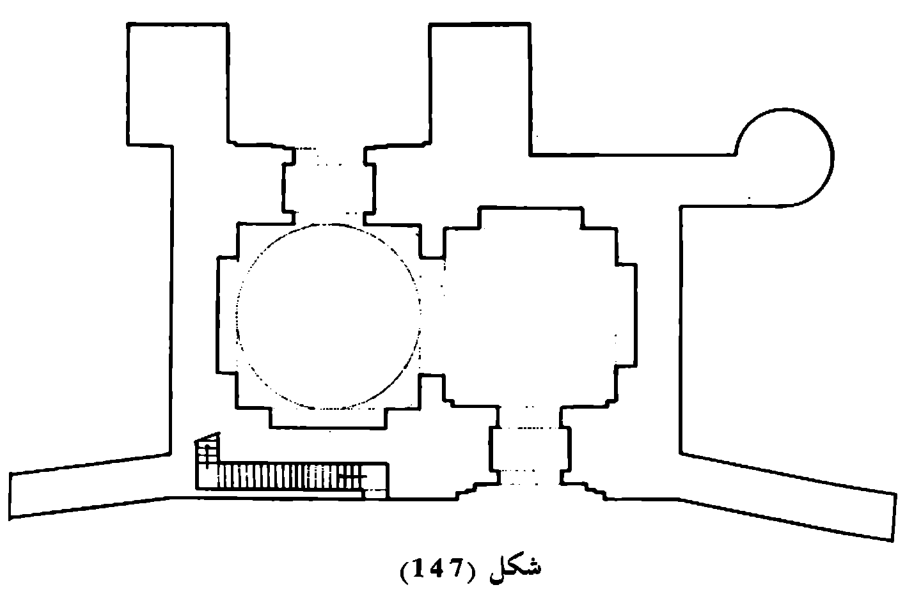
النشرة الآثارية المغربية التي تصدر بالرباط،

أنظر جملة المكتشفات ص 160، باب البحر ص 161، المسجد والمساكن ص 163، دراسة الخزف ص 178/184.

وبالنسبة لنتائج الحفائر المذكورة والمنشورة هنا نتحفظ ريثما نعيد تقييمها شخصيا بالدراسة الميدانية. ذلك أن ممثل البعثة تقدم بعرض أثناء انعقاد ندوة الهندسة المعمارية لبلدان البحر الأبيض المتوسط بوزارة الثقافة المغربية بالرباط شهر أكتوبر 1980. وعندما تدخلت عدة مرات للمناقشة حول أساليب وحجج التأريخ التي استخدموها وعلقت وشرحت وأبنت عن قصور وخطأ معلومات البعثة تراجعوا واقتنعوا بآرائي في محضر الأستاذ الرئيس محمد الفاسي واستدعوني للمراجعة بنفس موقع الحفائر.



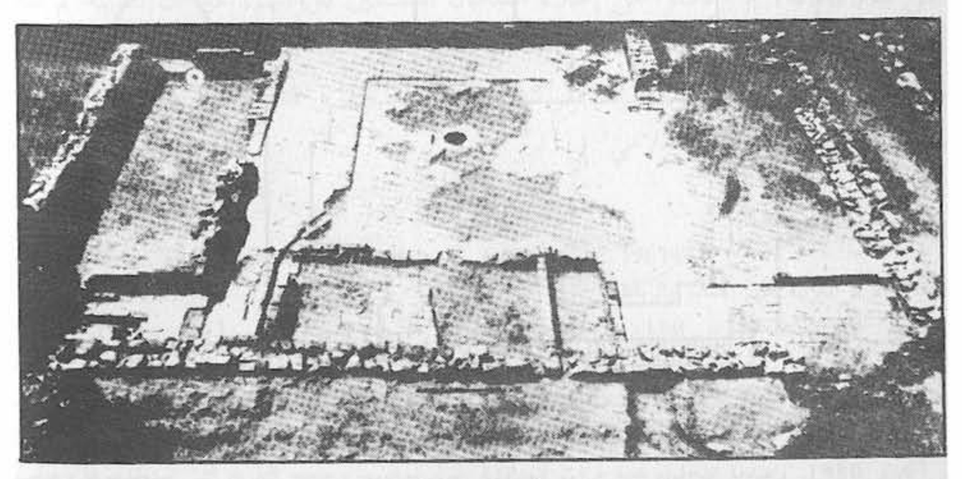
شكل (146)
خريطة تبين مواقع الحفائر بين عامي 1974 - 1977



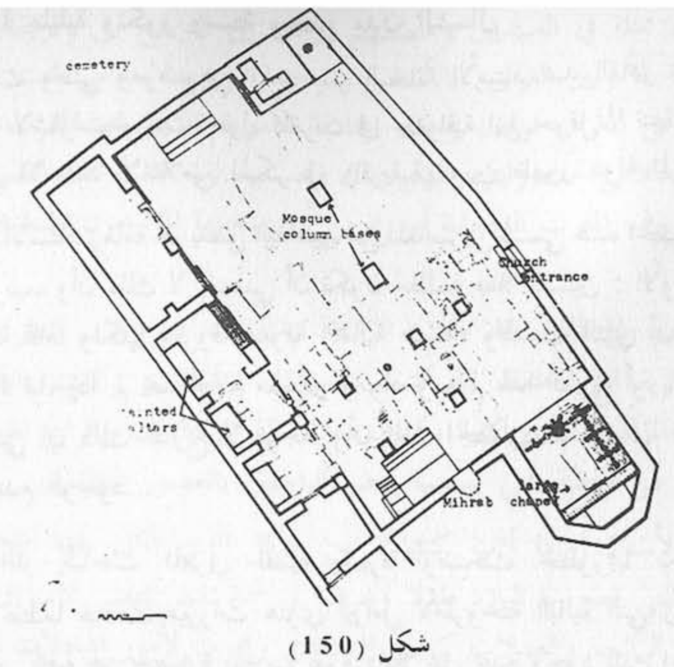
شكل (147)
تخطيط باب البحر المدخل الرئيسي للمدينة الاسلامية
(القصر الصغير) شمال المغرب



شكل (148)
تفصيل من مباني الحمام حيث الأرضيات المبلطة بالآجر



شكل (149)
مسكن اسلامي كشفت عنه حفائر القصر الصغير



شكل (150)

تخطيط الكنيسة البرتغالية وبعض علامات المسجد الاسلامي الأصلي

شكل (151)

خزف كشفت عند الحفائر الأثرية
بالقصر الصغير شمال المغرب

عمارة مليلية ونكور وسبتة وبعض مدن الشمال :

في بحث وطني وموضوعي واع نشر البحاثة الأستاذ عبد القادر زمامة رأيه ونتائج ابحاثه بالنسبة لاشارات وردت حول المغرب في جغرافية ابن حوقل[1] تتعلق بالفترة التاريخية المحصورة بين الامتداد الاسلامي المبكر في (افريقية) وبين ظهور دولة المرابطين.

يقول الأستاذ زمامة أن بعض الباحثين من المعاصرين يسمي هذه الحقبة بالعصور المظلمة في تاريخ المغرب، وأن ذلك لا يقتضي أن تكون مظلمة فعلا لسببين : الأول، أن تلك الفترة ليست مجهولة تماما ولكنها معروفة معرفة اجمالية ضيقة، والسبب الثاني أن الباحث في تاريخ ما أو حضارة ما، إذا لم يجد أمامه مصادر ومواد ومعالم لهذا التاريخ أو تلك الحضارة، فإن هذا لا يقتضي ان ذلك التاريخ لا يوجد وأن تلك الحضارة لم تقم... لأن عدم الوجدان لا يقتضي عدم الوجود.

لقد أثار الباحث المغربي قضية كبيرة أوضحت خطورتها بكتابي تاريخ شالة الاسلامية[2] عندما هدمت مبررات هنري تيراس لأطروحته البالية التي زعم فيها بأن عدم وجود مصادر كافية عن حضارة المغرب يقوم دليلا على عدم وجود تلك الحضارة وأن تخلف الوضع المغربي المعاصر يكفي لاعطاء الدلالة على ماضي المغرب ازاء نقص النصوص مؤيدا محاولته الاستعمارية لاستخدام الحاضر في الحكم على الغائب.

لكنني شخصيا عندما حاولت التأريخ لتلك الفترة من حياة المغرب أطلقت عليها خلال عرضي لتاريخ المغرب من خلال تاريخ شالة اصطلاح العصر الغامض[3]. وها هو الأستاذ زمامة نفسه يقر بذات البحث (بأننا من الناحية المبدئية نلمس شح المصادر وضيق المراجع وغموض المعلومات وتناقض الروايات والأخبار وانطماس بعض المعالم والآثار وكل ذلك يدفعنا إلى البحث المستمر والاستقراء الجاد لكل ما يمت بصلة تاريخية واقتصادية وجغرافية... إلى هذه الحقبة).

ولعله من الضروري هنا الاضافة إلى تلك الأسباب الواردة ببحث الأستاذ زمامة حول أسباب الغموض أسبابا أخرى على جانب من الأهمية بمكان وأعني بذلك تشابك وتنافر وتداخل الصراعات المذهبية والعسكرية وسياسات الأطماع التي فرضت على المغرب من الخارج سواء

---

(1) مجلة البحث العلمي الرباط عدد 19 يونيو 1972 ابتداء من ص 89.

(2) كتابنا تاريخ شالة الاسلامية، المقدمة ص 19 وما بعدها.

(3) نفس المصدر الفصل الخامس خاصة ابتداء من ص 165.

من ناحية الشرق ممثلة في العبيديين وخططهم الرامية إلى التوسع من (افريقية) تجاه الغرب لهدم ركائز خلافة الأمويين الغربيين بالأندلس وتوحيد الغرب الاسلامي تحت امرتهم أو على الأقل الاستيلاء على المغرب لوقف زحف الخلافة الأموية الغربية نحو المغرب العربي بقصد توحيد الغرب الاسلامي تحت رايتهم. ليس ذلك فحسب، لقد كانت تلك الصراعات المتنافرة والمتداخلة مع ظروف المغرب الداخلية أسرع من أن يسجلها المؤرخون تسجيلا أمينا ومنزها عن الهوى.

وعلى الرغم من ذلك فقد حصر الأستاذ زمامة انتباهه ولفت النظر إلى المعلومات الجغرافية والحضارية التي تحتفظ بها كتب «المسالك والممالك» وكتب «الخراج» وكتب «الرحلات» عند المؤلفين الذين كانوا يكتبون خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وتركوا لنا أخبارا مفيدة عن الحقبة التي يسميها بعض الباحثين بالعصور المظلمة.

ويوضح الأستاذ زمامة أهمية كتابات ابن حوقل الذي تكلم بلغة تتلاءم مع السمة الشكلية لرحلته التي قطع بها البلاد طولا وعرضا في سمة تاجر يحضر الأسواق ويبحث عن القوافل والبضائع الرائجة والعملات كخبير اقتصادي ومجرب لأمور المبادلات والصفقات مما جعل معلوماته قريبة من واقع الأشياء دون غموض أو متناقضات.

فعندما تعرض للحديث عن مليلية ونكور والمزمة يلاحظ أن قائد العبيديين في حملته الكاسحة على المغرب اكتسح مليلية وهدم أسوارها بعد أن كانت في يد قبيلة بطيوة التي يسميها بطوية وأنها فقدت ازدهارها السابق، ويعترف ابن حوقل بذلك فيقول عن نكور : ومدينة نكور مدينة مقتصدة في وقتنا هذا وكانت قديما أعظم مما هي وآثارها بينة...

ويقول ابن حوقل عن مليلية : وكانت مليلية مدينة ذات سور منيع وحال وسيع... وكان ماؤها يحيط بأكثر سورها من بئر فيها عين عظيمة، وكانت أزلية فاكتسحها... جوهر الداخل مصر برجال المغاربة.

ثم يتحدث عن مدينة سبتة وكانت إذ ذاك تابعة لبني أمية ولم يكن لهم في عدوة المغرب غيرها (وكأني بها راجعة إلى مولانا عليه السلام...) يقصد به الخليفة الفاطمي الذي كان يخطط سرا وعلنا من أ جل الاستيلاء على الأندلس أو على الأقل انهاك قوى قرطبة.

ويتابع ابن حوقل حديثه عن طنجة ويلاحظ أن الماء الذي يشربه أهلها كان مجلوبا من مكان بعيد في قنى... كما يلاحظ خصبها وصلاح أسعارها.

ويذكر ابن حوقل عدة مدن مغربية كانت قائمة لذلك العهد وهي : زاول وأزيلا وتشمس والبصرة وجرمانة وتوارت والحجر وأقلام وغيرها...

ويعطينا ابن حوقل معلومات تاريخية وجغرافية وحضارية عن : البصرة وأقلام وكرت وماسيتة، ويلاحظ أن غلات هذه الناحية من الحبوب والقطن كثيرة، وأن لآل ادريس نفوذاً على هذه الناحية يأخذون جبايتها ويجتبون خراجها، كما يلاحظ الصراع الذي ما زال يدور بين بني أمية وبين الأدارسة في هذه المنطقة.

ويلاحظ ابن حوقل أن نهر لكوس كان مستعملا للملاحة التجارية حيث ينزل به أهل البصرة تجارتهم وبضائعهم في مراكب ويخرجون بها إلى البحر المحيط...

ويجعل ابن حوقل نهر (سلة) أو (وادي سلة) حدا تنتهي عنده سكنى المسلمين... حيث أن هناك رباطا عظيما...[1].

لقد أوضحت أبحاثنا ودراسة النصوص القديمة للجغرافيين والرحالة أن ابن حوقل أطلق اسم (سلا القديمة) على شالة، وأطلق (الرباط) على سلا، ووصف موقع مدينة الرباط الحالية بأنه (رباط يحف بسلا القديمة) وسلا القديمة هي شالة، كما ذكر وادي أبي الرقراق باسم «وادي سلا»[2].

لقد عنيت بتحليل نص ابن حوقل لاستخلاص نواحي النشاط العمراني بتلك الجهة ابان القرن الرابع الهجري، ذلك العمران الذي يدخل في نطاق أبحاثنا عن الطراز المغربي الاسلامي المبكر الذي عرفه المغرب طوال عصر الأشراف الأدارسة بدولتهم الأولى بفاس ثم تواجدهم بممالك وامارات الشمال ومن بعدهم الزناتيون.

قال ابن حوقل في مسالكه (وادي سبو هو وادي فاس ومن ورائه الى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد وادي سلا واليه تنتهي سكنى المسلمين وهي رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة قد خربت، والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها...) وقد أوضحت بأبحاثي المشار اليها بكتابي تاريخ شالة الاسلامية أن موقع الرباط الذي أشار اليه ابن حوقل انما هو الموقع الذي تشغله سلا اليوم ثم توجد المدينة المعروفة بسلا القديمة وهي ما يعرف اليوم بشالة على مصب النهر وعلى الضفة اليسرى منه، قد خرجت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها وهو الرباط الدي احتلت موقعه مدينة الرباط الموحدية فيما بعد[3].

---

(1) عبد القادر زمامة : نفس البحث ص 92.
(2) كتابنا تاريخ شالة ص 79/78.
(3) كتابنا تاريخ شالة الاسلامية ص 49.

لقد أوصلنا تحليل النصوص التاريخية من القرنين الرابع والخامس لابن حوقل والبكري ومن ورائهم الشريف الادريسي من القرن السادس إلى اثبات وجود عمران لبرغواطة القائمين بتامسنا والمتمركزين في شالة وصمود برغواطة لجميع المحاولات العسكرية ضدهم وتطور العمران بتلك الناحية كما نجد عند البكري وبمسالك ابن حوقل سِيَر أنبيائهم وملوكهم ودولهم[1].

وعندما ذكر البكري ممالك برغواطة وملوكهم تعرض لقصة ورود صاحب صلاتهم على الحكم المستنصر رسولاً من قبل صاحب برغواطة (أبي منصور عيسى... الذي وصل قرطبة في شوال سنة اثنين وخمسين وثلاث مائة وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى... من أهل شالة من بيت خيرون بن خير...»[2]. لقد أثبتنا ببقية ذلك البحث استمرار ودوام العمران بمنطقة شالة خلال ذلك العهد من القرن الرابع[3].

ان الموقع الاستراتيجي والعمران الحربي والمدني المبكر الذي كشفت عنه أبحاثنا قد منح شالة قدرة على لعب دور بارز منذ وصول المولى ادريس الأكبر ومبايعة أهل زرهون له اذ كانت شالة من أول أهدافه التي قصدها لاقرار الاسلام الصحيح بها، ثم مكانتها السياسية والحربية ابتداء من حادث التقسيم صدر ولاية الامام محمد بمشورة جدته كنزة إذ لم تكتف شالة بوضعها كمركز اداري بل تطاولت على عهد أبي الكمال تميم اليفرني صاحب شالة الى غزو فاس نفسها أوائل القرن الرابع[4]، لقد كشفت حفائرنا الأثرية ابتداء من عام 1957 عن قبري الأمير أبي الكمال تميم وولده الأمير محمد ثم التخطيط الأصلي للمسجد الادريسي العتيق بشالة[5].

وعندما نعود مرة أخرى إلى بحث العلامة عبد القادر زمامة نجده يواصل استخلاص توسع العمران من نص ابن حوقل وخاصة (عن الناحية الشرقية حيث يبدأ الحديث عن نهر يناون وقلعة كرماطة وفج تازا فيذكر لنا عدة مدن وقرى... قبل أن يصل إلى ملوية وما كان في ناحيتها من مراكز فلاحية وقلاع حربية ومدن وقرى...)

---

(1) نفس المصدر ص 126.
(2) نفس المصدر 185/84.
(3) نفس المصدر 189/84.
(4) نفس المصدر ص 160/144.
(5) كتابنا حفائر شالة الاسلامية ثم تحليل نتائج اكتشافاتنا بكتابنا الفنون الاسلامية والنقوش العربية.

عمران سبتة الاسلامي المبكر :

نظرا لموقع مدينة سبتة بأقصى شرق شبه الجزيرة الطنجية بمدخل المضيق الذي يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر المحيط، ونظرا لموقعها الدفاعي الممتاز، كانت مدينة سبتة من المواقع العريقة في القدم كمحطة للفينيقيين والاغريق والقرطاجنيين والرومان الأمر الذي اكسبها أهمية خاصة في العصر الاسلامي كما يتبين من وصف البكري لها في أواسط القرن الخامس الهجري[1]، ذلك الوصف الذي ينطبق عليها قبل عصر المرابطين بطبيعة الحال.

كانت مدينة سبتة[2] في ذلك العهد مدينة كبيرة تحتضن حياة صاخبة وكانت مبنية من الأحجار ويرجع تاريخها الى عهد عبد الرحمن الثالث وسوف نتعرف الآن على ملامح عمارتها الحربية ثم الدينية فالمدينة من خلال بحث قيم للأستاذ جاك كاني.

فمن حيث العمارة الحربية يعتقد الأستاذ كاني ببحثه عن مدينة سبتة على ضوء نصوص البكري (أن جهاز التحصين الواقع من جهة القارة والذي وصفه البكري، يشابه على ما يظهر الجهاز الشائع بالأندلس في نفس الفترة والذي كانت أساليبه مستمدة مباشرة من فن العمارة العسكرية البيزنطية) حيث نجد السور المضعف المحصن بتسعة أبراج والباب الوحيد للمدينة من جهة الغرب بالبرج الأوسط، كما نجد سورا أماميا بارتفاع قامة الرجل وخندق واسع عميق يحف بالسور ومن فوقه قنطرة خشبية. وكان السور يشرف على المدينة من جهة الجنوب ويمتد على طول الصخور العالية التي تحف بشاطىء البحر.

(وشمالا كان السور يحمي المدينة من جهة المضيق وكان يمتد على طول ساحل البحر حتى الأراضي الوطيئة التي تشرف عليها شرقا المنحدرات الوعرة...) وكان السور محصنا بعدد من الأبراج ذكر البكري منها (برج سابق)[3] وكانت به باب توصل إلى دار الامارة.

وكان داخل السور من جهة الجنوب من بقايا العمارة الدينية، المسجد الجامع الذي كان من قبل كنيسة ويتكون بيت الصلاة به من خمس بلاطات يتقدمها صحن به حوضان للوضوء، وكان بالمدينة آثار متعددة قديمة من كنائس لعلها من آثار الكنائس الرومانية التي تشهد بقدم عمران الموقع.

---

(1) جاك كاني «تعريب سعيد النجار» : سلسلة مقالات بعنوان (المنطقة الساحلية للمغرب الشرقي في القرن الخامس الهجري، مجلة البحث العلمي الرباط، المقال لأول بعنوان (مدينة سبتة في أواسط القرن الخامس الهجري من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري، عدد 19 يونيو 1972 ص 95 – 99، وقد صدرت المقالات تباعا بالأعداد 20، 21، 22، 24.

(2) عن اسم سبتة يوجد افتراض ان الجبل المجاور لموقعها كان يحمل اسم (سبتيم فراطريس) أي الاخوان السبعة، فاشتق اسم (سبتة) من (سبتيم)، نفس المقال تعليق 3 ص 95 – 96 وعن تاريخ سبتة راجع مقال (سبتة الأسيرة) لمحمد بن تاويت بمجلة البحث العلمي الرباط عدد 25 يونيو 1976 ص 107 وما بعدها.

(3) نفس مقال جاك كاني بمجلة البحث العلمي عدد 19 ص 96 – 97.

ومن حيث العمارة المدنية فقد ضاقت المدينة الاسلامية بالسكان وعرفت انشاء حيين (ربضين) خارج الأسوار من جهتي الشرق والغرب. ولعل أثرياء سبتة حسبما يفهم من كلام البكري قد شيدوا على غرار أغنياء قرطبة بالقرن الرابع مساكن خاصة فخمة بالمنحدرات التي تشرف على المدينة وبحر المضيق، ومن الممكن أن يوجد على مقربة من تلك المساكن الخصوصية حي متواضع لسكنى الجبليين الذين جلبهم ازدهار المدينة.

(ومن الراجح أن يكون ذلك الربض هو الحي الذي كانت تقوم به كل أسبوع سوق يعرض فيها البدو منتجاتهم... كما كانت توجد مقبرة بالاضافة إلى مقبرة أخرى شمال المدينة أشار إليها البكري، وكان بقرب ذلك بستان ينتفع من توفر الماء بآبار المنطقة...)

أما الضاحية الشرقية فيبدو أنها كانت كبيرة وبناياتها كثيفة موصولة مزودة بثلاثة حمامات، وكسائر الأماكن المحصنة في ذلك العصر تبرز مشكلة الماء، ونظرا لموقع هذه المدينة وطبيعة باطن أرضها لزم جلب الماء من الخارج عن طريق قنطرة[1] تحملها طيقان تأتي بالماء من نهر أويات (نهر الخلط الذي يصب على بعد 4 كيلومترات جنوب سبتة) على طول الساحل حتى المسجد الجامع وضرورة توفر الموقع على صهاريج (خزانات) تضمن حفظ القدر الكافي للاستعمال.

ويشير الأستاذ جاك كاني في بحثه المذكور إلى نصوص البكري التي تفيد أن القنطرة تعرضت للتخريب والهدم على أثر الحوادث التي كانت سبتة مسرحا لها أواخر القرن الثالث حيث لم يبق منها سوى بعض طيقان قائمة في الخنادق[2]، فقد استهدفت المنطقة لآثار الصراعات العسكرية بين العبيديين والأمويين فعندما اقترب العبيديون من المنطقة بادر الناصر بارسال أسطوله بقيادة ابن أبي حمامة لاخضاعها[3].

وإذا كان البكري أغفل ذكر نشاط سبتة التجاري (الذي يعكس لنا مستوى الصناعة والفن) الا أنها كانت تمثل نهاية الطريق التجاري الذي كان يمر بسجلماسة وفاس، وكذا الخط التجاري الكبير الذي كان يربط بين مصر والقيروان ووجدة حيث تروج المنتجات الافريقية والشرقية والأوروبية مما يوضح دور سبتة في تبادل الصناعات وتمازج الفنون بالاضافة إلى

---

(1) نسبت القنطرة إلى اليان (يليان)، مقال جاك كاني ص 98.

(2) نفس المصدر ص 97 – 98.

(3) محمد بن تاويت : سبتة الاسيرة، مقال بمجلة البحث العلمي الرباط عدد 25 يونيو 1976 ص 119.

موقعها الاستراتيجي والمحصن الممتاز وأهميتها السياسية ودورها في ربط الحضارات ومزج عبقريات مختلف المجموعات القبلية الكبرى بافريقيا الشمالية والأندلس.

كما كان من أهم مراكز العمران المعروفة أيام البكري بالمنطقة الساحلية للمغرب الشرقي مدينة وجدة و (تابحريت) منفذها الطبيعي بساحل المتوسط التي توفرت على مسجد جامع وأسواق عامرة مزدهرة بالبضائع المستوردة عن طريق البحر والبر فقد أشار البكري إلى أن تابحريت كانت محط السفن ومقصد قوافل سجلماسة وغيرها[1].

(1) مجلة البحث العلمي الرباط عدد 24 أبريل 1975 ص 121 وما بعدها.

الطراز المغربي الاسلامي المبكر

مميزات عمارة الأدارسة :

تتميز عمارة الأدارسة في جامع القرويين بعقودها الموازية للقبلة شأن المساجد المبكرة بالمشرق في مصر بمسجد ابن طولون وفي سوريا بمسجد دمشق وبعلبك[1]. ولا شك أن نظام العقود الموازية كان أوفق للعبادة بمساعدة المصلين على تنظيم صفوفهم[2]. ويرى جورج مارسيه أن الشرقيين المهاجرين أدخلوا هذا النظام إلى المغرب، بينما يعتقد الدكتور فريد شافعي أن العقود الموازية صدرت إلى المشرق من المغرب[3] كما هو الحال في مسجد الشرفاء ومسجد أهل الأندلس 245 هجرية تبعا لوصف البكري، ومسجد شالة العتيق الذي كشفنا عن عقوده الموازية من عصر الأدارسة ثم زناتة[4] (أشكال 152 – 155). وقد استمرت عمارة الطراز المغربي تلتزم نظام العقود الموازية الى بداية عهد المرابطين الذين استخدموا العقود العمودية على القبلة «ما عدا توسعتهم بالقرويين» حتى نهاية العصر المريني لأسباب نوضحها فيما بعد.

ومن المرجح أن العمارة الادريسية أقبلت على استخدام العقد المسمى بنعل الفرس[5] وهو عقد يرتفع مركزه عن رجلي العقد فيتألف من قطاع دائرة أكبر من نصف الدائرة ولهذا يسمى كذلك بالعقد المتجاوز وهو العقد الذي كان شائعا عند معاصريهم الأغالبة بإفريقية كما ظهر بالأندلس أيام الأمويين وهو نوع من العقود المغربية المستوردة من المشرق عن طريق مصر[6]، نظرا لخلو المغرب العربي قبل الاسلام من هذا النوع من العقود. وليس صحيحا ما زعمه كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية ص 297) عند دراسته لجامع قرطبة بأن المسلمين نقلوا عن القوط الغربيين استعمال تلك العقود.

---

(1) جورج مارسيه : العمارة الاسلامية ص 197.

(2) أحمد فكري : المسجد الجامع بالقيروان والمدخل حيث أورد الأدلة والأحاديث.

(3) فريد الشافعي : التأثيرات الغربية (الاسلامية) مقال بمجلة جامعة القاهرة.

(4) عثمان عثمان : حفائر شالة الاسلامية، للوقوف على مميزات وصفات التخطيط الادريسي المكتشف.

(5) أنظر فنون الاسلام لزكي محمد حسن ص 150 وأنواع العقود الاسلامية بالمدخل لأحمد فكري، ويسمى عقد نعل الفرس بالانجليزية Horse shoe وبالفرنسية Plein cintre outrepassé

(6) مارسيه نفس المصدر.

وقد استمرت تلك التقاليد الفنية في عمارة الاسلام بالمغرب على الرغم من ضعف دولة الأشراف الأدارسة وتقسيم مملكتهم ثم سقوطها بفاس، لأن الأمراء الأدارسة الذين أحيوا رسالتهم في الحرب والسياسة والعمران بدولتهم الثانية شمال المغرب قد أسسوا حواضر وعواصم وقلاعاً وحصوناً نافست فاساً ذاتها في احياء الحضارة العربية وتثبيت قواعد العمارة الاسلامية على النمط الشرقي.

الصوامع الزناتية بفاس وشالة :

وفي العصر الزناتي شهد الطراز المغربي انشاء ثلاث صوامع لمساجد ادريسية سابقة وهي صومعة القرويين الحالية وصومعة مسجد الأندلسيين ثم صومعة مسجد شالة الادريسي[1] وقد بنى صومعة القرويين الحالية الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي خلال عامي 344 و345 هـ على غرار صومعة القيروان بمسجد عقبة الجامع، وحسب التقليد الهندسية المغربية تبعا لتصريح ابن أبي زرع[2].

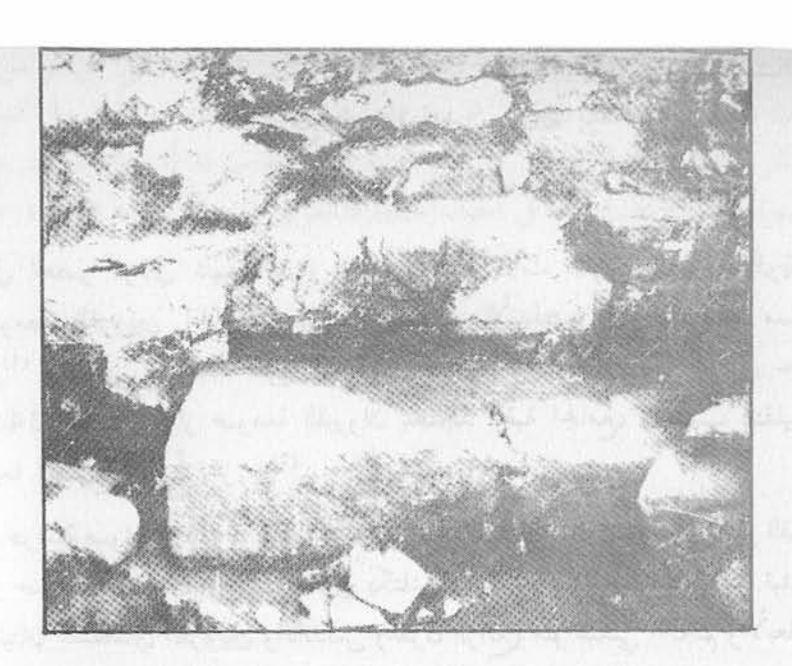
ان دراسة صوامع شمال افريقية والأندلس منذ القرن الثالث الهجري وحتى القرن الحادي عشر تبرز صومعة القيروان (القرن الثاني) بكتلتها الضخمة وعلوها الكبير بينما تبدو صومعتا فاس الزناتيتان بمسجدي القرويين والأندلس (القرن الرابع) متواضعتي الحجم والأبعاد. ثم تعود الصوامع إلى الضخامة والفخامة ابتداء من قلعة بني حماد (القرن الخامس) وصوامع الموحدين الفخمة الضخمة الكتبية والقصبة وحسان والخيرالدة (القرن السادس). ومهما عادت الصوامع المرينية إلى الانكماش بالجامع الكبير بفاس الجديد ومدارس فاس ومسجد بن صالح بمراكش وغيرها (القرن السابع والثامن) فإنها لا تعود إلى تواضع الصوامع الزناتية.

على أن تواضع الصوامع الزناتية لا يقتصر على الأبعاد فقط بل يشتمل على المظهر والحلية كذلك، وان دراسة صوامع شمال افريقيا والأندلس على محور آخر تبين ذلك فلا زالت صومعة القيروان أكثر انسجاما ورشاقة بقلة اتساعها كلما زاد الارتفاع وبانقسامها إلى طبقات ثلاث

---

(1) عثمان عثمان : حفائر شالة الاسلامية، وراجع هندسة الصوامع الزناتية في وصف روض القرطاس.

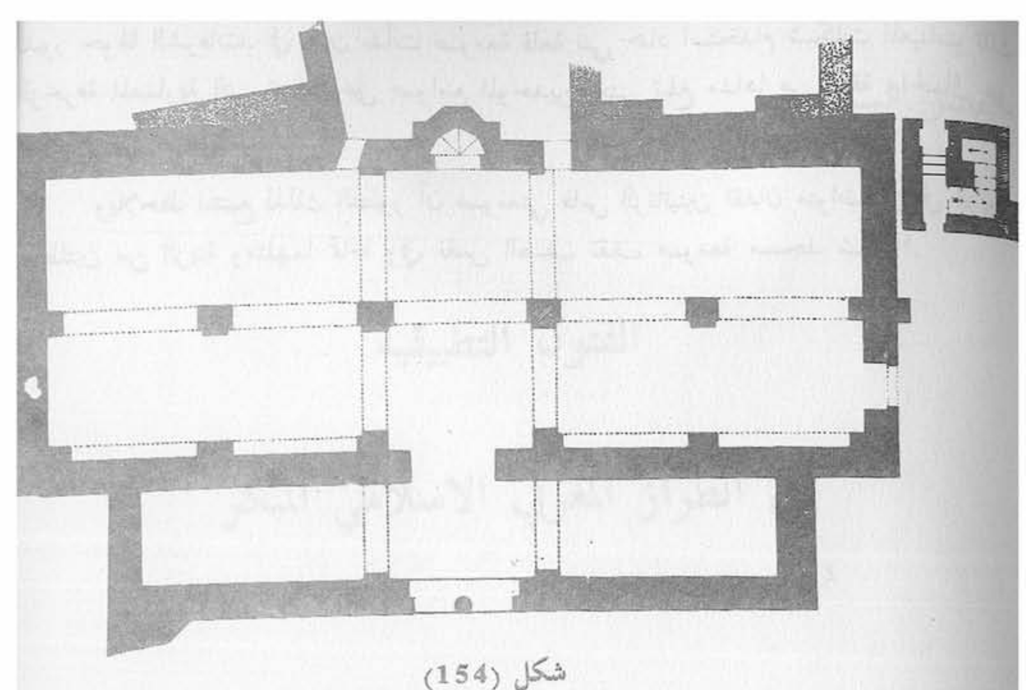
(2) قاعدتها مربعة طول ضلعها نحو خمسة أمتار وارتفاعها أربعة أمثال طول القاعدة (وكذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسي) راجع روض القرطاس وكذلك عثمان عثمان : الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى خاصة الفصل الثاني الخاص بفنون الأدارسة وزناتة. وعن أصل الصوامع وأسمائها. أنظر زكي محمد حسن فنون الاسلام ص 144 وكان العرب يطلقون على أبراج الزهاد اسم الصوامع... وقد عم طراز الصوامع المربع بالمغرب وظلت المئذنة تسمى الصومعة حتى الآن وبعض أهل المغرب يسمونها عساس بمعنى المراقبة أو الملاحظة مما يشهد بأن المآذن لم تكن تستخدم للآذان فحسب بل كانت تستعمل في الكشف والمراقبة في بعض الأحيان، كما تطلق كلمة المنارة على المكان الذي تشعل فيه النار أو ينبعث منه النور ثم أطلقت على الفنارات عامة. وقد ذهب العلماء في أصل المآذن من الوجهة المعمارية مذاهب شتى أنظر ذلك في فنون الاسلام.



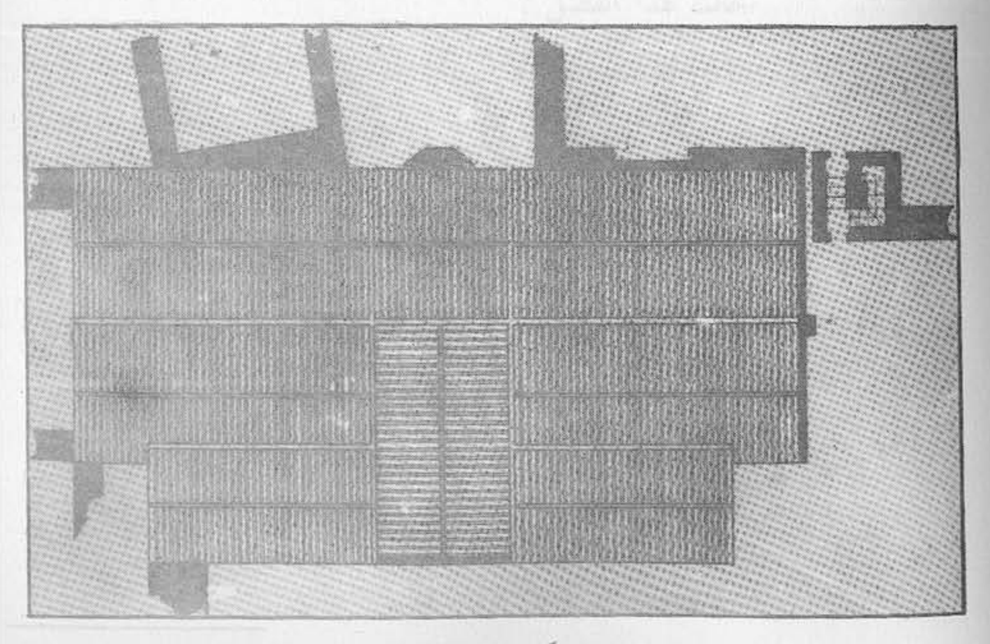
شكل (152)
أرضية المسجد الادريسي الذي اكتشفناه بشالة الاسلامية



شكل (153)
اكتشافنا لقبر الأمير ابي الكمال تميم اليفراني أمير شالة



شكل (154)
تخطيط مسجد شالة العتيقة الذي كشفت عنه حفائرنا الأثرية



شكل (155)
تغطية مسجد شالة العتيق في عصره الثالث

تدور حولها الشرفات. في حين بدأت صومعة قلعة بني حماد استخدام شبكات المعينات تلك الزخرفة المعمارية التي تنتشر على صوامع الموحدين حتى تبلغ مداها من الرقة والجمال على صوامع بني مرين.

ويلاحظ المتتبع لذلك التطور أن صومعتي فاس الزناتيتين تقفان متواضعتين في الأبعاد عاطلتين من الزينة ومثلهما تماما وفي نفس الصف تقف صومعة مسجد شالة[1].

---

(1) عن تاريخ صومعة شالة أنظر كتابنا (تاريخ شالة الاسلامية) وعن زخرفتها راجع كتابنا (الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب).

الفصل السابع

الفنون التطبيقية

في الطراز المغربي الاسلامي المبكر

أبحاث هذا الفصل :

– الخشب
– العملة
– الصناعات المعدنية
– الأعمدة المحلية والرخام
– الزخارف الجدارية الزناتية
– الكتابات الخطية القديمة بالمغرب
– العمارة الاسلامية والفنون في الشعر العربي

الفنون التطبيقية

في الطراز المغربي الاسلامي المبكر

الـخشــــب

منبر ادريس الأكبر بتلمسان ولوحة التأسيس بجامع القرويين :

على الرغم من قلة ما تبقى من نماذج الفنون التطبيقية لهذا العصر الذي يمثله الطراز المغربي نشير إلى المنبر الذي نصبه المولى ادريس الأكبر بالمسجد الذي أسسه بمدينة تلمسان وترك عليه نقشا كتابيا قرأه ابن خلدون وهذا نصه :

(هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة)[1].

وعندما خرج المولى ادريس الأزهر في المحرم من سنة 199 لغزو من بقي على دين الخارجية بالمغرب الأوسط دخل تلمسان فأصلح سورها وجامعها وصنع فيها منبرا قرأ نقشه أبو مروان عبد الملك الوراق سنة 555 هـ[2]. كما ظهرت أخيرا لوحة تأسيسية بجامع القرويين تحمل نقشا تاريخيا هذا نصه (هذا مما أمر به الامام أعزه الله داود بن ادريس أبقاه الله ونصره)[3].

المنبر الفاطمي بالقرويين :

بعد عقد صلح يحيى بن ادريس وعبد الله المهدي أصبح المغرب حليفا للعبيديين واستجاب والي فاس سنة 307 هـ لرغبة الفقهاء في نقل الخطبة من مسجد الشرفاء إلى القرويين ولهذا صنع الوالي منبرا من خشب الصنوبر (ويمكن أن نتصور هذا المنبر من ست درجات على نحو منبر جامع الأندلس الفاطمي الأموي الموحدي.[4].

(1) الاستقصا ج 1 ص 157.

(2) نفس المصدر ص 169.

(3) راجع بحث عبد الهادي التازي (الحروف المنقوشة بالقرويين) بكتاب جامعة الدولة العربية عن مؤتمر الآثار الثالث طبع القاهرة 1961 ابتداء من صفحة 445 و446.

(4) جامع القرويين ج 1 ص 49.

المنبر الأموي بالقرويين :

وهو المنبر الذي صنعه عبد الله المظفر بن المنصور بن أبي عامر بعد فتحه فاس سنة 387 في خضم نزاع العبيديين والمروانيين على فاس قاعدة المغرب. ولهذا استبدل المظفر بالمحراب الفاطمي آخر أموي تنطلق من فوقه بيعة المغرب باسمه واسم والده والعاهل الأموي. وقد صنعه من عود الأبنوس والعاج منقوشا فوقه نص تاريخي كامل (باسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما هذا مما أمر بعمله الخليفة المنصور سيف الاسلام الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن أبي عامر وفقهم الله تعالى وذلك في سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة[1].

منبر جامع الأندلس :

كانت النقوش التاريخية المتبقية بمسجد الأندلسيين بفاس موضوع دراسة نشرها الأستاذ كولان في صدر كتاب (جامع الأندلس) الذي نشره هنري تيراس ضمن منشورات معهد الدروس العليا المراكشية وأثبتت لنا النقوش العربية كثيرا من المعلومات التي أغفلها المؤرخون والتي لم تصل الينا.

ومما وجد من نقش المنبر الفاطمي ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ثم يرد النص التاريخي على النحو التالي (بسم الله الرحمن الرحيم عمل هذا المنبر في شهر شوال سنة تسعة وستين وثلاث مائة من التاريخ).

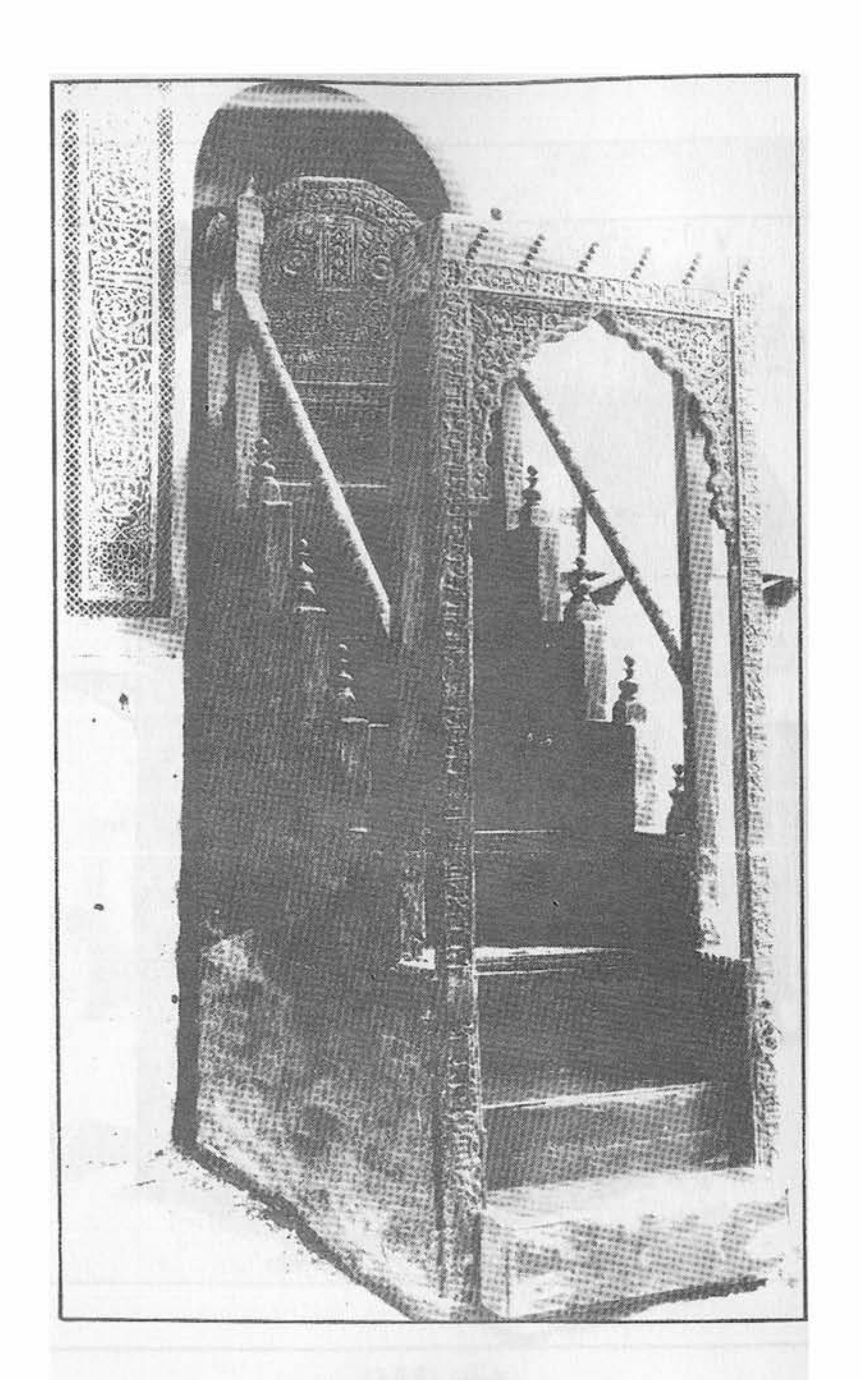
وكان النقش الأموي على ظهر المنبر كما يلي (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر بعمله الحاجب المنصور سيف دولة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاه أبو عامر محمد) وذلك في دائرة عقد خلفية المنبر ثم نقش أسفلها أفقيا (ابن أبي عامر وفقه الله في شهر جماد الآخر سنة خمس و... وثلث...[2]

وعلى الرغم من سقوط رقم من التاريخ نجد أن الأسماء الواردة تحدد تاريخ الصنع الصحيح فقد ارتقى هشام الثاني الخلافة عام 366 كما توفي ابن أبي عامر سنة 392. وحيث يبدأ التاريخ برقم 3 في المئات فلا بد أن يكون التاريخ إما 375 أو 385 ويؤكد ذلك وجود حشوتين ذاتي زخارف زهرية بالوجه الخارجي للمنبر يحيط بها نص من الكتابة الكوفية بذكر تاريخ عمل المنبر سنة 369.

---

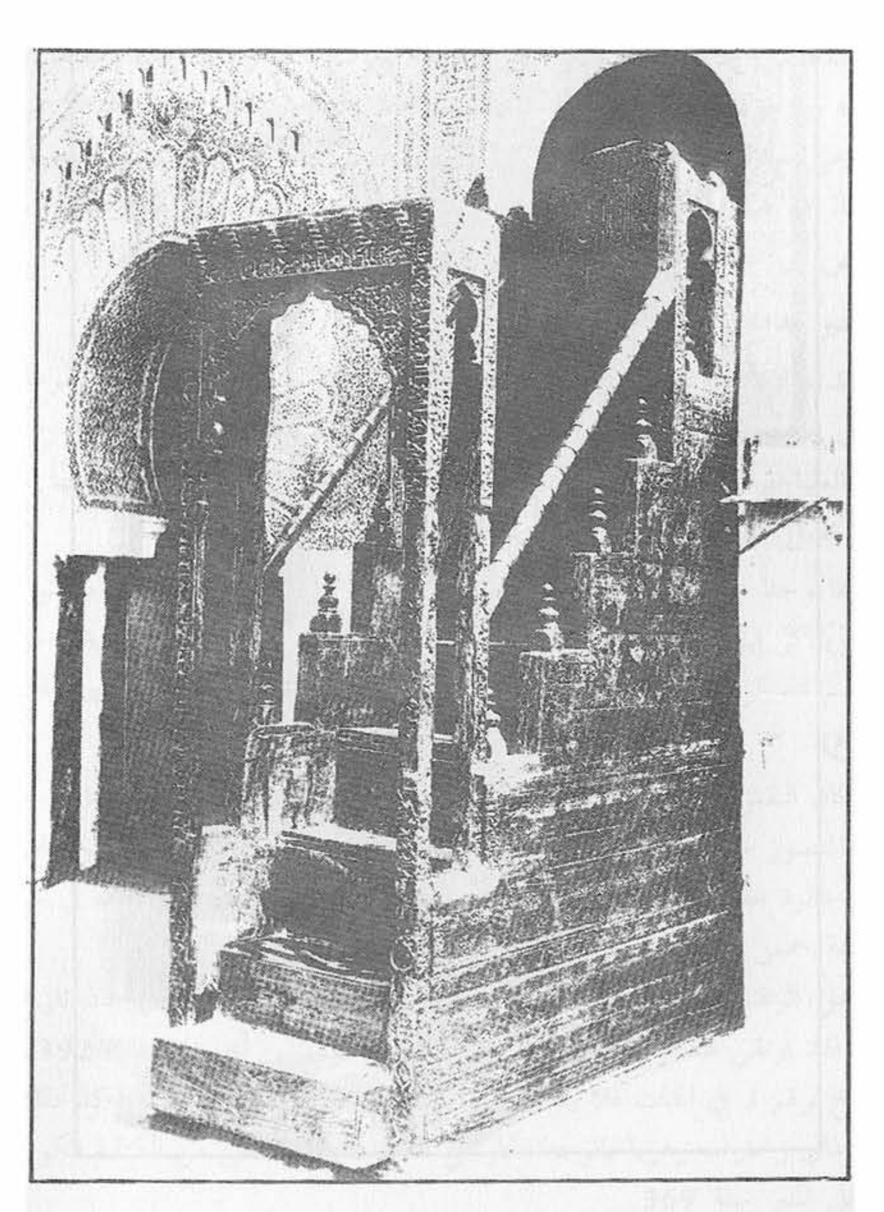
(1) زهرة الآس ص 55 وفي روض القرطاس (نشر الفيلالي) 82/1 (سنة 395 هـ) أنظر كتابنا تاريخ العمارة والفنون ج 2 موجز تاريخ القرويين قبل عصر المرابطين.

(2) Étude épigraphique, par G. S. Colin, P. 5-6, la Mosquée des Andalous. PL. LXI et LX.

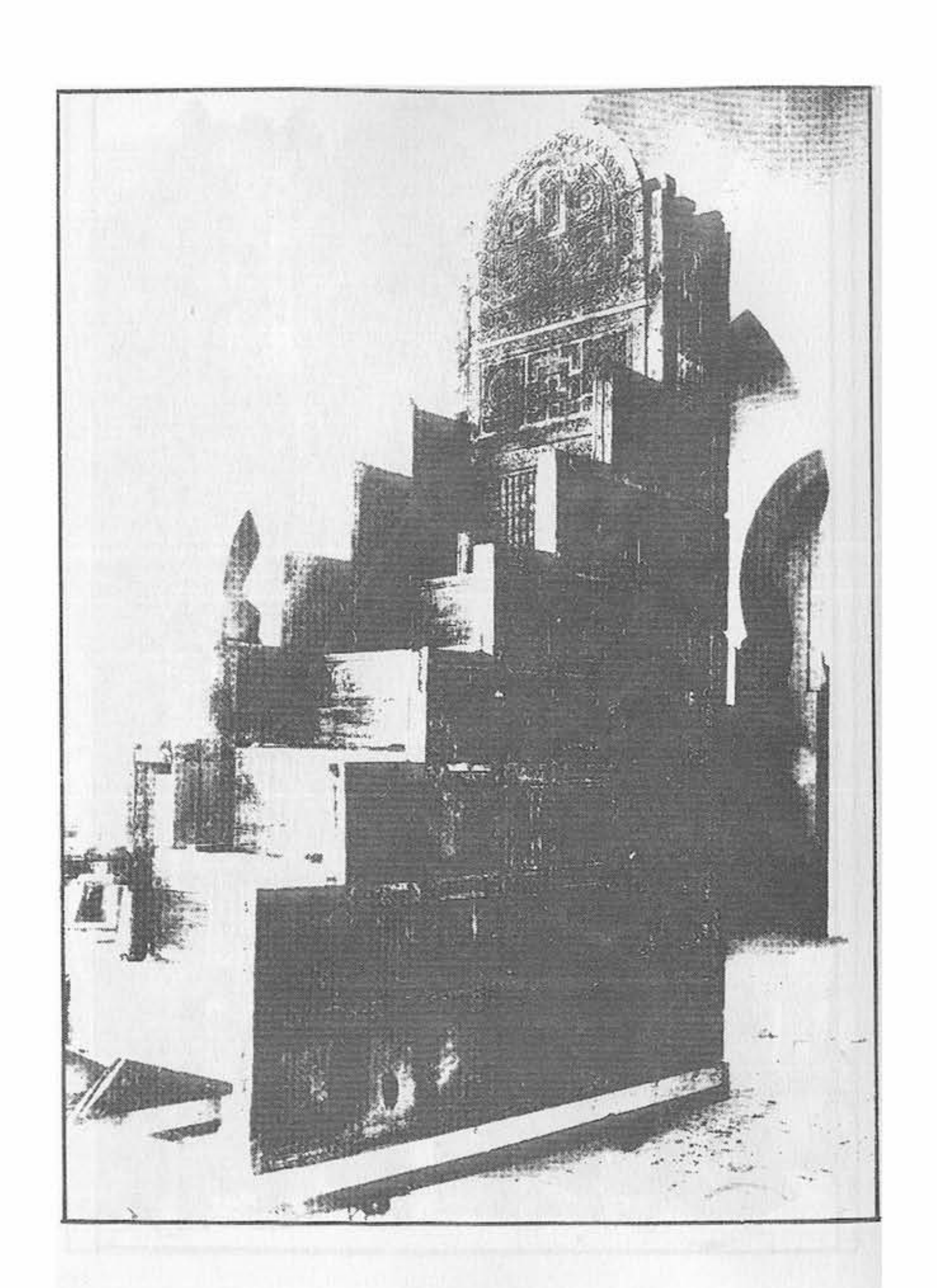


شكل (156)

منبر جامع الأندلسيين في حالته الأولى

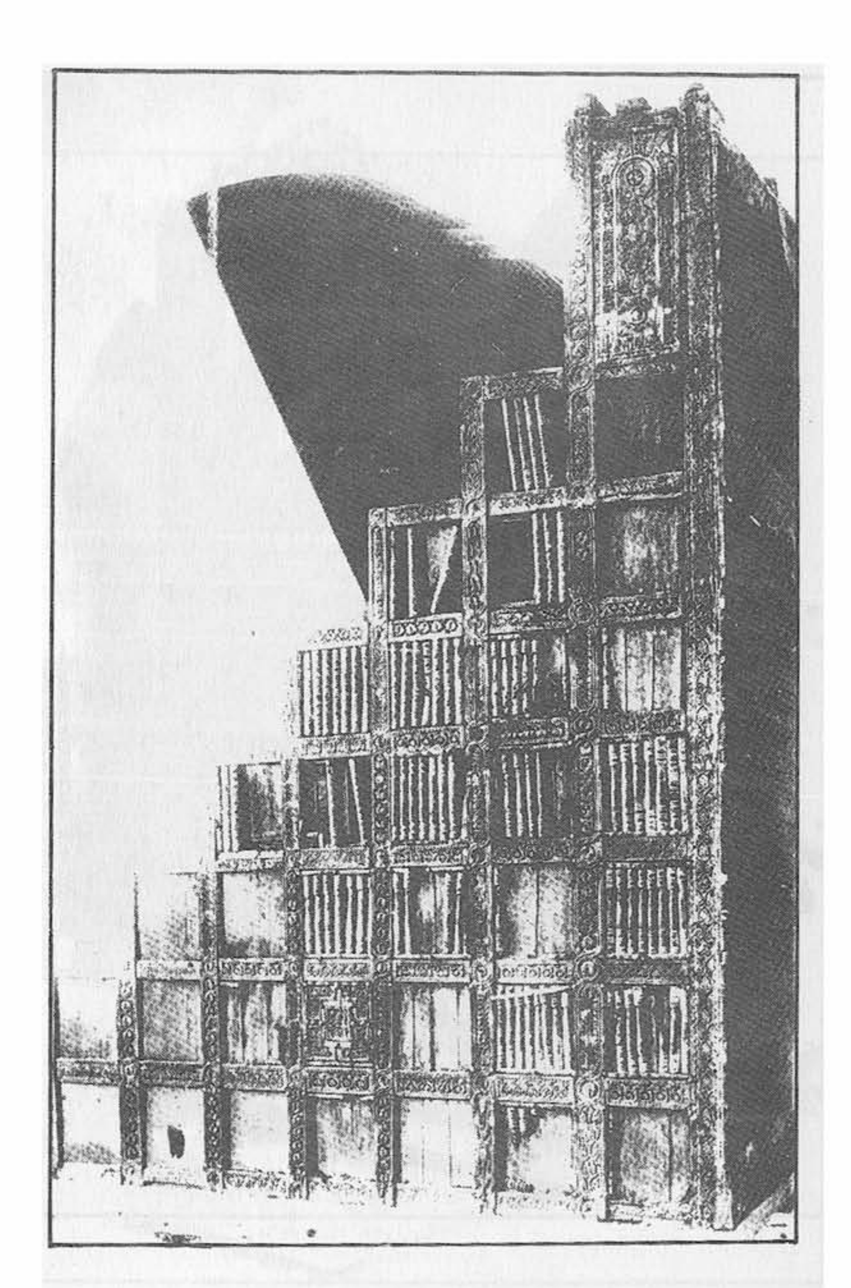


شكل (157)
منبر جامع الأندلسين في حالته الأولى

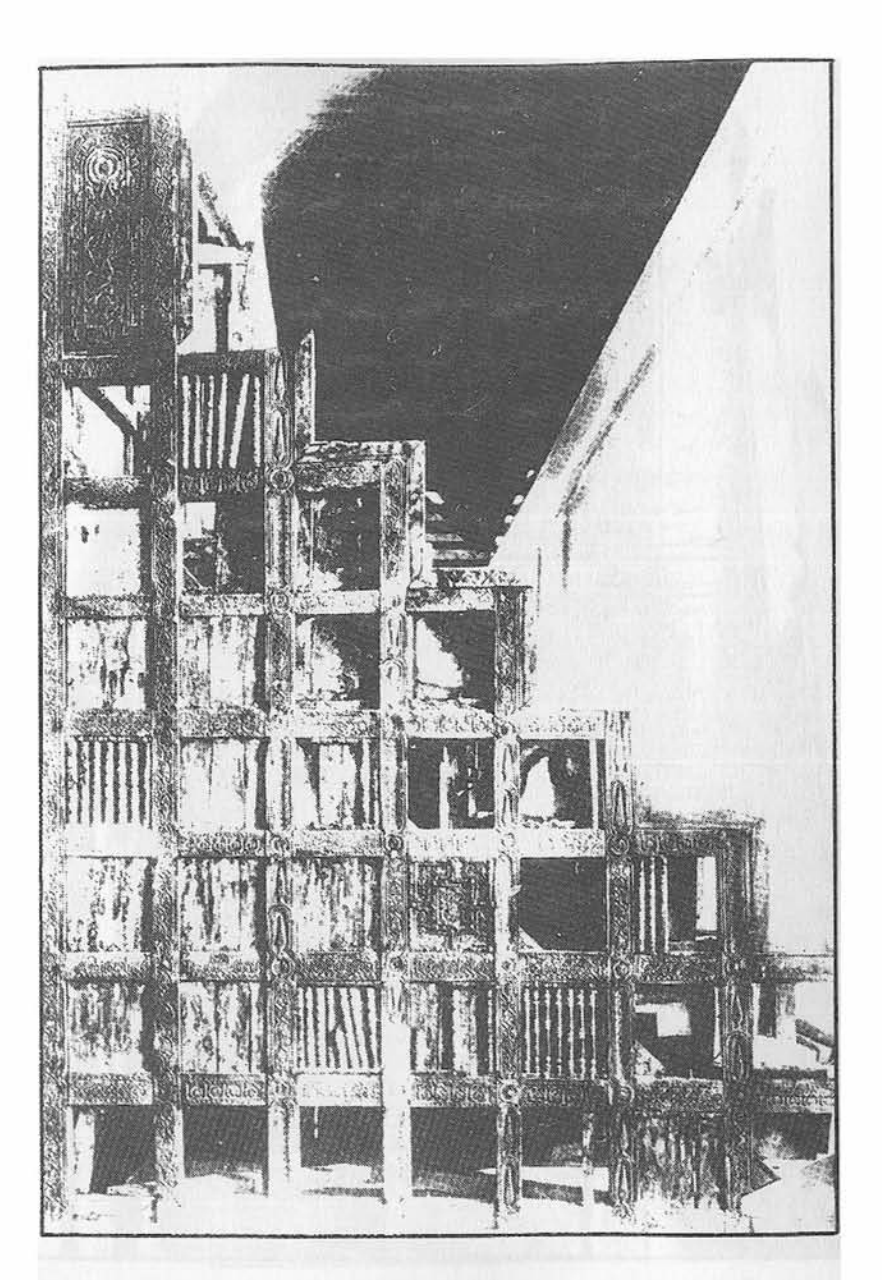


شكل (158)

منبر جامع الأندلسيين كما كان في القرن الرابع



شكل (159)
منبر جامع الأندلسيين في القرن الرابع



شكل (160)
منبر جامع الأندلسين كما كان في القرن الرابع تفصيل الوجه الآخر

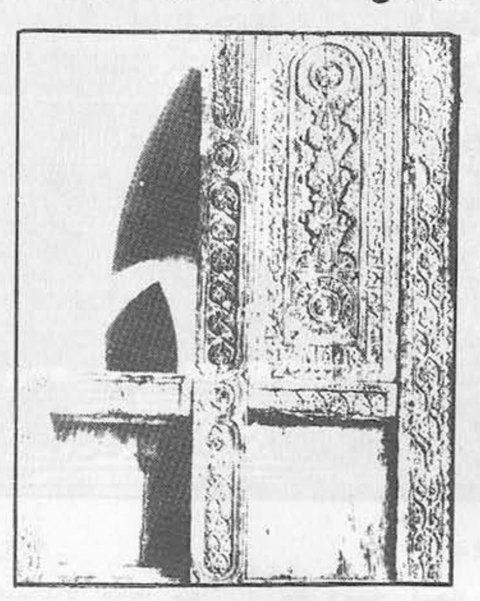


شكل (161)
منبر جامع الأندلسيين، ظهر المنبر



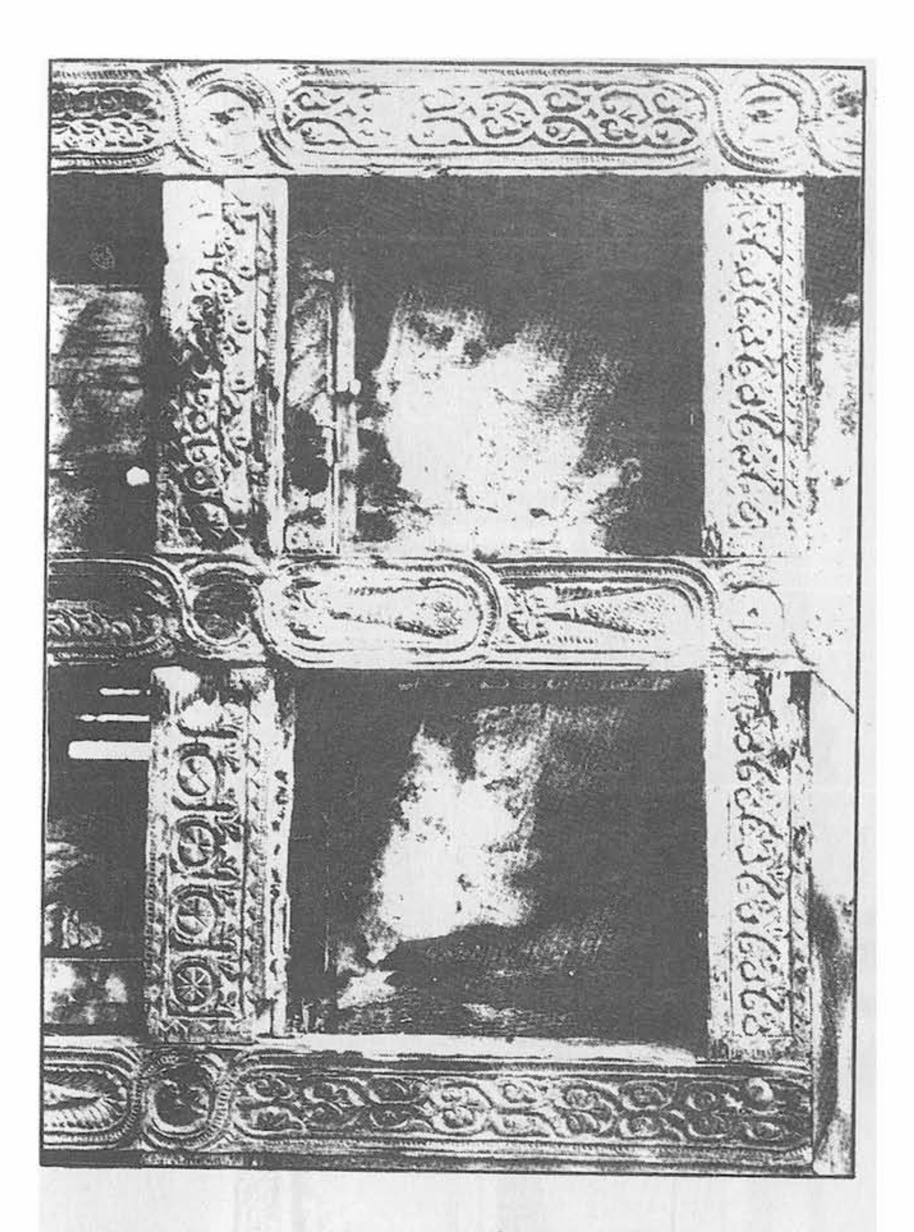
شكل (162)

منبر جامع الأندلسيين، تفصيل القسم العلوي

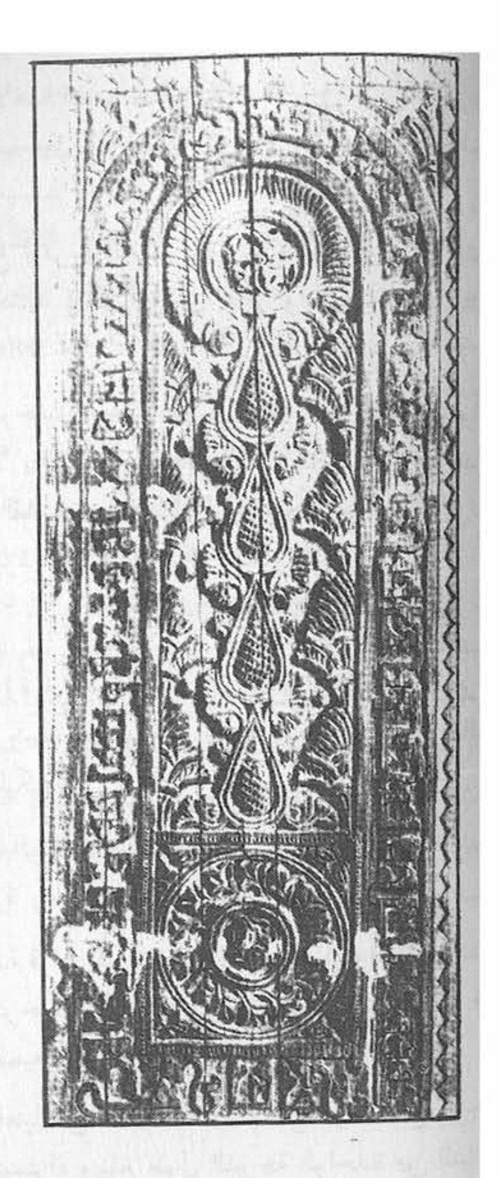


شكل (163)

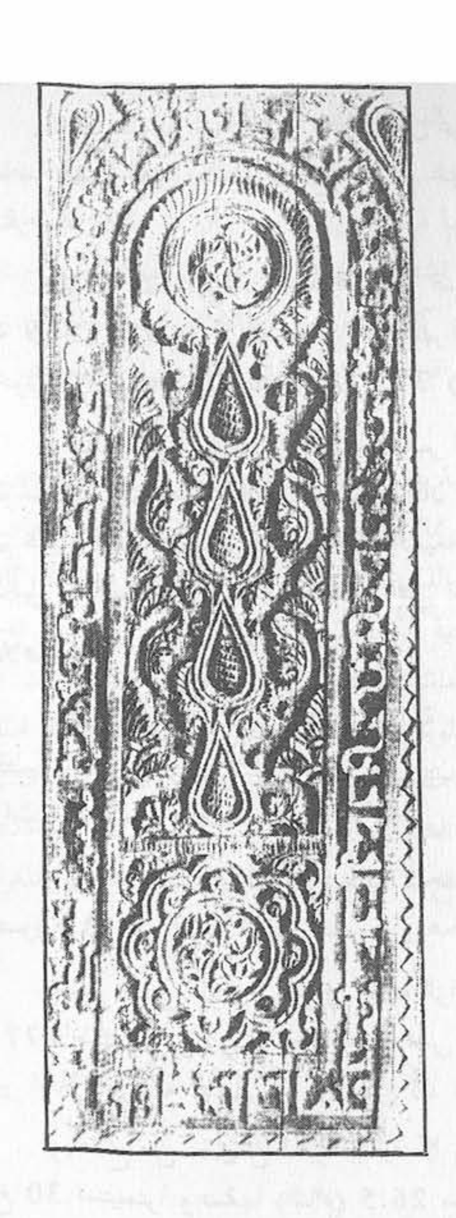
منبر جامع الأندلسيين، تفصيل الزخارف التي صنعها بنو زيري



شكل (164)
منبر جامع الأندلسيين، زخارف حشوات بني زيري



شكل (165)
منبر جامع الأندلسيين، تفصيل حشوة عليا
بالوجه الجانبي من عصر بني زيري



شكل (166)
منبر جامع الأندلسيين، تفصيل حشوة بالوجه
الخارجي من عصر بني زيري

وبناء عليه يكون على المنبر القديم تاريخان الأول 369 تاريخ صنع هيكل المنبر، أما الثاني فيكون تاريخ نقش وزخرفة الظهر (dossier) عام 375 أو 385 (أشكال 156 – 166).

ان تقارب تاريخ النقشين التأسيسيين على هذا النحو يحتاج إلى تفسير، وذلك أن المغرب وخاصة مدينة فاس كانت موضع صراع عنيف بين الفاطميين بافريقية والأمويين بالأندلس في قرطبة.

وتؤكد التفاصيل التاريخية ان المنبر صنع بأمر بولقين بن زيري عند دخوله إلى فاس سنة 369 (980 م) ثم أصلح وزود بظهر جديد باسم ابن أبي عامر والخليفة هشام الثاني بدخول قواتهم حي الأندلسين سنة 375 (986 م).

وعندما وصل الأمر إلى محمد الناصر الموحدي وجد المنبر في حالة سيئة فغطاه بألواح منقوشة على جوانبه بينما الظهر الأموي كان لا يزال بحالة جيدة وربما ترك الناصر الموحدي اسم هشام تقديرا لدوره البطولي ضد الشيعة الفاطميين بالاضافة إلى عدم رغبة الموحدين في تسجيل أسمائهم على المساجد والمنابر التي تنفرد (عندهم) بذكر الله وحده.

الخلاصة :

يعتبر جامع الأندلسيين بفاس معلمة بارزة من معالم العمران الاسلامي المبكر بالمغرب الأقصى شأنه في ذلك شأن جامع القرويين، وبهذا ينضم منبر جامع الأندلسيين إلى نفائس التراث الاسلامي بالطراز المغربي الاسلامي المبكر.

ويوجد هذا المنبر التاريخي حاليا بمتحف البطحاء من مدينة فاس حيث انتقلت لدراسته وتصويره في متم القرن الرابع عشر من هجرة رسول الله صلوات الله عليه.

ويبلغ أقصى طول للمنبر في حالته الراهنة قرابة المترين (197 سنتيمتراً) وأقصى ارتفاع له 277 سنتيمترا ويشتمل حاليا على خمس درجات بالاضافة إلى جلسة الخطيب، وقد فقد المنبر الحالي درجته الأولى أو ما يمكن أن نسميه عتبة ارتقاء المنبر.

ويتضح من مقاييس المنبر الحالية كما رفعتها من الطبيعة أن قائم كل درجة من درجاته يبلغ 30 سنتيمترا وعمقها (النائم) 26.5 سنتيمترا، ويبلغ طول الدرجة الواحدة من الداخل 76 سنتيمترا ومن الخارج 88 سنتيمترا.

وعند دراسة المنبر من كل من الجانبين يتضح أن جانب المنبر تقسمه ثمانية قوائم طولية تحصر بينها حشوات مزخرفة، وقد لاحظت أن المنبر على الرغم من فقده (العتبة) أو الدرجة الأولى، فلم يكن يشتمل أصلا على أكثر من ثمانية قوائم، وذلك بدليل ما لاحظته من وجود الزخارف النباتية الأصلية (من عصر تأسيس المنبر) بوجه القائم الأول الأدنى المواجه للمصلين،

اذ لو كان الجانب الأصلي يشتمل على أكثر من ثمانية قوائم لما كان هناك ضرورة لزخرفة القائم الأول حيث كان يجب أن تلتقي به حشوات أخرى. وهكذا، فعلى الرغم من ضياع (العتبة) أو الدرجة الأولى يظل القائم الأول للمنبر هو القائم الأول الأصلي.

وتزدان تلك القوائم الرأسية (التي تقسم جانب المنبر إلى حشوات مستقلة) بنماذج أصلية من زخرفة الأرابسك النباتية التي يتنوع تصميمها من قائم إلى آخر. وإذا ما تناولنا كل حشوة على حدة وجدناها على هيئة الطاقة أو النافذة تشتمل على سبعة قوالب طولية من خشب الخرط موزعة على مساحة تلك الطاقة، ويتوج كل طاقة من الطاقات السبع اطار خشبي مستعرض وزعت فوقه خمس وحدات زخرفية قوامها تشكيلات نباتية تتباين هندستها من وحدة لاخرى.

ويعتبر هذا المنبر من أروع الأعمال الفنية في تاريخ الاسلام فقد شهد ثلاثة عصور من الصنع والاصلاح على مدى أكثر من قرنين مما يمنحه وزنا خاصا. وفضلا عن التفاصيل التاريخية التي يرويها المنبر فيكفي أنه الأثر الوحيد الذي دارت حوله أحداث المغرب قرنا كاملا بين الفاطميين والأمويين وليس ذلك فقط من ناحية الأحداث التاريخية والتنافس وانما من ناحية الصناعة والفن التي بدأت منذ القرن الرابع وعاشت مدى قرون واضحة جلية. لقد عبر الموحدون عن تقديرهم لذلك الدور واحترموا أسلوبه القديم ليظل المنبر يحكي قصة ثلاثة خلفاء كبار مروا عليه في التاريخ المغربي بنفوذهم : أحدهم فاطمي والآخر أموي والثالث موحدي، بحيث تجتمع آثار الغلبة والصنعة من الشرق ثم الشمال الأندلسي وأخيرا المغرب الموحدي، فليس اذن بوسع أثر فني آخر ان ينافس منبر جامع الأندلسيين في تاريخ الفنون العربية للغرب الاسلامي في تلك المميزات.

العمـــلـــة

العملة العربية قبل الاسلام وبعد عصر الرسول :

كانت ترد إلى الحجاز قبل الاسلام دنانير الذهب الهرقلية البيزنطية من الشام ودراهم الفضة الساسانية من العراق، وكانوا يتعاملون بها وزنا باعتبارها مادة صرفاً من ذهب أو فضة ويطلقون على نقود الذهب (العين) وعلى نقود الفضة كلمة (الورق).

والدينار كلمة معربة مشتقة من اللاتينية (Dinariusaureus) وهو قطعة من الذهب وزنها مثقال عليها نقش الملك استعار العرب استعماله واسمه في الجاهلية والاسلام كما جاء في سورة آل عمران الآية 75[1]. وقد اختلف الباحثون في أول من ضرب الدينار في الاسلام بين معاوية ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان غير أن الأبحاث أيدت رواية المقريزي وابن الأثير بظهور أقدم دينار اسلامي في عهد عبد الملك سنة 76 هـ ضربه على الطراز البيزنطي ثم تحول سنة 77 هـ إلى الطراز الاسلامي (شكل 167 – 173)، واستمر الأمر على ذلك أيام العباسيين والدول التي انفصلت عنهم.

وقد مرت مراحل مختلفة على تطور ضرب الدينار من شكله القديم إلى الحديث، وعلى الرغم من أن الدنانير كانت تضرب في دمشق ومصر بالطابع الاسلامي الخاص وقت قيام دولة الأمويين بالأندلس، غير أن الدينار ظل بافريقيا والأندلس يضرب بالطابع اللاتيني إلى أن تطور نحو شكله الخاص بعد أن دخلته الحروف العربية شيئا[1] فشيئا.

وهكذا أشار (بريت) إلى عملة اسلامية بنص لاتيني وعربي وجدت[2] بالمغرب وعملة أخرى من عصر الأمويين الشرقيين عثر عليها ناحية طنجة وعملات وجدت بالمغرب من عصر العباسيين[3] ومصر الطولونية[4] والأغالبة[5] والعبيديين أيام اقامتهم[6] بافريقية وعملة الأمويين في الأندلس التي ضربت بالمغرب في فاس وسجلماسة بأمر الوزير ابن أبي عامر.

---

(1) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾

(1) ناصر النقشبندي : الدينار الاسلامي في المتحف العراقي ج 1 ص 10 – 19 + ص 27.

(2) J.D. Brethes : Cont. à L'hist. du Maroc, P. 38

(3) نفس المصدر ص 40.

(4) نفس المصدر ص 42.

(5) نفس المصدر ص 43.

(6) نفس المصدر ص 44.

عملة الأدارسة :

يقول بريت في دراسته القيمة اننا لا نعرف لهم عملة ذهبية لعدم ثراء الدولة الاسلامية الأولى بالمغرب أو لانهم تركوا ذلك الامتياز لخلفاء العباسيين ببغداد.

أما العملة الفضية فكانت على الطراز العباسي تحمل اسم الأمير الحاكم وأحيانا يضاف اسم (علي بن أبي طالب) أو اسم الموظف المكلف بالاشراف على ادارة ضرب العملة. وكانت تحمل التاريخ بالأرقام ونادرا ما تحمل اسم المصنع وكانت الوحدانية تذكر باحد الوجهين وتنقش في الدائرة بعثة الرسول. وكان وزن العملة الفضية يختلف من جرامين إلى 2.45 جراما ويبلغ القطر من 20 إلى 25 مليمترا.

ولم تحمل عمل الأدارسة أيام المولى ادريس الأول ألقابا احتراما لخلفاء بغداد وقرطبة، وجاء المولى ادريس الثاني فاستعمل لقب (العادل) ثم استعمل الامام محمد بن ادريس الثاني لقب (أمير[1] الأمين) كما عثر فوق مثال نشره لافوا لقب (المنتصر بالله).



شكل (167)
دينار اسلامي من العصر الأموي بالمتحف العراقي

(1) نفس المصدر ص 76.

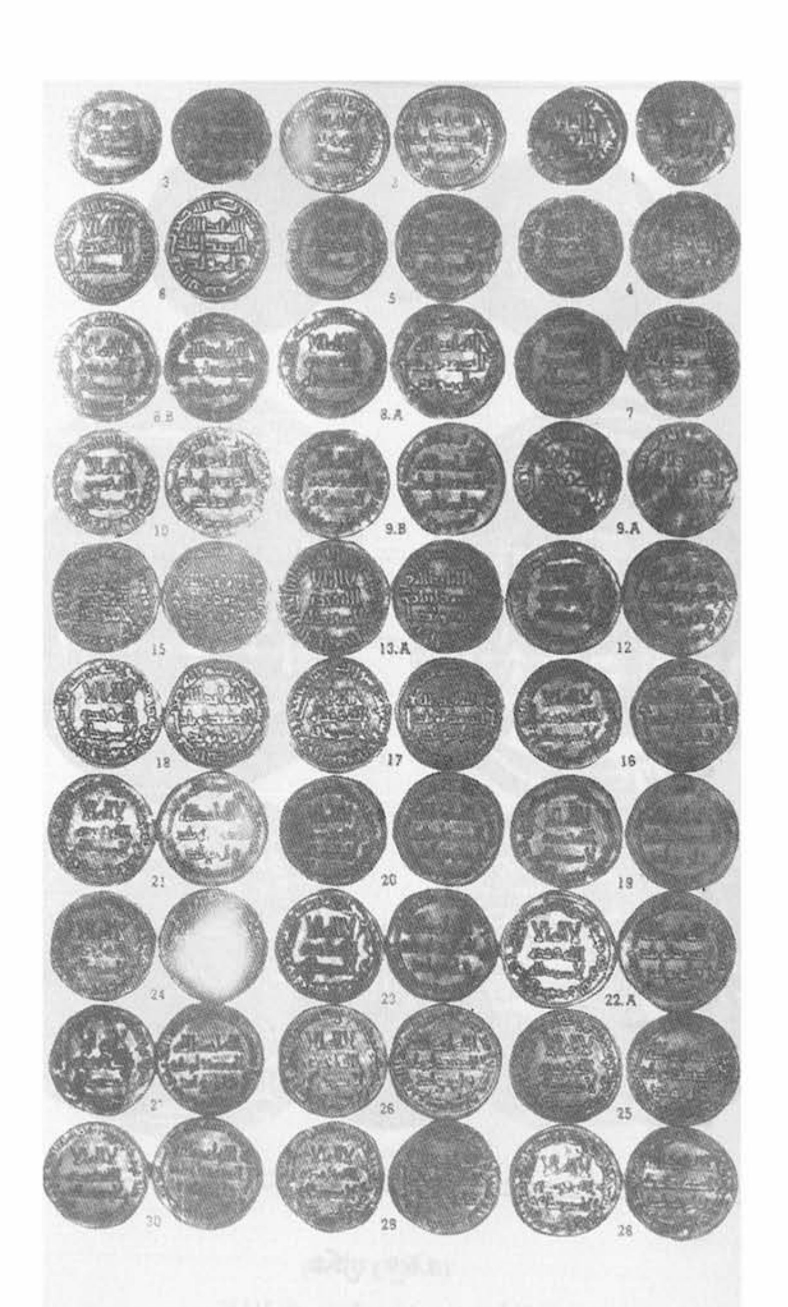
وكانت العملة البرونزية نادرة وبالأسلوب العباسي وتحمل اسم المصنع في (وليلي) وتزن ثلاثة جرامات ويبلغ القطر مليمترين. وقد قدم بريت نماذج من عملة الأدارسة المعثور عليها بحفائر سنة 1917 ناحية صفرو يحمل أحدها اسم أحد ملوك نكور وهو سعيد بن الصالح ابن سعيد بن ادريس ابن عبد الصالح المنصور.

وقد عرف المغرب منذ صدر الاسلام في عصر الأدارسة أنفسهم عددا من دور السكة استنادا على الحقائق المستمدة من دراسة نقوش السكة الادريسية التي وصل نفوذها إلى المشرق العربي على عهد هارون الرشيد واحتفظت بها متاحف الشرق والغرب إلى يومنا هذا. ففي المكتبة الأهلية بباريس درهم ضرب بمدينة فاس سنة 189 وبمتحف مدينة خاركوف درهم ضرب بفاس كذلك سنة 185 كما توجد عملات باسم ادريس الثاني ضربت في وليلي وتدغة (تقرأ تدغة بضم وسكون وفتح) سنوات 181 و182 و183 وعملات أخرى باسمه كذلك ضربت في مدينة العالية[1] سنوات 198 و207 و208 و209، 210 و214 (أشكال 167 – 175) ويقصد بالعالية عدوة القرويين لارتفاعها عن عدوة أهل الأندلس.

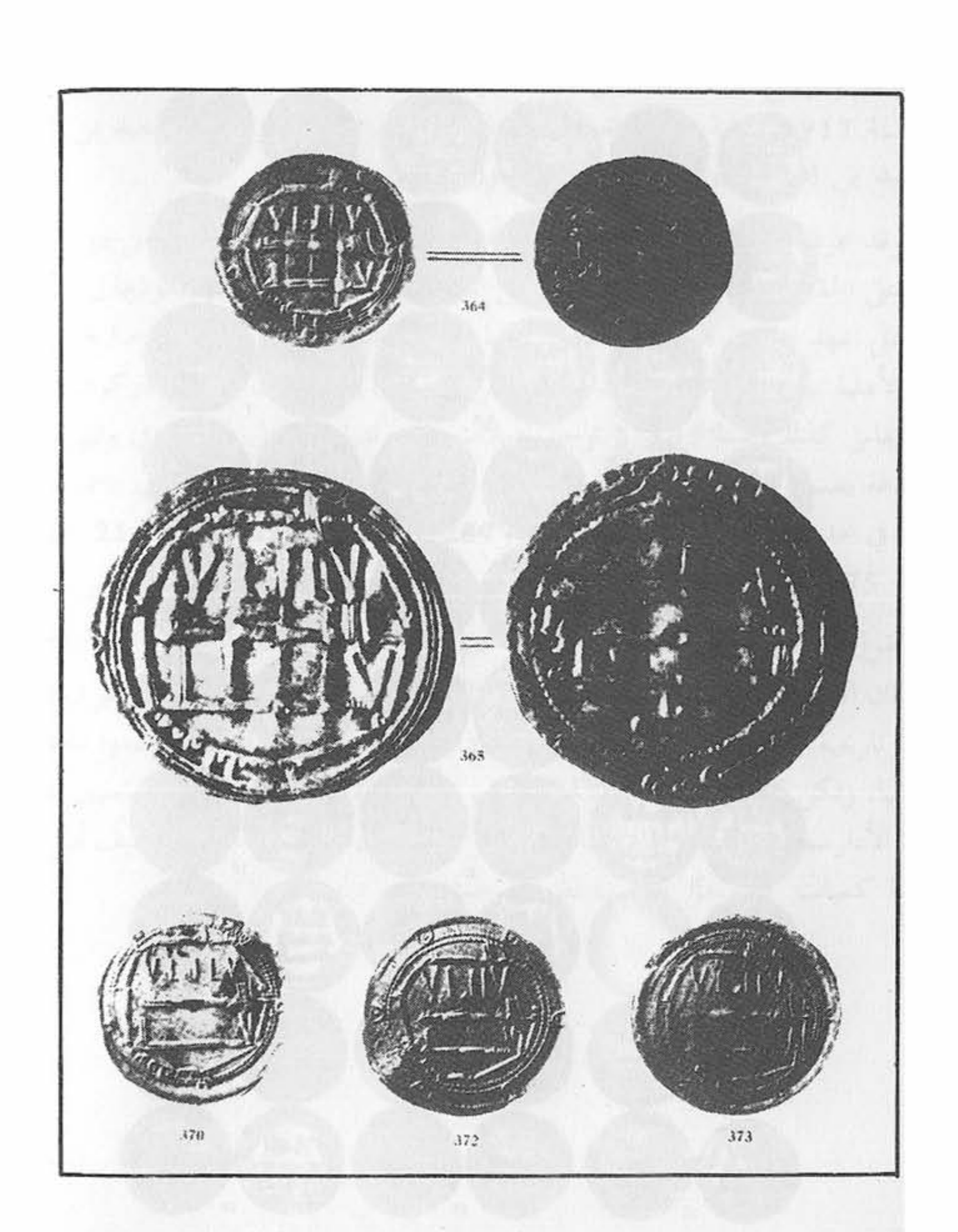
يقول أوسطاش بكتابه الجامع في الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها أنه[2] تبعا لمعارفنا فان الأدارسة ضربوا نقودهم من الفضة (الدرهم)، والبرونز أو النحاس (الفلس) وتوجد اشارات تاريخية بأنهم ضربوا عملة ذهبية، فقد ذكر ابن خلدون أن الأغالبة أرسلوا للعباسيين نماذج منها، ولكن كولان يعتقد أن الأغالبة ضربوها باسم الأدارسة وبعثوا بها للعباسيين لتأكيد خطورة الأدارسة وتضخيمها أمام العباسيين، ويؤكد كولان ذلك بأنه احتمال ضعيف أن يمتلك الأدارسة كميات كافية من الذهب لضرب عملتهم.

---

(1) أنظر ليفي بروفنسال : «الاسلام في المغرب والأندلس» الفصل الأول ص 15 – 16 عن العملة الادريسية المؤرخة.
(2) الجامع في الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها : دنييل أوسطاش. مجموعة بنك المغرب ومجموعات أخرى عالمية، عمومية وشخصية تقديم معالي الأستاذ محمد الفاسي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي.
Corpus des dirhams Idrissites et contemporains, Rabat 1970-1971.

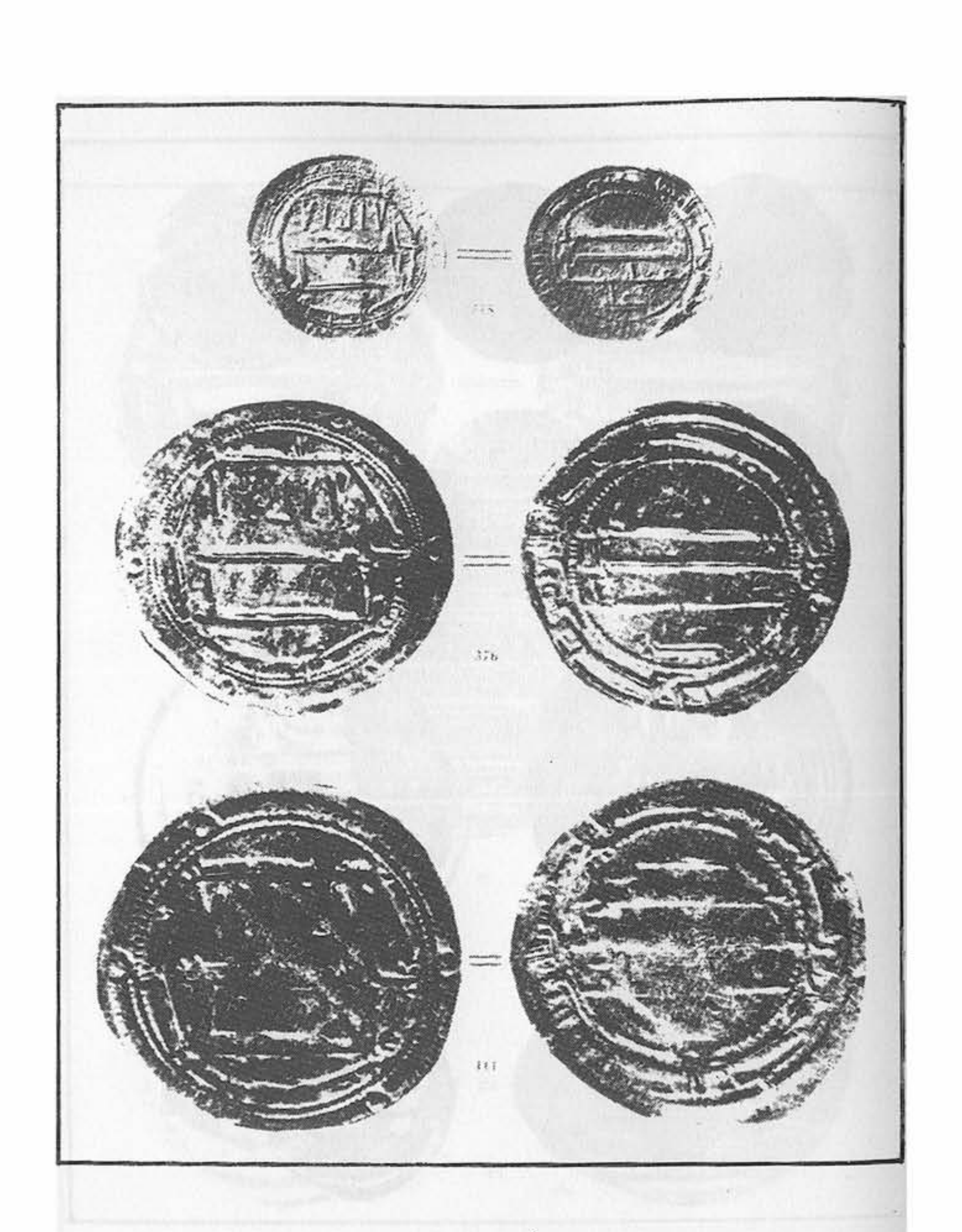


شكل (168)
عملة اسلامية مبكرة بالمتحف العراقي



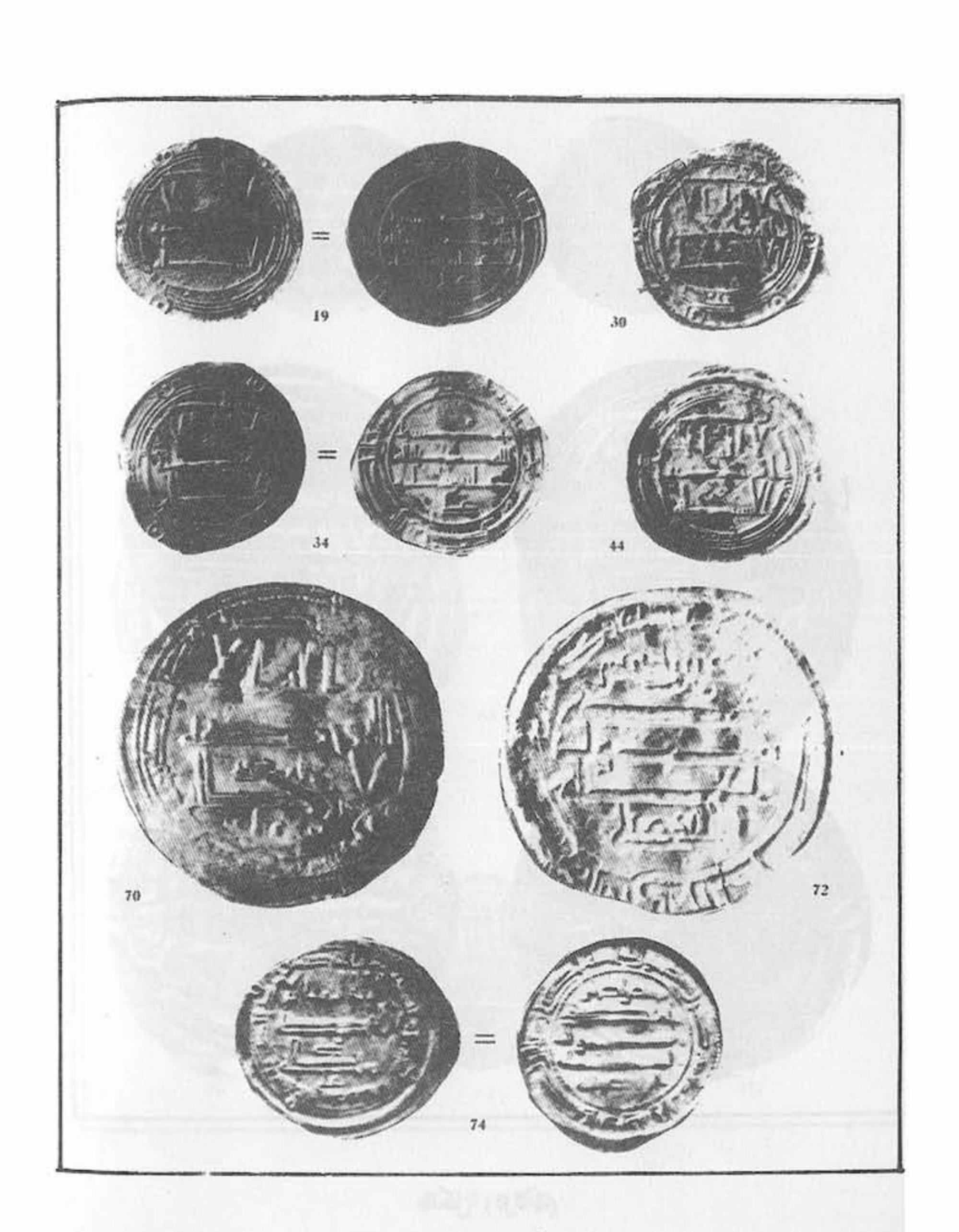
شكل (169)

عملة ادريسية من مصنع وليلة



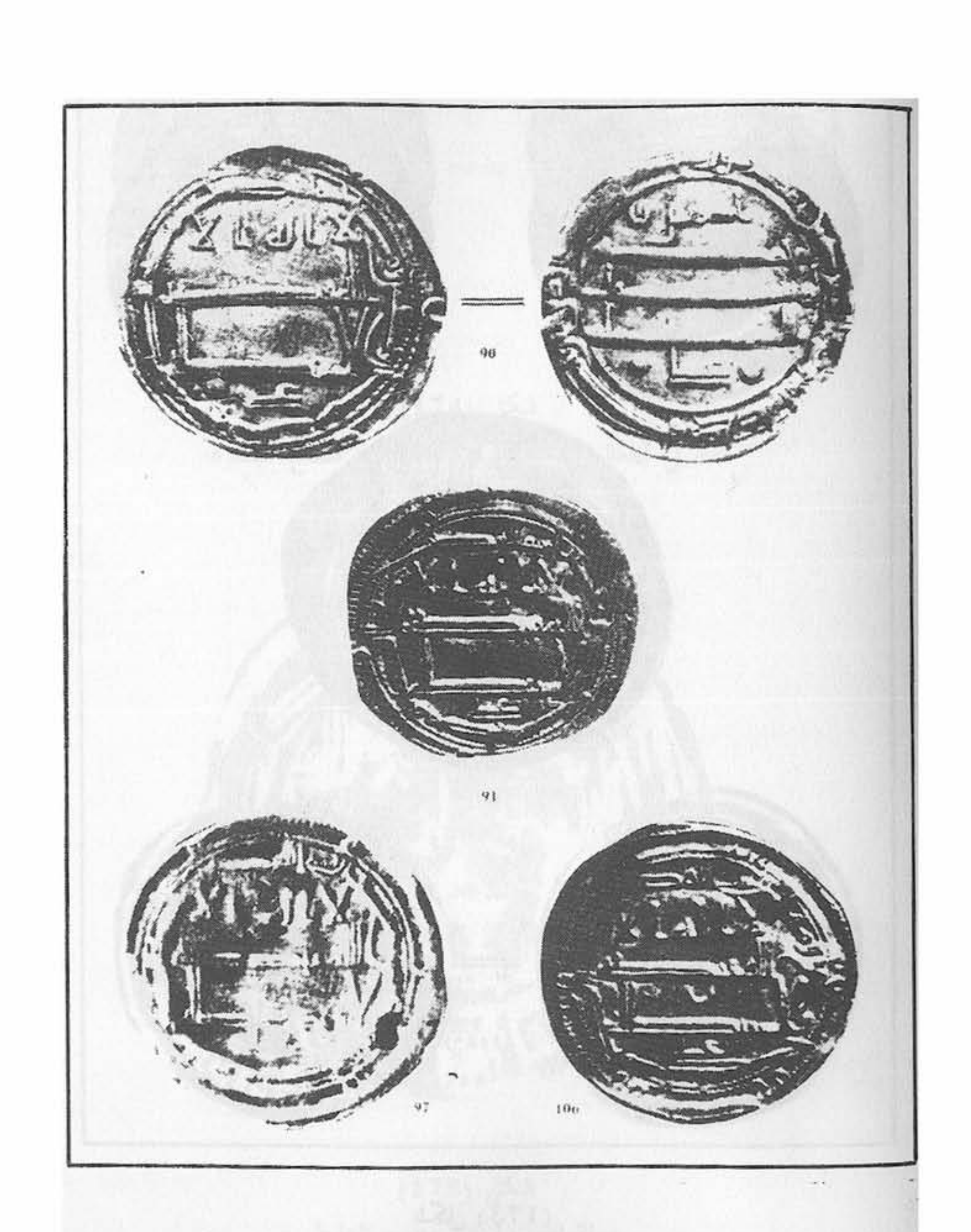
شكل (170)

عملة ادريسية من مصنع وليلة

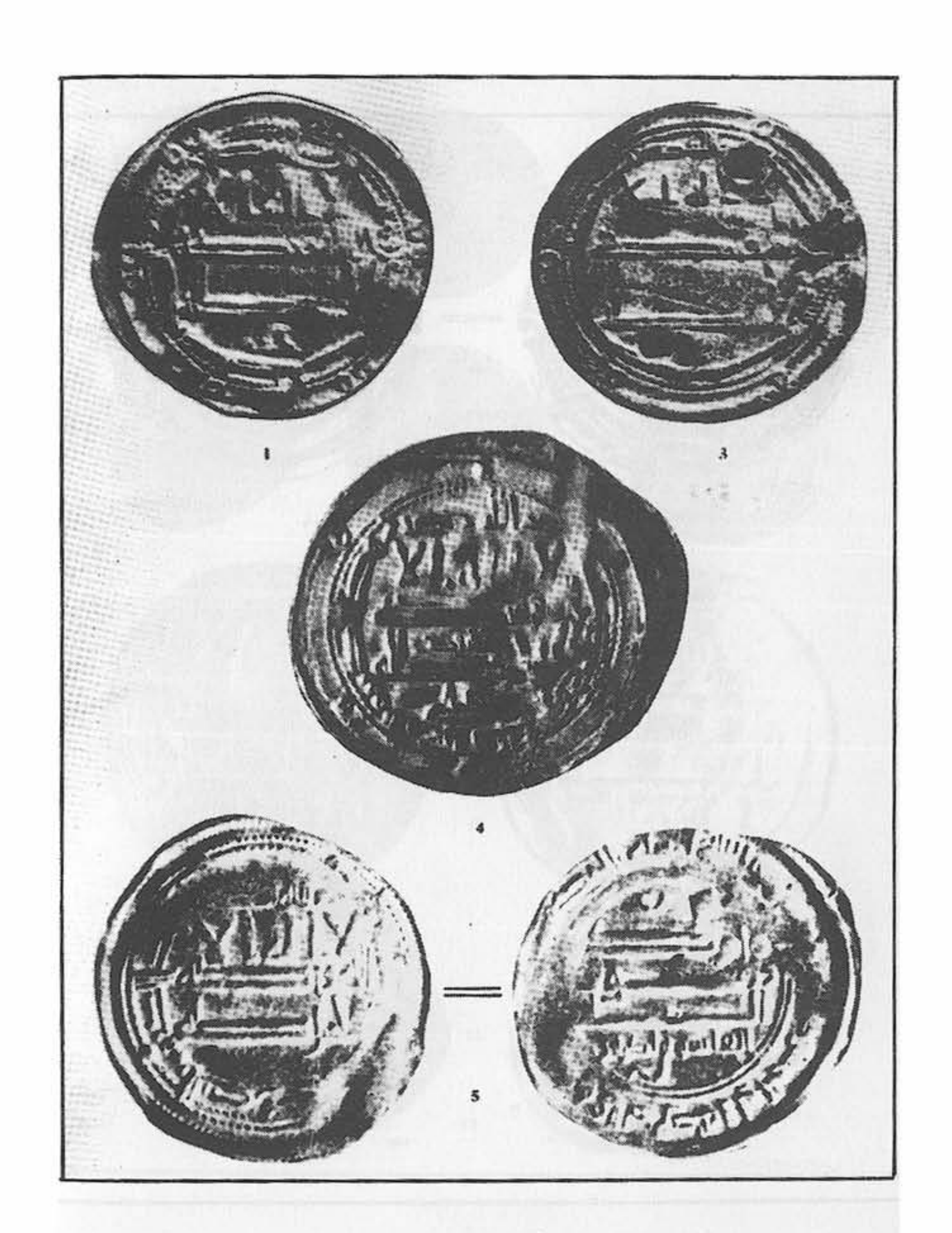


شكل (171)

عملة ادريسية من مصنع تدغة

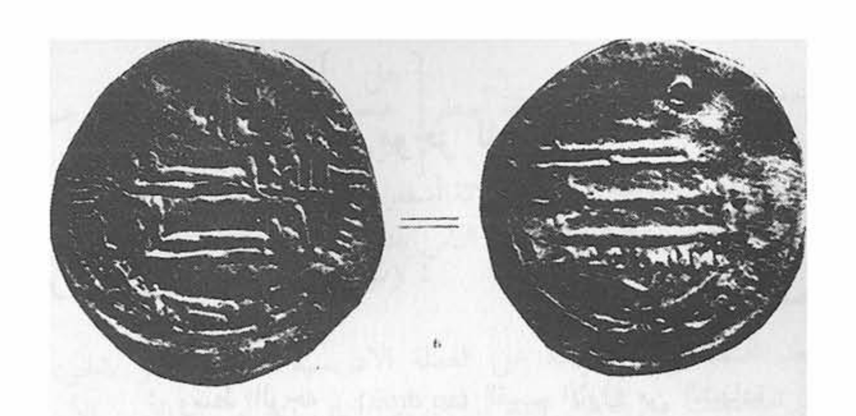


شكل (172)
عملة ادريسية من مصنع العالية



شكل (173)

عملة ادريسية من مصنع البصرة (بصرة الكتاب شمال المغرب)



شكل (174)
تفصيل قطعة من العملة الادريسية من مصنع البصرة



شكل (175)
عملة ادريسية من مصنع تاهليط

وصف موجز للعملة

الطراز الأول (الطراز الغالب) :

وسط الوجه : (au droit) القسم الأول من الشهادة

لااله الا
الله وحده
لاشريك له
عـلـى

وهي ثلاثة سطور تحتها كلمة (على).
بحلقة الدائرة : بسم الله ضرب هذا الدرهم بـ (المدينة) سنة (...)

الظهر : (au revers) بوسط الظهر ثلاثة سطور القسم الثاني من الشهادة

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم	أو	محمد رسول وتحت ذلك أو أعلاه الله		علـى ادريس ـــــ أو ـــــ ادريس علـى

وبعد وفاة محمد بن ادريس الثاني: المنتصر بالله ـــــ محمد بن ادريس، أو محمد بن ادريس ـــــ المنتصر بالله

وبحلقة الدائرة (مما أمر به ادريس بن عبد الله، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

ومن عصر ادريس الثاني وخلفائه (محمد رسول الله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

مميزات ادريسية

اسم علي : يكتب دائما بياء مردودة وهي خاصية ادريسية كما توجد رموز مختلفة : هلال ونجوم، حروف هجائية (أحيانا بالعبرية)، واختام أو اشارات واصطلاحات (formule) مثل (بخ).

الطراز الثاني (نادر الوجود) :

بالوجه في المسافة الوسطى ثلاثة أسطر {على / عيسى / ادريس} وبالدائرة ضرب الدرهم بـ (المدينة) سنة (...)، وبالظهر بالمساحة الوسطى ثلاثة أسطر (محمد/خاتم النبيين صا/د ق) وأسفل ذلك نجمة سداسية ✡ وبالدائرة (على خير الناس بعد النبي كره من كره ورضي من رضي[1].

الاصطلاحات :

وتوجد اصطلاحات عديدة على العملة الادريسية[2] مثل : امر بالحق، آمن بالله، الأمير : وقد استعملت مع الامام محمد بن ادريس الثاني (مما أمر به الأمين الأمير...) ومثل اصطلاح : عدل وقدر، مثل (اميت) وهي نقش عبري مربع يوجد على درهم تدغة Tudga. وقد انتقل إلى العربية الدارجة بالمغرب (أجيني للحق) لأن (اميت) معناها (الحق) وتذكر باصطلاح (بالوفاء والحق).

العلامات والرموز :

وهي مثل الأهلة (جمع هلال) والنجوم والزهيرات وأشكال النخل Palmiers وخاتم سليمان (Sceau Salomon) وهو المعروف الآن على الراية المغربية وقد عثر عليه لأول مرة على البرونز الأموي بطنجة.

وقد تكون تلك الرموز اشارة إلى أشياء معينة مثل النجوم والهلال تشير إلى ما جاء بكتاب الله ﴿وَالنَّجْمِ الطَّارِقِ﴾ وكذلك القمر الذي يشير اليه الهلال.

إن الهلال (◡) الذي يظهر بانتظام في وجه دراهم ادريس الثاني، يبدو أنه كان علامة مميزة لذلك الأمير.

الأختام :

وجدت على العملة المضروبة في تدغة Tudga باسم (خلف) 175 – 176 وباسم عمرو بن حماد 176 بعض الحروف والأسماء.

وقد تكون الحروف معزولة أحيانا وقد يوجد حرفان متصلان ولكن دون معنى وليس لها قيمة عددية. وقد توجد مجموعات ذات أحرف ولكن توجد كذلك كلمات لأسماء مثل : زيد، أو حمد أو حميد و جميل أو مريم والغالب ان كل ضارب للدراهم كان يضع واحدة منها على انتاجه لتمييزه عن غيره.

(1) بقية تفاصيل الوجه الرئيسي للعملة بكتاب أوسطاش ص 61 – 63.

(2) راجع العملة الادريسية المحفوظة بمتحف مدينة وهران وكتالوج المتحف :

Guide du Musée Municipal Oran 1957 P. 45 - 46.

ويبدو أن اسم (مريم) يشير الى أم السيد المسيح الواردة بكتاب الله.

أما (سعب) فقد تكون اختصارا لاسم شهر شعبان وهو يشير إلى تاريخ ضرب العملة وربما كانت الحروف المنعزلة أو الحرفان المتصلان اختصارا لأسماء الشهور وعلى هذا النحو يكون حرف الميم اشارة إلى شهر محرم.

أما الحروف المفردة فربما كانت اختصارا لكلمات معينة وقد تكون ذات قيمة عددية وكل ذلك يشير إلى وزن العملة مثل (ط) اختصار (طيب) و (ع) اختصار (عدل) وتوجد كلمة «فرح» أو «فرج» وقد تكون اسما لضارب العملة.

وتوجد بعض حروف عبرية مثل (الألف) و (الشين) وقد تكون اختصارا لكلمات عبرية أو أسماء يهودية وربما كانت ذات قيمة عددية.

لقد اهتم المستشرقون الألمان على الخصوص بتفسير اصطلاح (بخ) وأشاروا الى معناه بالقاموس العربي الذي يشير الى أنه (من وزن جيد). ويسمى ذلك الدرهم (بخى) بينما الأقل وزنا وعليه اصطلاح (مع) يسمى (درهم معمعى).

وتوجد العلامة (بخ) على العملة الادريسية والعباسية والسامانية حيث حلت مكان (طيب) التي كانت على العملة الأموية. وتشير (بخ) إلى ان وزن العملة (جيد) بينما (بخ بخ) معناها أن الوزن جيد جدا أو (ممتاز) ويقابله على العملة العباسية والأموية اصطلاح (واف).

ويظهر هذا الاصطلاح على الخصوص على دراهم مضروبة في (العالية) العاصمة قبل تاريخ تأسيسها وعلى العملة الادريسية من تدغة وغيرها.

ومن حيث أن تجارة العاصمة مع العالم العربي الخارجي كانت تجارة وطنية فربما طلب التجار البارزون في عدة مناطق غير العاصمة ضرب عملة محلية تساوي عملة العاصمة وبعلامتها (بخ) لتكون مقبولة في البلاد التي يزورونها ومقبولة في التعامل.

الصناعات المعدنية

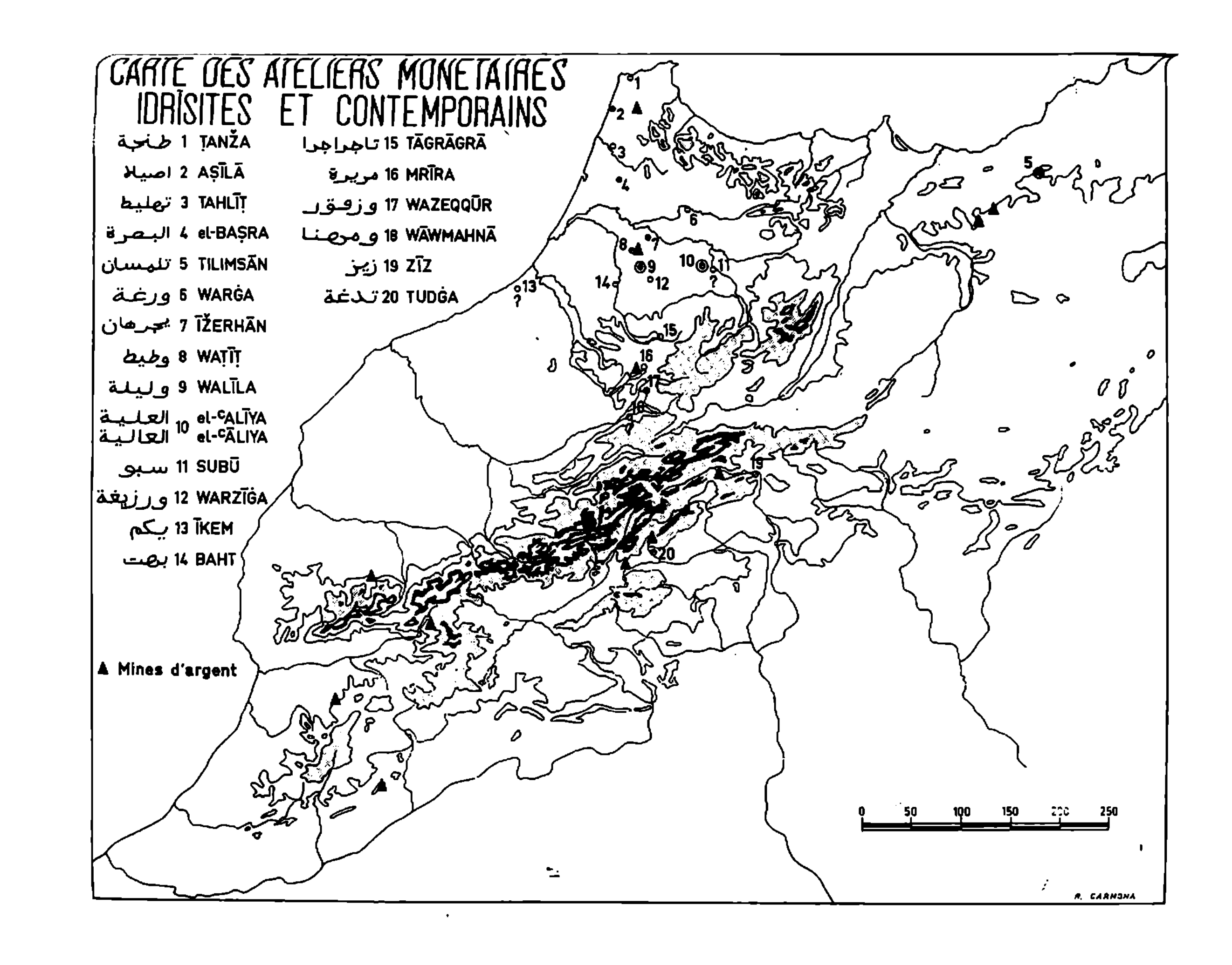
يشير الجزنائي الى ان أحمد بن أبي بكر الزناتي مؤسس صومعة القرويين الحالية سنة 345 قد ركب على رأسها بأعلى القبة الصغرى تفاحات صغيرة مموهة بالذهب في زج من الحديد تنتهي بسيف الامام ادريس بن ادريس[1] الذي أقام عدوة القرويين تبركا بالأثر الجليل لسبط رسول الله.

وربما كانت أقدم تحفة معدنية هي الثريا الكبيرة التي عثر عليها في أحد المخازن مخرمة الزخارف كوفية الكتابة درسها عدد من العلماء منهم (مارسيه) ولم يجدوا بها أثرا لتاريخ يحدد عصرها وموطنها ولكنها نسبت إلى الطراز المغربي المبكر بناء على دراسة طراز الخط الكوفي الذي يعكس خصائص الكتابة المغربية في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس. ومما يؤكد صناعتها المغربية وجود اسم الصانع منقوشا على هذه التحفة (من عمل محمد بن القيسى الصفار المغربي).

وتتبع صناعات التحف المعدنية وزخرفتها عدة أساليب وتبدأ الصناعة بتشكيل الانتاج بطريقة الطرق Beating بالنسبة للنحاس والفضة والذهب أما البرونز فيصنع بالقالب Moulding لعدم تحمله الطرق ولهذا يصهر ويصب محلوله في القالب المصنوع على الشكل المطلوب. وتتلخص أساليب الزخرفة في الحز scratching أو الحفر engraving أو التخريم piercing كما يستعمل التطعيم inlading بالمواد النفيسة أو المواد ذات الألوان والصفات المغايرة لمعدن التحفة الأصلي حيث تحفر الزخارف وتسقط فيها أسلاك من المادة الجديدة للتطعيم.

وقبة العنزة التي بناها المظفر بن المنصور بن أبي عامر سنة 388 هـ نصبت بأعلاها طلسمات وتماثيل كانت قبل ذلك على رأس القبة التي كانت بأعلى المحراب الأول فأراد محو آثار الشيعة وحولها إلى أعلى قبل العنزة وجعل الطلسمات على أعمدة من حديد منها طلسم الفار على صورة الفار فكان الفار لايدخلها ولا يعشش بها وان دخلها افتضح وقتل، ومنها طلسم العقرب وهو على صورة طائر منقاره يشبه ذنب العقرب فكانت العقرب لا تدخله،... ومنها طلسم في تفافيح من نحاس للحية فلا تدخله وان دخلته افتضحت وقتلت[2].

(1) الجزنائي : زهرة الآس ص 47.
(2) زهرة الآس ص 54 – 55.


CARTE DES ATELIERS MONETAIRES
IDRĪSITES ET CONTEMPORAINS
طنجة 1 ṬANŽA
اصيلا 2 AṢĪLĀ
تهليط 3 TAHLĪṬ
البصرة 4 el-BAṢRA
تلمسان 5 TILIMSĀN
ورغة 6 WARĠA
تجرهان 7 ĪŽERHĀN
وطيط 8 WAṬĪṬ
وليلة 9 WALĪLA
العلية 10 el-ᶜALĪYA
العالية el-ᶜĀLIYA
سبو 11 SUBŪ
ورزيغة 12 WARZĪĠA
يكم 13 ĪKEM
بهت 14 BAHT
تاجراجرا 15 TĀGRĀGRĀ
مريرة 16 MRĪRA
وزقور 17 WAZEQQŪR
ومهنا 18 WĀWMAHNĀ
زيز 19 ZĪZ
تدغة 20 TUDĠA
▲ Mines d'argent
0 50 100 150 200 250
R. CARMONA

ATELIERS IDRISITES

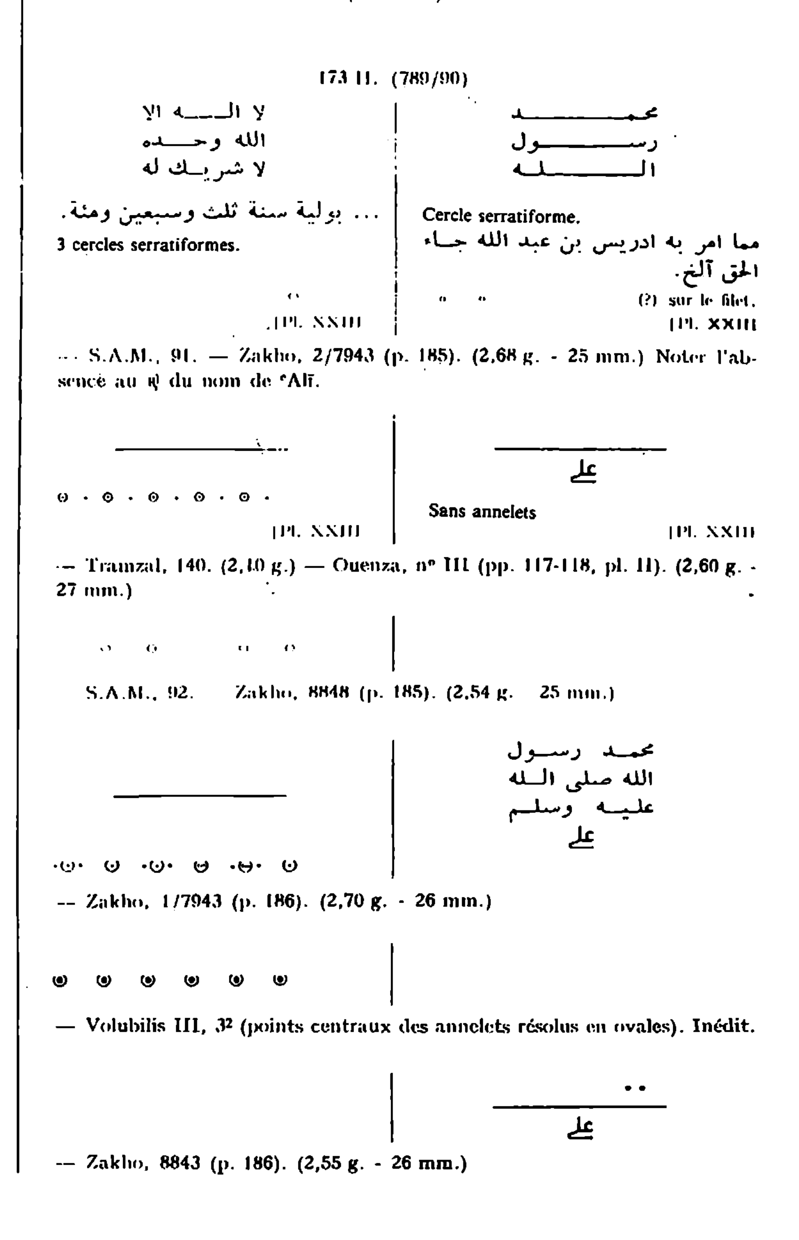
		DÉCHIFFRÉS	IDENTIFIÉS	LOCALISÉS	
—	AṢĪLĀ	+	+	+	Arzila
—	EL-BAṢRA	+	+	+	Basra (ruines)
~	BAHT	+	+	?	s/oued Beht
~	TĀGRĀGRĀ	+	+	?	s/oued Tigrigra
~	TUDĠA	+	+	?	s/oued Todgha
—	TILIMSĀN	+	+	+	Tlemcen-Agadir
~	TAHLĪṬ	+	+	?	s/oued Loukkos
—	ZĪZ	+	+	+	s/oued Ziz, dans le Gers
~	SUBŪ	+	+	?	s/oued Sebou
—	ṬANŽA	+	+	+	Tanger
—	EL-ᶜALĪYA / EL-ᶜĀLIYA	+	+	+	Fès, rive g.
~	MRĪRA	+	+	?	env. de Mrirt
—	WARZĪĠA	+	+	+	Ouarzigha
—	WARĠA	+	+	+	Fès-el-Bali
~	WAZ[illegible]QQŪR	+	+	?	s/oued Bou-Zkour
~	WAṬĪṬ	+	+	?	Jbel Outita
—	WALĪLA	+	+	+	Volubilis
—	WĀWMAHNĀ	?	?	+	Ouaoumana (?)
~	IŽERHĀN	+	+	?	s/oued Jerhane
~	ĪKEM	+	+	?	s/oued Yquem (?)

WALĪLA وليلة

وليلة

(Volubilis)

IDRĪS Ier
ibn ʿAbd Allāh
(172-175 H.)



173 H. (789/90)

لا الــــه الا الله وحــــده لا شريــك له	محمــــــــــد رســـــــول الـــــــلـــه
... بولية سنة ثلث وسبعين ومئة. 3 cercles serratiformes.	Cercle serratiforme. مما امر به ادريس بن عبد الله جاء الحق آلخ. (?) sur le filet.
(Pl. XXIII	(Pl. XXIII

— S.A.M., 91. — Zakho, 2/7943 (p. 185). (2,68 g. - 25 mm.) Noter l'absence au ℞ du nom de ʿAlī.

⊙ · ⊙ · ⊙ · ⊙ · ⊙ ·	علي Sans annelets
(Pl. XXIII	(Pl. XXIII

— Tranzal, 140. (2,10 g.) — Ouenza, nº III (pp. 117-118, pl. II). (2,60 g. - 27 mm.)

S.A.M., 92. Zakho, 8848 (p. 185). (2,54 g. 25 mm.)

·⊙· ⊙ ·⊙· ⊙ ·⊙· ⊙	محمـد رسـول الله صلى الـله عليـه وسلـم علي

— Zakho, 1/7943 (p. 186). (2,70 g. - 26 mm.)

⊙ ⊙ ⊙ ⊙ ⊙ ⊙

— Volubilis III, 3[2] (points centraux des annelets résolus en ovales). Inédit.

	•• علي

— Zakho, 8843 (p. 186). (2,55 g. - 26 mm.)



182 ou 184 H. (?)

———	ادريس محمد رسول الله على

— NESSELMANN, *Königsberg*, 2 R (p. 84; lit plutôt ثمنين que تسعين)

185 H. (801/2)

——— ... بوليلة سنة خمس وثمنين ومئة.	ادريس محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على

Zakho, 8841 (p. 187). (2,46 g. - 27 mm.)

186 H. (802)

... بوليلة سنة ستة وثمنين ومئة. o o o o o o	

Zakho, 8358 (p. 187). (2,62 g. - 26 mm.)

2 cercles serratiformes. Annelets : (?).	

— VASMER, *Dva klada*, 20 (p. 38; « quelques annelets »). (2,20 g. - 26 mm.)
MARKOV, 24 (p. 79).

187 H. (802/3)

[ابو .. ح(؟)] ... بولبلة سنة سبع وثمنين ومئة. o o o o o [Pl. XXIV	... ابن ... (?) sur le filet. [Pl. XXIV

B. MAR., 994 (= BRÉTHES, 621, pl. XI; propose de lire Abū Ḫālid Yazīd, régent à la mort de Rāšid. Je ne crois pas qu'on puisse aller jusqu'à deviner ce nom dans la trace qui nous reste : peut-être Abū ... ḥ/ǧ ?).

———	

— Zakho, 3/8357 (p. 187). (2,48 g. - 27 mm.)

Rem.: Autre dirham de la même année, sans précisions, SCHERZL., 6195.

188 H. (803/4)

... بوليلة سنة ثمان وثمنين ومئة.

Sans précision.

— SORET, *Lettre à Fraehn*, 111 (p. 47; au ℞, en bas du champ, mot effacé). — SCHERTZL., 6203. Si le nom de l'atelier a été bien lu, notre classement est bon. Sinon ce dirham serait à classer CONT., 63A, *sub* Tudġa, ou dans la remarque qui fait suite aux ateliers indéchiffrables des contemporains.

189 H. (804/5)

... بوليلة سنة تسع وثمنين ومئة.

o o o o o o

— Zakho, 8554 (p. 188). (2,43 g. - 28 mm.)

192 H. (807/8)

———	ادريس
2 cercles serratiformes.	———
... بوليلة سنة اثنتين (؟) وسعين ومئة. (*sic*)	على ·

— NÜTZEL, II, 843 (p. 203; lu 172 H. Pour interpréter les dizaines, l'auteur n'a pas tenu compte de la présence au ℞, en haut du champ, du nom d'Idrīs). (2,19 g. - 26 mm. - 2 trous). Il en est certainement de même de PINNOW, p. 277.

195 H. (810/11)

Sans précision. | — *Id.*

— ZAMBAUR, *Top Kapu Sarai* (ms), « de 175 à 195 H. » sans autre détail, d'après *Münzprägungen*, p. 271. On doit déduire de ce renseignement qu'il y a dans cette collection une suite de frappes assez régulière entre ces deux dates. Mais la pratique de l'ouvrage m'a démontré que la notation 175-195 dans *Münzprägungen* ne garantit pas absolument une frappe pour chaque année, car Zambaur néglige quelques manques dans d'autres références semblables. Ainsi 193 et 194 H. par ex. peuvent faire défaut. C'est la raison pour laquelle je n'ai pas consacré un n° du *corpus* pour les dates intermédiaires qui manquent dans celui-ci et peuvent être absentes également dans la coll. turque.

199 H. (814/15)

	ادريس
	محمد
———	رسول
على	الله
	على ₮
... بوليلة سنة تسع وتسعين ومئة.	محمد رسول الله أرسله بالهدى الخ.
o o o o o o	

— *B.M.C.*, IX, 186[1] (p. 164). (2,33 g. - 23 mm.) — ZAMBAUR, *Nouv. contrib.*, 424[1].

— *Rem* · LANE POOLE, *Khed. libr.*, p. 328, donne un dirham dont la date est illis, 1[..] H., et le rapproche du type de *B.M.C.*, II, 186. Voir également coll. Veliaminov-Zernov, 773 (p. 4).

الساعات :

وكان للمؤذنين بصومعة القرويين (بلاطات رخام موضوعة بالحكمة، وفي وسط كل بلاطة قائم يستدل بامتداد ظله على خطوط في البلاطة بطول أزمان النهار ومرور ساعاته. وقد نصبها أهل العلم بالهيأة عن نظر وموافقة وهي لهم من أفضل الهدايات[1].

صناعة الأعمدة المحلية والرخام

وكان للمغرب منذ عصر الأدارسة طريقته الخاصة في صنع الأعمدة المحلية بالمواد الوطنية وصبها في قالب يعد حسب القياسات المطلوبة لانتاج أعمدة محلية رخيصة التكاليف قوية الاحتمال كما هو الشأن في الأعمدة التي اكتشفتها بحفائر شالة الاسلامية.

هيئة ومواد الأعمدة الادريسية :

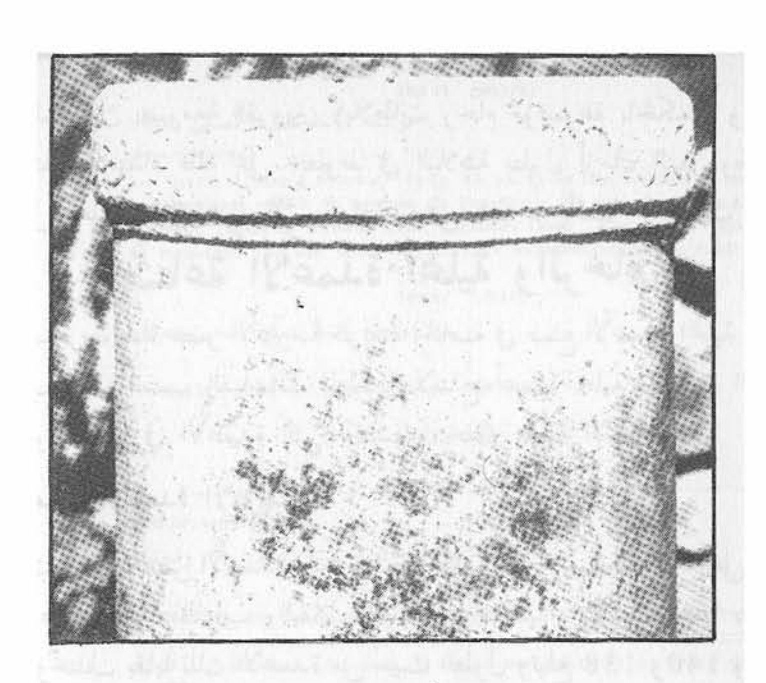
لقد لفت نظري بعض الأعمدة المبعثرة دون نظام بصحن مسجد شالة على يسار الداخل وقد تراكمت فوقها أكوام التراب والبقايا فرفعتها من أماكنها وبدأت دراستها بعد أن اكتمل عددها أربعة. وتختلف بقايا تلك الأعمدة من حيث الطول وتبلغ 138 و140 و156 و180 سنتيمترا على التوالي ومتوسط قطر العمود من ناحية الرأس 50 سنتمترا، ويدور حول الرأس خاتم بارزا قليلا عن باقي البدن (شكل 176).

على أن تلك الأعمدة لم تنحت في الرخام بل صنعت محليا وبمواد محلية كذلك وتتلخص طريقة صنعها في عمل قالب خشبي بالحجم المطلوب ثم تجهيز كميات من الجير المصفى والحمرى وتخلط مع عقاد الجير. وبعد خلط تلك المواد جيدا يضاف اليها الماء ويقلب معها جيدا قبل أن تصب داخل القالب حيث يجري دقها بقوة ولمدة طويلة وبعد التأكد من جفافها وصلابتها يزال عنها القالب الخشبي وتنقل لاستخدامها في رفع السقوف بعد التأكد من جفافها مرة أخرى خارج القالب. وغالبا ما تثبت تلك الأعمدة جدارتها في حمل الأثقال لمتانتها بالاضافة إلى سهولة وسرعة انتاجها ورخص تكاليفها اذا ما قورنت بالأعمدة الرخامية.

والواقع أن روح هذه الصناعات وظروفها والمواد المستعملة فيها تكون أنسب إلى امكانات وظروف عصر بناء المسجد الأول الذي رجحنا ارجاعه إلى عصر[2] الأدارسة أوائل القرن الثالث الهجري فقد بنت فاطمة الفهرية مسجدها (القرويين الحالي) بالحجر «... وحفرت وسطه فصنعت كهوفا واقتطعت الكدان ــ وهو حجر الجير ــ وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب فبنت به الجامع المذكور...» كما أن سقوف الأدارسة

(1) زهرة الآس ص 50.

(2) عثمان عثمان : حفائر شالة الاسلامية، الفصل الخامس الخاص بالترتيب التاريخي للمباني الأثرية.



شكل (176)
أحد نماذج الأعمدة الادريسية محلية الصنع



شكل (177)
عمود بجامع الأندلسيين ذو تاج بمقرنصات ودلايات من عصر متأخر

كانت مرفوعة فوق الأعمدة دون الأكتاف كما يتضح من وصف البكري لمسجد الأشياخ بعدوة الأندلسيين : «جامع حسن فيه ستة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب وعمده أرجل كدان...»[1]. ومن ذلك يتبين استخدام الأدارسة للأعمدة كما يتبين صنع تلك الأعمدة من الكدان أي الحجر فهي صناعة محلية وليست من الرخام المستورد وتختلف عما نراه من أعمدة جامع الأندلسيين المتأخرة تاريخيا (شكل 177).

ويمكننا الآن القول بأن تلك الأعمدة التي درسناها بحفائر شالة تعتبر دليلا ماديا على صحة وصف المؤرخين المبكرين لأعمدة المساجد الادريسية، كما يمكن اعتبار أوصافها ممثلة لأسلوب الأعمدة الاسلامية في عصر الأدارسة.

حوض رخام للوضوء بمدرسة ابن يوسف بمراكش :

وفي مدينة مراكش وبصحن مدرسة ابن يوسف يوجد حوض رخامي (شكل 178) تشتمل جوانبه على نقوش منحوتة من الزخرفة الكتابية والرسوم الزخرفية النباتية ذات الحفر العميق في الرخام ويحمل نقشا تاريخيا نقرأ به (بسم الله بركة من الله ونصر وتأييد للحاجب سيف الدولة ناصر الدين وقامع المشركين أبي مروان عبد الملك بن المنصور أبي عامر أطال الله بقاه مما أمر بعمله... وثلاث مائة) ومن هذا النص نفهم أنه صنع بأمر عبد الملك ابن المنصور سنة 399 هـ (1008).

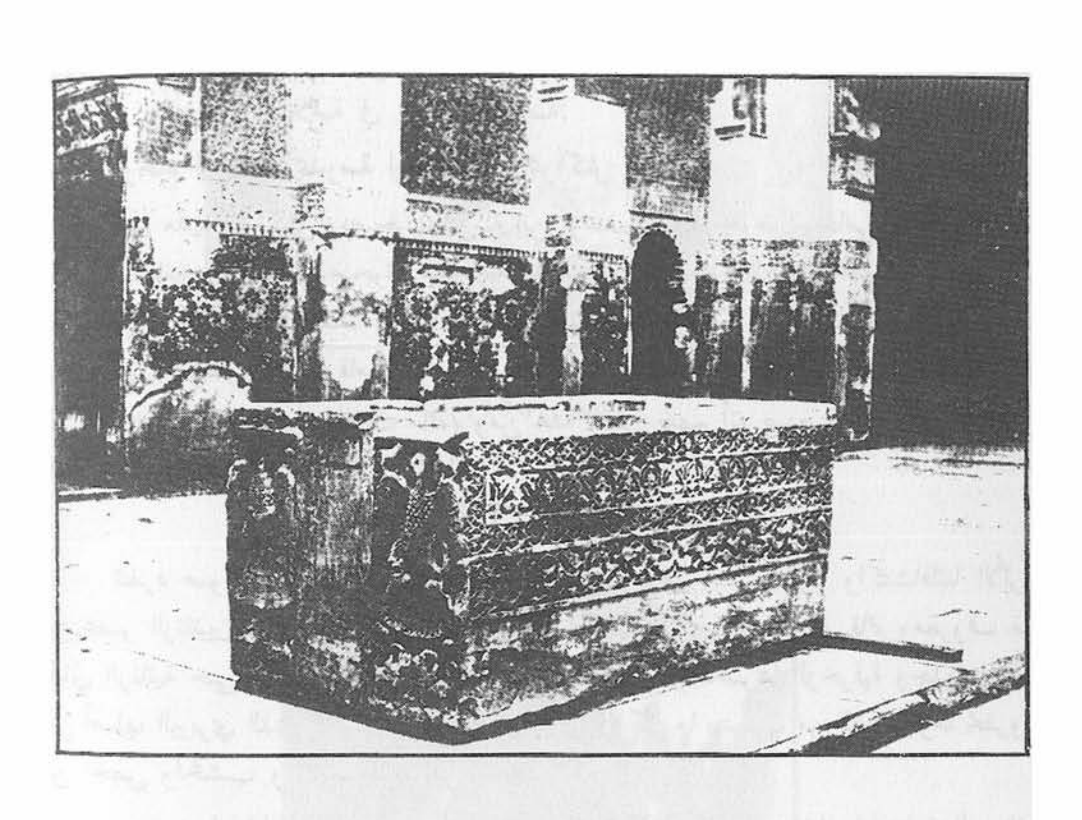
الزخارف الجدارية الزناتية

تنفرد صومعة مسجد شالة العتيقة[2] (التي أرخناها بعد حفائرنا واكتشافاتنا الأثرية من عصر الزناتيين) بأنواع من الزخرفة البربرية ليس لها نظير على ما هو قائم ومعروف من المباني الزناتية حتى اليوم فيما نعلم. وعندما حللنا أصولها وعناصرها الزخرفية وجدناها تدل على أصلها البربري الذي لا زال موضع اقبال البربر في كل ما ينتجون من الفخار وما يحفرون من الجص والخشب وما ينسجون من سجاد.

ويتضح في الجزء الأسفل من بناء صومعة شالة العتيقة استخدام الحجارة الرومانية الكبيرة، وهي قريبة الشبه بحجارة الحائط الشمالي المكتشف بالمسجد وتؤكد نسبة الصومعة الأولى الى نفس عصر بناء المسجد الادريسي. وفي عصر من العصور التالية كسيت الصومعة بطبقة من البياض ورسمت فوقها ــ قبل أن يجف البياض ــ بعض الزخارف الهندسية التي لم يبق منها سوى أثر قليل بأسفل الجانب (الواجهة) الجنوبي الشرقي للصومعة. وبتحليل تلك الزخارف تتضح لنا عناصرها البربرية الأصل.

(1) راجع عرض النص واستخدامه في حفائر شالة الاسلامية.

(2) تذكر أننا أثبتنا ارجاع صومعة المسجد العتيق بشالة الى العصر الزناتي بينما توجد بشالة صومعة أخرى من عصر المرينيين لا خلاف عليها انظر ذلك بحفائر شالة الاسلامية (الفصل الأول).



شكل (178)
حوض وضوء، رخام من صناعة العصر الأموي محفوظ
بمدرسة ابن يوسف بمراكش

وإذا كانت زخرفة صومعتي فاس بالقرويين ومسجد الأندلس قد تلاشت أو أن الصومعتين كانتا دون زخرفة فان نسبتهما الى العصر الزناتي ثابتة تاريخيا بينما احتفظت صومعة شالة العتيقة بآثار ضئيلة لزخرفة مطموسة اعتبرها هنرى باسيه وزميله ليفي بروفنسال كنوع من زخارف البيوت المغربية وتعجبا من استخدامها في أزهى عصور الفن المغربي[1] وذلك أنهما اعتبرا الصومعة موضوع البحث ونفس المسجد من عصر أبي الحسن المريني أي من القرن الثامن الهجري.

ونعود الآن إلى شرح عناصر الزخرفة الزناتية على صومعة شالة العتيقة وأولها شكل زاوية قائمة (Ecaire) يطلقون عليه اسم (ركاب) وهو عنصر قديم في الزخرفة البربرية خصوصا على الجص[2]. والعنصر الثاني هو شكل دائري يحيط بزخرفة هندسية يعرف (بالقمر المكمول) نقشه البربر على الجص كذلك كما نوعوا أشكال زخرفته الداخلية[3]. ونحن نرى هذين العنصرين في الجانب الأيمن من زخرفة الصومعة المذكورة بينما يبدو لنا في الشريط الأوسط شكل (اللوزة) كما يسميه المغاربة وهو نفس شكل العين التي لها أسرار خاصة وتأثيرات كبيرة في الفن البربري ويسمونه في البربرية (نصف قمر) وهي من العناصر الزخرفية البربرية الأصل[4]. كما يوجد عنصر رابع في الشريط الأول جهة اليسار وهو عبارة عن شكل سلسلة من خطوط مترددة (Zigzag) كثيرة الاستعمال في المنسوجات البربرية والسجاد والجص[5].

هذه أربعة عناصر من الزخرفة البربرية الخالصة نقشها البربر في الخشب ورسموها على الفخار ونسجوها في السجاد بل زينوا بها كذلك واجهات مبانيهم البربرية ولا زال البربر يقبلون عليها إلى اليوم.

على أن أهم نتيجة توصلنا اليها من دراسة زخارف هذه الصومعة هو ما أوحت به الينا عن الموطن الحقيقي والعنصر الأصلي في الزخرفة الواسعة الانتشار في الفن العربي المغربي الاندلسي والمعروفة بشبكة المعينات المتجاورة المعروفة باسم (Réseau de losanges).

---

(1) حيثد تعمل رسوم بسيطة بدهان سريع قليل النفقات انظر دراسة تلك الزخرفة وتأريخهما للصومعة والمسجد في بحثهما الكبير (شالة روضة مرينية) بمجلة الهسبريس 1922 الفصلة الثالثة ص 283.

(2) Les Arts décoratifs au Maroc, fig, 5 P.27 par :Terrasse et Hainaut

(3) المرجع السابق ص 21 الشكل العلوي وكتاب ريكار عن الفن الاسلامي بشمال افريقيا والأندلس ص 75 أشكال 87 — 97.

(4) أنظر تيراس وهينو نفس المصدر ص 4 و27 وانظر كذلك كتاب ريكار ص 72 وشكل 68 فقد تتخذ الزخرفة من سلسلة من العيون المتتابعة.

(5) أنظر كتاب ريكار المذكور ص 72 وشكل 67.

أصول الكتابات الخطية القديمة بالمغرب

علم النقوش الخطية القديمة ومصادره :

تعتبر دراسة النقوش العربية القديمة علما قائما بذاته يتناول دراسة القواعد اللازمة لمعرفة حروف الكلمات وهيئتها ومميزاتها بقصد قراءتها وفك طلاسم النص التاريخي وكتابة التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي كتابة قائمة على أوثق المصادر وأهمها.

ويسمى فن دراسة النقش على المواد الصلبة كالحجر والجص والخشب وغيرها Epigraphie بينما يسمى العلم الخاص بدراسة النقوش العربية القديمة المتبقية على المواد اللينة كالورق والجلد والبردي وغيرها Paléographie.

وقد حظيت مناطق معينة كمصر وايران باهتمامات سابقة على غيرها حيث ظهرت دراسات حول خطوطها العربية القديمة توطئة لدراستها دراسة علمية متخصصة بقصد استخلاص القواعد العامة لمميزات الكتابة في فترات محددة من التاريخ.

ولكن الدراسة الخاصة التي تدرس قيمة الحرف وهيئته ومميزاته العديدة التي تساعد على تأريخ الآثار لم تتوفر بقدر كاف على العموم وبصفة خاصة بالنسبة للمغرب الأقصى بالذات.

ومنذ عام 1947 نشر صلاح الدين المنجد كتاب رائد التراث العربي الذي اقتبسه عن جان سوفاجيه وذكر به عدة مصادر لدراسة النقوش العربية نذكر منها كتاب B. Moritz المسمى Arabic Paléographie وكتاب Arberry الذي ظهر تحت عنوان Specimens of Arabic and Persian Paleographie وهي عبارة عن مجموعة نماذج من الخطوط دون دراسة تحليلية. وقد وردت مراجع ذات شأن عن النقود الاسلامية عدا نقود الهند في كتاب Mayerتحت اسم Bibliography of Moslem numismatics.

وجاء بدائرة المعارف الاسلامية فصل عن المخطوطات Scripts نرى فيه مبلغ تقدم الكتابة، وهي دراسة عامة تختص بفن الكتابة الخطية القديمة. كما واصل العلماء جهودهم في دراسة النقوش والكتابات العربية وبدأ Max Van Berchem في عمل كتاب ضخم تحت عنوان Inscriptionum Arabicorum كما عني المستشرق فلوري Flury بدراسة المظهر الخارجي للحروف، ووضع الأستاذ كومب وسوفاجيه وفييت وغيرهم مشروعا ضخما لنشر الدليل التاريخي للنقوش العربية Repertoire chronologique d'épigraphie Arabe.

وفي سنة 1931 نشر E. Pauty كتالوج المتحف العربي بالقاهرة حول الكتابات الخطية على الخشب Les bois sculptés jusqu'à l'époque Ayyoubide.

وقد حاول G. C. Milles ان يلقي ضوءا على النقوش العربية بايران في مقال له بالمجلة الأمريكية Ars Islamica (ج 8 ص 105) تحت عنوان Epigraphie وبنفس المجلة العلمية قدمت Nabia Abbott دراسة مستفيضة (ج 8 ص 65) عن تطور المخطوطات الاسلامية المبكرة تحت عنوان The devlopment of early Islamic scripts.

وفيما يتعلق بالغرب الاسلامي، يضم كتالوج العملة الشرقية بالمتحف البريطاني الذي وضعه ستانلي لين بول عشرة أجزاء يشتمل الجزء الخامس منها على ما يخص افريقيا الشمالية والأندلس. ويختص الجزء الثاني من كتالوج العملة الاسلامية بالمكتبة الوطنية بباريس الذي وضعه H. Lavoix بالأندلس وافريقيا الشمالية.

وقد وضع L. Provençal كتابا قيما من ثلاثة أجزاء عن النقوش العربية باسبانيا. كما وضع B. Roy بالاشتراك مع P. Poinssot دراسة لجمع نقوش مدينة القيروان ظهرت في منشورات معهد الدروس العليا التونسية على مرحلتين الأولى بالجزء الثاني فصلة واحد سنة 1950 والثانية بالجزء الثاني الفصلة الثالثة سنة 1958.

أما Colin وزميله Berchem فقد اهتما بنقوش الجزائر بينما درس ألفرد بل Alfred Bel نقوش فاس العربية ونشرها بالجريدة الاسيوية سنة 1917 كما نشر جاستون دفردان نقوش مراكش العربية Inscriptions Arabes de Marrakech وتقدم بها رسالة فرعية للحصول على درجة الدكتوراه.

ودرس دانيل أوسطاش تاريخ النقود الادريسية دراسة منهجية قدم لها الأستاذ الرئيس محمد الفاسي ونشرها بنك المغرب بعنوان (الجامع في الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها) ووصل بأبحاثه إلى تصحيح واكمال قوائم أمراء الأدارسة ومعرفة مواد عملتهم ومواطن تلك المواد وصفاتها والصناع وأسمائهم وتفسير عدد الرموز والاصطلاحات الموجودة على العملة الادريسية ومميزات عملة ادريس الأول وادريس الثاني ثم خلفائهم والقى أضواء هامة على تاريخ الاقتصاد والاجتماع المغربي والعلاقات السياسية الخارجية بالاضافة إلى محاولة استخلاص الالفباء الخطية في عصر الأدارسة تمهيدا لدراستها دراسة خاصة.

ونشر بريت دراسة حول النقود المغربية عبر التاريخ ابتداء من العصر القديم. وظهرت سنة 1915 ضمن مجموعة دراسات ونصوص عربية دراسة عن مجموعة من النقود الموحدية والمرينية نشرها بريطو. ونشر العلامة المحقق الصبور الأستاذ المنوني بمجلة البحث العلمي

سلسلة أبحاث مستفيضة في فنون الخط والكتابة وأخبار الخطاطين المغاربة ومميزاتهم وجمع بصبر واناة مختلف ميادين الكتابة ومصادر دراستها وفتح أبوابا للدارسين بحصر الحوالات الوقفية بأماكن حفظها وأرقامها كمصدر كبير لدراسة الخط المغربي وتحديد قيمة حروفه ومميزاتها في فترات محددة.

وقد خصصتُ نصف مساحة كتابي (دراسات جديدة في الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى) لغرض دراسة بعض المستشرقين الفرنسيين والاسبان لنقوش مغربية معينة وأوضحتُ الأخطاء الجسيمة التي وقعوا فيها فأدت بهم إلى أخطاء تاريخية تتعلق بتاريخ المباني الأثرية. كما نشرتُ نقوشا جديدة لم تكن منشورة من قبل مع قائمة مصادر مفصلة عن النقوش الخطية القديمة.

ومع هذا، وعلى الرغم من ظهور كتاب أوسطاش (شكل 179) فلم تصل الدراسات بعد الى مرحلة وضع القواعد العامة لمميزات الخط المغربي أصله وتطوره ومعرفة قيمة الحروف العربية المنقوشة على المواد المختلفة في فترات تاريخية محددة على غرار دراسة النقوش العربية بالقيروان (شكل 180 – 184) لاستخدام تلك القواعد والمميزات في تأريخ نقوش مجهولة التاريخ لاستغلالها في شرح ومعرفة أسرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتطور الثقافة والفكر والفن في هذه البلاد.

على أنه لا مندوحة لمن أراد البحث في علم النقوش الخطية المغربية القديمة من الرجوع إلى المصادر العربية العامة حول أنواع الخط العربي وأدوات الكتابة وأخبار الخطاطين الواردة في كتاب الفهرست لابن النديم (توفي سنة 385 هـ) والصاحبي في فقه اللغة للامام أحمد بن فارس من أئمة اللغة في القرن الرابع والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي المتوفي سنة 328 هـ وأدب الكتاب للصولى المتوفي حوالي سنة 335 هـ والمطالع النصرية للشيخ نصر الهوريني وكتاب الآداب السامية لمحمد عطية الابراشي وأخيرا قصة الكتابة العربية للدكتور ابراهيم جمعة بالاضافة الى أبحاث ضمنية أوردها الدكتور زكي محمد حسن بكتابيه فنون الاسلام والفنون الايرانية ثم كتاب الفنون الاسلامية الذي ترجمه أحمد عيسى عن ديماند.

أهمية البحث في علم النقوش المغربية :

لقد هدفت من اثبات تلك المصادر الى هدفين : الأول فتح باب الدراسة المتخصصة لعلم الكتابات الخطية المغربية القديمة ابتداء من حصر الكتابات في دليل Repertoire رئيسى مرتب حسب التاريخ توطئة لدراسة أخرى حول قيمة وهيئة الحرف وتطوره في كل قرن من القرون لوضع قواعد علمية بالمميزات وتطورها لاستخدامها في تأريخ النصوص التي لا تحمل تاريخ النقش.

FINALE	MÉDIALE	INITIALE	ISOLÉE	NOM
				alif الف
				bā' بـه
				tā' تـه
				ṯā' ثـه
				ǧīm جيم
				ḥā' حـه
				ḫā' خـه
				dāl دال
				ḏāl ذال
				rā' راء
				zayn زين
				sīn سين
				šīn شين
				ṣād صاد
				ḍād ضاد
				ṭā' طـه
				ẓā' ظـه
				'ayn عين
				ġayn غين
				fā' فـه
				qāf قاف
				kāf كاف
				lām لام
				mīm ميم
				nūn نون
				hā' هـه
				wāw واو
				yā' يـه
				lām-alif لام الف

شكل (179)

جهود أوسطاش لتحديد صفة الحروف العربية المغربية

على ضوء دراسته للعملة

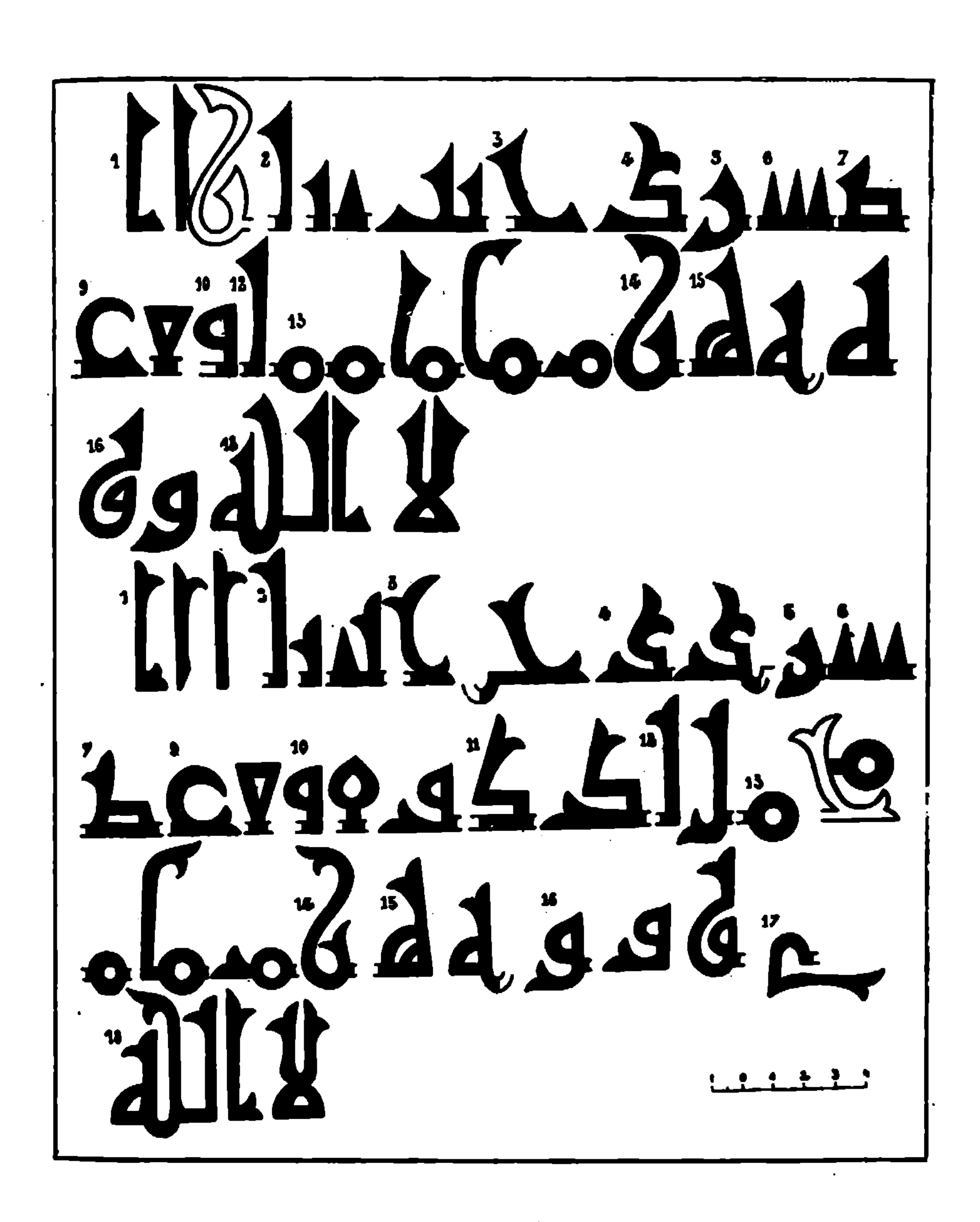
شكل (180)

بالسطر الأول من عام 235 هـ وبالسطر الثامن حروف من عام 258 هـ

(عن كتاب النقوش العربية بالقيروان)

شكل (181)

بالسطر الأول حروف من عام 265 هـ والسطر الرابع من عام 269 هـ والسطر السابع من عام 270 هـ (عن كتاب النقوش العربية بالقيروان

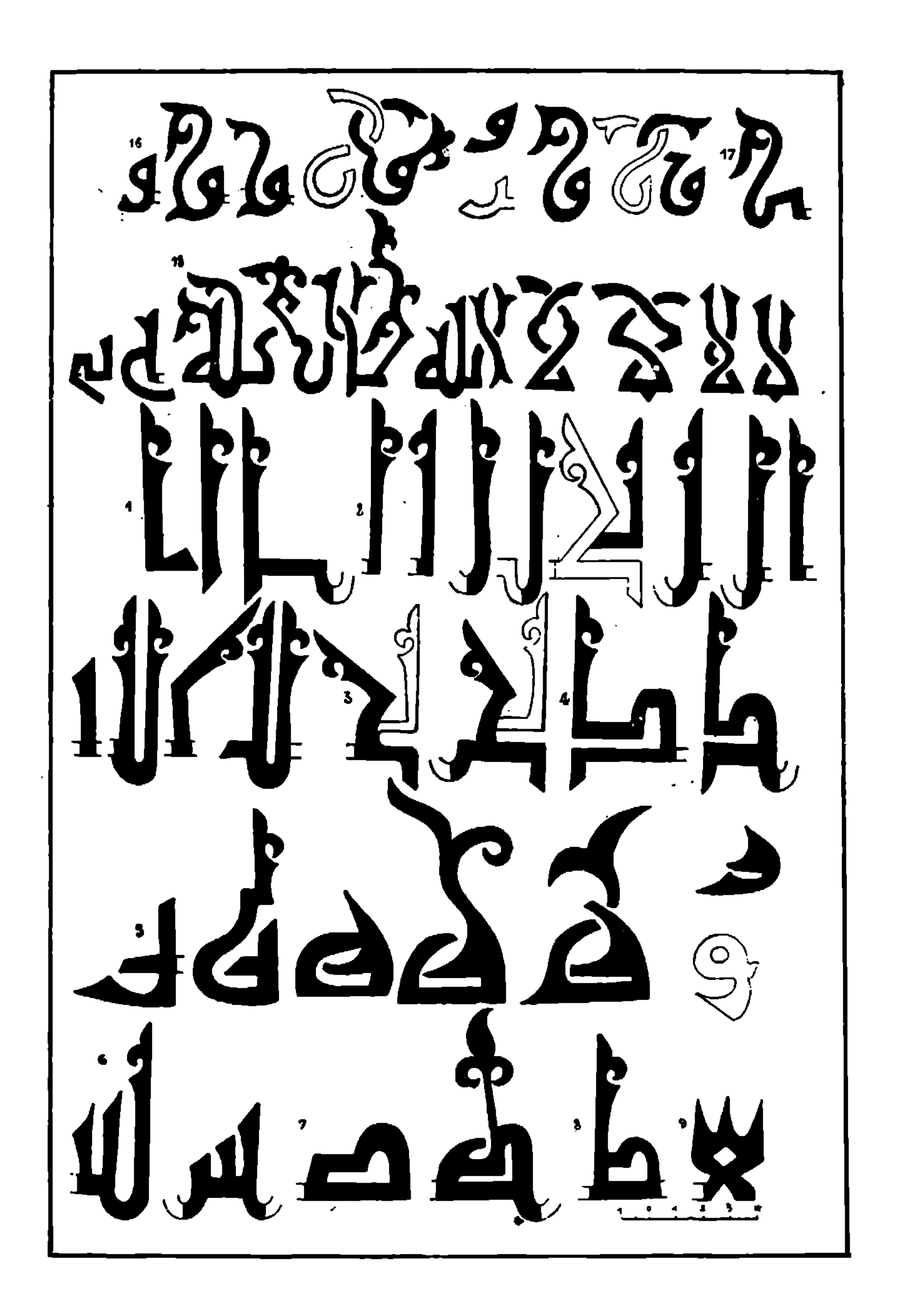


شكل (182)

السطر الأول من عام 340 هـ والسطر الرابع من عام 341 هـ

شكل (183)

السطر الأول من عام 372 هـ والسطر الخامس من عام 377 هـ



شكل (184)
حرف الألف كما نقشت عام 640 هـ

أما الهدف الثاني فهو البحث عن نقوش مغربية سابقة على الاسلام يمكن دراستها وتحليلها للوقوف على أصل الخط المغربي ومؤثراته.

ولعلنا لا نشاطر الأستاذ شارل اندريه جوليان رأيه القائل بان البربر كانوا يتكلمون لغة لوبية دارجة ربما تتصل بنفس الأصول البعيدة وأنها كانت ولا زالت لغة شفهية اذ ليس في معارفنا مطلقا ما يدل على أن البربر خلفوا حضارة مكتوبة في لغتهم[1].

وليس بعجيب أن تدمير الرومان لقرطاجة النهائي سنة 146 ق.م في نهاية الحرب البونية بين الرومان والفينيقيين والقضاء على جميع مظاهر الحضارة التي تتصل بعهد الفينيقيين بشمال افريقيا قد أدى إلى ضياع مخلفات خطية كثيرة ربما تظهرها الكشوف مستقبلا، ومن جهة أخرى فان الكتابة ما هي الا تدوين للغة، وقد تندثر اللغة كما اندثرت لغات عديدة لعدم وجود كتابة لها، بينما لغة البربر ظلت حية على الرغم من جميع المحن التي عرفها تاريخهم إلى أن جاء الاسلام فأثرت في لغة العرب وتأثرت بلغتهم. ولعلي أستطيع القول مسبقا بأن خطوط البربر قد أثرت في خطوط عرب الاسلام الوافدين بالاحتكاك والمعايشة عندما أتيح لها ذلك.

وإذا كانت أقدم النصوص العربية المغربية المعروفة الآن لا تسبق القرن الثاني للهجرة كما هو الحال في عملة الأدارسة المضروبة بفاس وتدغة[2] وغيرها من أواخر القرن الثاني، ونقش التأسيس المعثور عليه بجامع القرويين باسم الأمير داوود بن ادريس من سنة 263 هـ[3]، ثم نقش الصومعة الزناتية بجامع القرويين 344 هـ[4]، ونقوش منبر جامع الأندلسيين من القرن الرابع كذلك، فان ذلك لا يقوم دليلا على عدم وجود كتابة عربية سابقة على تلك التواريخ فقد ذكر المؤرخون أن صالحاً البربري البرغواطي المتوفي سنة 128 هـ كان محسنا للخط مجيدا للكتابة كما أن نقوش المولى ادريس الأول ثم ابنه ادريس الثاني على منبر مسجد تلمسان الأعظم قد اندثرت حاليا وكان عبد الرحمن بن خلدون قد قرأ نصها وأوردها في تاريخها.

تمييز الخط المغربي عن الخطوط العربية المشرقية :

ليس من الصعب أن نستخلص بعض الخصائص من صفة الخط العربي في الطراز المغربي (أشكال 185 – 187) ونقارن ذلك بما نعرف من خصائص مغايرة في المشرق العربي

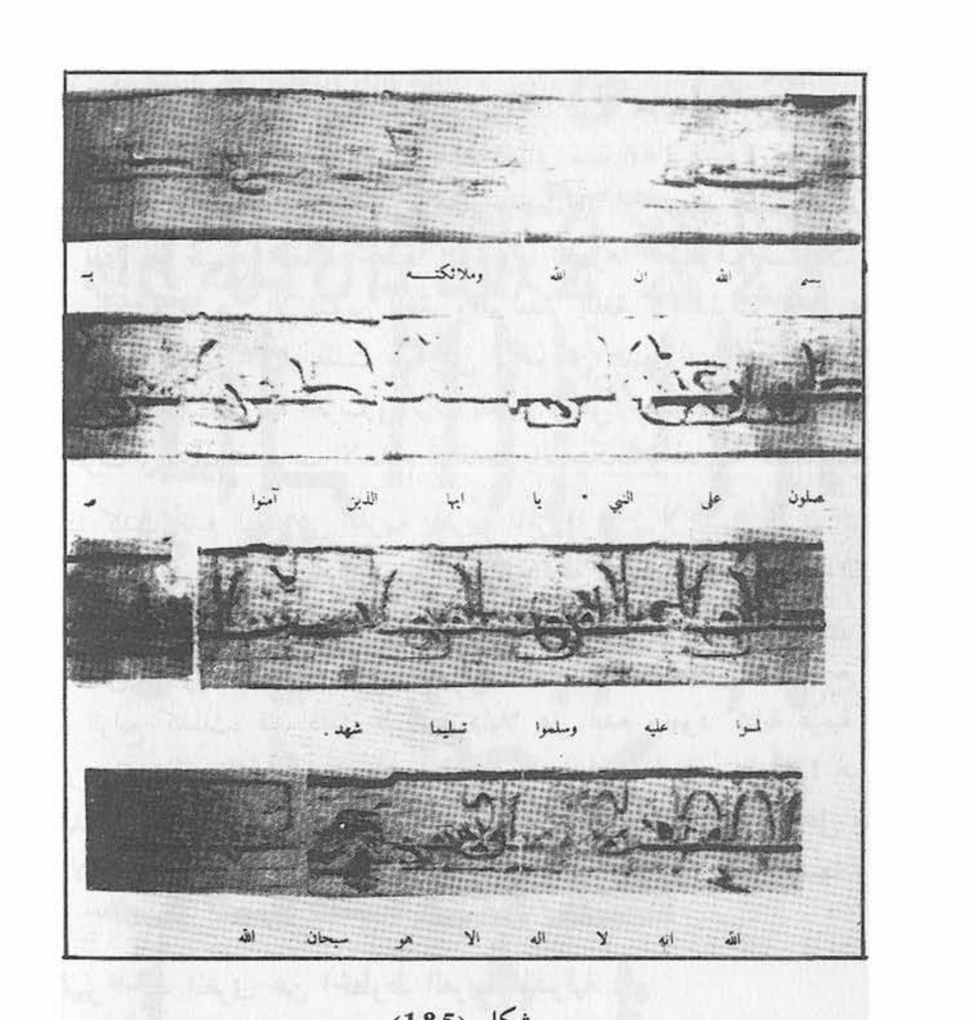
---

(1) C. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord T.I p. 58 - 59

(2) راجع ذلك في كتاب أوسطاش الجامع في الدراهم الادريسية.

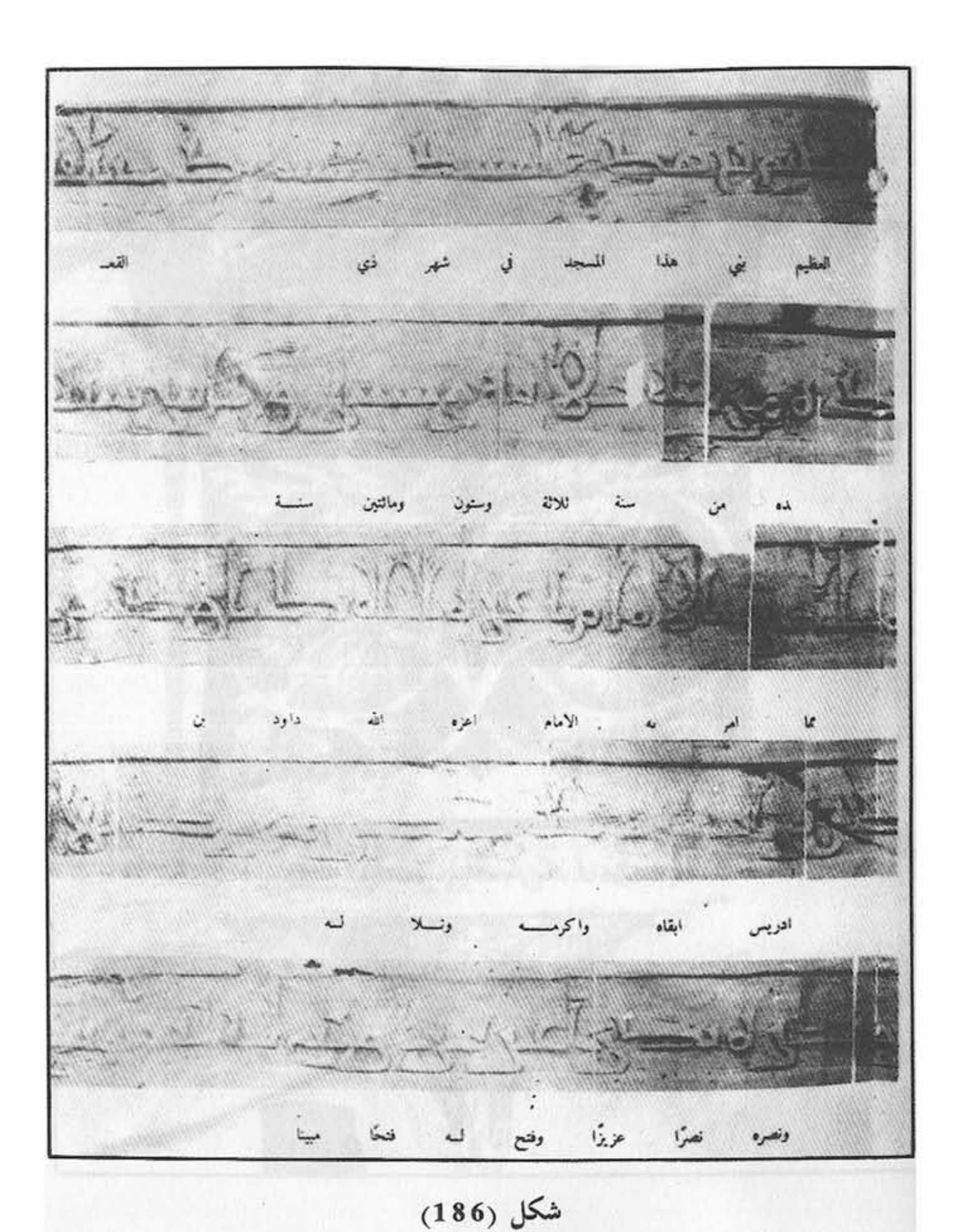
(3) نشره الدكتور عبد الهادي التازي بمؤتمر الآثار الثالث لفاس 1959 أنظر كتابه جامع القرويين ج 1.

(4) راجع كتابنا تاريخ شالة الاسلامية.



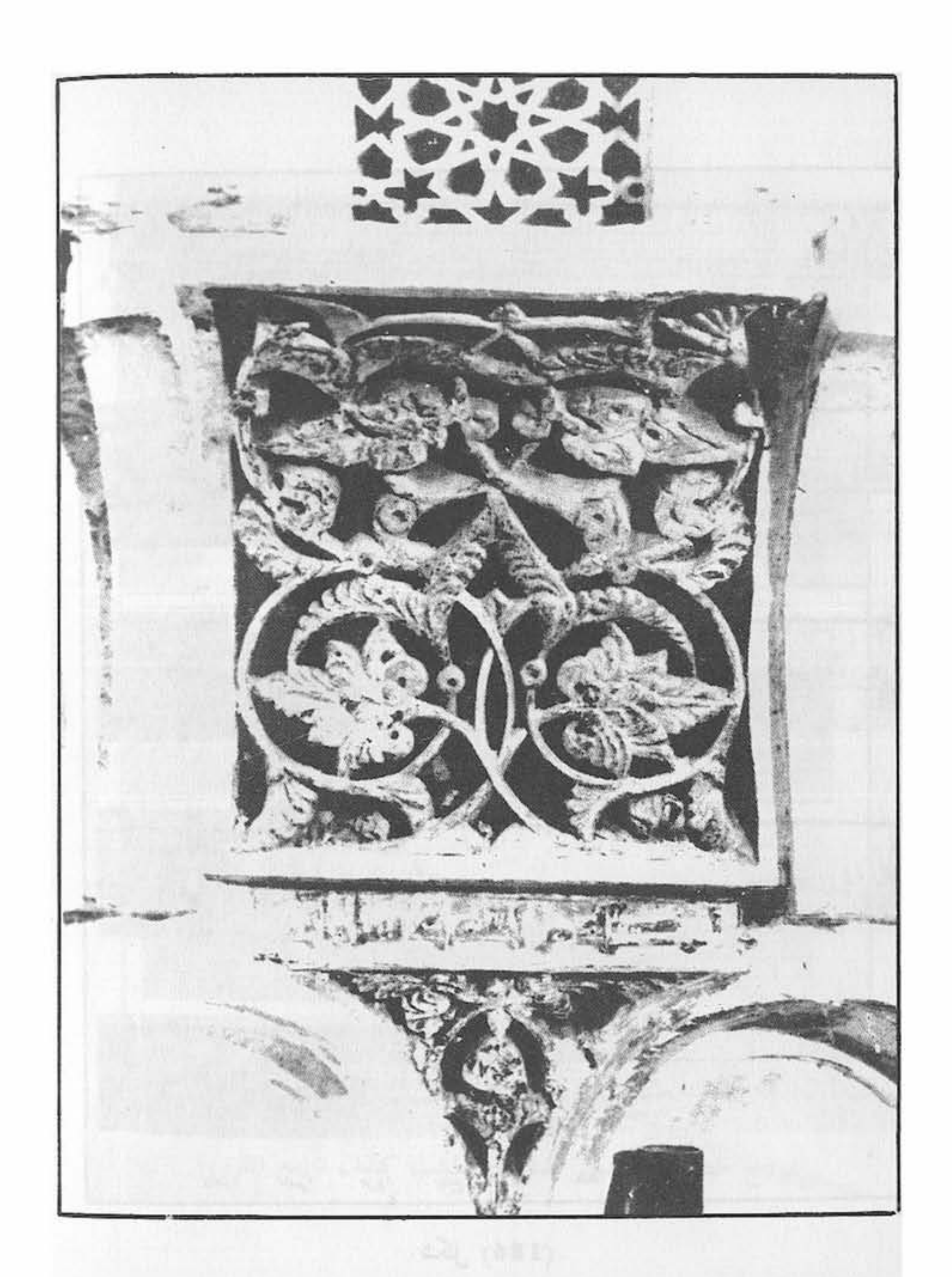
شكل (185)

نموذج لخط مغربي مبكر نقش في الخشب كشف بجامع القرويين



شكل (186)

بقية قراءة النقش السابق حيث يظهر اسم الامام داود بن ادريس



شكل (187)
خط كوفي بجامع القرويين نقرأ فيه (بركة ونعمة شاملة)

كخطوط سوريا ومصر ثم نتساءل عن سبب تلك المغايرة وهو التساؤل الذي طرحه علينا أثناء الدراسة منذ ثلاث وأربعين عاما الأستاذ كومب أحد رواد النقوش العربية القديمة. ذلك أن الأستاذ كومب يقرر أن أشكال الحروف العربية المغربية الأولى لم تكن تطورا عن الخط الكوفي المشرقي حيث أنها لا تشبهه، وانما كانت تطورا غير مفهوم لخط قديم جدا لا زال سبب تطوره على هذا الشكل غير معروف.

بعض خصائص الخط المغربي وتميزه عن خطوط المشرق العربي

1) وجدت في الخط الاسلامي المبكر بالمشرق ظاهرة تتعلق بحرف الألف المتصلة حيث نراها تستمر في النزول عن مستوى السطر، هذه الظاهرة التي اختفت من المشرق منذ قرون لا زالت مستعملة في الخطوط المغربية المعاصرة كما كانت في العصور المبكرة للاسلام بالمغرب.

2) رسم حرفي (لام ألف) بهذا الشكل [لا] مدة طويلة في مصر ولكن الشكل (لا) ظهر في المغرب قبل المشرق. وبهذا استعمل الشكل الجديد في المغرب قبل استعماله في مصر.

3) في القرنين الثاني والثالث للهجرة تطور الخط العربي في القيروان أيام الأغالبة وفي المغرب الأقصى بفاس على الخصوص أيام الأدارسة وهي أشهر مراكز الحضارة الاسلامية بالمغرب العربي وتبع التطور ازدهار مضطرد أدى إلى وجود اختلاف معين بين الخط العربي في المغرب الاسلامي وبين خطوط مصر وسوريا. ومن أبرز أوجه الاختلاف وجود نقطة أسفل الفاء بالمغرب بينما توضع النقطة فوق الحرف بالمشرق، كما أن النقط استعملت منذ القرن الثاني في المغرب بينما لم توجد في المشرق نقط على الحروف في ذلك القرن. كما أن الخط النسخي (اللين) ظهر في العملة في المغرب قبل مصر أوائل القرن السادس وعم استعماله أيام الموحدين قبل أن يعم استعماله بين الأيوبيين الذين واصلوا التقاليد الكوفية.

4) توقف استعمال الخط الكوفي للأغراض التاريخية والتأسيسة في نهاية العصر الفاطمي أواسط القرن السادس وحل محله الخط النسخي بينما استمر الكوفي المغربي في الأغراض التأسيسية إلى أواسط القرن الثامن كما رأينا على واجهة مدخل شالة الغربي الكبير (739 هـ).

5) وفي الوقت الذي يعيش الخط الكوفي لتسجيل النصوص التاريخية إلى ما بعد نظيره في المشرق بقرنين نلاحظ أن الكتابة اللينة حلت محل الكتابة الكوفية وخصوصا على شواهد القبور في نهاية القرن السادس بمصر (كما يشير إلى ذلك فان برشم) تعبيرا عن التغيير العميق الذي صحب انتصار صلاح الدين الأيوبي على البيت الفاطمي[1] بينما وجدت كتابات تأسيسية مغربية بالخط النسخي من أوائل القرن السادس، وعلى الخصوص نقش تأسيس المسجد الجامع بتلمسان من عصر المرابطين المؤرخ بعام 530 هـ (1135 م) مما يدفعنا إلى

(1) G. Marçais : Manuel d'art Mus. Paris 1926 v. I p. 169 et fig 231 A p. 403

التفكير في أسباب تقدم تلك الظاهرة في بالمغرب عن مصر بما لا يقل عن نصف قرن. كما تميز نقش المرابطين بمسجد تلمسان بأسلوبه القديم اذا ما قورن بنظيره في تونس على الرغم من التأثيرات القوية المتبادلة بين القطرين تونس والمغرب في شتى نواحي العمارة والفن.

6) يكتب الخطاط المغربي كلمة (ابن) هكذا (بن أو بر) وان كتابة (بر) بمعنى (بن) في الخط وفي النطق ليس لها نظير في مصر وسوريا مثلا سواء القديم أو الحديث بينما جاءت النقوش العربية المشرقية السابقة على الاسلام تؤكد وجود ذلك الاستعمال في نقش آرام من سنة 300 للميلاد ونقش امرؤ القيس 328 م ونقش Zabad 512 م ونقش حران 568 م وغيرها مما يربط الخط المغربي بالخطوط المشرقية قبل الاسلام.

7) الكوفي الفلكي المغربي :

توجد على الآلات الفلكية كالاصطرلابات[1] نقوش عربية تسمى النقوش الكوفية الفلكية. وقد تكون النقوش بالخط الكوفي البسيط أو المزين أو المزهر أو النسخي، ولكن العادة الغالبة هي اتباع الكوفي الفلكي بدون نقط وهو نوع فريد تنفرد به الاصطرلابات وخصوصا بالمغرب والأندلس.

ولتلك النقوش أهمية خاصة تتعلق بدراسة التاريخ وعلوم الفلك على السواء لإشتمال تلك النقوش على اسم الصانع وتاريخ الصنع.

والمهم عندنا الآن أن تلك التواريخ لا تسجل بالحروف العديدة كما لا تسجل بالأرقام الهندية الا نادرا، ولكنها تكتب بالحروف الأبجدية السامية وأصل الخطوط العربية مأخوذة عن الكتابة السامية القديمة. وقد كان لكل حرف من الحروف الأبجدية السابقة على الاسلام قيمة معينة. وعندما يراد كتابة تاريخ يكتب ما يعادله من أرقام بالحروف، وقد تتصل تلك الحروف على شكل كلمة مكتوبة متصلة الحروف. وعندما يراد مقارنة الأعداد بحروف لكتابة التاريخ تقارن الاعداد بالأبجدية السامية السابقة على الاسلام وكان الترتيب السامي في الحروف على النحو التالي :

(ا ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ) فعندما نجد أن تاريخ الصنع هو الكلمة (تنط) وهي تتكون من حروف (ت ن ط) التي تساوي على الترتيب (400 – 50 – 9)، نعلم أن تاريخ الصنع هو (459). غير أن قيمة الحروف الأبجدية في الفلكي المغربي تختلف عن نظيرتها أحيانا في الفلكي المشرقي كما يتضح من الجدول الآتي :

(1) أنظر Robert G. : The astorlabe of the World.

الأبجدية المغربية	القيمة العددية	الأبجدية المشرقية
ا	1	ا
ب	2	ب
ج	3	ج
د	4	د
هـ	5	هـ
و	6	و
ز	7	ز
ح	8	ح
ط	9	ط
ى	10	ى
ك	20	ك
ل	30	ل
م	40	م
ن	50	ن
ص	60	س
ع	70	ع
ف	80	ف
ض	90	ص
ق	100	ق
ر	200	ر
س	300	ش
ت	400	ت
ث	500	ث
خ	600	خ
ذ	700	ذ
ظ	800	ض
غ	900	ظ
ش	1000	غ

أنظر أوسطاش ص 83 نقلا عن تحفة الأحباب.

أولية الخط العربي :

لاجدال في أن علماء الاسلام الأولين كانوا على حق عندما فكروا في أصل الخط العربي وأوليته وهل هو توقيف أو اصطلاح.

ذكر ابن عبد ربه الأندلسي المتوفى 328 هجرية في (أول من وضع الكتابة) رواية عن أبي ذر مرفوعة إلى الرسول ان ادريس كان أول من خط بالقلم بعد آدم عليه السلام. وذكر عن ابن عباس أن أول من وضع الكتابة العربية اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وكان أول من نطق بها فوضعت على لفظه ومنطقه. كما روى عمرو بن شبه بأسانيده أن أول من وضع الخط العربي أبجد وهوز وحطى...[1].

وذكر الصولي المتوفى 335 أو 336 للهجرة في أدب الكتاب عن كعب الأحبار أنه قال (أول من كتب الكتاب العبري والسرياني وسائر الكتب آدم ﷺ قبل موته بثلاثمائة سنة كتبها في طين ثم طبخه فلما غَرَّقَ الله الأرض أيام نوح بقى ذلك فأصاب كل منهم كتابه، وبقى الكتاب العربي الى أن خص الله به اسماعيل فأصابها وتعلمها). ونقل عن ابن عباس أن أول من وضع الكتابة العربية اسماعيل على لفظه ومنطقه. وذكر عن عبد الله بن عمرو ابن العاص وعروة بن الزبير أنهما قالا (أول من وضع الكتاب العربي قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن اد بن أدد أسماؤهم أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت فوضعوا الكتاب العربي على أسمائهم ووجدوا حروفا ليست من أسمائهم وهي (التاء والخاء والذال والظاء والضاد والطاء والغين) فسموا بالروادف، وان هؤلاء كانوا من ملوك مدين وقد هلكوا يوم الظلة مع قوم شعيب. وقيل ان هؤلاء أخذوا كتاب اسماعيل فعملوا منه كتابا يتعلم منه، والأحاديث عنهم أنهم استعربوا ووضعوا الكتاب العربي. أما العربية التي روى محمد بن علي بن الحسين ابن علي أن أول من تكلم بها اسماعيل فانها تعني اللسان الفصيح الذي نزل به القرآن[2].

أما ابن النديم المتوفى 385 هـ فقد ذكر في الفهرست رواية هشام الكلبي أن أول من وضع ذلك قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن أد وأسماؤهم أبو جاد، هواز، كلمون، صعفص وقريسات. وذكر عن ابن عباس أن أول من كتب بالعربية ثلاث رجال من بولان وهي قبيلة سكنوا الانبار وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة وهم : مرامر ابن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فأما مرامر فوضع الصور وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الاعجام. ويضيف ابن النديم : ويقال أن الله تعالى أنطق اسماعيل بالعربية

---

(1) العقد الفريد الطبعة الثانية القاهرة 1953 ص 211 – 212.

(2) أبو بكر بن محمد الصولي : أدب الكتاب المطبعة السلفية القاهرة 1341 هـ ص 28 – 31.

المبينة ثم يذكر قول ابن اسحاق أن الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وارم وحويل، وهؤلاء هم العرب العاربة وأن اسماعيل لما حصل في الحرم ونشأ وكبر وتزوج من جرهم تعلم كلامهم[1].

وقد لخص تلك الروايات الامام أحمد بن فارس في القرن الرابع وقال أن الروايات في هذا الباب تكثر وتختلف والذي نقوله فيه أن الخط توقيف[2] وذلك لظاهر قوله عز وجل ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ وقال جل ثناؤه ﴿وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ واذا كان كذا فليس ببعيد أن يتوقف آدم عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب. فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تعلم صحته الا من خبر صحيح. ويضيف ابن فارس أن قوما زعموا أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها وأنهم لم يعرفوا نحوا ولا اعراباً، والأمر في هذا بخلاف ما ذهب اليه هؤلاء ومذهبنا فيه التوقيف فنقول : ان أسماء هذه الحروف داخلة في الأسماء التي أعلم الله جل ثناؤه أنه علمها آدم عليه السلام وقد قال جل وعز ﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ فهل يكون أول البيان الا علم الحروف التي يقع بها البيان ؟ ولم لا يكون الذي علم آدم عليه السلام الأسماء كلها هو الذي علمه الألف والباء والجيم والدال[3].

وتعرض لنفس المشكل أبو العباس أحمد القلقشندي وتناول أولا وضع مطلق الحروف بعبارة قيل أن أول من وضع الخطوط والكتب كلها آدم عليه السلام كتبها وطبخها في طين... وقيل أخنوخ (وهو ادريس عليه السلام) وقيل أنها انزلت على آدم في احدى وعشرين صحيفة ثم قال : وقضية هذه المقالة أنها توقيفية علمها الله تعالى بالوحي.

ثم تكلم عن وضع الحروف العربية ونقل عن الشيخ أبي العباس البوني رواية عن أبي ذر أنه قال (سألت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله كل نبي مرسل بم يرسل ؟ قال بكتاب منزل، قلت يارسول الله أي كتاب أنزل على آدم ؟ قال : ا ب ت ث ج إلى آخره. قلت : يارسول الله كم حرف ؟ قال تسع وعشرون قلت : يارسول الله عددت ثمانية وعشرين، فغضب رسول الله حتى احمرت عيناه ثم قال يا أبا ذر : والذي بعثني بالحق نبيا ما أنزل الله تعالى على آدم الا تسعة وعشرين حرفا، قلت يارسول الله فيها ألف ولام فقال : لام ألف حرف واحد...) وبذلك يفصل القلقشندي في أمر التوقيف أو الاصطلاح بأن القضية توقيف من الله ولا خلاف بين رواية أبي عمرو الداني أنها أنزلت على هود لجواز أن تنزل على آدم مرة وعلى هود مرة أخرى.

(1) الفهرست طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر ص 7 – 8.
(2) وفي حديث عبد الله بن عمرو (ان الله عز وجل خلق ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده) أنظر شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن نيمية تأليف محمد خليل الهراس منشورات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة الطبعة الرابعة مطبعة النجاح بالدارالبيضاء ص 47.
(3) الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس طبعة المكتبة السلفية القاهرة 1910 م – 1338 هـ ص 7 – 9.

وبعد ذلك يذكر القلقشندي بقية الروايات التي مرت بنا على مرامر بن مرة وزميليه الذين نزلوا الأنبار ووضعوا الحروف ، كما يذكر قصة الأشخاص الستة من طسم الذين كانوا نزلاء عند عدنان بن أدد وكانت أسماؤهم : أبجد هوز... وعنهم انتقلت الحروف إلى الأنبار ثم أهل الحيرة وبقية العرب وقضية ذلك أنها اصطلاحية. ثم يعرض القلقشندي رأي السهيلي المرفوع إلى النبي أن (أول من كتب بالعربية اسماعيل عليه السلام) وهو أصح من (أول من تكلم بالعربية اسماعيل) وهذا محتمل للتوقيف أيضا بأن يكون علمها بالوحي، وللاصطلاح بأن يكون وضعه من نفسه[1].

الموطن الأول للكتابة العربية وتطورها :

الأصل أن الحروف الهجائية المصرية كانت أقدم الحروف في العالم وكان عددها أربعة وعشرين حرفا فيها أطوار الكتابة التشخيصية والرمزية والهجائية. ثم كان أول من مارس الكتابة بالحروف الهجائية دون غيرها من العلامات هم الساميون بشبه جزيرة سيناء الذين أخذوا الحروف المصرية وأبدعوا على منوالها حروفا بسيطة تلائم لغتهم السامية التي أصبحت أم الحروف الهجائية بعد نقلها مع التجار[2].

وكان من أهم التجار الذين نقلوا الالفباء من مهدها الاصلي هم الفينيقيون من سكان السواحل اللبنانية والآراميون سكان الأراضي السورية الداخلية بعد أن أحدث كل منهما تغييرات تلائم حاجاته، وبهذا كانت الحروف الفينيقية والحروف الآرامية أمهات للحروف الهجائية في معظم البلدان.

وعندما تقدمت الفينيقية غربا تفرع عنها حروف اليونان والرومان إلى أن أصبحت تغطي معظم بلدان أوروبا وأمريكا، أما الآرامية شقيقتها فإنها تغيرت عبر الأجيال وانتشرت بآسيا وتطورت في كل قطر حسب طبيعة أهله وأحوالهم.

وكان من الخطوط التي تفرعت عن الآرامية الخط العربي بشقيه الجاف المسمى خطأ بالكوفي واللين المعروف بالنسخي.

وكانت الحروف النبطية هي حلقة الاتصال بين الحروف الآرامية (شكل 188) وبين الحروف العربية فقد كان الانباط من الشعوب العربية التي أغارت على أقاليم آرامية في شمال الجزيرة والشام واتخذت حضارتها وأسست دولة كبيرة فيما بين القرن الرابع قبل الميلاد وسنة

(1) صبح الاعشى المطبعة الاميرية القاهرة 1914 م ج 3 ص 10 – 15.
(2) الفصل الخامس من قصة الالفباء، العدد الأول من سلسلة أمس واليوم مطبعة المرسلين اللبنانية 1948 ص 49 – 77.

106 م وهو تاريخ انهزامهم أيام الرومان بقيادة تراجان بعد أن شملت مملكتهم جزيرة سينا غربا وحوران وحدود العراق شرقا ومعظم شمال جزيرة العرب. وكانت عاصمتهم بطرا (الحجر) المعروفة بالعبرية باسم (سلاع)، وكان لسانهم عربيا لكن لغة الكتابة هي الآرامية بمثابة اللغة الفصحى عندنا. ولا غرابة في ذلك فلكل دولة لغتها الرسمية، فدول أوروبا تتخابر فيما بينها بالفرنسية رغم تباين لغاتها، ويتخابر أهل الشرق الأدنى بالفارسية رغم اختلاف لسانهم. وقد أصبح في حكم الثابت أن الاتصالات السياسية الرسمية واللغة التجارية التي استعملت بين الأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد في بابل وآشور وفارس ومصر وفلسطين كانت الآرامية بعد أن تراجعت البابلية بضعف بابل وآشور[1].

وهكذا تعلم العرب الذين كانوا محتكين بالعالم الخارجي المتمدن عن طريق التجارة والسياسة اللغة الآرامية لاستخدامها في التدوين والاتصالات وذلك عن طريق القلم في بطرا.

وقد انتقل الخط النبطي (أشكال 189 – 190) إلى عرب شمال الجزيرة عن طريقين : الأول طريق حوران من ربوع النبط الى الحيرة أو الأنبار دم دومة الجندل فالمدينة ومكة والطائف، والثاني، طريق البتراء عاصمة النبط إلى شمال الحجاز فمكة والمدينة.

تطور الخطوط العربية المحلية :

بعد استخدام الحجازيين للخط النبطي بقرنين تقريبا أي في أواخر القرن السادس للميلاد تحرر الخط العربي من الهيئة النبطية. وعندما أشرق نور الاسلام وبدأت الفتوحات وازدهر التمدن وقع تجديد في الخط العربي بالشام والعراق وغيرهما من ممالك الاسلام[2].

لقد كان ذلك أمرا طبيعيا حيث أن الالفباء العربية بعد الفتوحات الاسلامية اصطدمت بالضرورة بحروف هجائية قديمة بالبلدان المفتوحة وامتزجت بها أولا إلى أن حلت محلها بمرور السنين. ففي سوريا المفتوحة حلت الالفباء العربية محل السريانية واليونانية وفي ايران حلت محل البهلوية وفي مصر حلت محل القبطية واليونانية.

وليس هناك من شك في أن الحروف المختلفة بالممالك التي فتحها الاسلام أثرت في أشكال الحروف العربية الفاتحة، ومن هنا نشأت الأقلام العربية المتنوعة كالقلم الفارسي الذي نتج عن تأثر الخط العربي بالبهلوي وقلم الرقعة أو الرقاع الذي اعتمدت عليه السلطنة العثمانية في دواوينها[3].

---

(1) جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام طبعة 1969 ص 80.

(2) دكتور ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية.

(3) قصة الالفباء الفصل الثامن، الأقلام العربية ص 85.

وقياسا على ذلك كله يتضح أن الخط العربي الاسلامي احتك بالخط المغربي المحلي منذ الفتح الأول وأثر فيه وتأثر به إلى أن استقام الأمر للخط الاسلامي المغربي المعروف بالقلم المغربي والمتميز بمميزات خاصة عن بقية الأقلام المشرقية أوضحناها سابقا.

ومنذ فتوحات عقبة بن نافع بالمغرب عرف عرب المغرب القدماء (البربر) الخط الاسلامي ولا بد أنهم كتبوه على الرغم من تكلمهم بلسانهم الخاص. فقد تعلم الجرمانيون لغة الرومان اللاتينية وكتبوها ولكنهم تكلموا بلسانهم الأصلي.

ويمكننا ان نتحسس مؤثرات الخط المغربي القديم في أصول البربر أنفسهم، فهم يرجعون منذ عصور سحيقة إلى أصول مشرقية تمتد جذورها في اليمن ومصر وسواحل الشام بالاضافة إلى تأثيرات فينيقية وآرامية.

لقد أثرت عمارة اليمن القديمة في العمارة الصحراوية المغربية تأثيرات لا تزال ظاهرة حتى يومنا هذا تعمدت في مناسبات سابقة[1] توضيحها بالحجة والبرهان كما ثبت من رحلة السفينة رع بين ميناء آسفي على شاطىء المغرب الأطلسي وشواطىء أمريكا الجنوبية حيث العمارة والديانة المصرية، ان المغرب كان حلقة الاتصال بين التأثيرات المصرية وشواطىء الدنيا الجديدة تلك الحلقة التي يؤكدها تأثيرات العمارة والديانة المصرية القبطية في عمارة وديانة المغرب الأوسط قبل الاسلام.

وكانت لغة الفينيقيين وهم من العنصر السامي فرعاً من اللغة الكنعانية التي تضم اللهجات الفينيقية والعبرية والموابية وتظهر المقارنة بين اللغتين الفينيقية والعبرية تشابها كبيرا في حقل القواعد والمفردات وكانت الفينيقية في شكلها القديم تشابه الاحرف العبرية[2] والموابية والآرامية المستعملة في شمال سوريا. ويروي المؤرخون كيف تسرب الفينيقيون من اسبانيا إلى شمال افريقيا[3] حيث أنشأوا مستعمرة ليكوس في موريتانيا كما أنشأوا قرطاجة حوالي 813 قبل الميلاد وانتشار مستعمراتهم في الجزء الغربي من شمال افريقيا. وبفضل هؤلاء المستعمرين الفينيقيين والقرطاجيين من بعدهم انتشرت اللغة الفينيقية في شمال افريقيا وسادها الطابع الفينيقي للحضارة واستمرت اللغة الفينيقية في شمال افريقيا إلى القرن الخامس الميلادي.

---

(1) برنامج متلفز بالاذاعة المغربية (لقاء الأسبوع) موسم 1977.

(2) راجع أوسطاش، العملة الادريسية بنقوش عبرية.

(3) نور الدين حاطوم وآخرون : موجز تاريخ الحضارة ج 1 ص 237 – 247، الحضارة الفينيقية بالفصل الخامس ص 236 – 253.

شكل (188)

الحروف الآرامي

شكل (189)

كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرىء القيس

شكل (190)

كتابة نبطية على انقاض مدائن صالح

ومن المعلوم أن الآراميين لعبوا في البر نفس الدور الذي لعبه الفينيقيون في البحر، فمنذ أن أصبح الآراميون سادة التجارة في بقاع كثيرة من العالم انتشرت الآرامية في كل مكان لدرجة أن اللغة العبرية ذاتها تقلصت في فلسطين نفسها لتحل محلها الآرامية ولدرجة ان الكتاب المقدس ما تزال به الى اليوم بعض المقاطع بالآرامية فقد كانت الآرامية هي اللغة التي نطق بها السيد المسيح وبشر بها واستعملها حواريوه من بعده. ولم يعرف المد الآرامي الوقوف الا أمام الفتح الاسلامي العربي الذي حمل معه اللغة العربية لغة القرآن والدين الجديد الذي انتشرت لغته كلغة للعلم والتجارة والسياسة لا عند المسلمين فحسب بل عند كل سكان امبراطوريتهم أعجميهم وذميهم[1]. ولهذا لا يستبعد تأثير الآرامية في المغرب عن طريق شقيقتها العبرية قبل الاسلام[2] وعن طريق الديانة المسيحية بعد أن أمر الامبراطور قسطنطين باقامة الكنائس وكتابة نسخ الانجيل سنة 332 للميلاد. وبهذا تلتقي التأثيرات الآرامية الوافدة أصلا عن طريق البر والتأثيرات الفينيقية الواردة عن طريق البحر لتنصهر في بوتقة الحضارة المغربية القديمة.

لقد كان من دلالات العلاقة بين اللغة البربرية واللغتين الآرامية والفينيقية ما توصلت اليه من بحث اسم (شالة) المدينة المغربية العتيقة حيث توجد كلمة (شالة) في اللغة البربرية القديمة وكذلك في اللغة البربرية الحديثة بمعنى (كثير) كما وجدت في الآرامية كلمة شالة بنطق يقترب جدا من النطق الحديث وبنفس المعنى (كثير)، وقد وافق ذلك القرطاجيين الذي جاءوا إلى المغرب حيث تطورت لغتهم فيه وامتد نفوذهم إلى منطقة شالة المغربية واستخدموا اللفظ (شالة) الذي وجدوه عند البربر وكان معناه قريبا منهم في موطنهم الأصلي عند جيرانهم الآراميين[3].

تلك التأثيرات القديمة والمشرقية الأصل تتصل بأصول الانساب المغربية ذاتها وشجرتها المشرقية، على أن اصرارنا على عروبة البربر قبل الاسلام لا يعني بالضرورة أنهم كانوا عرب قريش ولا يستلزم ذلك أن تكون لغتهم هي لغة القرآن ولا أن تكون جميع عاداتهم مطابقة لعادات عرب قريش قبل الاسلام تمام المطابقة لان الأمم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الأقاليم وتوالي العصور.

---

(1) موجز تاريخ الحضارة ج 1، الحضارة الآرامية ص 254 - 258 وخاصة ص 257.

(2) يوجد نقش بالحروف العربية المربعة، على درهم مغربي من تدغة معناه في العبرية اميت التي تقابل (حق) في العربية، وقد انتقلت الكلمة إلى البربر وظل استعمالها في العربية المغربية الدارجة إلى اليوم (أجيني لليميت) بمعنى (أجيني للحق) أنظر أوسطاش ص 79.

(3) كتابنا تاريخ شالة الاسلامية الفصل الثاني بعنوان فذلكة لغوية خاصة ص 97.

وقد عاد شارل اندريه جوليان بعد القول بأن لغة البربر كانت شفهية فصرح بأنهم عرفوا كتابة لا زال أصلها غامضا وربما كان فينيقيا حيث حفظت بعض النقوش المكتشفة حاليا أثره وحيث توجد علامات تميزية بكتابة الطوارق Touareg الحالية وتيفيناغ Tifinagh تشهد بقرابة الالفباء في الحالتين[1] وأن النقوش اللوبية Les Inscriptions Libyques توضح عشرون منها موازاتها مع البونيقية punique أو اللاتينية.

كل ذلك يدفعنا إلى الافتراض بأن التراث الثقافي والفكري المجتمع بالمغرب قبل الاسلام من حصيلة التأثيرات اليمنية والمصرية والآرامية والفينيقية[2] كان يربط القلم المغربي القديم بالأصول المباشرة التي تفرع عنها خط عرب الحجاز الشماليين قبل الاسلام، ثم تطور القلم المغربي في ظروف بيئته وخيال أصحابه والمواد المتاحة لنقشه قرونا طويلة أكسبته أصالة تاريخية جعلته أكثر استقلالا وتمييزا عن خطوط عرب الجزيرة بعد الاسلام.

وقبل أن يتعرض البعض على هذا الافتراض[3] أسارع إلى القول بأن النظر في النقوش الخطية القديمة على العملة الادريسية لا يكاد يعكس ذلك الاستقلال بقدر كاف. ولكننا ينبغي الا يفوتنا أن الخط المغربي الاسلامي المبكر من القرن الثاني كان مطبوعا أول الأمر بطابع شرقي واضح تأثرا بكتابات الفاتحين المسلمين الأوائل وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه فقد كان المولى ادريس الأكبر مؤسس أول دولة عربية اسلامية في المغرب وهو الفاتح الحقيقي الذي استقر به الاسلام وحضارته في هذه البلاد يكتب هو وحاشيته بالقلم المشرقي ثم التأثيرات القيروانية والأندلسية في روافد عميقة صوب المغرب عند استقدام المولى ادريس الأزهر (الثاني) للقيروانيين ثم الأندلسيين بعد حادث الربض.

واذا ما لاحظنا أن الحضارات المتتابعة التي وردت على المغرب من الخارج كانت دائما بمثابة الأردية المختلفة التي ظل المغاربة يواصلون تحتها تحقيق ذاتيتهم، أدركنا بيسر واقتناع أنهم مجرد أن اتيحت لهم مواقع المسئولية والكتابة والرياسة في دولة الاسلام المغربية[4] أخذوا يعبرون عن حصيلة التراث القديم الذي انصهر وتزاوج مع المقومات الجديدة فظهرت الخطوط

---

(1) CH. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord T.I p.59

(2) يحتمل اشتقاق البربرية من الفينيقية، أنظر جوستاف لوبون حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ص 304.

(3) رداً على قول جوليان أن لغة البربر كانت شفهية، أفادني الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله بأن المشكل ليس مطروحاً لأنهم من العاربة البائدة لا من قريش.

(4) من المعلوم تاريخيا اعتماد المولى ادريس الأكبر والمولى ادريس الثاني اعتمادا كليا على العرب الوافدين من المشرق الذين شكلوا كل حاشيتهم التي ظلت تتسع قاعدتها باستقدام أبناء عمومتهم ومواطنيهم المشارقة للاعتماد عليهم بسبب الشعور بالوحدة والاغتراب وعدم الاطمئنان أحيانا بدليل ما حدث أخيرا من عبد الحميد الاوربي ومصيره.

المغربية الاسلامية متأثرة بسمات خاصة تنم عن الجذور المشرقية العتيقة السابقة على ظهور الاسلام.

ويكفينا دليلا على ذلك أن المغرب أصبح المعقل الوحيد في مملكة الاسلام لحياة الأرقام العربية الأصيلة بعد أن تخلى عنها عالم العروبة شرقا وغربا واستعمل الأرقام الهندية منذ قرون عديدة، وفي قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط مخطوط تحت رقم (ك 222) بعنوان (تلقيح الأفكار في العمل برسم الغبار) وضعه أبو محمد عبد الله وقيل عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين المولود بفاس أواسط القرن السادس ذكره ابن الابار وقال بأن له أرجوزة في الجبر.

وتوجد نسخ من أرجوزته بمكتبات باريس وبرلين واكسفورد[1] ويعتبر هذا الكتاب أقدم وثيقة تحدثت عن أعداد الغبار المستعملة في المغرب وأكدت أنها عربية الأصل.

وبهذا تنكشف لنا شيئا فشيئا جذور الأصالة المغربية العربية العميقة سواء في رسم الحروف الهجائية وسواء في استخدام أرقام الغبار العربية (شكل 191)، وعساي أن أكون قد وفقت في الاجابة على السؤال الذي طرحه الأستاذ كومب منذ ثلاثة وأربعين عاما عن سبب تطور الخطوط المغربية على هذا النحو القديم.

---

(1) دليل جديد على عروبة الأرقام المستعملة في المغرب، مقال بالأنباء ديسمبر 1975.

فن الوراقة وظهور المكتبات

ظهرت أول مكتبة عربية بالمغرب الأقصى زمن السلطان يحيى الرابع واسطة عقد البيت الادريسي الذي اشتهر بعلمه ومشاركته في فنون وعلوم عصره واهتمامه بالكتب والمخطوطات وحثه علماء عصره على الكتابة والتأليف حيث وفدت على المغرب مجموعة من أعلام الفقه والحديث والقضاء والفكر من الأندلس والقيروان وغيرها يحملون معهم كتبهم ومؤلفاتهم، مما دفع يحيى الرابع إلى تأسيس وانشاء أول مكتبة مغربية عربية ينافس بها بني العباس في المشرق والرستميين بالمغرب الأوسط حول تاهرت.

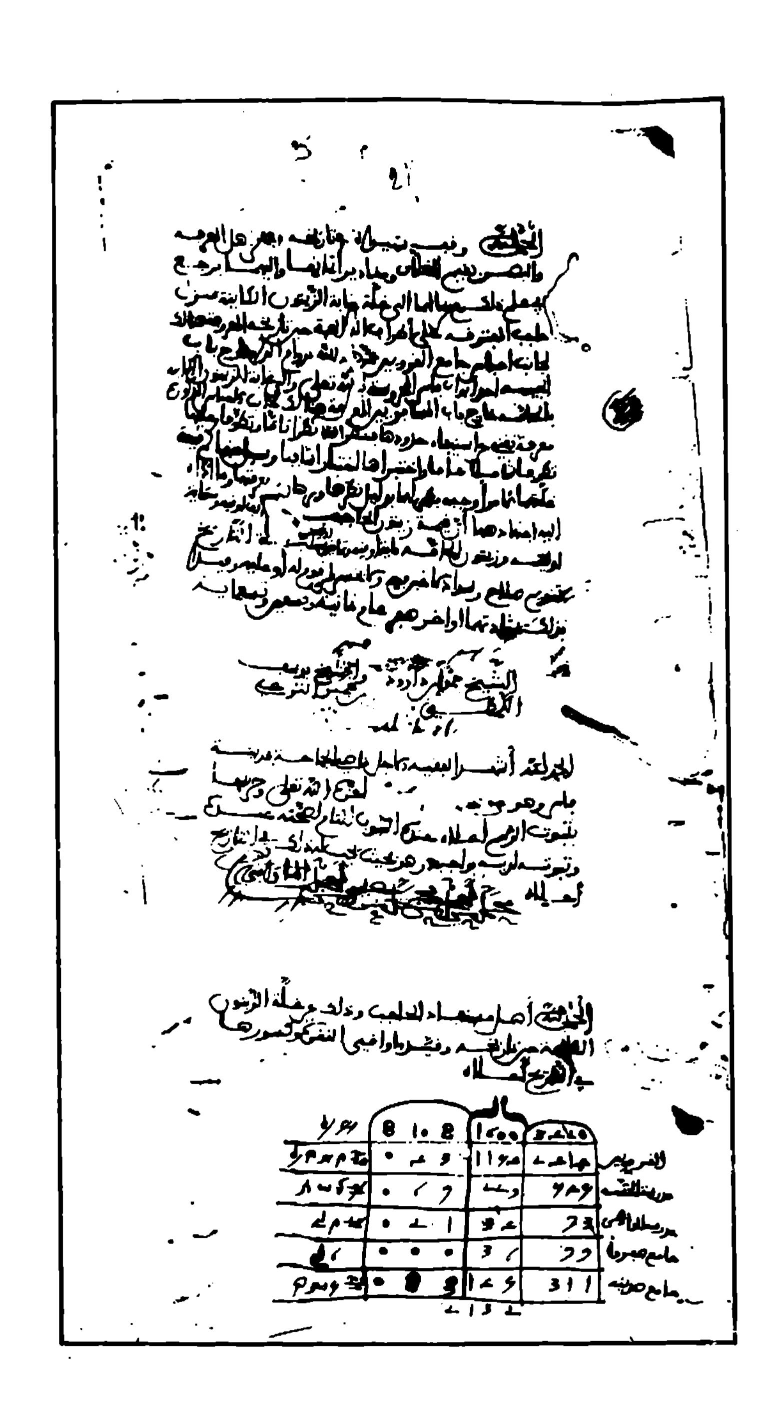
وقد شاءت الأقدار أن يندثر الكثير من تراث الأدارسة بسبب الصراعات السياسية الداخلية والأطماع الخارجية وصراع العبيديين في افريقية والمروانيين بالأندلس للسيطرة على فاس، ولهذا لم تصل الينا آثار مكتبة الأدارسة وأجل الأعمال والمنجزات التي خلفوها وراءهم.

على أن المصادر تذكر أن أول مكتبة ظهرت في مدينة سبتة كانت على عصر دولة مغراوة وهي مكتبة بنى العجوز التي أسسها جدهم أبو عبد الرحمن عبد الرحيم بن أحمد الكتامي السبتي المتوفى سنة 413 هجرية[1] أما مملكة بني يفرن (337 – 446) فلم يصل شيء من آثارها العلمية على الرغم من المكانة الفكرية العالية التي تميز بها مجتمعهم في مدينة شالة قاعدة مملكتهم تبعا لرواية البكري في صدد حديثه عن ممالك برغواطة فقد كان أبو صالح زمور بن موسى البرغوطي صاحب صلاتهم قد قدم على الحكم المستنصر (351 – 367 هـ) رسول من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى ابن أبي الانصار وكان وصوله قرطبة سنة 352 (وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبوموسى عيسى ابن داود ابن عشرين السطاسي من أهل شالة مسلم من بيت خيرون بن خير) فالمترجم بجميع ما أخبر الرسول كان من أهل شالة مقر حكم بني يفرن وكان مقتدرا في مختلف نواحي المعرفة والترجمة على المستوى السياسي الرفيع[2].

---

(1) عن ملخص أطروحة أعدها محمد التهامي الوكيلي لتقديمها لجامعة يوطا الامريكية، أنظر الأنباء 19 – 5 – 75 ص 5.

(2) راجع تفاصيل ذلك بكتابنا تاريخ شالة الاسلامية ص 184 – 187.



شكل (191)

حوالة مغربية تحدد الأوقاف المحبسة على جامع القرويين

ومنذ بداية ظهور الاسلام عرف المغرب اهتماما خاصا بفنون البحث في الخط والتأريخ لنوابغه، ومن المرجح أن الخط العربي أخذ يتحسن منذ أوائل القرن الثاني حيث كان صالح البربري البرغواطي المتوفى سنة 128 هـ محسنا للخط مجيدا لكتابته كما بدأت الوراقة تزدهر منذ أواخر القرن الثالث في فاس أيام الامام الادريسي يحيى الثالث (272 - 305) فقد أكد البكري أنه كان ينسخ له عدد من الخطاطين، واذا لم يتم حتى الآن العثور على بعض منتجات عصره، غير أنه ليس من المقبول أن يظل المغرب وهو قنطرة العروبة والاسلام إلى الأندلس متخلفا في ذلك الفن عن الاندلس الذي يصف المقدسي أصحابه بأنهم أحذق الناس في الخطاطة[1].

(1) محمد المنوني : الخط المغربي، مقال بمجلة الفنون، الرباط أكتوبر نوفمبر 74 ر1.

العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية في الشعر العربي

مدينة فاس وجامع القرويين في الشعر العربي .

هذا هو وصف مدينة فاس وجامع القرويين والصحن والخصة من شعر القاضي الكاتب محمد بن أبي عبد الرحمن المغيلي[1].

يا فاس حي الله أرضك من ثرى	**وسقاك من صوب الغمام المسبل**
يا جنة الدنيا التي أربت على	**حمص بمنظرها البهى الاجمل**
غرف على غرف ويجري تحتها	**ماء ألذ من الرحيق السلسل[2]**
وبساتن من سندس قد زخرفت	**بجداول كالأيم أو كالفيصل**
وبجامع القرويين شرف ذكره	**أنس تذكره يهيج تململي**
وبصحنه زمن المصيف محاسن	**فمع العشى الغرب منه استقبل**
واجلس ازاء الخصة الحسنا به	**واكرع بها عني فديتك وانهل**

كما ورد وصف فاس في شعر آخر أورده صاحب جنى زهرة الآس[3].

بلد أعارته الحمامة طوقها	**وكساه ريش جناحه الطاووس**
فكأنما الأنهار منه مدامة	**وكأن ساحات الديار كؤوس**

وقد ورد في زهرة الآس من شعر المقرىء أبي الحسن بن سبع في ذكر مدينة فاس ووصف جامعها الشهير القرويين ووظيفة الجامع في ذلك العصر ونقد خطة التدريس به قصيد مطلعه :

ألم تر فاس الغرب أعظم بقدرها	**وجامعها العظمى التي هي تعتد**
لفعل عبادات تصوغ وموطن	**لجميع رجال الله ياتونها وفد**

وقال أبو العباس بن أحمد بن عبد المنان الخزرجي الشاعر الفاسي في ذكر سيف الامام ادريس بن ادريس رضي الله عليهما الذي وضعه الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي بأعلى صومعة القرويين :

(1) زهرة الآس نشر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ص 32.
(2) هذا هو تصميم عمارة بيوت فاس طبقات فوق بعضها يجري تحتها ماء الوادي الذي يخترق المدينة أسفل أساساتها.
(3) زهرة الآس ص 31 وهو يفيد مع المثال السابق في دراسة طبوغرافية المدينة التاريخية.

أنكر السيف بالمنار بفاس | قائل إن ذاك اغتنام
لايرعك الحسام سل عليها | جنة الخلد تحت ظل الحسام

وفي ذكر نفس السيف كذلك كثرت الأشعار ومنها قول أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن :

وما خص ادريس المنار بسيفه | لغم ولكن كي يعم نداؤه
مشيرا أجيبوا داعي الله تأمنوا | ومن لم يجب داعيه هذا جزاؤه

كما قال الأمير أبو الوليد بن فرج بن الأحمر في سيف المولى ادريس :

وما السيف في رأس المنار لذلة | بفاس، ولكن أمره أيما أمر
رآها ابن ادريس قصر خلافة | فجرده عزما لاملاكها الغر

وفي الثريا الكبرى بجامع القرويين قيلت أشعار عديدة نورد نماذج مختصرة منها :

تحكي الثريا الثريا في تألقها | وقد لواها نسيم وهي تتقد
كأنها لذوي الايمان أفئدة | من التخشع جوف الليل ترتعد

وفيها قال عمر بن خلف[1] :

باهى بها الاسلام ما أشرقت | كاساتها عند مغيب الشفق

(1) زهرة الآس س 70.

دليل المصادر والمراجع الرئيسية

1 - القرآن الكريم : كتاب الله العزيز.

2 - ابن أبي زرع : الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر دار المنصور الرباط.

3 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المطبعة الأزهرية المصرية 1301 هـ

4 - ابن الصغير المالكي : سيرة الائمة الرستميين.

5 - ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيما حل من الاعلام بمدينة فاس، فاس 1309 هـ.

6 - ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس

7 - ابن النديم : الفهرست، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

8 - ابن تاويت : فاس جولة في أحداثها الكبرى، مجلة المناهل عدد 5 ابتداء من ص 180.

9 - ابن حزم : جمهرة الانساب.

10 - ابن حوقل : المسالك والممالك.

11 - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس

12 - ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب ليدن 1948.

13 - ابراهيم العدوي (دكتور) : موسى بن نصير، سلسلة أعلام العرب 68.

14 - ابراهيم جمعة (دكتور) : قصة الكتابة العربية، القاهرة 1947.

15 - ابراهيم حركات (دكتور) : المغرب عبر التاريخ.

16 - ابراهيم حركات : حضارة الادارسة، دعوة الحق الرباط مارس 1961.

17 - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى دار الكتاب الدارالبيضاء 1955.

18 - أبو بكر الصولي : أدب الكتاب المطبعة السلفية القاهرة.

19 - أبو حسن علي بن عبد السلام التسولي : مخطوط البهجة في شرح التحفة.

20 - أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد، الطبعة الثانية القاهرة 1953.

21 - أحمد بن فارس : الصاحبي، المكتبة السلفية القاهرة 1910.

22 - أحمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية.

23 – أحمد المكناسي : المدن الاسلامية المندرسة بشمال المغرب، بحث بكتاب جامعة الدول العربية عن المؤتمر الثالث للآثار طبع القاهرة 1961.
24 – أحمد علي (دكتور) : تاريخ اليونان.
25 – أحمد فكري (المرحوم الدكتور) : المسجد الجامع بالقيروان، دار المعارف القاهرة 1936.
26 – أحمد فكري (المرحوم الدكتور) : مسجد الزيتونة بتونس، القاهرة 1952.
27 – أحمد فكري (المرحوم الدكتور) : المدخل من سلسلة مساجد القاهرة ومدارسها دار المعارف القاهرة 1962.
28 – البلاذري : فتوح البلدان.
29 – التقي العلوي : أصول المغاربة، القسم البربري، مجلة البحث العلمي الرباط 19 يونيو 1972 من ص 81.
30 – التقي العلوي : أصول المغاربة، أهم الينابيع الأصلية لتاريخ البربر، نفس المجلة يوليو 1972 ص 69.
31 – التقي العلوي : أصول المغاربة، القسم البربري، نفس المجلة 24 أبريل 1975 ص 71.
32 – التقي العلوي : أصول المغاربة، القسم البربري، نفس المجلة 25 يونيو 1976 ص 61.
33 – الشريف الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
34 – القلقشندي : صبح الاعشى، المطبعة الأميرية القاهرة 1914.
35 – أرنست كونل : الفن الاسلامي، ترجمة الدكتور أحمد عيسى، الطبعة الثانية 1966.
36 – أرنولد هاوزر : الفن والمجتمع عبر القرون ج 1 ترجمة فؤاد زكريا القاهرة 1969.
37 – بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، بيروت الطبعة الخامسة.
38 – جاك كامي (تعريب سعيد النجار) : سلسلة مقالات بعنوان المنطقة الساحلية للمغرب في القرن الخامس، مجلة البحث العلمي الرباط ابتداء من عدد 19 الصادر يونيو 1972 ثم أعداد 20 – 21، 22، 24.
39 – جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام طبعة 1969.
40 – جمال محمد محرز (المرحوم الدكتور) : التصوير الاسلامي ومدارسه القاهرة 1962.
41 – جورج بشهلا وشفيق جحا : قصة الالفباء، لبنان 1948.
42 – جوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر الطبعة الثانية 1948.
43 – جوميث مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا تعريب دكتور سيد عبد العزيز سالم وزميله دار الكاتب العربي مصر 1968.
44 – حسان عوض (دكتور) : جغرافية المدن المغربية.
45 – حسن ابراهيم حسن (المرحوم الدكتور) : تاريخ الاسلام.

46 – حسن حسني عبد الوهاب (المرحوم) ورقات عن الحضارة العربية الافريقية، مطبعة المنار تونس ج 1 سنة 1965، ج 2 سنة 1966.
47 – حسين مؤنس (دكتور) : فتح العرب للمغرب، القاهرة 1947.
48 – حسين مؤنس (دكتور) : فجر الأندلس.
49 – دوزي : تاريخ مسلمى اسبانيا ج 1 ترجمة حسن حبشي.
50 – ديماند (م.س) : الفنون الاسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، دار المعارف مصر 1953.
51 – زكي محمد حسن (المرحوم الدكتور) : الفن الاسلامي في مصر.
52 – زكي محمد حسن (المرحوم الدكتور) : ترجمة الجزء الثاني من تراث الاسلام القاهرة 1936 وهو جزء من كتاب كريستي وأرنولد وبريجز في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة.
53 – زكي محمد حسن (المرحوم الدكتور) : الفنون الايرانية القاهرة 1946.
54 – زكي محمد حسن (المرحوم الدكتور) : فنون الاسلام، الطبعة الأولى القاهرة 1948.
55 – سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) : تاريخ المغرب العربي القاهرة 1965.
56 – سيد عبد العزيز سالم (دكتور) : المغرب الكبير.
57 – سيد عبد العزيز سالم (دكتور) : تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس.
58 – صدقي الجباخنجي : معرض المزايكو البيزنطي، مقال بجريدة الشعب، القاهرة 14 – 4 – 1957.
59 – صلاح الدين المنجد : رائد التراث العربي دمشق 1947.
60 – عبد الرحمن الفاسي : خطة الحسبة، مجلة المناهل الرباط عدد رقم 18 يوليو 1980.
61 – عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة.
62 – عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر 7 أجزاء طبع القاهرة.
63 – عبد الرحمن عواد : الوقف في الاسلام، مقال بمجلة الايمان الرباط مايو 1964، مقال بمجلة الايمان سبتمبر 1964.
64 – عبد الرحمن محمد فهمي (دكتور) : النقود العربية ماضيها وحاضرها مصر 1964.
65 – عبد العزيز بنعبد الله : معطيات الفن الاسلامي في المغرب، بحث قدم لمؤتمر الآثار السابع بأبي ظبي ديسمبر 1974.
66 – عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جزءان الدار البيضاء 58/57.

67 – عبد العزيز بنعبد الله : الأرقام العربية، بحث في اللسان العربي المجلد 16 ج 1 ص 7 – 11 كما نشر بمجلة دعوة الحق الرباط سبتمبر 1979 ص 46 – 50 بعنوان (العالم العربي متجه نحو استعمال الأرقام العربية المغربية).
68 – عبد الله الباروني النفوسي : الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية.
69 – عبد الملك بن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي بيروت 1964.
70 – عبد الهادي التازي (دكتور) : الحروف المنقوشة بالقرويين، بكتاب جامعة الدول العربية عن المؤتمر الثالث للآثار طبع القاهرة 1961.
71 – عبد الهادي التازي (دكتور) : أحد عشر قرنا في جامعة القرويين، المحمدية 1960.
72 – عبد الهادي التازي (دكتور) : فاس، نشر وزارة الأنباء 1959.
73 – عبد الهادي التازي (دكتور) : جامع القرويين، 3 أجزاء بيروت.
74 – عبد الهادي بنمنصور (مؤرخ المملكة) : قبائل المغرب ج 1 الرباط 1968.
75 – عبد القادر زمامة : المغرب في جغرافية ابن حوقل، مجلة البحث العلمي الرباط 19 يونيو 1972 ص 89.
76 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : نشأة الفن الاسلامي وأصوله، مجلة دعوة الحق الرباط فبراير 1960.
77 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : تأثير الفن الاسلامي على فنون أوروبا مجلة دعوة الحق الرباط مارس 1960.
78 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : طرز الفن الاسلامي في المغرب والأندلس مجلة دعوة الحق الرباط مايو 1960.
79 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : الطراز المغربي، مقال بمجلة دعوة الحق الرباط يونيو 1960.
80 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : الطراز المغربي، مقال بمجلة دعوة الحق الرباط يوليو 1960.
81 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور : من حضارة المغرب، حيوية فنون شالة، بحث بكتاب متنوعات محمد الفاسي منشورات جامعة محمد الخامس 1967.
82 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : تاريخ شالة الاسلامية بيروت 1975.
83 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : حفائر شالة الاسلامية بيروت 1977.
84 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : دراسات جديدة في الفنون الاسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى بيروت 1977.
85 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : عثرات الاقلام في كتابة تاريخ الاسلام وعتاب من أجل المولى ادريس، الأنباء، الرباط 17 – 7 – 76 باب أوراق مغربية.

86 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : سيرة أبطال الاسلام بالمغرب من الأصول والمصادر، دار الكتاب بالدارالبيضاء.
87 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : قضية الصحراء المغربية ومصطلح البيعة نشر وزارة الاعلام الرباط 1975.
88 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : الآثار العربية الاسلامية وحرب المستشرقين، نشر تباعاً بدعوة الحق بالرباط ومعد للطبع.
89 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : الهجرة النبوية الكبرى بيننا وبين فيلسوف الغرب المعاصر توينبي، نشر تباعاً بالأنباء بالرباط ومعد للطبع.
90 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : الفصل الذي كتبناه ابتداء من ص 56 بكتاب الحياة الثقافية بالمغرب نشر وزارة الاعلام الرباط 3 مارس 1979 عن الآثار والمباني التاريخية والمتاحف ومركز احصاء التراث.
91 – عثمان عثمان اسماعيل (دكتور) : العرض الذي قدمنا به لكتاب نماذج من صور المخطوطات والمعالم التاريخية نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالرباط 1980 عن مسيرة العمارة والفنون المغربية مع 31 لوحة بتعليقاتها.
92 – عمر السباعي : الجغرافية المصورة للمغرب الجديد.
93 – علي الجزنائي : جنى زهرة الآس المطبعة الملكية الرباط 1967.
94 – فؤاد صفر : التحريات الأثرية في مناطق مشاريع الري الكبرى في العراق، مجلة سومر بغداد المجلد 16 سنة 1960.
95 – فيليب رفلة وأحمد سامي مصطفى : جغرافية الوطن العربي.
96 – كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ج 1 ترجمة محمد بدران ومحمد مصطفى زيادة القاهرة 1963.
97 – لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الذي نشره ليفي بروفنسال بعنوان تاريخ اسبانيا الاسلامية.
98 – لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الثالث الذي نشره ابراهيم الكتاني باسم تاريخ المغرب في العصر الوسيط.
99 – ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس، تعريب السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح مدني القاهرة 1956.
100 – مبارك الميلي : تاريخ الجزائر العام.
101 – محمد العربي الخطابي : المغرب ومكانه من العالم الاسلامي،المناهل، الرباط عدد 18 بتاريخ يوليو 1980.

102 – محمد الفاسي : (الأستاذ الرئيس) : البربرية شقيقة العربية، بحث بكتاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة الدورة 36 سنة 1969 – 1970.
103 – محمد المنوني : مجموعات المصادر التاريخية المغربية، مجلة البحث العلمي الرباط يوليو 1973
104 – محمد المنوني : الخط العربي، مجلة الفنون الرباط أكتوبر نوفمبر 1974.
105 – محمد بن تاويت : سبتة الاسيرة، البحث العلمي عدد 25 شهر يونيو 1976.
106 – محمد خليل الهراس : شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية منشورات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.
107 – محمد علي دبوز : المغرب الكبير ج 3.
108 – محمد سلام مدكور : الاباحة عند الأصوليين والفقهاء.
109 – محمد سلام مدكور : مباحث الحكم عند الأصوليين.
110 – محمد محي الدين المشرفي : افريقيا الشمالية في العصر القديم، الدارالبيضاء 57.
111 – محمد محي الدين المشرفي : دفاع عن الوندال، دعوة الحق الرباط ديسمبر 79 ص 54.
112 – ناصر النقشبندي : الدينار الاسلامي في المتحف العراقي.
113 – نجيب ميخائيل : (دكتور) : مصر والشرق الأدنى القديم.
114 – نصر الهوريني : المطالع النصرية، مصر 1302 هـ.
115 – نور الدين حاطوم وآخرون : موجز تاريخ الحضارة، مطبعة الكمال 1965.
116 – رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته.

117 - Abbott (Nabia) : - The rise of north Arabic script.
118 - --- : - Arabic Paleography (the development of early Islamic Scripts) - Ars Islamica V.8.
119 - Abdel Aziz Ben Abdallah : - L'arts maghrébin. - Casablanca 1961.
120 - Abdel kébir khatibi et Mohammed Sijelmassi : - L'Art Calligraphique Arabe 1976.
أصل الكتابة ابتداء من ص 28، المدارس والطرز ص 102.
121 - Adam (André) : - Une hypothèse nouvelle sur la fondation de Fès. Bulletin de l'enseignement Public (Maroc) 1941.
122 - A. Luquet : - Le Maroc Punique, ds : B.A.M. - Rabat T.IX 1973-75, P. 237-328
أنظر موقع باناسا ص 243، الفخار ص 246، تامسيدا ص 255، موقع سلا كولونيا ص 258، تصميم السفينة التجارية الفينيقية ص 328.
123 - Aberry : - Specimens of Arabic and Persian Paleographie.
124 - Basset (H) et Provençal (L) : - Chella une nécropole Mérinide, Paris 1923 (extrait de Hesp. 1922).
125 - Basset (H) : - Salih b. Tarif, ds Encyclopédie de L'Islam 1925.
126 - Bekkari (Mahdi Mohammed) : - L'expension Phénicienne au Maroc.
127 - Bel (A) : - Les inscriptions Arabes de Fes. Paris 1919. (extrait de Journal Asiatique 1917 - 1919).

128 - Berchem (Max Van) : - Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicorum. Le Caire 1922.
129 - Brethes (J.D.) : - Cont. à L'hist. du Maroc.
130 - Campardou (J.) et Basset (H.) : - Graffiti de Chella, Hesp. 1921.
131 - Christie, Arnold and Briggs : - Legacy of Islam. Oxford 1947.
132 - Colin (G.S.) : - Etude Epigraphique, dans : La Mosquée des Andalous.
133 - : - Monnaies de période Idrissite trouvée à Volubilis, Hesp. 1936.
134 - Combes (E.), Sauvaget (J.) et Wiet (G.) : Répertoire chronologique d'épigraphie Ardre, 12 Vols. Le Caire 1931-1950.
135 - Creswell (K.A.C.) : - Early Muslim architecture 2 V. Oxford 1932-1940.
136 - : - A Short account of early Muslim archit. first published 1958.
137 - Deverdun (G) : - Inscriptions Arabes de Marrakech Rabat 1956.
138 - Diez (Ernst) : - Die Kunst der Islamischen Volker, Berlin 1915.
139 - Dimand (M.S.) : - A handbook of Muhammadan art, New-Tork 1947.
140 - Eustache (Daniel) : - El-Basra, Capital Idrissite et son porte, Hesp. 1955 T. XLII.
141 - : - Monnaies Musulmanes trouvées à Volubilis, Hesp. 1956.
142 - : - Corpus des Dirhams Idrissite et Contemporains, Rabat 1970-1971.
143 - Gaillard (H.) : - La fondation de Fez. France-Maroc fasc. 1e 1916.
144 - Gautier (E.F.) : - Les siècles obscures du Maghreb, Paris 1937.
145 - Guernier (E.) : - La Berbérie, L'Islam et la France 2 Vol. Paris 1950.
146 - Guide du Musée Municipal ORAN 1957.
147 - Hautecœur (Louis) et Weit (G.) : - Les Mosquées du Caires 2 Vol. Paris 1932.
148 - J. Hassar : - L'archéol. Marocaine de 1973 - 1975, B.A.M. Rabat T.X. 1976, P. 243-252.
149 - Jean Roche : - Grotte des Pigeons (Taforalt, Province d'Oujda) B.A.M. Rabat T. IX 1973-1975. Grotte de Témara P. 150 + 2 fig.
150 - Julien (Ch. A.) : - Histoire de l'Afrique du Nord. 2 Vol. Paris 1956.
151 - Kuhnel (Ernst) : - Maurische Kunst. Berlin 1924.
152 - Lavoix (H.) : - Catalogue des monnaies Musulmanes de la Bibliothèque nationale (France) 1887-1892.
153 - Le tourneau (Roger) : - Fès avant le protectorat, Casablanca 1943.
154 - Lévi-Provençal (E.) : - La fondation de Fez. Annales de l'institut d'études orientales 1938.
155 - : - Histoire de l'Espagne Musulmane. 3 Vol. 1950-1953.
156 - : - Maghrawa. Article ds. l'Encycl. de l'Islam.
157 - : - Inscriptions Arabes de l'Espagne, 1931.
158 - Marçais (G.) : - L'Art de l'Islam. Paris 1946.
159 - : - Le Dieu des Abadites et les Burgwates. Hesp. 1936.
160 - : - La Berbérie du VIIe au XVIe siècle. Deuxième Congrès National des Sciences Hist. 1930.
161 - : -L'architecture Musulmane d'Occident. Paris 1955.
162 - Maslow (B.) : - Les Mosquées de Fes et du Nord du Maroc 1934.
163 - Mayer : - Bibliography of Moslem numismatics.
164 - Migeon (Gaston) : - Les Arts Musulmans 1926.
165 - Miles (G.) : - Epigraphy, Ars Islamica V.8.
166 - Minovi : - An out line history (Calligraphy, in : Survey of Persian Art V.II).

167 - Moritz : - Arabic paleography. Le Caire 1905.
- Arabia, in Encyc. of Islam.
168 - Pauty (E.) : - Les bois sculptés jusqu'à l'époque Ayyoabide Le Caire 1931.
169 - - Le plan de L'université Quarawiyin à Fès, Hesp. 1923.
170 - Pope : - Survey of Persian Art. Oxford 1939.
171 - R. Rebuffat : - La maison à la disciplina à Volubilis B.A.M. Rabat T. IX P. 329-357.
التخطيط ص 330، العمود والتاج الروماني ص 336، النقوش الرومانية ص 338.
172 - : - Les principa du Camp Romain de Lalla Djilalia (Taberna), B.A.M. Rabat T. IX P. 360-375.
لدراسة الحصون والمراكز العسكرية الرومانية وانظر التخطيط ص 362.
173 - Ricard (P) : - Pour comprendre L'Art Musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne. Paris 1924.
174 - : - L'architecture Marocaine, ds. la Revue de L'Art ancien et moderne 1923.
175 - : - Corpus des tapis marocains.
176 - Robert : - The astrolabe of the World.
177 - Rot (B.) et Poinssot (P.) : Inscriptions Arabes de kairouan, 2 Vol. 1950-1958.
178 - Shafi' (Farid) : - West Influences on architecture in Egypt. Bull. of the faculty of arts, Cairo University Dec. 1954.
179 - Sauvaget (J.) : - La Mosquée Omeyyade de Medine, Paris 1947.'
180 - : - Les inscriptions Arabes de la Mosquée de Bosra Paris 1941.
181 - Terrasse (H.) : - Histoire du Maroc 2 Vol. Casablanca 1950.
182 - : - L'influence de l'Ifriqiya sur l'architecture Mus. du Maroc avant les Almoravides. - Revue Africaine 1938.
183 - : - La Mosquée des Andalous à Fès.
184 - : - L'art Hispano-Mauresque.
185 - Terrasse (H.) et Hainaut (J.) : - Les arts décoratifs au Maroc. Paris 1925.
186 - Troussell (M.) : - Monnaies d'argent (dirhams) Idrissites et Abbassides trouvées à Ouezan. Recueil de Constantine 1942.

معالم وتطور العمارة الإسلامية بإمارات ودول المغرب العربي وإسبانيا المسلمة

المغرب الأدنى إفريقية تونس	المغرب الأوسط (الشرقي) قسنطينة	المغرب الأوسط (الغربي) الجزائر وهران تلمسان	المغرب الأقصى	إسبانيا المسلمة
الفتح الإسلامي عصر القادة الفاتحين وعصر الولاة التابعين للخليفة الأموي بدمشق ثم العباسي ببغداد				
تأسيس المسجد الجامع بالقيروان تأسيس ضريح سيدي عقبة بن نافع جامع الزيتونة بتونس	**الخوارج الرستميون (أباضية)** تأسيس تاهرت، بناء سدراتة	**بنو مدرار** خوارج بناء سجلماسة	**دولة الأشراف الأدارسة** تأسيس مدينة فاس بعدوتيها وجامعيها القرويين والأندلس. تأسيس مسجد شالة العتيق بعد تقسيم المملكة في عهد الإمام محمد بن المولى إدريس الثاني (1).	**الأمويون الغربيون** إمارة عبد الرحمن الداخل ثم خلافة قرطبة ثم دولة تابعهم الحاجب المنصور بن أبي عامر، قرطبة وجامعها ومدينة الزهراء.
بنو الأغلب عمران القيروان وتوسعة مسجدها الجامع وتأسيس العباسية ورقادة ومدينة سوسة				
العبيديون الفواطم بناء المهدية وجامعها والأسوار المسيلة		**زناتة** بناء افكان	**الزناتيون : المغراويون والمكناسيون وبنو يفرن** تأسيس مدينة وجدة، عمارة مسجد شالة العتيق وبناء صومعته (2)	**عصر ملوك الطوائف** قصر الجعفرية بسرافسطة وعمارة بني هود بطليطلة وآثار بني عباد بإشبيلية
بنو زيري (صنهاجة) تأسيس مدينة أشير	**بنو حماد (صنهاجة)** بناء القلعة ودار البحر الحمادي ومسجد القلعة ومنارها تأسيس مدينة بجاية	**المرابطون (صنهاجة)** مسجد جزائر بنى مزغنة مسجدا ندرومة وتلمسان الأعظم	توسعة جامع القرويين وعمارته العامة النهائية	
النورماند عمارة وفنون صقلية	**الموحدون (امبراطورية تضم دول المغرب العربي والأندلس)**		تأسيس جامع تينمل، جامع الكتبية بمراكش ومناره، قصبة مراكش وجامعها ومناره، تأسيس قصبة المهدية نواة رباط الفتح، مسجد حسان ومناره، تأسيس مدينة رباط الفتح، أسوار وأبواب تاريخية شهيرة بالعمارة الإسلامية : كباب أجناو بمراكش وأبواب الرواح والودايا وباب العلو وباب الأحد برباط الفتح.	جامع قصبة اشبيلية ومناره (الجيرالدا) أبراج وأسوار وحصون
الحفصيون قصور ومساجد ومدارس ودور لسك العملة	**بنو زيان (بنو عبد الواد ملوك تلمسان)**	مسجد بلحسن بتلمسان وصومعة المسجد المرابطي الأعظم بتلمسان	**بنو مرين الزناتيون ورثة الموحدين** مدارس فاس ومكناس وسلا ومراكش، تأسيس فاس الجديد أسوار وقباب شالة وتوسيع مسجد الأدارسة بها وبناء زاوية أبي سعيد وزاوية المدخل بشالة (3) تأسيس مدن وصوامع وإقرار معالم الطراز المغربي الأندلسي بالمملكة المغربية إلى اليوم.	**بنو نصر (بنو الأحمر)** قصر الحمراء بجميع مرافقه بغرناطة
نيابات (ولايات) العصر العثماني عهد البيلربكوات الدايات الباشوات			**الوطاسيون أتباع المرينيين**	نهاية عصر إمارات ودول المسلمين وبداية حكم النصارى (نهاية نشاط الطراز المغربي الأندلسي) وبداية ظهور طراز المدجنين
مساجد وقصور	مساجد وقصور قسنطينة	مساجد وقصور الجزائر	**الأشراف السعديون** قبور الأشراف السعديين بمراكش وقصر البديع بمجزاته العلمية بها، مساجد كثيرة (بمراكش وفاس) وقصور ومصانع للسكر	
الاستعمار الفرنسي منشآت عصرية			**الأشراف العلويون** قصور ومساجد ومؤسسات وأسوار مكناس (الإسماعيلية) قصبة مهدية سبو، فنادق فاس ومساجدها العلوية ومساجد مراكش ورباط الفتح كجامع السنة وجامع مولاي سليمان والجامع الكبير، قصر الباهية بمراكش.	
			الحماية الفرنسية (لم تشيد ما شيدته ببقية شمال إفريقيا)	
الجمهورية التونسية منشآت عصرية	**الجمهورية الجزائرية** منشآت عصرية		**المملكة المغربية** عصر الاستقلال والانبعاث (دولة محمد الخامس والحسن الثاني) شيدت المملكة مجموعة سدود تاريخية وفريدة، دار السلام وقصور الرباط، تأسيس مساجد ومدن وموانيء جديدة ومؤسسات عصرية وجامعات، تشييد الحسن الثاني لضريح محمد الخامس بالرباط العمل الفني النموذجي لعصر الأشراف العلويين. مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء.	

خريطة تطور أشهر معالم العمارة الإسلامية بالغرب الإسلامي دون التقيد بمقياس رسم معين لمدد سنوات الحكم المعاصرة فيما بينها

(1) بعد اكتشافاتنا الأثرية، كتابنا تاريخ شالة الإسلامية وكتابنا حفائر شالة الإسلامية وكتاب الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى

(2) بعد اكتشافاتنا الأثرية، كتابنا تاريخ شالة الإسلامية وكتابنا حفائر شالة الإسلامية وكتاب الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى

(3) بعد اكتشافاتنا الأثرية، كتابنا تاريخ شالة الإسلامية وكتابنا حفائر شالة الإسلامية وكتاب الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى

مقابلة التاريخ الهجري بالتاريخ الميلادي

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
1	16 يوليوز 622	35	11 يوليوز 655	69	6 يونيو 688	103	1 يوليوز 721
2	5 يوليوز 623	36	30 يونيو 656	70	25 يونيو 689	104	21 يونيو 722
3	24 يونيو 624	37	19 يونيو 657	71	15 يونيو 690	105	10 يونيو 723
4	13 يونيو 625	38	9 يونيو 658	72	4 يونيو 691	106	29 مايو 724
5	2 يونيو 626	39	29 مايو 659	73	23 مايو 692	107	19 مايو 725
6	23 مايو 627	40	17 مايو 660	74	13 مايو 693	108	8 مايو 726
7	11 مايو 628	41	7 مايو 661	75	2 مايو 694	109	27 أبريل 727
8	1 مايو 629	42	26 أبريل 662	76	21 أبريل 695	110	16 أبريل 728
9	20 أبريل 630	43	15 أبريل 663	77	10 أبريل 696	111	5 أبريل 729
10	9 أبريل 631	44	4 أبريل 664	78	30 مارس 697	112	26 مارس 730
11	29 مارس 632	45	24 مارس 665	79	20 مارس 698	113	15 مارس 731
12	18 مارس 633	46	13 مارس 666	80	9 مارس 699	114	3 مارس 732
13	7 مارس 634	47	3 مارس 667	81	26 فبراير 700	115	21 فبراير 733
14	25 فبراير 635	48	20 فبراير 668	82	15 فبراير 701	116	10 فبراير 734
15	14 فبراير 636	49	9 فبراير 669	83	4 فبراير 702	117	31 يناير 735
16	2 فبراير 637	50	29 فبراير 670	84	24 يناير 703	118	20 يناير 736
17	23 يناير 638	51	18 يناير 671	85	14 يناير 704	119	8 يناير 737
18	12 يناير 639	52	8 يناير 672	86	2 يناير 705	120	29 ديسمبر 737
19	2 يناير 640	53	27 يناير 672	87	13 ديسمبر 706	121	18 ديسمبر 738
20	21 ديسمبر 640	54	16 ديسمبر 673	88	12 ديسمبر 707	122	7 ديسمبر 739
21	10 ديسمبر 641	55	6 ديسنبر 674	89	1 ديسمبر 708	123	26 نوفمبر 740
22	30 نوفمبر 642	56	25 نوفمبر 675	90	20 نوفمبر 709	124	15 نوفمبر 741
23	1 نوفمبر 643	57	14 نوفمبر 676	91	9 نوفمبر 709	125	4 نوفمبر 742
24	7 نوفمبر 644	58	3 نوفمبر 677	92	29 أكتوبر 710	126	25 أكتوبر 743
25	28 أكتوبر 645	59	33 أكتوبر 678	93	19 أكتوبر 711	127	13 أكتوبر 744
26	17 أكتوبر 646	60	13 أكتوبر 679	94	7 أكتوبر 712	128	3 أكتوبر 745
27	7 أكتوبر 647	61	1 أكتوبر 680	95	26 سبتمبر 713	129	22 سبتمبر 746
28	25 سبتمبر 648	62	20 سبتمبر 681	96	16 سبتمبر 714	130	11 سبتمبر 747
29	14 سبتمبر 649	63	10 سبتمبر 682	97	5 سبتمبر 715	131	31 سبتمبر 748
30	4 سبتمبر 650	64	30 اغسطس 683	98	25 اغسطس 716	132	20 اغسطس 749
31	24 اغسطس 651	65	18 اغسطس 684	99	14 اغسطس 717	133	9 أغسطس 750
32	2 اغسطس 652	66	8 اغسطس 685	100	3 اغسطس 718	134	30 أغسطس 751
33	2 اغسطس 653	67	28 يونيو 686	101	24 يوليوز 719	135	18 يوليو 752
34	22 يوليوز 654	68	18 يونيو 687	102	12 يوليوز 720	136	7 يوليو 753

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
137	27 يوليو 754	174	20 مايو 790	212	2 أبريل 827	249	24 يبراير 863
138	16 يونيو 755	175	10 مايو 791	213	22 مارس 828	250	13 يبراير 864
139	5 يونيو 756	176	28 مايو 792	214	11 مارس 829	251	2 يبراير 865
140	25 مايو 757	177	18 أبريل 793	215	25 فبراير 830	252	22 يناير 866
141	14 مايو 758	178	7 أبريل 794	216	18 فبراير 831	253	11 يناير 867
142	4 مايو 759	179	27 مارس 795	217	7 فبراير 832	254	1 يناير 868
143	22 أبريل 760	180	16 مارس 796	218	27 يناير 833	255	20 ديسمبر 868
144	11 أبريل 761	181	5 مارس 797	219	16 يناير 834	256	9 ديسمبر 869
145	1 أبريل 762	182	22 فبراير 798	220	5 يناير 835	257	29 نوفمبر 870
146	21 مارس 763	183	12 فبراير 799	221	26 ديسمبر 836	258	18 نوفمبر 871
147	10 مارس 764	184	1 فبراير 800	222	14 ديسمبر 836	259	7 نوفمبر 872
148	27 فبراير 765	185	20 يناير 801	223	3 ديسمبر 837	260	27 أكتوبر 873
149	16 فبراير 766	186	10 يناير 802	224	23 نوفمبر 838	261	16 أكتوبر 874
150	6 يناير 767	187	30 ديسمبر 802	225	12 نوفمبر 839	262	6 أكتوبر 875
151	26 يناير 768	188	20 ديسمبر 803	226	31 أكتوبر 840	263	24 سبتمبر 876
152	14 يناير 769	190	8 ديسمبر 804	227	20 أكتوبر 841	264	13 سبتمبر 877
153	4 يناير 770	191	27 نوفمبر 805	228	10 أكتوبر 842	265	3 سبتمبر 878
154	24 ديسمبر 771	192	17 نوفمبر 806 6 نوفمبر 807	229	30 سبتمبر 843	266	23 أغسطس 879
155	13 ديسمبر 772	193	25 أكتوبر 808	230	18 سبتمبر 844	267	12 أغسطس 880
156	2 ديسمبر 773	194	15 أكتوبر 809	231	7 سبتمبر 845	268	1 أغسطس 881
157	21 نوفمبر 773	195	4 أكتوبر 810	232	28 أغسطس 846	269	21 يوليو 882
158	11 نوفمبر 774	196	23 سبتمبر 811	233	17 أغ طس 847	270	11 يوليو 883
159	31 أكتوبر 775	197	12 سبتمبر 812	234	5 أغسـ ـس 848	271	29 يونيو 884
160	19 أكتوبر 776	198	1 سبتمبر 813	235	26 يوليوز 849	272	18 يونيو 885
161	9 أكتوبر 777	199	22 أغسطس 814	236	15 يوليوز 850	273	8 يونيو 886
162	28 سبتمبر 778	200	11 أغسطس 815	237	5 يوليوز 851	274	28 ماي 887
163	17 سبتمبر 779	201	30 يوليوز 816	238	23 يونيو 852	275	16 ماي 888
164	6 سبتمبر 780	202	20 يوليوز 817	239	12 يونيو 853	276	6 ماي 889
165	26 أغسطس 781	203	9 يوليوز 818	240	2 يونيو 854	277	25 أبريل 890
166	15 أغسطس 782	204	28 يونيو 819	241	22 ماي 855	278	15 أبريل 891
167	5 أغسطس 783	205	17 يونيو 820	242	10 ماي 856	279	3 أبريل 892
168	24 يوليو 784	206	6 يونيو 821	243	30 أبريل 857	280	23 مارس 893
169	14 يوليو 785	207	27 مايو 822	244	19 أبريل 858	281	13 مارس 894
170	3 يوليو 786	208	16 مايو 823	245	8 أبريل 859	282	2 مارس 895
171	22 يونيو 787	209	4 مايو 824	246	28 مارس 860	283	19 فبراير 896
172	11 يونيو 788	210	24 أبريل 825	247	17 مارس 861	284	8 فبراير 897
173	11 مايو 789	211	13 أبريل 826	248	7 مارس 862	285	28 يناير 898

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
286	17 يناير 899	324	30 نوفمبر 935	362	12 أكتوبر 972	400	25 أغسطس 1009
287	7 يناير 900	325	19 نوفمبر 936	363	2 نوفمبر 973	401	15 أغسطس 1010
288	23 نوفمبر 900	326	8 نوفمبر 937	364	21 سبتمبر 974	402	4 أغسطس 1011
289	16 ديسمبر 901	327	29 أكتوبر 938	365	10 سبتمبر 975	403	23 يوليوز 1012
290	5 ديسمبر 902	328	18 أكتوبر 939	366	30 أغسطس 976	404	13 يوليو 1013
291	24 نوفمبر 903	329	6 أكتوبر 940	367	19 أغسطس 977	405	3 يوليو 1014
292	13 نوفمبر 904	330	26 سبتمبر 941	368	9 أغسطس 978	406	21 يونيو 1015
293	2 نوفمبر 905	331	15 سبتمبر 942	369	29 يوليو 979	407	10 يونيو 1016
294	22 أكتوبر 906	332	4 سبتمبر 943	370	17 يوليو 980	408	30 ماي 1017
295	12 أكتوبر 907	333	24 أغسطس 944	371	7 يوليو 981	409	20 ماي 1018
296	30 سبتمبر 908	234	13 أغسطس 945	372	26 يونيو 982	410	9 ماي 1019
297	20 سبتمبر 909	335	2 أغسطس 946	373	15 يونيو 983	411	27 أبريل 1020
298	9 سبتمبر 910	336	23 يوليوز 947	374	4 يونيو 984	412	17 أبريل 1021
299	29 أغسطس 911	337	11 يوليو 948	375	24 ماي 985	413	6 أبريل 1022
300	18 أغسطس 912	338	1 يوليو 949	376	13 ماي 986	414	26 مارس 1023
301	7 أغسطس 913	339	20 يونيو 950	377	3 ماي 987	415	15 مارس 1024
302	27 يوليوز 914	340	9 يونيو 951	378	21 أبريل 988	416	4 مارس 1025
303	17 يوليوز 915	341	29 مايو 952	379	11 أبريل 989	417	22 فبراير 1026
304	5 يوليوز 916	342	18 مايو 953	380	31 أبريل 990	418	11 فبراير 1027
305	24 يونيو 917	343	7 مايو 954	381	20 مارس 991	419	31 يناير 1028
306	14 يونيو 918	344	27 أبريل 955	382	9 مارس 992	420	20 يناير 1029
307	3 يونيو 919	345	15 أبريل 956	383	26 فبراير 993	421	9 يناير 1030
308	23 مايو 920	346	4 أبريل 957	384	15 فبراير 994	422	29 ديسمبر 1030
309	12 مايو 921	347	25 مارس 958	385	5 فبراير 995	423	19 ديسمبر 1031
310	1 مايو 922	348	14 مارس 959	386	25 فبراير 996	424	7 ديسمبر 1032
311	21 أبريل 923	349	3 مارس 960	387	14 يناير 997	425	26 نوفمبر 1033
312	9 أبريل 924	350	20 فبراير 961	388	3 يناير 998	426	16 نوفمبر 1034
313	29 مارس 925	351	9 فبراير 962	389	23 ديسمبر 998	427	5 نوفمبر 1035
314	19 مارس 926	352	30 يناير 963	390	13 ديسمبر 999	428	25 أكتوبر 1036
315	8 مارس 927	353	19 يناير 964	391	1 ديسمبر 1000	429	14 أكتوبر 1037
316	25 فبراير 928	354	7 يناير 965	392	20 نوفمبر 1001	430	3 أكتوبر 1038
317	14 فبراير 929	355	28 ديسمبر 965	393	10 نوفمبر 1002	431	23 سبتمبر 1039
318	3 فبراير 930	356	17 ديسمبر 966	394	30 أكتوبر 1003	432	11 سبتمبر 1040
319	24 يناير 931	357	7 ديسمبر 967	395	18 أكتوبر 1004	433	31 أغسطس 1041
320	13 يناير 932	358	25 نوفمبر 968	396	8 أكتوبر 1005	434	21 أغسطس 1042
321	1 يناير 933	359	14 نوفمبر 969	397	27 سبتمبر 1006	435	10 أغسطس 1043
322	22 ديسمبر 933	360	2 نوفمبر 970	298	17 سبتمبر 1007	436	29 يوليو 1044
323	11 ديسمبر 934	361	24 أكتوبر 971	399	5 سبتمبر 1008	437	19 يوليو 1045

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
438	8 يوليو 1046	478	29 أبريل 1085	518	19 فبراير 1124	558	10 ديسمبر 1162
439	28 يونيو 1047	479	18 أبريل 1086	519	7 فبراير 1125	559	30 نوفمبر 1163
440	16 يونيو 1048	480	8 أبريل 1087	520	27 يناير 1126	560	18 نوفمبر 1164
441	5 يونيو 1049	481	27 مارس 1088	521	17 يناير 1127	561	7 نوفمبر 1165
442	26 مايو 1050	482	16 مارس 1089	522	6 يناير 1128	562	28 أكتوبر 1166
443	15 مايو 1051	483	6 مارس 1090	523	25 ديسمبر 1128	563	17 أكتوبر 1167
444	3 مايو 1052	484	23 فبراير 1091	524	15 ديسمبر 1129	564	5 أكتوبر 1168
445	23 أبريل 1053	485	12 فبراير 1092	525	4 ديسمبر 1130	565	25 سبتمبر 1169
446	12 أبريل 1054	486	1 فبراير 1093	526	23 نوفمبر 1131	566	14 سبتمبر 1170
447	2 أبريل 1055	487	21 يناير 1094	527	12 نوفمبر 1132	567	4 سبتمبر 1171
448	21 مارس 1056	488	11 يناير 1095	528	1 نوفمبر 1133	568	23 أغسطس 1172
449	10 مارس 1057	489	31 ديسمبر 1095	529	22 أكتوبر 1134	569	12 أغسطس 1173
450	28 فبراير 1058	490	19 ديسمبر 1096	530	11 أكتوبر 1135	570	2 أغسطس 1174
451	17 فبراير 1059	491	9 ديسمبر 1097	531	29 سبتمبر 1136	571	22 يوليو 1175
452	6 فبراير 1060	492	28 نوفمبر 1098	532	19 سبتمبر 1137	572	10 يوليو 1176
453	26 يناير 1061	493	17 نوفمبر 1099	533	8 سبتمبر 1138	573	30 يوليو 1177
454	15 يناير 1062	494	6 نوفمبر 1100	534	28 أغسطس 1139	574	19 يونيو 1178
455	4 يناير 1063	495	26 أكتوبر 1101	535	17 أغسطس 1140	575	8 يونيو 1179
456	25 ديسمبر 1063	496	15 أكتوبر 1102	536	6 أغسطس 1141	576	28 مايو 1180
457	13 ديسمبر 1064	497	5 أكتوبر 1103	537	27 يوليو 1142	577	17 مايو 1181
458	3 ديسمبر 1065	498	23 سبتمبر 1104	538	16 يوليو 1143	578	7 مايو 1182
459	22 نوفمبر 1066	499	13 سبتمبر 1105	539	4 يوليو 1144	579	26 أبريل 1183
460	11 نوفمبر 1067	500	2 سبتمبر 1106	540	24 يونيو 1145	580	14 أبريل 1184
461	31 أكتوبر 1068	501	22 اغسطس 1107	541	13 يونيو 1146	581	4 أبريل 1185
462	20 أكتوبر 1069	502	11 أغسطس 1108	542	2 يونيو 1147	582	24 مارس 1186
463	9 أكتوبر 1070	503	31 يوليو 1109	534	22 مايو 1148	583	13 مارس 1187
464	29 سبتمبر 1071	504	20 يوليو 1110	544	11 مايو 1149	584	2 مارس 1188
465	17 سبتمبر 1072	505	10 يوليو 1111	545	30 أبريل 1150	585	19 فبراير 1189
466	6 سبتمبر 1073	506	28 يونيو 1112	546	20 أبريل 1151	586	8 فبراير 1190
467	27 أغسطس 1074	507	18 يونيو 1113	547	8 أبريل 1152	587	29 يناير 1191
468	16 أغسطس 1075	508	7 يونيو 1114	548	27 مارس 1153	588	18 يناير 1192
469	5 أغسطس 1076	509	27 مايو 1115	549	18 مارس 1154	589	7 يناير 1193
470	25 يوليو 1077	510	16 مايو 1116	550	7 مارس 1155	590	27 ديسمبر 1193
471	14 يوليو 1078	511	5 مايو 1117	551	25 فبراير 1156	591	16 ديسمبر 1194
472	4 يوليو 1079	512	24 أبريل 1118	552	13 فبراير 1157	592	6 ديسمبر 1195
473	22 يونيو 1080	513	14 أبريل 1119	553	2 فبراير 1158	593	24 نوفمبر 1196
474	11 يونيو 1081	514	2 أبريل 1120	554	23 يناير 1159	594	13 نوفمبر 1197
475	1 يونيو 1082	515	22 مارس 1121	555	12 يناير 1160	595	3 نوفمبر 1198
476	21 مايو 1083	516	12 مارس 1122	556	31 ديسمبر 1160	596	23 أكتوبر 1199
477	10 مايو 1084	517	1 مارس 1123	557	21 ديسمبر 1161	597	12 أكتوبر 1200

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
598	1 أكتوبر 1201	636	14 أغسطس 1238	674	27 يونيو 1275	712	9 مايو 1312
599	20 سبتمبر 1202	637	3 أغسطس 1239	675	15 يونيو 1276	713	28 أبريل 1313
600	10 سبتمبر 1203	638	23 يوليو 1240	676	4 يونيو 1277	714	17 أبريل 1314
601	29 أغسطس 1204	639	12 يوليو 1241	677	25 مايو 1278	715	7 أبريل 1315
602	18 أغسطس 1205	640	1 يوليو 1242	678	14 مايو 1279	716	26 مارس 1316
603	8 أغسطس 1206	641	21 يونيو 1243	679	3 مايو 1280	717	16 مارس 1317
604	28 يوليو 1207	642	9 يونيو 1244	680	22 أبريل 1281	718	5 مارس 1318
605	16 يوليو 1208	643	29 مايو 1245	681	11 أبريل 1282	719	22 فبراير 1319
606	6 يوليو 1209	644	19 مايو 1246	682	1 أبريل 1283	720	12 فبراير 1320
607	25 يونيو 1210	645	8 مايو 1247	683	20 مارس 1284	721	31 يناير 1321
608	15 يونيو 1211	646	26 أبريل 1248	684	9 مارس 1285	722	20 يناير 1322
609	3 يونيو 1212	647	16 أبريل 1249	685	27 فبراير 1286	723	10 يناير 1323
610	23 مايو 1213	648	5 أبريل 1250	686	16 فبراير 1287	724	30 ديسمبر 1323
611	13 مايو 1214	649	26 مارس 1251	687	6 فبراير 1288	725	8 ديسمبر 1324
612	2 مايو 1215	650	14 مارس 1252	688	25 يناير 1289	726	8 ديسمبر 1325
613	20 أبريل 1216	651	3 مارس 1253	689	14 يناير 1290	727	27 نوفمبر 1326
614	10 أبريل 1217	652	21 فبراير 1254	690	4 يناير 1291	728	17 نوفمبر 1327
615	30 مارس 1218	653	10 فبراير 1255	691	24 يناير 1291	729	5 نوفمبر 1328
616	19 مارس 1219	654	30 يناير 1256	692	12 سبتمبر 1292	730	25 أكتوبر 1329
617	8 مارس 1220	655	19 يناير 1257	693	2 ديسمبر 1293	731	15 أكتوبر 1330
618	25 فبراير 1221	656	8 يناير 1258	694	21 نوفمبر 1294	732	4 أكتوبر 1331
619	15 فبراير 1222	657	29 ديسمبر 1258	695	10 نوفمبر 1295	733	22 سبتمبر 1332
620	4 فبراير 1223	658	18 ديسمبر 1259	696	30 أكتوبر 1296	734	12 سبتمبر 1333
621	24 يناير 1224	659	6 ديسمبر 1260	697	19 أكتوبر 1297	735	1 سبتمبر 1334
622	13 يناير 1225	660	26 نوفمبر 1261	698	9 أكتوبر 1298	736	21 أغسطس 1335
623	2 يناير 1226	661	15 نوفمبر 1262	699	28 سبتمبر 1299	737	10 أغسطس 1336
624	22 ديسمبر 1226	662	4 نوفمبر 1263	700	16 سبتمبر 1300	738	30 يوليو 1337
625	12 ديسمبر 1227	663	24 أكتوبر 1264	701	5 سبتمبر 1301	739	20 يوليو 1338
626	30 نوفمبر 1228	664	13 أكتوبر 1265	702	26 أغسطس 1302	740	9 يوليو 1339
627	20 نوفمبر 1229	665	2 أكتوبر 1266	703	15 أغسطس 1303	741	27 يونيو 1340
628	9 نوفمبر 1230	666	22 سبتمبر 1267	704	4 أغسطس 1304	742	17 يونيو 1341
629	29 أكتوبر 1231	667	10 سبتمبر 1268	705	24 يوليو 1305	743	6 يونيو 1342
630	18 أكتوبر 1232	668	31 أغسطس 1269	706	13 يوليو 1306	744	26 مايو 1343
631	7 أكتوبر 1233	669	20 أغسطس 1270	707	3 يوليو 1307	745	15 مايو 1344
632	26 سبتمبر 1234	670	9 أغسطس 1271	708	21 يونيو 1308	746	4 مايو 1345
633	16 سبتمبر 1235	671	29 يوليو 1272	709	11 يونيو 1309	747	24 أبريل 1346
634	4 سبتمبر 1236	672	19 يوليو 1273	710	31 مايو 1310	748	13 أبريل 1347
635	24 أغسطس 1237	673	7 يوليو 1274	711	20 مايو 1311	749	1 أبريل 1348

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
750	22 مارس 1349	788	2 فبراير 1386	826	15 ديسمبر 1422	864	28 أكتوبر 1459
751	11 مارس 1350	789	22 يناير 1387	827	5 ديسمبر 1423	865	17 أكتوبر 1460
752	28 فبراير 1351	790	11 يناير 1388	828	23 نوفمبر 1424	866	6 أكتوبر 1461
753	18 فبراير 1352	791	31 ديسمبر 1388	829	13 نوفمبر 1425	867	2 سبتمبر 1462
754	6 فبراير 1353	792	20 ديسمبر 1389	830	2 نوفمبر 1426	868	5 سبتمبر 1463
755	26 يناير 1354	793	9 ديسمبر 1390	831	22 أكتوبر 1427	869	3 سبتمبر 1464
756	16 يناير 1355	794	29 نوفمبر 1391	832	11 أكتوبر 1428	870	24 أغسطس 1465
757	5 يناير 1356	795	17 نوفمبر 1392	833	30 سبتمبر 1429	871	13 أغسطس 1466
758	25 ديسمبر 1356	796	6 نوفمبر 1393	834	19 سبتمبر 1430	872	2 أغسطس 1467
759	15 ديسمبر 1357	797	27 أكتوبر 1394	835	9 سبتمبر 1431	873	22 يوليو 1468
760	3 ديسمبر 1358	798	16 أكتوبر 1395	836	28 أغسطس 1432	874	11 يوليو 1469
761	23 نوفمبر 1359	799	5 أكتوبر 1396	837	18 أغسطس 1433	875	30 يونيو 1470
762	11 نوفمبر 1360	800	24 سبتمبر 1397	838	7 أغسطس 1434	876	20 يونيو 1471
763	31 أكتوبر 1361	801	13 سبتمبر 1398	839	27 يوليو 1435	877	8 يونيو 1472
764	21 أكتوبر 1362	802	3 سبتمبر 1399	840	16 يوليو 1436	878	29 مايو 1473
765	10 أكتوبر 1363	803	22 أغسطس 1400	841	5 يوليو 1437	879	18 مايو 1474
766	28 سبتمبر 1364	804	11 أغسطس 1401	842	24 يونيو 1438	880	7 مايو 1475
767	18 سبتمبر 1365	805	1 أغسطس 1402	843	14 يونيو 1439	881	26 أبريل 1476
768	7 سبتمبر 1366	806	21 يوليو 1403	844	2 يونيو 1440	882	15 أبريل 1477
769	28 أغسطس 1367	807	10 يوليو 1404	845	22 مايو 1441	883	4 أبريل 1478
770	16 أغسطس 1368	808	29 يونيو 1405	846	12 مايو 1442	884	25 مارس 1479
771	5 أغسطس 1369	809	18 يونيو 1406	847	1 مايو 1443	885	13 مارس 1480
772	26 يوليو 1370	810	8 يونيو 1407	848	20 أبريل 1444	886	2 مارس 1481
773	15 يوليو 1371	811	27 مايو 1408	849	9 أبريل 1445	887	20 فبراير 1482
774	3 يوليو 1372	812	16 مايو 1409	850	29 مارس 1446	888	9 فبراير 1483
775	23 يونيو 1373	813	6 مايو 1410	851	19 مارس 1447	889	30 يناير 1484
776	12 يونيو 1374	814	25 أبريل 1411	852	7 مارس 1447	890	18 يناير 1485
777	2 يونيو 1375	815	13 أبريل 1412	853	24 فبراير 1449	891	7 يناير 1486
778	21 مايو 1376	816	3 أبريل 1413	854	14 فبراير 1450	892	28 ديسمبر 1486
779	10 مايو 1377	817	23 مارس 1414	855	3 فبراير 1451	893	17 ديسمبر 1487
780	30 أبريل 1378	818	13 مارس 1415	856	23 يناير 1452	894	5 ديسمبر 1488
781	19 أبريل 1379	819	1 مارس 1416	857	12 يناير 1453	895	25 نوفمبر 1489
782	7 أبريل 1380	820	18 فبراير 1417	858	1 يناير 1454	896	14 نوفمبر 1490
783	28 مارس 1381	821	8 فبراير 1418	859	22 ديسمبر 1454	897	4 نوفمبر 1491
784	17 مارس 1382	822	28 يناير 1419	860	11 ديسمبر 1455	898	23 أكتوبر 1492
785	6 مارس 1383	823	17 يناير 1420	861	29 نوفمبر 1456	899	12 أكتوبر 1493
786	24 فبراير 1384	824	6 يناير 1421	862	19 نوفمبر 1457	900	2 أكتوبر 1494
787	12 فبراير 1385	825	26 ديسمبر 1421	863	8 نوفمبر 1458	901	21 سبتمبر 1495

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
902	9 سبتمبر 1496	940	23 يوليو 1533	978	5 يونيو 1570	1016	28 أبريل 1607
903	30 أغسطس 1497	941	13 يوليو 1534	979	26 مايو 1571	1017	17 أبريل 1608
904	19 أغسطس 1498	942	2 يوليو 1535	980	14 مايو 1572	1018	16 أبريل 1609
905	8 أغسطس 1499	943	20 يونيو 1536	981	3 مايو 1573	1019	26 مارس 1610
906	28 يوليو 1500	944	10 يونيو 1537	982	23 أبريل 1574	1020	16 مارس 1611
907	17 يوليو 1501	945	30 مايو 1538	983	12 أبريل 1575	1021	4 مارس 1612
908	7 يوليو 1502	946	19 مايو 1539	984	31 مارس 1576	1022	21 فبراير 1613
909	26 يونيو 1503	947	8 مايو 1540	985	21 مارس 1577	1023	11 فبراير 1614
910	14 يونيو 1504	948	27 أبريل 1541	986	10 مارس 1578	1024	31 يناير 1615
911	4 يونيو 1505	949	17 أبريل 1542	987	28 فبراير 1579	1025	20 يناير 1616
912	24 مايو 1506	950	6 أبريل 1543	988	17 فبراير 1580	1026	9 يناير 1617
913	13 مايو 1507	951	25 مارس 1544	989	5 فبراير 1581	1027	29 ديسمبر 1617
914	2 مايو 1508	952	15 مارس 1545	990	26 يناير 1582	1028	19 ديسمبر 1618
915	21 أبريل 1509	953	4 مارس 1546	991	25 يناير 1583	1029	8 ديسمبر 1619
916	10 أبريل 1510	954	21 فبراير 1547	992	14 يناير 1584	1030	26 نوفمبر 1620
917	31 مارس 1511	955	11 فبراير 1548	993	3 يناير 1585	1031	16 نوفمبر 1621
918	19 مارس 1512	956	30 يناير 1549	994	23 ديسمبر 1585	1032	5 نوفمبر 1622
919	9 مارس 1513	957	20 يناير 1550	995	12 ديسمبر 1586	1033	25 أكتوبر 1623
920	26 فبراير 1514	958	9 يناير 1551	996	2 ديسمبر 1587	1034	14 أكتوبر 1624
921	15 فبراير 1515	959	29 ديسمبر 1551	997	20 نوفمبر 1588	1035	3 أكتوبر 1625
922	5 فبراير 1516	960	18 ديسمبر 1552	998	10 نوفمبر 1589	1036	22 سبتمبر 1626
923	24 يناير 1517	961	7 ديسمبر 1553	999	30 أكتوبر 1590	1037	12 سبتمبر 1627
924	13 يناير 1518	962	26 نوفمبر 1554	1000	19 أكتوبر 1591	1038	31 سبتمبر 1628
925	3 يناير 1519	963	16 نوفمبر 1555	1001	8 أكتوبر 1592	1039	21 أغسطس 1629
926	23 ديسمبر 1519	964	4 نوفمبر 1556	1002	27 سبتمبر 1593	1040	10 أغسطس 1630
927	12 ديسمبر 1520	965	24 أكتوبر 1557	1003	26 سبتمبر 1594	1041	30 يوليو 1631
928	1 ديسمبر 1521	966	14 أكتوبر 1558	1004	6 سبتمبر 1595	1042	19 يوليو 1632
929	20 نوفمبر 1522	967	3 أكتوبر 1559	1005	28 أغسطس 1596	1043	8 يوليو 1633
930	10 نوفمبر 1523	968	22 سبتمبر 1560	1006	14 أغسطس 1597	1044	20 يونيو 1634
931	29 أكتوبر 1524	969	11 سبتمبر 1561	1007	4 أغسطس 1598	1045	17 يونيو 1635
932	18 أكتوبر 1525	970	31 أغسطس 1562	1008	24 يوليو 1599	1046	5 يونيو 1636
933	8 سبتمبر 1526	971	21 أغسطس 1563	1009	13 يوليو 1600	1047	26 مايو 1637
934	27 سبتمبر 1527	972	9 أغسطس 1564	1010	2 يونيو 1601	1048	15 مايو 1638
935	15 سبتمبر 1528	973	29 يوليو 1565	1011	21 يونيو 1602	1049	4 مايو 1639
936	5 سبتمبر 1529	974	19 يوليو 1566	1012	11 يونيو 1603	1050	23 أبريل 1640
937	25 أغسطس 1530	975	8 يوليو 1567	1013	30 مايو 1604	1051	12 أبريل 1641
938	15 أغسطس 1531	976	26 يوليو 1568	1014	19 مايو 1605	1052	1 أبريل 1642
939	3 أغسطس 1532	977	16 يونيو 1569	1015	9 مايو 1606	1053	22 مارس 1643

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
1054	10 مارس 1644	1093	10 يناير 1682	1132	14 نوفمبر 1719	1171	15 سبتمبر 1757
1055	27 فبراير 1645	1094	31 ديسمبر 1682	1133	2 نوفمبر 1720	1172	4 سبتمبر 1758
1056	17 فبراير 1646	1095	20 ديسمبر 1683	1134	22 أكتوبر 1721	1173	25 أغسطس 1759
1057	6 فبراير 1647	1096	8 ديسمبر 1684	1135	12 أكتوبر 1722	1174	13 أغسطس 1760
1058	27 يناير 1648	1097	28 نوفمبر 1685	1136	1 أكتوبر 1723	1175	2 أغسطس 1761
1059	15 يناير 1649	1098	17 نوفمبر 1686	1137	20 سبتمبر 1724	1176	23 يوليو 1762
1060	4 يناير 1650	1099	7 نوفمبر 1687	1138	9 سبتمبر 1725	1177	12 يوليو 1763
1061	25 ديسمبر 1650	1100	26 أكتوبر 1688	1139	29 أغسطس 1726	1178	1 يوليو 1764
1062	14 ديسمبر 1651	1101	15 أكتوبر 1689	1140	19 أغسطس 1727	1179	20 يونيو 1765
1063	2 ديسمبر 1652	1102	5 أكتوبر 1690	1141	7 أغسطس 1728	1180	9 يونيو 1766
1064	22 ديسمبر 1653	1103	24 سبتمبر 1691	1142	27 يوليو 1729	1181	30 مايو 1767
1065	11 نوفمبر 1654	1104	12 سبتمبر 1692	1143	17 يوليو 1730	1182	18 مايو 1768
1066	31 أكتوبر 1655	1105	2 سبتمبر 1693	1144	6 يوليو 1731	1183	7 مايو 1769
1067	20 أكتوبر 1656	1106	22 أغسطس 1694	1145	24 يونيو 1732	1184	27 أبريل 1770
1068	9 أكتوبر 1657	1107	12 أغسطس 1695	1146	14 يونيو 1733	1185	16 أبريل 1771
1069	29 سبتمبر 1658	1108	31 يوليو 1696	1147	3 يونيو 1734	1186	4 أبريل 1772
1070	18 سبتمبر 1659	1109	20 يوليو 1697	1148	24 مايو 1735	1187	25 مارس 1773
1071	6 سبتمبر 1660	1110	10 يوليو 1698	1149	12 مايو 1736	1188	14 مارس 1774
1072	27 أغسطس 1661	1111	29 يونيو 1699	1150	1 مايو 1737	1189	4 مارس 1775
1073	16 أغسطس 1662	1112	18 يونيو 1700	1151	21 أبريل 1738	1190	21 فبراير 1776
1074	5 أغسطس 1663	1113	8 يونيو 1701	1152	10 أبريل 1739	1191	19 فبراير 1777
1075	25 يوليو 1664	1114	28 مايو 1702	1153	29 مارس 1740	1192	30 يناير 1778
1076	14 يوليو 1665	1115	17 مايو 1703	1154	19 مارس 1741	1193	19 يناير 1779
1077	4 يوليو 1666	1116	6 مايو 1704	1155	8 مارس 1742	1194	8 يناير 1780
1078	23 يونيو 1667	1117	25 أبريل 1705	1156	25 فبراير 1743	1195	28 ديسمبر 1780
1079	11 يونيو 1668	1118	15 أبريل 1706	1157	15 فبراير 1744	1196	17 ديسمبر 1781
1080	1 يونيو 1669	1119	4 أبريل 1707	1158	3 فبراير 1745	1197	7 ديسمبر 1782
1081	21 مايو 1670	1120	23 مارس 1708	1159	24 يناير 1746	1198	26 نوفمبر 1783
1082	10 مايو 1671	1121	13 مارس 1709	1160	13 يناير 1747	1199	14 نوفمبر 1784
1083	29 أبريل 1672	1122	2 مارس 1710	1161	2 يناير 1748	1200	4 نوفمبر 1785
1084	18 أبريل 1673	1123	19 فبراير 1711	1162	22 ديسمبر 1748	1201	34 أكتوبر 1786
1085	7 أبريل 1674	1124	9 فبراير 1712	1163	11 ديسمبر 1749	1202	13 أكتوبر 1787
1086	28 مارس 1675	1125	28 يناير 1713	1164	30 نوفمبر 1750	1203	2 أكتوبر 1788
1087	16 مارس 1676	1126	17 يناير 1714	1165	20 نوفمبر 1751	1204	21 سبتمبر 1789
1088	6 مارس 1677	1127	7 يناير 1715	1166	8 نوفمبر 1752	1205	10 سبتمبر 1790
1089	23 فبراير 1678	1128	27 ديسمبر 1715	1167	29 أكتوبر 1753	1206	31 أغسطس 1791
1090	12 فبراير 1679	1129	16 ديسمبر 1716	1168	18 أكتوبر 1754	1207	19 أغسطس 1792
1091	2 فبراير 1680	1130	5 ديسمبر 1717	1169	7 أكتوبر 1755	1208	9 أغسطس 1793
1092	21 يناير 1681	1131	24 نوفمبر 1718	1170	26 سبتمبر 1756	1209	29 يوليو 1794

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
1210	18 يوليو 1795	1248	31 مايو 1832	1286	13 أبريل 1869	1324	25 فبراير 1906
1211	7 يوليو 1796	1249	21 مايو 1833	1287	3 أبريل 1870	1325	14 فبراير 1907
1212	26 يونيو 1797	1250	10 مايو 1834	1288	23 مارس 1871	1326	4 فبراير 1908
1213	15 يونيو 1798	1251	29 أبريل 1835	1289	11 مارس 1872	1327	23 يناير 1909
1214	5 يونيو 1799	1252	18 أبريل 1836	1290	1 مارس 1873	1328	13 يناير 1910
1215	25 مايو 1800	1253	7 أبريل 1837	1291	18 فبراير 1874	1329	2 يناير 1911
1216	14 مايو 1801	1254	27 مارس 1838	1292	7 فبراير 1875	1330	22 ديسمبر 1911
1217	4 مايو 1802	1255	17 مارس 1839	1293	28 يناير 1876	1331	11 ديسمبر 1912
1218	23 أبريل 1803	1256	5 مارس 1840	1294	16 يناير 1877	1332	30 نوفمبر 1913
1219	12 أبريل 1804	1257	23 فبراير 1841	1295	5 يناير 1878	1333	19 نوفمبر 1914
1220	1 أبريل 1805	1258	12 فبراير 1842	1296	26 ديسمبر 1878	1334	9 نوفمبر 1915
1221	21 مارس 1806	1259	1 فبراير 1843	1297	15 ديسمبر 1879	1335	28 أكتوبر 1916
1222	11 مارس 1807	1260	22 يناير 1844	1298	4 ديسمبر 1880	1336	17 أكتوبر 1917
1223	28 فبراير 1808	1261	10 يناير 1845	1299	23 نوفمبر 1881	1337	7 أكتوبر 1918
1224	16 فبراير 1809	1262	30 ديسمبر 1845	1300	12 نوفمبر 1882	1338	26 سبتمبر 1919
1225	6 فبراير 1810	1263	20 ديسمبر 1846	1301	2 نوفمبر 1883	1339	15 سبتمبر 1920
1226	26 يناير 1811	1264	9 ديسمبر 1847	1302	21 أكتوبر 1884	1340	4 سبتمبر 1921
1227	16 يناير 1812	1265	27 نوفمبر 1848	1303	10 أكتوبر 1885	1341	24 أغسطس 1922
1228	4 يناير 1813	1266	17 نوفمبر 1849	1304	30 سبتمبر 1886	1342	14 أغسطس 1923
1229	24 ديسمبر 1813	1267	6 نوفمبر 1850	1305	19 سبتمبر 1887	1343	2 أغسطس 1924
1230	14 ديسمبر 1814	1268	27 أكتوبر 1851	1306	9 سبتمبر 1888	1344	22 يوليو 1925
1231	3 ديسمبر 1815	1269	15 أكتوبر 1852	1307	27 أغسطس 1889	1345	12 يوليو 1926
1232	21 نوفمبر 1816	1270	4 أكتوبر 1853	1308	17 أغسطس 1890	1346	1 يوليو 1927
1233	11 نوفمبر 1817	1271	24 سبتمبر 1854	1309	7 أغسطس 1891	1347	20 يونيو 1928
1234	31 أكتوبر 1818	1272	13 سبتمبر 1855	1310	26 يوليو 1892	1348	9 يونيو 1929
1235	20 أكتوبر 1819	1273	1 سبتمبر 1856	1311	15 يوليو 1893	1349	29 مايو 1930
1236	9 أكتوبر 1820	1274	22 أغسطس 1857	1312	5 يوليو 1894	1350	19 مايو 1931
1237	28 سبتمبر 1821	1275	11 أغسطس 1858	1313	24 يونيو 1895	1351	7 مايو 1932
1238	18 سبتمبر 1822	1276	31 يوليو 1859	1314	12 يونيو 1896	1352	26 أبريل 1933
1239	7 سبتمبر 1823	1277	20 يوليو 1860	1315	2 يونيو 1897	1353	16 أبريل 1934
1240	26 أغسطس 1824	1278	9 يوليو 1861	1316	22 مايو 1898	1354	5 أبريل 1935
1241	16 أغسطس 1825	1279	29 يونيو 1862	1317	12 مايو 1899	1355	24 مارس 1936
1242	5 أغسطس 1826	1280	18 يونيو 1863	1318	1 مايو 1900	1356	14 مارس 1937
1243	25 يوليو 1827	1281	6 يونيو 1864	1319	20 أبريل 1901	1357	3 مارس 1938
1244	14 يوليو 1828	1282	27 مايو 1865	1320	10 أبريل 1902	1358	21 فبراير 1939
1245	3 يوليو 1829	1283	16 مايو 1866	1321	30 مارس 1903	1359	10 فبراير 1940
1246	22 يونيو 1830	1284	5 مايو 1867	1322	18 مارس 1904	1360	29 يناير 1941
1247	12 يونيو 1831	1285	24 أبريل 1868	1323	8 مارس 1905	1361	19 يناير 1942

الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
1362	8 يناير 1943	1377	29 يوليوز 1957	1391	16 فبراير 1972	1407	6 أغسطس 1986
1363	28 ديسمبر 1943	1378	18 يوليوز 1958	1393	4 فبراير 1973	1408	26 أغسطس 1987
1364	17 ديسمبر 1944	1379	7 يوليوز 1959	1394	25 يناير 1974	1409	14 أغسطس 1988
1365	6 ديسمبر 1945	1380	26 يونيو 1960	1395	14 يناير 1975	1410	4 يوليوز 1989
1366	25 نوفمبر 1946	1381	15 يونيو 1961	1396	3 يناير 1976	1411	24 يوليوز 1990
1367	15 نوفمبر 1947	1382	4 يونيو 1962	1397	23 ديسمبر 1976	1412	13 يوليوز 1991
1368	3 نوفمبر 1948	1383	25 مايو 1963	1398	12 ديسمبر 1977	1413	2 سبتمبر 1992
1369	24 أكتوبر 1949	1384	13 مايو 1964	1399	2 ديسمبر 1978	1414	21 يونيو 1993
1370	13 أكتوبر 1950	1385	2 مايو 1965	1400	21 نوفمبر 1979	1415	10 يونيو 1994
1371	2 أكتوبر 1951	1386	22 أبريل 1966	1401	9 نوفمبر 1980	1416	31 مايو 1995
1372	21 سبتمبر 1952	1387	11 أبريل 1967	1402	30 أكتوبر 1981	1417	19 مايو 1996
1373	10 سبتمبر 1953	1388	31 مارس 1968	1403	19 أكتوبر 1982	1418	9 مايو 1997
1374	30 أغسطس 1954	1389	20 مارس 1969	1404	8 أكتوبر 1983	1419	28 أبريل 1998
1375	20 أغسطس 1955	1390	9 مارس 1970	1405	27 سبتمبر 1984	1420	17 أبريل 1999
1376	8 أغسطس 1956	1391	27 فبراير 1971	1406	16 سبتمبر 1985	1421	6 أبريل 2000

مقابلة التاريخ الهجري بالميلادي

تصحيح أخطاء مطبعية وقعت سهواً

الصفحة	العمود	السطر	الهجري	مقابلة فاتح محرم للتاريخ الميلادي
381	2	25	59	23 أكتوبر 678
382	1	18	154	24 ديسمبر 770
382	1	19	155	13 ديسمبر 771
382	1	20	156	2 ديسمبر 772
382	2	16	189	8 ديسمبر 804
382	2	17	190	27 نوفمبر 805
382	2	18	191	17 نوفمبر 806
383	1	3	288	26 ديسمبر 900
383	3	2	363	2 أكتوبر 973
384	3	26	543	22 مايو 1148
385	2	37	672	18 يوليو 1273
390	3	1	1392	16 فبراير 1972
390	4	1	1407	6 سيبتمبر 1986
390	4	4	1410	4 أغسطس 1989
390	4	7	1413	2 يوليو 1992

تم بحمد الله وعونه تعالى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني الخاص بالقسم الأول من الطراز المغربي الأندلسي ويشتمل على تاريخ العمارة والفنون بعصر المرابطين.

مطبعة المعارف الجديدة
الرباط 947-08/09/15/38


الهلال العربية للطباعة والنشر
ARABIAN AL HILAL Impression et Edition
الرباط، 21 زنقة ديكارت حي الليمون تلفون : 99-60-70 فاكس : 707751

الانتاج العلمي

كتب مطبوعة

- تاريخ شالة الإسلامية دار الثقافة بيروت 1975
- حفائر شالة الإسلامية دار الثقافة بيروت 1975
- دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى، دار الثقافة بيروت 1975
- قضية الصحراء المغربية ومصطلح البيعة، وزارة الأنباء الرباط 1975
- سيرة أبطال الإسلام في المغرب من الأصول والمصادر، دار الكتاب الدار البيضاء 1978
- تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، دار الهلال العربية الرباط 1992 الجزء الأول (عصر دولة الأدارسة وعصر أمراء زناتة).
- تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى ج 2 عصر دولة المرابطين.
- تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج 3 عصر دولة الموحدين.
- تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج 4 عصر دولتي المرينيين وبني وطاس.
- تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج 5 عصر دولتي الأشراف السعديين والعلويين.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم في علوم الحضارة، الآثار والعمارة والفنون، دار الهلال العربية الرباط.

كتب نشرت حلقات بالصحف والمجلات :

- مظاهر الحضارة المعمارية والفنون في شعر ابن زيدون، مجلة المنهل السعودية جدة.
- الهجرة النبوية الكبرى بيننا وبين فيلسوف الغرب المعاصر توينبي، جريدة الأنباء الرباط.
- عروبة القدس وعمارة قبة الصخرة، جريدة الأنباء الرباط.
- موجز تاريخ العمارة والفنون بالمغرب (روائع المغرب)، جريدة الميثاق الوطني الرباط.
- الآثار الإسلامية بالمغرب العربي وحرب المستشرقين، مجلة دعوة الحق الرباط.

كتب تحت الطبع :

ضريح محمد الخامس وتأسيس مدينة الرباط وعمارة جامع حسان، الوثائق الملكية الرباط.

كتب معدة للطبع :

- دفاعا عن حضارة الإسلام في المغرب.
- ثلاثون شمعة في عرس المسيرة الخضراء.

كتب ودراسات تعد للطبع :

- ثلاثة معالم مغربية : المرابطون وفاس وجامع القرويين.
- ثلاثة منابر مغربية بجوامع الأندلسيين وبوعنانية فاس وجامع تازة.
- حضارة الرستميين وغيبتها عن كتاب (أعمال الأعلام) لابن الخطيب.
- صومعة الكتبية في دراسات المستشرقين.

تاريخ العمارة : عرب المغرب القدماء ودولة الأدارسة وأمراء زناتة

استدراك وتصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
6	13	بالمغرب	بالغرب
8	6 أسفل	إن	أن
8	5 أسفل	الهام.	الهام
8	1 أسفل	باحياء،	باحياء
9	3	أألف	ؤألف
11	6	رخبيا	رحيباً
12	12	وحمايات	وحمامات
16	4 أسفل	قضية	قصبة
23	17	جوستينان	جستنيان
24	20	341ه	341هـ
28	أخير	القروين	القرويين
29	20	بوسوم	برسوم
33	4 أسفل	ورأس	ورأسي
51	18	يُنبِئْكَ	يُنَبِّئُكَ
55	4	وكتابٌ مسطورٌ	وكتابٍ مسطورٍ
55	4	في رِقٍّ منشور	في رَقٍّ منشورٍ
55	14	يَثْخَنَ	يَثْنِنُ
56	3	زُبُرَ	زُبَرَ
59	1	والأراسبك	والأرابسك
62	1	الأنيس	الأنيس المطرب
74	1	عزارة	غزارة
100	20	سَيُغْلَبُونَ	سَيَغْلِبُونَ
103	7	عنالافكار	عن الأفكار
105	2	كمت	كما
118	7	جدران	جدار
118	9 أسفل	الألوان[1]	الألوان[1])
119	قبل الأخير	دَائِبينَ	دَائِبِينِ
119	الأخير	وأتاكم	وآتاكم
121	17	ثانية	ثابتة
122	3 أسفل	أمةً	أمةٌ
128	قبل الأخير	بحو	نحو
135	10	رضوانَ	رضوانِ
176	1	الكناش[1]	الكنائس[1]
189	4 أسفل	العباسية[1]	العباسية[2]
189	3 أسفل	وسماها	وبنى بها
189	2 أسفل	سطر زائد	يلغى السطر
194	2	الحديثة	الحديث
209	2	ينذر	يندر
217	1 أسفل	المجاورة	المتجاورة
222	2	يتوحيد	بتوحيد
222	6	وسبب	وبسبب
224	4	وصبح	وأصبح
266	3	والعراق.	والعراق،
305	أخير	الموحدى[4]	الموحدى[4])
329	4	رضي[1]	رضي[1])

دولة المماليك (923 - 648)	الحفصيون	بنو عبد الواد ملوك تلمسان		المرينيون والوطاسيون (961 - 668)	بنو نصر بغرناطة سقطت 898
	العثمانيون من 923			الأشراف السعديون 956/916 1069	ملوك النصارى
	بايات تونس	دايات قسنطينة	البيلربكوات ثم الباشوات فالدايات	الأشراف العلويون من 1069	
دولة محمد علي من 1805 م	خطأ استعمار فرنسي			حماية فرنسية	
جمهورية من 1952 م	صواب استقلال تام				

تصحيح الزمن التقريبي لنهاية الاستعمار الفرنسي بدول المغرب العربي الوارد بصفحة 33

تصحيح وضع الشكل 24 الوارد بصفحة 94



شكل 24
تطور الخط العربي بشاهد قبر من مدينة بوجي بقلعة بني حماد من عام 533 هجرية



تعريف بالمؤلف

– الدكتور عثمان عثمان إسماعيل من مواليد 1925 م بالإسكندرية باب المغرب.

– حصل على درجة الليسانس مع مرتبة الشرف بأول فوج لقسم الآثار الإسلامية بالجامعات العربية، جامعة الاسكندرية سنة 1950.

– حصل على الدبلوم العالي في التربية وعلم النفس، الإسكندرية 1951.

– انفرد بين خريجي أقسام الآثار بالحصول على دبلوم الدراسات العليا المعادل للماجستير في الآثار الإسلامية من معهد الآثار العالي بجامعة القاهرة 1956.

– حصل على درجة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى في الحضارة والآثار الإسلامية المغربية من جامعة الإسكندرية 1965.

– تبنت رئاسة جامعة محمد الخامس بين عامي 1958 و1963 أبحاثه ودراساته واكتشافاته لعمل أول حفائر أثرية علمية لمتخصص عربي داخل تراب المملكة المغربية.

– شارك بحكم الوظيفة والتخصص بين عامي 1958 و1963 في جميع مؤتمرات الآثار الدورية بالمغرب التي أقرت جميعها نتائج أبحاثه واكتشافاته.

– شارك بعدة أبحاث تخصصية في آثار وفنون المغرب العربي بعدد من مؤتمرات جامعة الدول العربية والجامعات العربية.

– ظهر له ثلاثة عشر كتابا مطبوعا وأكثر من أربع مائة بحث ومقال وبرنامج متلفز ومذاع حول حضارة وآثار الإسلام بالمغرب.

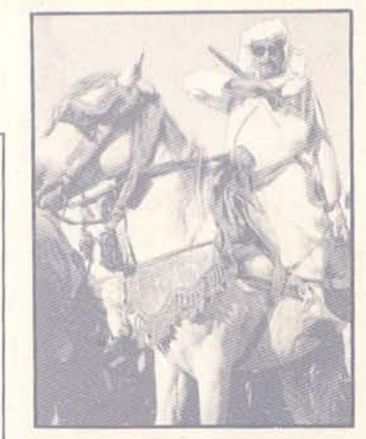
– أستاذ التاريخ والآثار بجامعة محمد الخامس بالرباط منذ العام الدراسي 58/57.

– أستاذ الحضارة والفن الإسلامي بجامعة وهران بالجمهورية الجزائرية 73/70.

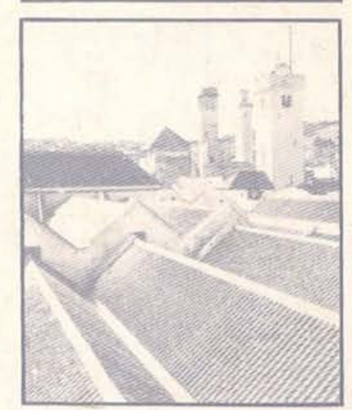
– أستاذ بالتعليم العالي المغربي مفتش عام مساعد للمباني التاريخية والآثار 1973.

– أستاذ جامعي رئيس مشرف على الأبحاث بالمملكة المغربية 1982.

– عضو اتحاد المؤرخين العرب.

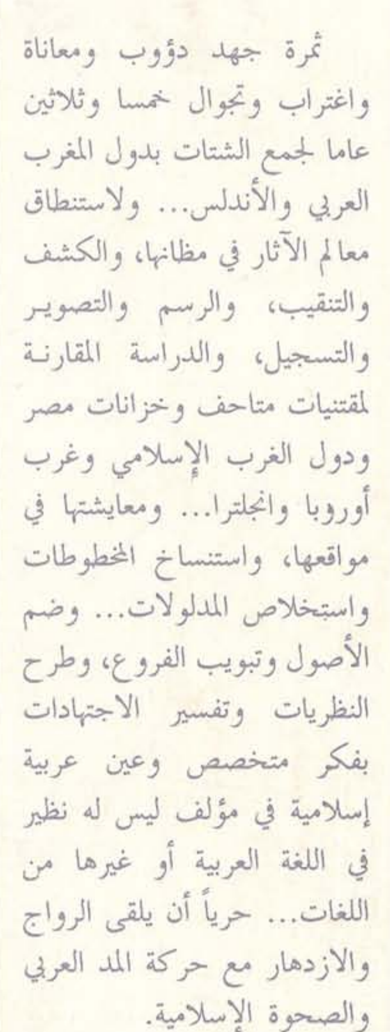








هذا الكتاب



ثمرة جهد دؤوب ومعاناة واغتراب وتجوال خمسا وثلاثين عاما لجمع الشتات بدول المغرب العربي والأندلس... ولاستنطاق معالم الآثار في مظانها، والكشف والتنقيب، والرسم والتصوير والتسجيل، والدراسة المقارنة لمقتنيات متاحف وخزانات مصر ودول الغرب الإسلامي وغرب أوروبا وانجلترا... ومعايشتها في مواقعها، واستنساخ المخطوطات واستخلاص المدلولات... وضم الأصول وتبويب الفروع، وطرح النظريات وتفسير الاجتهادات بفكر متخصص وعين عربية إسلامية في مؤلف ليس له نظير في اللغة العربية أو غيرها من اللغات... حرياً أن يلقى الرواج والازدهار مع حركة المد العربي والصحوة الإسلامية.



